إشراقات قرآنية

«حزب المُفَصَّل»

(٣)

إشراقات قرآنية

«حزب المُفَصَّل»

سلمـان العـودة

ح مؤسسة الإسلام اليوم للنشر، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العودة، سلمان بن فهد عبد الله

إشراقات قرآنية / سلمان بن فهد العودة، الرياض، ١٤٣٦هـ

حزب المُفَصَّل (ج ٣) من «سورة الجن» إلى «سورة البروج»

٤٦٤ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٤ - ١- ٩٠٧٢٦ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - التفسير، الحديث ٢- القرآن - مباحث عامة

أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ٨٩٦٦ / ١٤٣٦هـ

رقم الإيداع: ٨٩٦٦ / ١٤٣٦هـ

ردمك: ٤ - ١ - ٩٠٧٢٦ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج٣)

الإسلام اليوم

إصدارات الإسلام اليوم

الطبعة الأولى- جمادى الأولى ١٤٣٧هـ

الرياض:

هاتف: ٠١١٢٠٨١٩٢٠

فاكس: ٠١١٢٠٨١٩٠٢

بريدة:

هاتف: ٠١٦٣٨٢٦٤٦٦

فاكس: ٠١٦٣٨٣٠٠٥٣

جوال: ٠٥٥٥٨٦٦٠٤٤

ص.ب: ٢٨٥٧٧ - الرمز: ١١٤٤٧

info@islamtoday.net

www.islamtoday.net

للتواصل مع المؤلِّف:


@salman_alodah


/SalmanAlodah


salman@islamtoday.net


www.youtube.com/user/DrSalmanTv


www.islamtoday.net/salman/

إشراقات قرآنية

«حزب المُفَصَّل»

سلمان العودة

الجزء الثالث

من «سورة الجن» إلى «سورة البروج»

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ الجِنِّ

❁ تسمية السورة:

تُسمَّى: «**سورة الجنِّ**»، كما في المصاحف، وكتب التفسير، والحديث[(١)].

وتُسمَّى أيضًا: «**سورة ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾**»، أو: «**سورة ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾**»، كما في «صحيح البخاري»، وبعض التفاسير[(٢)].

❁ عدد آياتها: ثمان وعشرون آية، باتفاق علماء العدِّ[(٣)].

❁ وهي مكية بإجماع أهل العلم[(٤)]، والظاهر: أنها نزلت جملة واحدة، وليست مجزَّأة، كما يدل على ذلك سياقها.

❁ سبب نزولها: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «انطلقَ رسولُ الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدينَ إلى سوق عُكاظٍ، وقد حِيلَ بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلت عليهم الشُّهبُ، فرجعت الشياطينُ، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حِيلَ بيننا وبين خبر السماء، وأُرسلت علينا الشُّهبُ. قال: ما حالَ بينكم وبين خبر السماء

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٥٥)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٤٢٦)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٣١٠)، و«المستدرك» (٢/ ٥٠٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢١٦).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٧٧)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٥١)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٦٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٣)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٣٤٧).

(٣) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٥٦)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٧)، و«روح المعاني» (١٥/ ٩١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢١٧).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٧٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢١٦).

إلا ما حدثَ، فاضربوا مشارقَ الأرض ومغاربَها، فانظروا ما هذا الأمرُ الذي حدثَ؟ فانطلقوا فضربوا مشارقَ الأرض ومغاربَها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء. قال: فانطلقَ الذين توجَّهوا نحو تِهامةَ إلى رسول الله ﷺ بنَخْلَةَ[1]، وهو عامدٌ إلى سوق عُكاظٍ، وهو يصلِّي بأصحابه صلاةَ الفجر، فلما سمعوا القرآنَ تسمَّعوا له، فقالوا: هذا الذي حالَ بينكم وبين خبر السماء. فهنالك رجعوا إلى قومهم، فقالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢﴾. وأنزل الله عَزَّوَجَلَّ على نبيه ﷺ: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾»[2].

وذكر ابن إسحاق أن نزول هذه السورة كان بعد ذهاب رسول الله ﷺ إلى الطائف يطلب النصرة من ثَقِيف، أي: في سنة عشر بعد البعثة، وقبل هجرته بثلاث سنين[3]. وقد عُدَّت السورة الأربعين في نزول السور، نزلت بعد «سورة الأعراف»، وقبل «سورة يس»[4].

وقد رُوي من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ علم بوجود الجنِّ، فذهب إليهم، وكان معه ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5].

---

(١) موضع بين مكة والطائف.

(٢) أخرجه البخاري (٧٧٣، ٤٩٢١)، ومسلم (٤٤٩). وينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣١٠).

(٣) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٢١- ٤٢٢).

(٤) ينظر: «فضائل القرآن» لابن الضريس (ص٣٣)، و«البرهان في علوم القرآن» (١/ ١٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢١٧).

(٥) أخرجه أحمد (٣٨١٠)، وأبو داود (٨٤)، والترمذي (٨٨)، وابن ماجه (٣٨٤)، وغيرهم.

وله طرق أخرى لا يصح منها شيء، كما قال الدارقطني، والبيهقي، وغيرهما، وقد ضعَّفه بجميع طرقه: ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ٣٥٥- ٣٥٦)، وابن حجر في «الدراية» (١/ ٦٣- ٦٧)، ونقل النووي في «المجموع» (١/ ١٤١)، والحافظ في «فتح الباري» (١/ ٣٥٤) إجماع المحدِّثين على ضعفه.

ومع ضعفه، فهو مخالف لما في «صحيح مسلم» (٤٥٠) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه سُئل: هل شهد أحدٌ منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا. وينظر: «مختصر صحيح مسلم» للمنذري (٢١١٥)، و«السلسلة الضعيفة» (١٠٣٨).

ومن أهل العلم مَن يقول: إن القصة تكررت؛ فمرة لم يعلم النبي ﷺ، ومرة أخرى عَلِم، وقد جاء في قوله سبحانه: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، فهؤلاء نفر غير أولئك.

والأقرب أن القصة واحدة، فكلهم نفرٌ من الجنِّ، وكلهم استمعوا، وكلهم تعجَّبوا مما استمعوه، ولكن في كل موضع حُكِيَ طرفٌ من القصة، كشأن القرآن في تكرار قصص الأنبياء ونحوها، والله أعلم(١).

* ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١﴾:

استفتح السورة بقوله: ﴿قُلۡ﴾ أي: أخبر الناسَ(٢)، والنبيُّ ﷺ ينقل النص للناس كما هو، فيُمليه عليهم ويكتبونه، وكلمة: ﴿قُلۡ﴾ هي من الوحي، وهي المقدِّمة التي نزل بها جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على النبي ﷺ، فحفظها وقالها، وأملاها على أصحابه، كما في: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١﴾، و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾، و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١﴾، و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١﴾، وهذا من ضمن إتقان المصحف وضبطه؛ بحيث لا يسقط منه حرف ولا يزيد، وهو بيان لمصدر الوحي، وأن جبريل تلقَّاه عن ربِّ العزة، ثم ألقاه إلى محمد ﷺ(٣).

والاستماع عند العرب غير **السَّماع**، **فالاستماع:** تقصُّد السماع وشدَّة الإنصات والاهتمام، فالمستمع قاصد مُقْبِل، وأما **السماع**، فهو بغير قصد ولا طلب(٤).

وبينهما فرق حتى في ثبوت الأجر ومشروعية السجود(٥)، وعكسه في سماع

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٤٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٦٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٠٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٤٤٩)، والمصادر السابقة والآتية.

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٠٣)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١٢٥٩).

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة الكافرون»: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١﴾.

(٤) ينظر: «معجم الفروق اللغوية» (ص٤٩)، و«تفسير الرازي» (١٥/ ٤٤٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (٨/ ١٤٥)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٤/ ٨١٣).

(٥) ينظر: «المجموع» (٤/ ٥٨)، و«المغني» (١/ ٤٤٦- ٤٤٧).

المحرَّم؛ فلا يثبت الإثم إلا على المستمع، أما السامع دون قصد، فلا إثم عليه[١].

والنَّفَر: ما بين ثلاثة إلى عشرة[٢].

وكان سرُّ استماعهم أنهم لاحظوا تغيرًا في الأفلاك والنجوم والشُّهب، فذهبوا في كل وادٍ يبحثون عن الأمر الذي طرأ، حتى جاءت جماعةٌ منهم إلى بطن نخلة، فاستمعوا إلى قراءة النبي ﷺ للقرآن، ثم قالوا: هذا الذي بسببه سُلِّطت علينا الشُّهب، ومنعنا من خبر السماء. وقد كانوا رسلًا من قومهم يبحثون عن السبب، ولكن الله تعالى أراد لهم الخير، فاستمعوا وآمنوا[٣].

والجنُّ: مأخوذة من الاجتنان؛ وهو الاستتار، ومنه سُمِّيَ الحَمْل: جنينًا؛ لأنه مستتر في بطن أمه[٤].

وهم خلق مستترون، لا تراهم العيون، ولا تسمعهم الآذان، إلا ما شاء الله، وهذا ليس بغريب؛ فإن العين لا ترى إلا في مستوى معين، والأذن لا تسمع إلا ذبذبة معينة، فما كان دون ذلك أو فوقه يصبح غير مرئي ولا مسموع ولا محسوس، والعلم البشري يكتشف اليوم في الكون عوالم واسعة كانت خارج مستوى الإدراك، وقد أثبت القرآن وجودهم وخلقهم، وأنهم مُكلَّفون ومنعَّمون ومعذَّبون.

ونحن نؤمن بما أخبر به سبحانه، ولا نجحد شيئًا من ذلك مهما تقوَّل المتقولون من الفلاسفة الذين ينكرون وجود الجنِّ، ومعظم الأمم والشعوب من أهل الإسلام.

أما أتباع الديانات المختلفة فإنهم يؤمنون بوجود الجنِّ[٥]، وقد يسمونهم:

---

(١) ينظر: «المغني» (١٠/ ١٥٤)، و«الشرح الممتع» (٤/ ٩٤).

(٢) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٨٩)، و«تاج العروس» (١٤/ ٢٦٧) «ن ف ر».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣١٠)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠)، و«تفسير البغوي» (٧/ ٢٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٢١٦)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٥).

(٤) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٢١)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٢٠٣)، و«مختار الصحاح» (ص٦٢) «ج ن ن».

(٥) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٩/ ١٠).

الأشباح، وغالبًا ما تحاط عند عوام الناس بالأساطير، حتى يتصورونهم في صور مرعبة يُخوّف بها، مع أن الجنَّ أضعف من الإنس قدرة وعقولًا، وأقل منهم شأنًا، ومع ذلك فالإنس يخافون من الجنِّ، كما هو واضح من هذه السورة، وكما هو معروف عند الناس.

ويُبالغ كثير من الناس في الحديث عن أثر الجنِّ، وملاحقتهم للإنس، وتأثيرهم فيهم، بما ليس له أصل في كتاب ولا سنة، وإنما هو بسبب ضعف الإيمان، وضعف التوكل على الله تعالى، والإنسان إذا بالغ في الخوف من الجنِّ تسلَّطت عليه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن: ٦].

وظاهر السياق أن النبيَّ ﷺ لم يعلم بهذه الواقعة إلا عن طريق الوحي[(١)]، فأخبره الله تعالى أنه صرف إليه نفرًا من الجنِّ، وأنهم استمعوا إليه حين أعرض الإنس، وكيف أخذتهم بلاغته وتعجَّبوا من معانيه وآمنوا به لأول وَهْلة، وفي «سورة الرحمن» كانوا إذا سمعوا قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ يقولون: «لا بشيء من آلائك ربَّنا نكذِّب، فلك الحمد». فقال النبيُّ ﷺ لأصحابه: «**لقد قرأتُها على الجنِّ، فكانوا أحسنَ مَرْدودًا منكم**»[(٢)].

كثير من المسلمين لا يدركون عظمة القرآن وإعجازه وبلاغته، ولا يُخالط شغاف قلوبهم، ولا يُلامس أرواحهم، في حين أن الجنَّ أول ما سمعوه قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾؛ عجيبًا في بلاغته وإعجازه ومعانيه ودلالاته[(٣)]، والذي سمعوه

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ١١٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢١٩)، والمصادر الآتية.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٩١)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (٦٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٦٦٦)، والحاكم (٢/ ٤٧٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٦٤) من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وفي إسناده نظر، تقدم بيانه في «سورة الرحمن»: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٠٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٧٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٩٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦٤).

هو بعض القرآن، وهو ما قرأه النبيُّ ﷺ في صلاة الفجر، وسماه الله: ﴿قُرۡءَانًا﴾؛ لأن القرآن يُطلق على المصحف كله، وعلى الجزء منه، قال تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾ [الإسراء: ٧٨]، أي: قراءة صلاة الفجر[١].

* ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢﴾:

أي: أنه كتاب هداية ورشاد[٢]، وهذا يعني: أن مهمة القرآن ومقاصده هي هداية الناس والأخذ بعقولهم وقلوبهم وحياتهم إلى طريق الهداية والرشاد، وهذا اختصار بديع لمهمة القرآن ورسالته، إنها الهداية والهداية إلى الرشد..

﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾ الفاء للتعقيب، آمنوا بمجرد ما سمعوا سورة من الكتاب العزيز، لنفترض أنها «سورة الرحمن» مثلًا، والذي أخبر عنهم هو الله، وهذا دليل على سلامة فطرتهم وسهولة تقبلهم، ولم يراجعوا الرسول أو يستفهموه عن شيء في هذه الواقعة؛ لأنه لم يعرف أنهم استمعوا إلا من الوحي.

والإيمان معنى زائد على مجرد الإعجاب بالقرآن أو الثناء عليه؛ إنه استسلام وانتقال إلى مقام التعرض لهدايته، والتفويض لحكمه، والتسليم التام لتشاريعه وأخباره.

﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾: بعد ما أعلنوا إيمانهم بالله وبالقرآن وبالنبي الذي جاء به، اعترفوا على أنفسهم بأنهم كانوا مشركين، ولما سمعوا القرآن أخذ بعقولهم وقلوبهم إلى الهداية والإيمان والتوحيد، أي: لن نطيع أحدًا في معصية الله، ولن ندعو غير الله، ولن نعبد سواه[٣].

وقد يكون مقصودهم: أنهم لن يطيعوا الشيطان في معصية الله؛ لأن الشيطان

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٤٤٠)، و«تفسير الطبري» (١٥/ ٣٣)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٦/ ٤٢٦٦)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٤٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ١٠٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣١٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٦٤)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٦٦)، و«تفسير أبي السعود» (٩/ ٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٢١).

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٦٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦٤).

﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾[1] [الكهف: ٥٠].

ويطول العجب من هذا الفقه الفطري الصائب، الذي أدرك أن القضية العظمى الأساس هي الإيمان ورفض الشرك، وهذا ما خُوطب به الجنُّ والإنس على حدٍّ سواء، فأعلنوه دون مُواربة أو تردد؛ أنهم آمنوا بالله وبالقرآن وما يدعو إليه، وانتقلوا من الشرك إلى التوحيد.. وكم ينقص هذا الفقه أناسًا شابت لحاهم في الإسلام وغالب همومهم وأحاديثهم لا ترقى إلى مستوى حديث الجنِّ هنا!

* ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ٣﴾:

قُرئت الهمزة في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ بالوجهين: بالفتح وبالكسر في عشرة مواضع، وكلاهما قراءة سبعية متواترة[2].

و﴿تَعَٰلَىٰ﴾ أي: علا، وهي مبالغة في العلو والارتفاع والمجد والعظمة[3].

والجَدّ في اللغة: الحظ والنصيب والبَخْت[4]، فجَدُّ الإنسان هو حظُّه.

وفي الحديث لما قدم النبيُّ ﷺ قال اليهوديُّ: «يا معاشرَ العرب، هذا جَدُّكم الذي تنتظرون»[5]. أي: هذا نصيبكم وحظكم من الأنبياء قد وصل.

والمعنى: تعالى الله وتعالى أمره وتعالت عظمته[6].

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٠٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٢٨١)، و«الكشاف» (٤/ ٦٢٣)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٠١، ١٩٢)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٣١٧)، و«معاني القراءات» للأزهري (٣/ ٩٦)، و«حجة القراءات» (ص٧٢٧)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢١٥)، و«الكنز في القراءات العشر» (٢/ ٦٩٥)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩١)، و«معجم القراءات» (١٠/ ١١٥- ١١٦).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٢٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧).

(٤) ينظر: «الصحاح» (٢/ ٤٥٢)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص١٨٨)، و«لسان العرب» (٣/ ١٠٧) «ج د د».

(٥) أخرجه البخاري (٣٩٠٦).

(٦) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٥١)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٣١٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٩).

وحكاية القرآن لهذا التعبير يدل على أنها عبارة صحيحة، خلافًا لمَن توهَّم فيها معنى مكروهًا(١).

وكان النبيُّ ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: «**سبحانكَ اللهمَّ وبحمدكَ، وتباركَ اسْمُكَ، وتعالى جَدُّكَ**»(٢).

وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ كان يقول بعد النهوض من الركوع: «**اللهمَّ لا مانعَ لما أعطيتَ، ولا مُعْطي لما منعتَ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ**»(٣). أي: لا ينفع صاحب الغنى والحظ والمكانة والسلطان ذلك منك يا رب، وإنما تنفعه الطاعة والإيمان والتقوى.

﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ فالفرية التي كان يردِّدها المشركون كانت معروفة لديهم، وهذا ليس بغريب؛ لأنهم في الآية الأخرى يقولون: ﴿كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، فعندهم نوع من الاتصال والمعرفة بما يجري، ومنهم مَن هو من أتباع موسى، ومنهم غير ذلك، فمن هنا سارعوا في نفي هذه الفرية، أي: تَنَزَّه الله عما ادَّعاه المشركون وغيرهم من أن لله تعالى صاحبة(٤).

وهذا النفي للصاحبة والولد لم يرد فيما يبدو في الآيات التي سمعوها، فلعلهم أدركوه بالفطرة السوية، وعدم وجود الدليل، وتأكد لهم بالآيات التي تثني على الله بأسمائه وصفاته ووحدانيته.

والصاحبة: تُطلق على الزوجة، كما في قول الله تعالى: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢﴾ [المعارج: ١٢]، وقوله: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦﴾(٥) [عبس: ٣٦]، وقد كان المشركون يقولون: إن لله صاحبة من الجنِّ، ولدت له الملائكة؛ ولهذا قال الله

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٨).

(٢) تقدم تخريجه في «سورة الملك»: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١﴾.

(٣) أخرجه مسلم (٤٧٧) من حديث أبي سعيد الخُدْري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٩).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٦٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢٥)، وما تقدم في «سورة المعارج»، وما سيأتي في «سورة عبس».

تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾(١) [مريم: ٨٨- ٩٤]، فالناس كلهم عبيده، وهم سواسية كأسنان المشط إلا بالتقوى، فليس لله منهم صاحبة ولا ولد.

وهؤلاء الجن لما آمنوا أسرعوا إلى تنـزيه الله سبحانه عما نُسب إليه زورًا، وأثنوا عليه، ونسبوا أنفسهم إليه، فهو ربهم وخالقهم، والفطرة السوية إذا لامسها بصيص من نور الوحي أشرقت، كما قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النور: ٣٥].

والبشر يتخذ الواحد منهم زوجة؛ لأن الناس جُبِلوا على الشهوة، والرجل يحتاج إلى المرأة في الصحبة والطريق، فهي تؤانسه وتساعده وتتحمل معه التبعات، والله تعالى خلق البشر أزواجًا، فقال: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾﴾ [النبأ: ٨]، وقال: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وكذلك الولد فهو كمال للبشر، ويحتاجون إليه، ويعطفون عليه بالفطرة، وهو مُكمِّل لشخصية الأب، وعند ما يكبر يحتاج إليه أكثر، وتوالد الناس بقاء للنوع البشري وفق حكمة الله سبحانه، وبعد الموت يبقى الولد ذكرًا لأبيه إن كان صالحًا أو ناجحًا، والعقيم يبذل جهده في تحصيل الولد، وإذا لم يحصل له اعتبر هذا نقصًا فيه.

أما الله تعالى فهو الحي الذي لا يموت، القوي الذي لا يعجز، فهو مستغنٍ عن الصاحبة والولد، بل هو كما قال عن نفسه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ أي: الغني الكامل في سؤدده ومجده وعظمته(٢)، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٦٤٥)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ١٣٤)، و«الدر المنثور» (١٢/ ٤٨٤)، و«تفسير السعدي» (ص٧٠٨).

(٢) وهذا مروي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٣٦)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص٢٤١- ٢٤٥)، وما سيأتي في «سورة الإخلاص»: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١- ٤]، فلا شريك له ولا مثيل، وهو الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء، والظاهر والباطن[١].

* ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ﴿٤﴾﴾:

شهدوا أن بعض سفائهم من الجنِّ يفترون على الله، **والسفيه** هنا مفرد، ولكن المقصود الجنس، أي: سفاءهم، وصدر سفائهم: أبليس[٢].

والأمر الشَّطَط هو: البعيد في غلوه وفساده وانحرافه[٣]، فيقولون: إن سفهاءنا يقولون على الله تعالى قولًا بالغًا مبلغًا عظيمًا في الضلال؛ إذ نسبوا إلى الله تعالى الصاحبة أو الولد.

وهذه شجاعة ملفتة من الجنِّ؛ لأن قومهم ربما يعتبرون تلك الفرية التي تتحدَّث عن نسب- تعالى الله عما يقولون- بين الله وبين الجنِّ فيها رفع لقدر الجنِّ؛ لأنهم يقولون: إن الله تعالى له صاحبة من الجنِّ، فكون هؤلاء يسارعون بعد إثبات الوحدانية بنفي الصاحبة والولد، مع أن إخوانهم من الجنِّ ينزعجون من هذا النفي، ويرون أنهم حرموهم من مجد وسؤدد كانوا يفخرون به، ولكن هؤلاء الجنُّ اعترفوا بهذا الأمر بشجاعة، فضلًا عن شجاعتهم في الحديث عن إيمانهم وتوحيدهم ومخالفة قومهم، وهو من المقامات الصعبة، وغالبًا ما يشعر المخالف لقومه بالغربة والكربة والوحشة، وقد يُؤْثِر الموافقة أو الصمت، أما الحديث الواضح المكشوف كما فعلت الجنُّ هنا، فهو توفيق واصطفاء من الله لبعض خلقه، فوفَّقهم وأعانهم.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٣٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٥٨٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٢٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٧٨٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٢٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١١٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٩٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٢٣).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٣/ ٥٠٤)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١١٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (١٣/ ٥٤٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦٥)، و«أضواء البيان» (٨/ ٣١٧).

* ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾:

أي: كنا نظن ألَّا يتواطأ الإنس والجنُّ في الكذب على الله تعالى، فالكذب عليه أمر عظيم[1].

لقد ساق الله هؤلاء النفر إلى الإيمان؛ لأن فطرتهم سليمة؛ ولذا آمنوا لأول وَهْلة عند سماعهم للقرآن الحق، وقالوا هنا: ما كان يخطر في بالنا أن يتواطأ الإنس والجنُّ على أن يكذبوا في أمر، فكيف أن يكذبوا في أمر يتعلق بالألوهية، وأن يقولوا كذبًا على الله سبحانه؛ ولذلك صدقناهم، وقلنا مثل قولهم، أما الآن فقد بان لنا وجه الصواب.

* ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾:

كان العرب في جاهليتهم يخافون الجنَّ، ولا يزال كثير من الناس على ذلك اليوم، وبعض الأمهات يخوِّفن أبناءهن من الجنِّ، وهي تربية خاطئة!

والجنُّ أضعف مما نتصور، وقد فضَّل الله الإنسَ عليهم بأشياء كثيرة؛ فالإنسُ منهم الرسل والأنبياء، وليس من الجنِّ نبيٌّ ولا رسولٌ على القول الصحيح[2]، والإنس لهم تأثير كبير في الحياة وفي الأرض، وبسبب الخوف منهم وقع كثيرون في السحر والشعوذة والكهانة والتنجيم، وينسبون كثيرًا مما يحصل لهم من الأمراض والأحوال النفسية والبدنية إلى الجنِّ، وهذا فيه احتقار للإنسان وقدراته ومكانته، وظلم للجنِّ بنسبة أشياء لهم لم يثبت فعلهم لها بكتاب ولا سنة.

وقد كان الجنُّ يخافون الإنس ويَفْرَقون منهم، فلما رأوا الإنس يخافون ويستعيذون بهم انتبهوا، وقالوا: نُخادعهم ونزيدهم خوفًا وهَلَعًا ورُعبًا، وصاروا يتعرضون للناس في بعض الوديان في السفر والظلام والأماكن المجهولة، وقد

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٢١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٦٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤١٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٩).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ١٩٦)، و«تفسير الطبري» (٩/ ٥٦٠)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٤/ ١٣٨٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٢٩٣)، و«زاد المسير» (٢/ ٧٨)، و«طريق الهجرتين» (ص٤١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٤٠)، و«فتح القدير» (٢/ ١٨٥).

يقع منهم ما يزيد الناس خوفًا[1].

﴿فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا﴾: **والرَّهَق** هنا: الخوف، وقد يكون المعنى: أن الإنس بهذه الاستعاذة زادوا الجنَّ غرورًا وعُجْبًا، ولا مانع من إرادة المعنيين، فهذه الاستعاذة الباطلة زادت الجنَّ كبرياء وغرورًا، وزادت الإنس خوفًا ورعبًا[2].

* ﴿وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا ٧﴾:

والسياق لا يزال في حكاية كلام النفر من الجنِّ، **والمعنى**: أن الجنَّ ظنوا كما ظننتم أنتم أيها الإنس: أن الله لن يبعث رسولًا، **ولعل المعنى**: بعد موسى، فهم كانوا يعلمون ببعثته، أو أن منهم مَن لا يؤمن بالوحي جملة[3].

وقد يكون المراد بالبعث: إعادة الخلق ليوم القيامة، فيكون المراد: أنهم كانوا يظنون أنهم لن يُبعثوا[4]، كما قال سبحانه: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ [المطففين: ٤- ٦]، ولفظ البعث أليق وألصق بهذا المعنى، وأكثر استخدامًا في القرآن، والله أعلم.

* ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ٨﴾:

﴿لَمَسۡنَا﴾ أي: التمسناها[5]، **وقد يكون المقصود**: اللَّمْس باليد[6].

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٢٦)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٥١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١١١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٦٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦٦).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٦٢)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٢٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٢٦)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٥/ ١٢٢٥).

(٤) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٢٦).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٢٧)، و«إيجاز البيان عن معاني القرآن» (٢/ ٨٤٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٦٨)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٤٩٥).

(٦) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٤٩)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١٢٦١).

والأقرب أن المعنى: التمسنا، وبينهما فرق[1]، كما في قول النبي ﷺ للصحابي الذي طلب الزواج من الواهبة نفسها: «**فهل عندك من شيء تُصْدِقها؟**». فقال: ما أجد شيئًا. فقال ﷺ: «**الْتَمِسْ، ولو خَاتمًا من حَدِيد**»[2]. أي: ابحث ولو عن خاتم من حديد.

فالمعنى: حاولنا الوصول إلى السماء، أو التقاط ما يجري فيها، فوجدنا أن الوضع بخلاف المعهود، وأن الحفظ للسماء وما فيها أكثر إحكامًا.

والمَلْء في اللغة يُطلق على الكثرة الكاثرة الهائلة[3]، مثل قول النبي ﷺ عن المهدي: «**يَمْلأُ الأرضَ قِسْطًا وعَدْلًا، كما مُلِئَتْ ظُلمًا وجَوْرًا**»[4]. وعلى أن السماء مكتظَّة بالملائكة، كما في حديث الأَطِيط: «**إن السماءَ أَطَّت، وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضعُ أربع أصابع، إلا ومَلَكٌ واضعٌ جبهتَه ساجدًا لله**»[5].

والحَرَس: هم الذين يحيطون بالشيء ويحفظونه، وليس له إفراد في لفظه، ولكنه يُفرد أحيانًا بالنسبة، فيقال: حَرَسي، وقد يكون جمعًا مفرده: حارس[6]، فهم وجدوا السماء محاطة بحرس شديد، من الملائكة يتربصون بهؤلاء الجنِّ.

والشُّهب يُرمى بها مَن يحاول استراق السمع من الجنِّ.

---

(١) «اللمس» باليد، و«الالتماس»: الطلب. ينظر: «مختار الصحاح» (ص٢٨٥) «ل م س».

(٢) أخرجه البخاري (٥١٣٥)، ومسلم (١٤٢٥) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) ينظر: «تاج العروس» (١/ ٤٤٠)، و«المعجم الوسيط» (٢/ ٨٨٢) «م ل ئ».

(٤) أخرجه أحمد (١١١٣٠، ١١٣١٣)، وأبو داود (٤٢٨٥)، وأبو يعلى (٩٨٧)، وابن حبان (٦٨٢٤، ٦٨٢٦)، والحاكم (٤/ ٤٦٥، ٥٥٧) من حديث أبي سعيد الخُدْري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه أبو داود (٤٢٨٢)، وابن حبان (٦٨٢٣، ٦٨٢٥)، والحاكم (٤/ ٤٤١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٢٩).

(٥) أخرجه أحمد (٢١٥١٦)، والترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، والحاكم (٢/ ٥١٠)، وأبو نعيم في «العظمة» (٣/ ٩٨٢) (٥٠٧)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ٢٣) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٧٢٢).

(٦) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٢٢٧)، و«لسان العرب» (٦/ ٤٨)، و«تاج العروس» (١٥/ ٥٣١) «ح ر س».

وهذا من الحِكَم في الرمي بالشُّهب، وقد يكون لها حِكَم أخرى لا نعلمها.

* ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ٩﴾:

أي: قبل ذلك كنا نقعد من السماء مقاعد[1]، وكأنه كان لهم مقاعد معروفة، وكل فريق منهم قد حجز له موضعًا أو مدخلًا إلى السماء.

والقعود هنا قد يكون بمعناه اللُّغوي، فالقاعد هو الجالس.

وقد يكون المقصود: الأماكن التي يكونون عليها[2]، وهذا جار في اللغة، كما قال امرؤ القَيْس[3]:

فقُلْتُ: يَمِينُ الله أَبْرَحُ قَاعِدًا ولو قطَّعوا رأسِي لدَيكِ وأوْصَالي

فلا يلزم أن يكون القعود بصورته المعهودة، وإنما المكث في المكان.

وقد تجد أن بعض المخلوقات من الإنس والطير والحيوانات وغيرها يميل إلى شيء، ويتعلق به، ويُغامر من أجله، ويموت في سبيله، فهؤلاء الجنُّ كانت مهماتهم وغاياتهم التي يحاولونها ويتعاونون بها مع الشياطين ومع ضُلَّال بني آدم من السَّحَرة والكهنة والعرَّافين والمنجِّمين، هي التقاط إشارات معينة على الأقدار التي ستقع في المستقبل، والفرح بها وتناقلها، وهم بطبيعتهم ليسوا محلًّا للثقة؛ فيزيدون مع الحقيقة أضعاف أضعافها من المبالغات والأوهام والتخويفات، وينشرونها عند الناس، ومن عادة المتلقِّين أنهم لا يزالون يذكرون الحالة الواحدة التي صدقوا فيها فيما أخبروا، ويسحبون ذيل التجاهل والنسيان وغض الطرف عن وعودهم الكثيرة التي لم تصدق!

﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ فهذه الشُّهب المترصِّدة يُرمى بها، فتصيب

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٢٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٠٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٦٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦٦).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١١٢)، و«الكشاف» (٤/ ٦٢٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٢٨)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «ديون امرئ القيس» (ص١٢٥).

أو تقتل مَن يحاول التنصُّت على الملأ الأعلى[1].

والمعنى: حُجبت عنهم السماوات وحُرست، ومنعوا من استراق السمع الذي كانوا يحاولونه، وبذلك بطلت الكهانة، وقد كان الجنُّ يركب بعضهم بعضًا، حتى يصلوا إلى مقربة من الملائكة، فيلتقطوا بعض الكلام، وكلُّ واحد يُلقيه إلى الذي يليه، حتى يصل إلى الكاهن أو المنجِّم، فيضيف إلى هذه الكلمة مغالطات وأقاويل يُشيعها بين الناس[2].

وأكثر أهل العلم على أن هذه الشُّهب كان يُرمى بها في الجاهلية، وقد ذكرها العرب في أشعارهم، كما ذكر ذلك الزمخشري في «الكشاف»[3]، وغيره، خلافًا لما قاله الجاحظ من أنها لم تكن موجودة في الجاهلية، ولم يكن يُرمى بها[4].

لقد كان يُرمى بها في الجاهلية، وبعد بعثة الرسول ﷺ زادت وكثرت[5]، فشدِّدت الحراسة على السماء، فليس للجنِّ من سبيل.

* ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ١٠﴾:

لما رأوا الحَرَس الشديد والشُّهب والرَّصْد تعجبوا، وأثار ذلك تساؤلهم: هل ذلك إرهاص لعذاب سوف ينزل بالناس، أم هذا الحَرَس الشديد والشُّهب متعلِّق بخبر خير ورحمة؟

وهذا من حُسن كلامهم؛ لأنهم لما جاء أمر الشرِّ نسبوه للمجهول، لا إلى الله،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٢٨)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٣٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (٦/ ٤٧٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٠)، و«فتح الباري» (٨/ ٥٣٨، ٦٧٣)، و«عمدة القاري» (١٩/ ١٠)، و«فتح القدير» (٣/ ١٥٤).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٧٠١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ٦٧)، و«الدر المنثور» (١٢/ ٢٠٨)، و«التحرير والتنوير» (١٤/ ٣٤).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٢٥- ٦٢٦)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٥٨٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٢٧).

(٤) ينظر: «الحيوان» (٦/ ٤٥٧).

(٥) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٦٥)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٧٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٣).

من باب التأدب، ولما جاء أمر الرَّشَد والخير نسبوا إرادة ذلك لله، فقالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، مع أن الأمر كله إلى الله[1].

وقد يكون المعنى: لا ندري بعد هذه البعثة المحمدية، هل يُوفَّق الناس إلى طاعة النبي ﷺ واتِّباعه، فيكون ذلك رَشَدًا لهم، أو يعصونه، فيكون ذلك شرًّا ووبالًا عليهم، ويُعاقبون ويُعذَّبون؟[2].

وهنا لفتة تربوية: متى نتعلم من الجنِّ كلمة: «لا ندري»؟ ورحم الله امرأً لم يعلم الشيء، فقال: لا أعلم.

وهذا تعليم للمسلم على أن يكون وقَّافًا عند حدود علمه، وألَّا يقفو ما ليس له به علم، وأنت ترى هؤلاء الجنّ قد تكلموا بصدق وعفوية على السجية، وهذا ما يحتاجه الناس اليوم؛ لأن التكلف والمبالغة والتقليد والتعصب والهوى تقضي على شخصية الإنسان واستقلاليته وصفائه.

* ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١)﴾:

وهذا قبل أن يسمعوا القرآن، فهم يتحدَّثون عن أنفسهم وعن جماعتهم من الجنِّ؛ أن منهم الصالحين من أتباع الأنبياء السابقين، أو مَن يتلمسون الطريق والخير بحسب اجتهادهم، ويتحرَّون من الله أن يهديهم، فهم على الفطرة السوية، ومنهم مَن هم دون ذلك، أي: أقل صلاحًا[3].

وهذا دليل على أنهم مكلَّفون بأصول الشريعة وشيء من أعمالها مما يطيقونه ويتناسب مع خلقهم، والله تعالى أعلم بتفصيل ذلك، وليس علينا أن نحوِّل أمر الجنِّ إلى قضية جدلية وسفسطة كلامية، وإنما المتعيَّن الإقبال على القرآن بقلب حي يتدبر، وعقل يقظ يفهم، ونفس مؤمنة تؤمن وتُسلِّم.

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٣١)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٢٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١١٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٤).

(٣) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٧٦٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٣٢).

والآية تدل على أنهم مُكلَّفون محاسبون، فإما أن ينعَّموا أو يعذَّبوا.

ونلحظ أنهم لم يُفصِّلوا: ﴿مَادُونَ ذَٰلِكَ﴾، هل المقصود: مَن هم أقل صلاحًا، أو مَن هم نقيض الصلاح؟ وسيأتي قولهم بعدُ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾.

المهم هنا الإشارة إلى أنهم درجات، حتى الصالحون منهم ليسوا على درجة واحدة، وهذا من العدل، ومن الفائدة أن تعرف أن الناس درجات، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال عن المؤمنين المصطفَين: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، وكل طائفة هي طرائق متعدِّدة، والذين اصطفى الله تعالى- سواء كانوا من المقتصدين أو من السابقين بالخيرات أو من الظالمين لأنفسهم- درجات مختلفة متفاوتة، وهم في ميدان السبق والمنافسة.

و﴿طَرَآئِقَ﴾ جمع: طريقة، **والطريقة** هي: الطريق، والغالب أن يُوصف بها الطريق الواسع الذي يستوعب العدد الكثير من الناس، والدين أو المذهب أو الملة أو النِّحْلة تُسمى: طريقة، وهؤلاء كانوا طرائق متعدِّدة(١).

و﴿قِدَدًا﴾ جمع: قِدَّة، **والقَدُّ**: قطع الشيء طولًا، قال تعالى: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ [يوسف: ٢٦]. **والقِدَّة**: القطعة من جلد المقطوعة طولًا، كالسَّير.

وتقدَّد القوم: تفرَّقوا وتقطَّعوا، أي تفرَّقت حالاتهم وأهواؤهم(٢).

وقولهم: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ أي: كنا جماعات متفرِّقين، مسلمين وغير مسلمين، **والطريق المقدودة**: المسلوكة المطروقة من قبل.

وفي ذلك إشارة إلى أن كل طريقة لهم كبراء يسبقونهم في هذا السبيل، كما

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٢٩)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٥١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (١٨/ ٤٢٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤١)، و«روح البيان» (١٠/ ١٩٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٣٢).

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٦٥٧)، و«لسان العرب» (٣/ ٣٤٤)، و«تاج العروس» (٩/ ١٤) «ق د د».

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ﴾ [الإسراء: ٧١]. ربما في ذلك إشارة إلى وضع تقليدي جامد، وفي مثل هذا الحال تكون الحاجة إلى البعثة أعظم؛ لأنها تجديد لمسالك الناس وطرائقهم، وتحرير لعقولهم، وتفكيك لأفكارهم الجامدة الموروثة(١).

* ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ١٢﴾:

والظَّن هنا بمعنى اليقين(٢)، وهذا أليق بالسياق، أي: أيقنا أننا لا يمكن أن نُعجز الله(٣).

والإعجاز هو نسبة العجز إلى الآخر، أعجزته، أي: جعلته يعجز(٤)، وهم يقولون: عرفنا أن الله لن يَعْجز عن أن يُنزل علينا العذاب أو يُهلكنا، ولن نخرج من الأرض إلى مكان آخر.

وهذا دليل على أن للجنِّ قدرة ليست للإنس في سرعة الحركة وحدودها، وهذا السياق يُشبه قوله سبحانه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ٣٣﴾ [الرحمن: ٣٣]، أي: لا تستطيعون النفاذ، وهو يكون في الدنيا، كما في هذه الآية، ويكون في الآخرة على سبيل الوعيد، كما في قوله سبحانه: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ٣٩﴾ [المرسلات: ٣٩].

* ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ١٣﴾:

أي: لما سمعنا هذا القرآن من النبي ﷺ آمنا به، وكرَّروا الإيمان؛ تأكيدًا وفرحًا به واستبشارًا.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٣٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٤٢٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٩٩)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ٤﴾.

(٣) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٧٦٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٤٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٣٣).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٦٠١)، و«أضواء البيان» (٥/ ٢٨٣)، والمصادر السابقة.

﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾: **البَّخْس**: النقص، فلا يبخسهم الله شيئًا من أعمالهم، **والرَّهَق**: المشقة، وذلك بأن يحمِّلهم ما لا يطيقون، فنفوا الأمرين: أن تنقص أعمالهم أو يحرموا ثواب طاعاتهم، أو أن يُزاد عليهم ما لا يُطيقون أو ما لم يعملوه من ذنوب غيرهم(١).

* ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾: رجعوا هنا ليقرِّروا أن منهم ﴿ٱلْمُسْلِمُونَ﴾، ومنهم ﴿ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾.

والمسلم يُطلق على مَن آمن بالأنبياء، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣]، فالإسلام هو دين الأنبياء جميعًا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، **والقاسط** هنا من القَسط، بفتح القاف، **والقَسط**: الجَوْر، بخلاف **القِسط**- بكسر القاف- فهو العدل(٢).

والفرق بين المُقْسط، والقاسط: أن المُقْسط هو صاحب العدل، كما قال ﷺ: «**إنَّ المُقسِطِينَ عندَ الله على منابرَ من نور، عن يمين الرحمن** عَزَّوَجَلَّ»(٣). وهم الذين يعدلون في أموالهم وأهليهم وما وَلُوا.

والقِسْط: الميزان(٤)، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: ٩].

وأما القَسْط، فهو: الجَوْر أو الظُلم أو الكفر(٥)، وقد ذكر الزمخشري، وغيره قصة سَعِيد بن جُبير رَحِمَهُ اللَّهُ مع الحَجَّاج، أنه كان يريد أن يقتله، فقال له الحَجَّاجُ:

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٣١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦- ١٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦٨).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩٢٣٦).

وينظر أيضًا: «مقاييس اللغة» (٥/ ٨٦)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٦٧٠)، و«تاج العروس» (٢٠/ ٢٤- ٢٨) (ق س ط).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٧٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٢١٨)، و«تفسير البغوي» (٧/ ٤٤٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٠).

(٥) ينظر: «مختار الصحاح» (ص٢٥٣)، و«لسان العرب» (٧/ ٣٧٧- ٣٧٨) «ق س ط».

ما تقول فيَّ؟! فقال سَعِيد: قاسطٌ عادلٌ. فقال القومُ: ما أحسنَ ما قال! حسبوا أنه يصفه بالقِسْط والعدل، فقال الحَجَّاج: يا جهلةُ، إنه سماني ظالمًا مشركًا. وتلا لهم قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: ١٥]، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾(١) [الأنعام: ١].

وفي قول الجنِّ هذا لفتٌ للأنظار إلى صفاء هذه النفوس التي سمعت القرآن لأول مرة، فأدركت نقاءه وصفاءه وعدله، وهذا يتطابق مع قول الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤]، والإسلام جاء بالعدل والإنصاف مع القريب والبعيد، والموافق والمخالف، والبر والفاجر، والمؤمن والكافر، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨].

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ أي: الذين أسلموا منهم بحثوا وحاولوا واجتهدوا، وتلمَّسوا والتمسوا، حتى وصلوا إليه.

والتحرِّي: التدقيق في البحث(٢)، ومنه: تحرِّي رؤية الهلال، أي: ترقُّب الهلال في خروجه وعدمه، وتلمُّس مواضعه.

ومن معاني ﴿تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾: انتظروا وتوقَّعوا توفيقًا من الله تعالى، وجزاءً وشكورًا ونعمة في الجنة(٣).

* ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾:

وهذا من تمام كلام الجنِّ على القول الصحيح(٤)، وهو دليل على أنهم عرفوا

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٢٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٧١)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (٢/ ٦٧٠)، و«إرشاد الساري» (١٠/ ٤٨٢)، و«فيض القدير» (٢/ ٤٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٣٧).

(٢) ينظر: «مختار الصحاح» (ص٧١)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٤٩٤)، و«لسان العرب» (١٤/ ١٧٤) «ح ر ا».

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٣٦).

(٤) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٤٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٩٩)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ٤٠٤)، و«التفسير المظهري» (١٠/ ٨٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٦٤).

أن ثمة جنة ونارًا، لا سيما أنهم يعرفون موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما في حكاية الجنِّ في «سورة الأحقاف»[١].

أشاروا إلى أن هؤلاء الكافرين الذين استحقوا العقوبة والنار مثل الحطب يُلقون في جهنم إلقاءً[٢]، كما قال سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤].

فهم وإن كانوا بشرًا في الدنيا، إلا أنهم كالخُشُب، كما قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤]، ومن ذلك قول القائل[٣]:

ترى الفتيانَ كالنَّخْلِ، وما يدريكَ ما الدَّخْلُ

أي: قد ترى الإنسان بمظهره، ولا تدري ما مخبره:

تَرى الرَّجُلَ النَّحيفَ فَتزدَريهِ ... وفي أَثوابِهِ أَسَدٌ هَصُورُ
ويُعجِبُكَ الطَّريرُ[٤] فتبتَليهِ ... فيُخلِفُ ظَنَّكَ الرَّجُلُ الطَّريرُ
لَقَد عَظُمَ البَعيرُ بِغَيرِ لُبٍّ ... فَلَم يَستَغنِ بالعِظَمِ البَعيرُ[٥]

والإنسان ليس بجسمه وقوته، ولا بماله، وإنما بصفاء قلبه وصدق نيته وعمله وإيمانه، كما كان علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «قيمة كل امرئ ما يحسنه»[٦].

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾.

(٢) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٧٧١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٦٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٣٧).

(٣) ينظر: «الأمثال» لأبي عبيد (ص١٣٠)، و«مجمع الأمثال» (١/ ١٣٧)، و«نثر الدر» لأبي سعد الآبي (٦/ ١٦٦).

(٤) **الهَصُور**: الشديد الذي يفترس، **والطَّرير**: ذو المنظر والهيئة الحسنة.

(٥) ينظر: «أمالي القالي» (١/ ٤٧)، و«شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (٢/ ٢١)، و«التذكرة الحمدونية» (٦/ ٤١٠)، و«غرر الخصائص الواضحة» (ص٢٤١) منسوبًا إلى عباس بن مرداس.

(٦) ينظر: «ترتيب الأمالي الخميسية» للشجري (١/ ١٧٧)، و«إحياء علوم الدين» (٤/ ١٠٦)، و«تفسير الرازي» (٢/ ٤١٥)، و«تفسير القرطبي» (٦/ ٧٤)، و«فيض القدير» (٤/ ١١٠).

* ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦﴾:

هذا إنشاء من كلام الله، وليس على لسان الجنِّ(١).

والطريقة هي الإسلام والإيمان، وهذا منقول عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وسَعِيد ابن جُبير، وقتادة، ومجاهد، وجماعة من علماء التفسير واللغة(٢).

والمعنى: أن الناس لو استقاموا على الإسلام وآمنوا بالله لسقاهم ماءً غدقًا.

والغَدَق: الكثير الطيب(٣)، والمقصود هنا ليس الماء فقط، وإنما الخير كله، فالماء ما يكون تعبيرًا عن الرزق والنعمة(٤).

وهذا المعنى مثل قول الله سبحانه: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ﴾ [المائدة: ٦٦]، وهذا هو أحد معاني الآية الكريمة.

والاستقامة على الطريقة هي: الالتزام بأحكام الديانة وآدابها في النفس والمجتمع، فهي بمجموعها أساس بناء المجتمع السليم الرغيد، **هذا من جهة**.

ومن جهة أخرى فالصلة بالله صلاةً ودعاءً وتسبيحًا وذكرًا تورث التقوى، وتكون خير رقيب على السلوك، وتفعل فعلها داخل النفس بالراحة والسكينة والهدوء والأمل والصبر والتسامح وقوة الاحتمال، وهذه خلائق وصفات لا بد منها لنجاح الحياة واستمرار السير في الطريق الموصل للمقصود.

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٧٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤١٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٣٧).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٣٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٩٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٢- ٢٤٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٠٠).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٣٥)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٥٥- ٢٥٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٨).

وهنا تلحظ أنه بعدما انتهى كلام الجنِّ في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾، أنشأ كلامًا جديدًا، هو كالقاعدة الكونية القدرية التي يقرِّرها ربُّ البشر؛ وهي أن طاعته أساس الفلاح والنجاح في الدارين.

وذهب جمع من المفسرين إلى أن المقصود: لو استقاموا على الكفر، وأجمعوا وأصروا عليه، لصببنا عليهم النعمة والرزق فتنة لهم، وهو منقول عن محمد بن كعب القُرَظي، وابن قُتيبة، وجماعة من علماء التفسير واللغة[1].

وزعم بعضهم أن الأمرين مقصودان معًا[2]، **وكأن المعنى**: أن الناس لو اجتمعوا كلهم، أولهم وآخرهم؛ إنسهم وجِنَّهم، على طريقة واحدة من إيمان أو كفر، لسقاهم الله تعالى ﴿مَّآءً غَدَقًا﴾، وهذا في الدنيا؛ وذلك لأنه قال: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، وهم إما أن يكونوا مؤمنين، فيكون المقصود: لنختبرهم، فنعلم مَن يثبت منهم على الإيمان، ومَن لا يثبت، ومَن يشكر ومَن يكفر، وإما إن يكونوا كافرين، فيكون المعنى: حتى يملي لهم الله، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٧٨﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقد اقتضت حكمة الله عَزَّوَجَلَّ أنه لا يزال في هذه الدنيا البَر والفاجر، والمؤمن والكافر، وهذا سرٌّ من أسرار الابتلاء الإلهي، واختلاف الناس؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨- ١١٩]، ولو فرض أن الناس أجمعوا كلهم على طريقة من الطرق، إما إيمان أو كفر، هُدى أو ضلال، لسقاهم الله تعالى ماءً غدقًا، وبذلك يجتمع القولان المنقولان عن السلف في تفسير هذه الآية.

وهذا جيد، ولا يعَكِّر عليه إلا لفظ: الاستقامة؛ فإنه أليق بالاستقامة على الخير والهُدى، ولم يرد في القرآن والسنة إلا كذلك، والله أعلم.

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٩٣)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٣٧)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١١٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٤١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٣).

(٢) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٢٩٩- ٣٠٠).

* ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝١٧﴾:

أي: حتى لو كانوا على أفجر قلب رجل واحد منهم، ثم مدَّ الله لهم في الرزق والعطاء والماء الغدق، فإن هذا فتنة لهم، ومَن يعرض منهم عن ذكر الله، فسوف يسلكه ربه عذابًا صَعَدًا، فلا ينفعه هذا الماء الغدق؛ لأن في قلبه من الشقاء والقلق والهمِّ والغمِّ والضيق ما يُنغِّص عليه لذاته، ويحرمه من النعيم، كما في قوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾ [طه: ١٢٤]، فالعذاب الصَّعَد يشبه المعيشة الضنك، وهو متصل- والله أعلم- بقوله سبحانه: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

والصَّعَد: هو العذاب المتزايد المتصاعد(١)، فيشمل ذلك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، ومنه قوله سبحانه: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧﴾ [المدثر: ١٧]، أي: عذابًا شديدًا مرهقًا شاقًّا عليه(٢)، وهو يزداد ولا ينقص: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ۝٩٧﴾ [الإسراء: ٩٧].

* ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾:

هذا خطاب للناس كلهم؛ إنسهم وجِنِّهم، **فالمساجد** هي بيوت الله، وهي مواضع الصلاة، ومنها المسجد الحرام الذي لم يكن يومئذ مسجد عامر يُصلَّى فيه إلا هو(٣)، وكان المشركون يجعلون فيه الأوثان، ويمنعون أهل الإيمان من الصلاة، فعاتبهم الله تعالى أن جعلوا هذه المساجد للأوثان، وأقاموا فيها النُّصُب،

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٦٤)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٢٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٦).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٥٨)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٦٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٤٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٤٠).

فكان في الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا، كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

ويحتمل أن ﴿ٱلْمَسَـٰجِدَ﴾ هي أعضاء السجود[2]، **فالمعنى:** لا تسجدوا إلا لله، وقد جاء في الحديث: «**أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ**»[3]. وفيها إلماح إلى أن الأمر سيتسع وتكثر المساجد ويمكِّن اللهُ للمؤمنين.

﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ أي: لا تسجدوا لغير الله[4]، كما قال سبحانه: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

والمقصود هنا: إما العبادة؛ فـ«**الدعاءُ هو العبادةُ**»، كما في حديث النعمان ابن بَشِير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[5]، أو يقصد الدعاء بخصوص الذي هو سؤال الله بقدرته تحصيل خير أو دفع شر مما هو ليس من شأن البشر، بل من شأن الخالق القدير الرحيم[6].

* ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾:

المقصود بـ﴿عَبْدُ ٱللَّهِ﴾: محمد ﷺ[7]، وهنا لم يذكر اسمه ﷺ، وإنما سماه: ﴿عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، واختار له هذا الاسم، كما اختاره له في «سورة الإسراء»، في قوله: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾، وكما اختاره له في وقت تنزل الوحي عليه

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٧٢٠)، و«صحيح مسلم» (١٧٨١).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٥/ ٢٣٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٧٠).

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٤٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٤).

(٥) أخرجه الطيالسي (٨٣٨)، وأحمد (١٨٣٨٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٤)، وأبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، والطبري في «تفسيره» (٣/ ٢٢٨)، وابن حبان (٨٩٠)، والحاكم (١/ ٤٩٠).

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٤٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٤).

(٧) ينظر: «الوجيز» للواحدي (ص١١٤٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٤٢).

فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، وهي تسمية تشريف(١).

ومـمَّـا زادنـي شَـرَفًـا وتيهًا ... وكِـدْتُ بأَخْمُصي أطَـأُ الثُّرَيَّا

دُخولي تحتَ قولك: ﴿يَـٰعِبَادِىَ﴾ ... وأن صيَّرتَ أحمدَ لي نبيًّا(٢)

وغاية العبودية: التحرر من سلطان النفس، فإذا عبد الإنسان ربه، فهو مَدِينٌ لهذا الإيمان بالتحرر من سلطة النفس والهوى والشهوة، فضلًا عن سلطة العباد.

والمعنى: أنه لما قام الرسول ﷺ يعبد الله سبحانه بالصلاة، كاد الكفار أن يكونون عليه لِبدًا، والمقصود: كفار قريش، حيث تألَّبوا عليه، على سبيل المضايقة والتهديد والتخويف(٣).

وهل اجتمعوا في مكان واحد، أم أن هذا حدث في مناسبات متفرقة، كما قال أبو جهل: هل يُعفِّرُ محمدٌ وجهَه بين أظهركم؟ فقالوا: نعم. فقال: واللَّاتِ والعُزَّى، لئن رأيتُه يفعلُ ذلك لأطأنَّ على رقبته، أو لأعفرنَّ وجهه في التراب. وجاء للنبي ﷺ يريد أن يطأ بعقبه على رأسه، فمنعه الله من ذلك وحجبه(٤).

ولعل الأمر أوسع من ذلك، فإن النبي ﷺ لما قام بما أمره به ربه، رمته العرب عن قوس واحدة، وتجمَّعوا في مواجهته.

واللِّبد: الشيء المتلبِّد المتجمِّع بعضه على بعض، ومنه: لِبْدة الأسد(٥).

وبعض المفسِّرين حملوا الآية على الجنِّ؛ بدلالة السياق والقصة(٦).

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة النجم»: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾، وما سيأتي في «سورة العلق»: ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾.

(٢) ينظر: «نسيم الرياض في شرح شفا القاضي عياض» (٤/ ١٣٢)، و«حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» (ص٢٣٥) منسوبًا إلى القاضي عياض.

وذكر في «التحرير والتنوير» (٢٣/ ١١١) أنه يُنسب إلى الشافعي.

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٣٠)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٧٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٤١).

(٤) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٧٩٧)، وينظر ما سيأتي في «سورة العلق».

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٤٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٣٧)، والمصادر السابقة.

(٦) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٦٥)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٤٢- ٣٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٤)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٨).

ويعزِّزه أنه في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهم اقتربوا من النبي ﷺ، حتى كادوا يركب بعضهم بعضًا من كثرتهم(١).

والمعنى الأول أوسع وأقرب، ويؤيِّده ما يأتي بعده من إصراره على دعوته ورفض الشرك.

ثم أمر الله نبيه ﷺ بتوحيده ولو رغمت أنوف المعاندين، ولو اجتمعوا على كيده والمكر به، فكل ذلك لا يجوز أن يصرفه عن دعوته.

* ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٠﴾:

فأنا لم آت حُوبًا ولا زورًا، وإنما عبدت الله تعالى وحده، ولم أشرك به أحدًا، وهذا ديني ودعوتي(٢).

* ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١﴾:

أمره أن يقول لهم هذه الحقيقة؛ ليعلموا حدود ما يستطيعه النبي ﷺ، وعليه فلا يجوز أن يُعبد أو أن يُدعى من دون الله.

والآية فيها ما يسميه العلماء بالاحْتِباك(٣)، أي: الاختصار.

وكأن المعنى: لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا، ولا ضلالًا ولا رَشَدًا؛ لأن **الضرَّ** يقابله **النفع**، **والرَّشَد** يقابله **الضلال**، فأتى بالطرفين وترك الوسط؛ لأنه معروف(٤).

والمقصود هنا: أنه لا يملك لهم التوفيق والإلهام، وإنما يحملهم على ذلك بهداية الإرشاد والتبليغ؛ ولهذا قال له ربه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى: ٥٢]، فهو ﷺ يهدي بخُلُقِه وبلسانه وبعمله، كل ذلك هداية، لكن ليس بيده التوفيق أو الخذلان، أو الإلهام أو الحجب والحرمان، أو جعل الإيمان في

---

(١) ينظر: «المعجم الكبير» للطبراني (٩٩٦٨)، و«عيون الأثر» (١/ ١٥٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٨)، و«الخصائص الكبرى» (١/ ٢٣١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٧٦).

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة الكافرون».

(٣) ينظر: «التعريفات» للجرجاني (ص١٢)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٥٧).

(٤) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٤٣٦)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٧/ ١٦٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٠٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٤٣).

قلوب الناس، وإنما هذا إلى الله.

* ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾:

أي: لن يحميني من الله تعالى أحدٌ لو أراد تعذيبي أو إهلاكي[1]، فأنا عبده، فكيف بكم أنتم أيها المكذِّبون المتمرِّدون على ألوهيته؟

وفي الخطاب التنصل من الحول والطَّوْل والقوة، والتواضع لله، وبيان حقيقة النبوة والدعوة، وأنها ليست مكاسب أو انتفاعات أو مراكز أو استعلاء على الخلق.. فمَن يستطيع أن يقول مثل هذا القول إلا رسول الله؟!

﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾: الملتحد: الملجأ[2]، ومنه اللَّحْد، وهو القبر الذي يهرب إليه الإنسان.

والمعنى: ليس ثمة أحد يجيرني من الله، ولا مكان أختبئ فيه، وكل شيء في قبضته وقدرته، والله تعالى يأمر نبيه أن يبيِّن للناس هذه الحقيقة، ومن قبل كان الجنُّ يقولون في حديثهم: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾.

* ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾:

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ أي: لا شيء ينفعني ويحميني، إلا أن أُبلغ رسالات ربي[3]، فقوله: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: عن الله، كما قال النبي ﷺ: «**بلِّغُوا عنِّي، ولو آيةً**»[4].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٤٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٧٢)، و«الكشاف» (٤/ ٦٣١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٧١).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٣٩)، و«تهذيب اللغة» (٤/ ٢٤٤)، و«لسان العرب» (٣/ ٣٨٩)، و«بصائر ذوي التمييز» (٤/ ٤٢١)، و«تاج العروس» (٩/ ١٣٦) «ل ح د».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٥).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ﴾ أي: بلاغ رسالاته، بمعنى أن يُبلِّغ النبيُّ ﷺ رسالات ربه بنصوصها وحروفها؛ ولهذا قال له ربه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، فالله يعصمك من الناس، والناس لا يعصمونك من الله، ولن يجيرك من الله أحد، ولن تجد من دونه ملتحدًا إلا بالبلاغ، فإذا بلَّغت فلا يضرك هؤلاء الذين كادوا يكونون عليك لبدًا، فالله يحميك منهم ويصرف عنك كيدهم.

﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾: ومن المعصية: رفض التبليغ عن الله، ورفض رسالته ودعوته أصلًا، ولعله المقصود هنا بقرينة السياق، وبضميمة ما بعده(١).

وليس المقصود مطلق المعصية(٢)؛ فإنما يُتوعد بالخلود الأبدي في نار جهنم الكفار الذين ردُّوا دعوة الرسل والأنبياء، وأصرُّوا على الكفر والشرك، وأما عصاة المؤمنين ممن يقع منهم ما يقع من الذنوب أو الكبائر التي هي دون الشرك، فهم تحت المشيئة، إن شاء الله عذَّبهم، وإن شاء غفر لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، وهذا متواتر في النصوص، وظاهر في سياقات القرآن الكريم والسنة النبوية(٣)، وعليه إجماع الأمة(٤).

* ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ٢٤﴾:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾: لم يحدِّد السياق ما الذي يوعدون، بل ترك المعنى مفتوحًا، فهل هو ما يوعدون من الخيبة والهزيمة في الدنيا، كما حصل لهم يوم بدر؟ أو هو ما يوعدون عند النَّزْع والاحتضار؟ أو هو ما يوعدون في الدار الآخرة؟

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٣٧٦)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٥٥٣).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦- ٢٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٠٣)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩١).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٣٠٤، ٧٤٣٩، ٧٥١٠)، و«صحيح مسلم» (١٩٣- ١٩٩).

(٤) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣٠٩).

أو هو كل ذلك(١)؟

وقد كانوا دائمًا يتعزَّزون بعددهم وقوّتهم، أو بأنصارهم وحلفائهم، فالله سبحانه يؤكِّد لهم: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾.

ولم يبيِّن مَن هو «الأضعف»، ومعروف من السياق أن المشركين الظالمين سيكونون هم الأضعف ناصرًا والأقل عددًا، كما قال سبحانه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ [الطارق: ١٠].

والناصر: الحليف أو المعين المساعد(٢)، فسيكون ضعيفًا، وهي إشارة تعني أن لا ناصر لهم مطلقًا، كما في آية «سورة الطارق»(٣)، حتى الشيطان يتبرأ منهم في ذلك الموقف(٤)، ويتبرأ بعضهم من بعض، ويتخلَّى القوي عن الضعيف، والضعيف عن القوي.

أما الأقل عددًا، فالمقصود عديدهم الذاتي، فهم كانوا يقولون: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [القمر: ٤٤]، أي: عدد كبير مجتمعون، غالبون فائزون، مستنصرون بحلفائنا وأعواننا(٥).

* ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾:

وهذا من تعليم الله لنبيه ﷺ أن يعلن لهم أنه لا يدري: أقريب ما يوعدون أم لا؟! فـ﴿إِنْ﴾ هنا نافية(٦).

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٣٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٠٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٧٢).

(٢) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٥٠)، و«لسان العرب» (٥/ ٢١٠)، و«تاج العروس» (١٤/ ٢٢٣).

(٣) في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾.

(٤) ينظر ما تقدم في «سورة الحشر»: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

(٥) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٦٩)، و«تفسير البغوي» (٧/ ٤٣٣)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣٢١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٨١).

(٦) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٢٠).

﴿أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ أي: مسافة طويلة، والأَمَد مقابل القريب، أي: أمدًا طويلًا أو بعيدًا[1]، كما حكى الله على لسان نبيه ﷺ: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ [الأحقاف: ٩]، وفي الآيات الأخرى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٧﴾ [الشورى: ١٧]، ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ٦٣﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ [الأنبياء: ١]، فهذه كلها سياقات يُعزِّز بعضها بعضًا، ويوضِّح بعضها بعضًا، وكل سياق منها يُحمل على المناسب له، يكون المقصود النظر إلى مقاييسهم هم، فقد كانوا يستبعدون هذه الأشياء، ولو وُعدوا بها في الآخرة لرأوا أن الآخرة شأنها بعيد وأنها مؤجَّلة؛ ولهذا لا يهمهم كثيرًا أن يوعدوا بشيء في الآخرة في وقت كفرهم.

ولذا جعل الأمر محتملًا؛ فقد يصيبكم شيء قريب، وقد يكون مفاجئًا، كما في يوم بدر وما بعده، وفيه إظهار البراءة من هذا الأمر، وأنه إلى الله تعالى، فإن النبي ﷺ وهو بمكة محارَب مطارَد مؤذَى، وأصحابه يُقتلون ويُعذَّبون، ومع ذلك ينزل عليه ﷺ هذا الوحي، فيعلم أنه لا يُنجِّيه إلا البلاغ عن الله وتبليغ رسالاته، فيبلِّغ هذا الوحي كما أُنزل إليه، مهما كانت الوقائع، ومن ذلك أن يقول: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٠﴾، ويقول: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١﴾، ويقول: ﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢﴾، ويقول: ﴿إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾.

فحين يعلن أنه لا يدري إن كان موعودهم قريبًا أم بعيدًا كما هنا، وكما في قوله: ﴿وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩﴾ [الأنبياء: ١٠٩]، فقد يكون المقصود: أجل كل فرد منهم بعينه؛ لأنهم يستعجلون العقاب العام، فأشار إلى أن كل فرد منهم له أجله المضروب، فإذا جاء أجله قامت قيامته.

وهذا أولى من القول بأنه لم يكن يدري ثم تجدَّدت له المعرفة بذلك فيما

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٥١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٤٧).

بعد، والله أعلم.

والمهم أن الله يلقِّنه لفظ: «لا أدري» كما ألهم الجنَّ أن يقولوا: ﴿لَا نَدۡرِيٓ﴾، وهو درس بليغ لكل داعية وكل متعلِّم أَلَّا يستحي من قول: «لا أدري»، ولا يظنَّ أن جاهه ينكسر أو مكانته تتراجع، أو أن أتباعه ينتقصونه، و«مَن ترك لا أدري أصيبت مَقَاتِلُهُ»(١).

وتكرر لفظ ﴿رَبِّيٓ﴾؛ إشارة إلى إن الله تعالى يحفظه، وهو الذي يحميه وينجيه وينصر دعوته، وهو الذي يجيره، وقد كان النبيُّ ﷺ يقول في صلاته: «**اللهمَّ أعوذُ برضاك من سخطكَ، وبمعافاتكَ من عقوبتكَ، وأعوذُ بك منكَ، لا أحصي ثناءً عليك أنتَ كما أثنيتَ على نفسك**»(٢).

فما دام الله حافظه وحاميه، فلا يبالي ما وراء ذلك، ولو اجتمع الناس عليه.

* ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾:

أي: هو وحده ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾، فلا يعلم الغيب إلا هو.

و﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ هو ما يقابل **الشهادة**، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ هي: ما تراه العيون أو تحسه الحواس، و﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ ما وراء الحس، سواءً كان من عالم الآخرة، أو كان من عالم الملائكة، أو كان ماضيًا مما لا يعلمه الناس... أو نحو ذلك مما لا سبيل للناس إلى معرفته بوسائل المعرفة التي منحهم الله(٣).

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾، وهذا له علاقة باستراق الجنِّ للسمع، والكهنة والعرَّافين الذين كانوا يأخذون «الكلمة» ويضيفون إليها مائة كذبة(٤).

---

(١) ينظر: «أخلاق العلماء» للآجري (ص١١٦)، و«حلية الأولياء» (٧/ ٢٧٤).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) ينظر ما تقدم في «سورة الحشر»: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾.

(٤) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في «صحيح البخاري» (٣٢١٠): «**إنَّ الملائكةَ تنزلُ في العَنَان**- وهو: السحاب- **فتذكرُ الأمرَ قُضِي في السماء، فتَسْتَرِقُ الشياطينُ السَّمْعَ فتسمعُه، فتُوحيه إلى الكُهَّان، فيكذبونَ معها مائةَ كَذْبة من عند أنفسهم**».

فهو وحده الذي يعلم الأجل المضروب لكم، وهل هو قريب أو بعيد؟

* ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾:

﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾: استثناء، فهو يستثني الرُّسل الذين ارتضاهم الله، وفي ذلك إشارة إلى أن الرُّسل إنما كانوا لأن الله ارتضاهم واختارهم واصطفاهم، ويشمل ذلك الرسول البشري؛ كالأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، والرسول الملائكي الذي ينزل بالوحي؛ كجبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فهؤلاء ارتضاهم الله تعالى وأطلعهم على شيء من غيبه، وهناك من ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ ما لا يعلمه إلا الله.

والأَوْلَى أخذ الآية بعمومها، خلافًا لما مال إليه الفخر الرازي، فإنه ذكر أن **المقصود** بقوله: ﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي: الساعة. واحتج بأن من الناس من قد يعلم شيئًا من الغيب(١).

وهذا غلط؛ فهذه من الآيات التي يجب أن تُؤخذ على عمومها وإطلاقها، إلا في المقامات التي ورد فيها الاستثناء.

﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ أي: أن هذا الرسول البشري أو الملائكي سوف يحيطه الله بحرس من أمامه ومن خلفه أشداء أقوياء أن ينالهم أحد بشيء.

ومن ذلك أن الله إذا أراد أن يُظْهِر أحدًا منهم على شيء من غيبه بالمعاينة، جعل معه ﴿رَصَدٗا﴾ أمامه وخلفه، كما جرى للنبي ﷺ يوم الإسراء والمعراج.

ومن ذلك أن الله حين يختار ويرتضي أحدًا ليكون رسولًا، فإنه يجعل عليه حَفَظَةً وحَرَسًا يحمونه لأداء المهمة التي أُنيطت به(٢).

* ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾:

من الإعجاز أنه لم يذكر مَن هو الفاعل الذي يُراد أن يعلم، وفي بعض

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٧٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٥٣)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٤٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٤٩).

القراءات: ﴿لِّيُعْلَمَ﴾ بضم الياء[1]؛ فيشمل كل مَن يصح أن يُسند إليه الفعل، فيصدق هذا الكلام على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ليعلم الله عَزَّ وَجَلَّ، وهو العالم، ولكن ليتحقَّق علمه بواقع الحياة، وهذا كثير في القرآن، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٦- ١٦٧]، فالله تعالى يعلم كل شيء، لكن ليتحقَّق علمه في الأرض.

وليعلم الرسل ﴿أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، فالنبيُّ محمد ﷺ لما يرى الملائكة والرَّصَد يدري أنه هو المختار، وأنهم قد أُرسلوا إليه دون غيره، وأُرسلوا بهذا، فالأمر فيه ضبط وتوثيق وإحكام، فيعلم النبي ﷺ بذلك.

وكذلك ليعلم الرَّصَدُ بأن الرسل قد بلَّغوا رسالات ربهم، وكأنهم شهود على الأداء يوافون بشهادتهم يوم القيامة[2].

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي: الله تعالى، فإنه ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ [فصلت: ٥٤].

فالوحي محاط بسِياج، لا يقتحمه إلا مَن شاء الله، وفي حدود معينة، أما ما يتعلَّق بما يمكن معرفته بالوسائل الطبيعية؛ كالفهم أو القياس أو الإدراك، أو بالوسائل الروحية؛ كالرُّؤْيا الصالحة والتفرُّس، فهذا ممكن، وهو باب آخر، والنبيُّ ﷺ عَدَّ الرُّؤْيا من المبشِّرات ومما بقي من آثار النبوة[3].

لكن هذه لا يُقطع بها، وإنما هي من باب التوقع والالتماس، وكذلك الإلهام

---

(١) ينظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص٤٤٩)، و«الكنز في القراءات العشر» (٢/ ٦٩٦)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٢)، و«إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر» (ص٥٦٠)، و«معجم القراءات» (١٠/ ١٣٣).

وينظر أيضًا: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٩٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٥١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٥٤)، و«تفسير الماوردي» (٦/ / ١٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٧٥).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٩٨٣، ٦٩٨٧، ٦٩٨٨، ٧٠١٧)، و«صحيح مسلم» (٢٢٦٣، ٢٢٦٤).

والتحديث، كما قال ﷺ: «**قد كان في الأمم قبلكم محدَّثُونَ**[1]**؛ فإن يكن في أمتي منهم أحدٌ، فإن عمرَ ابنَ الخطاب منهم**»[2].

فقد يقع لأحد أن يظنَّ الشيء فيكون كما ظنَّ وتوقَّع، كما حدث لعمر رضي الله عنه[3]، وهو يَحْدُث لأصناف من الناس، وقد يقع هذا بسبب فرط الذكاء، وشدة الخبرة، وحِدَّة العقل والتجربة، فالإنسان ربما يتوقع بعض الأشياء توقعًا يقرب من اليقين، وهذا كله ليس من الاطلاع على علم الغيب؛ فإن الغيب لا يعلمه إلا الله أو مَن أطلعه الله تعالى على شيء منه لحكمة يعلمها.

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ والإحصاء متصل بالعدد، كما قال سبحانه: ﴿مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٤- ٩٥].

فقررت الآية شمول العلم الإلهي، وإحاطته بكل شيء، وإحصاءه كل شيء، وهل يمكن أن يقال- أخذًا بظاهر الآية-: إن الماديات كلها عبارة عن أعداد؟ الله أعلم.

○ ○ ○

---

(١) بفتح الدال، جمع: محدَّث، واختُلف في تأويله؛ فقال بعضهم: هو الملهَم، قاله الأكثر، وقيل: مَن يجري الصواب على لسانه بغير قصد، وقيل غير ذلك. ينظر: «تصحيفات المحدِّثين» (١/ ٢٦٧)، و«فتح الباري» (٧/ ٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٢٣٩٨) من حديث عائشة رضي الله عنها. وينظر: «علل الدارقطني» (٩/ ٣١٣)، (١٤/ ٣١٠)، و«الإلزامات والتتبع» (ص١٢٤- ١٢٦)، و«هدي الساري» (ص٣٦٤- ٣٦٥)، و«فتح الباري» (٧/ ٥٠).

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٤٠٢) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «وافقت ربي في ثلاث: فقلتُ: يا رسولَ الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلًّى، فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]. وآية الحجاب، قلتُ: يا رسولَ الله، لو أمرتَ نساءك أن يحتجبن؛ فإنه يكلمهن البرُّ والفاجرُ. فنزلت آية الحجاب، واجتمع نساءُ النبي ﷺ في الغَيْرة عليه، فقلتُ لهن: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥]، فنزلت هذه الآية».

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

❊ **تسمية السورة:**

تسمَّى: «**سورة** ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾»، أو: «**سورة** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾»، كما في كتب التفسير، والحديث، والمصاحف(١).

❊ **عدد آياتها:** عشرون آية، **وقيل:** ثماني عشرة، **وقيل:** تسع عشرة(٢).

❊ **وهي مكية** في أولها، مدنيةٌ في آخرها، على اختيار ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وجمهور المفسرين(٣).

وهي السورة الوحيدة في القرآن الكريم التي نسخ آخرها أولها، ففي أولها قال تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾، فأمر الله نبيَّه ﷺ بالقيام، وفي آخرها قال: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾، فنسخ ما كان في أولها من وجوب القيام على المسلمين، وصار تطوعًا ونافلة(٤).

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٥٦)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٦١)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٣١٥)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٥٧)، و«المستدرك» (٢/ ٥٠٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٣١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٥٢).

(٢) وقد اختلفوا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾، وقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ [المزمل: ١٥]، وقوله: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥﴾، وقوله: ﴿ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٥٧).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٣١)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٥٢).

(٤) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٥٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٤٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٧٨).

وهي سورةٌ عظيمة من أوائل سور القرآن نزولًا(١).

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١﴾:

وفي السورة التالية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾، وبعض أهل العلم يقولون: هذه أسماء للرسول ﷺ، والأكثرون أنها ليست أسماء(٢)، ولكنها أوصاف خُوطب بها بحكم الحال التي كان عليها، والنبيُّ ﷺ يقول: «**لي خمسةُ أسماء: أنا محمدٌ، وأحمدُ، وأنا الماحِي الذي يمحُو اللهُ بي الكفرَ، وأنا الحاشرُ الذي يُحشرُ الناسُ على قدَمِي، وأنا العاقبُ**»(٣).

وفي ذلك نوع من التلطف معه ﷺ؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ حينما يُخاطبه ويبيِّن الحال التي هو عليها أثناء الخطاب، ففي ذلك احتفاء به وإكرام وملاطفة(٤).

وكان ﷺ يفعل ذلك أحيانًا مع بعض أصحابه، كما في قصته مع علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما لم يجده في بيته وذهب يبحث عنه، فوجده نائمًا في المسجد، وقد أثَّر التراب في جنبه؛ فقال له النبيُّ ﷺ: «**قُمْ أبا التُّراب، قُمْ أبا التُّراب**»(٥).

وقد كانت هذه الكنية أحب إلى عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من غيرها؛ لأن النبي ﷺ هو الذي كنَّاه بها(٦).

والمقصود بالتزمُّل: التحاف الإنسان بما يغطِّيه لنوم أو لغير ذلك(٧).

---

(١) ينظر: «البرهان في علوم القرآن» (١/ ١٩٣)، و«الإتقان» (١/ ٩٦).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣١١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٤٥١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤) من حديث جُبير بن مُطْعِم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣١١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٥٥).

(٥) أخرجه البخاري (٣٧٠٣، ٦٢٠٤)، ومسلم (٢٤٠٩) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٦) ينظر المصادر السابقة.

(٧) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٠٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٧٨).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣٨٣)، و«تاج العروس» (٢٩/ ١٣٨) «ز م ل».

وقد ورد أنه كان متزمِّلًا برداءٍ أو لحافٍ أو قطيفة لخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[1]، فهو قريب في المعنى من قوله: ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، وبينهما فرق لطيف[2].

والذي يظهر- والله أعلم- أن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ يتعلق بالنِّذارة والدعوة ومخاطبة الناس، وقد أعقبها بمجموعة وصايا: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر: ١- ٧]، فكان صدر هذه السورة متعلِّقًا بالنِّذارة، وهذا يناسبه موضوع التدثُّر أو الدِّثار؛ لأن الدِّثار يُطلق على الثوب الذي يراه الناس على الإنسان بخلاف الشِّعار[3].

والدِّثار غالبًا يُلبس للدفء عند النوم، وهو مناسب للأمر بـ﴿قُمْ﴾، فهي دعوة إلى اليقظة وتحمل مسؤولية الدعوة.

ويُروى أن النبيَّ ﷺ بلغه أن قريشًا اجتمعوا يتشاورون بم يصفونه؛ بالشاعر، أو الساحر، أو الكاهن، أو المجنون، فاغتم لذلك، ونزلت الآية[4].

لقد كانت حملة قاسية ظالمة لرجل لم يتعوَّد أن يُقال فيه مثل هذا؛ ولذا كان وقعها شديدًا عليه، ولكن الله جمَّله بـالصبر، وأمره بالاحتمال، ووعده بالعاقبة.

أما ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ فالسياق كان بصدد عبودية النبي ﷺ لربه، وتلقِّيه للوحي، وصبره عليه، واحتماله له، وقيامه بتكاليف ذلك مما فيه مشقة وثقل، فكان مناسبًا لذلك التعبير بـ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾؛ لأن فيه معنى الحِمْل[5]، وهذا معروف حتى في العامية الدارجة، فالمزمول: المحمول، وفلان يزمل للدراسة أو للعمل أو لمواجهة الناس أو للسفر.

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٨١)، والمصادر السابقة.

(٢) الفرق بينهما في الاشتقاق. ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٥٦).

(٣) ينظر: «الصحاح» (٢/ ٦٥٥)، و«النهاية» (٢/ ١٠٠)، و«المصباح المنير» «د ث ر» (١/ ١٨٩).

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٩٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٥- ٣٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٥٦).

(٥) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٣٦)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٨١).

وبعضهم يقول: إن الفعل: زمل، مهجور غير مستعمل[١]، أي: يقلق ويهتم ويتحمل عناء بسببه، ففيه تحمل، وهذا مناسب لقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ⁽٥⁾﴾ [المزمل: ٥]، ولذا أمره هنا بالقيام والصلاة؛ لأنها خير عون على هذا الحمل.

جاء في «الصحيح» من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان النبيُّ ﷺ يأتي حِرَاءَ فيتحنَّثُ فيه- وهو التعبد- اللياليَ ذوات العدد...». فقبل أن يُوحى إليه ﷺ ألهمه ربه حُبَّ الخلوة، فكان يذهب الليالي ذوات العدد إلى غار حراء، بعيدًا عن الناس، يتعبَّد، حتى فاجأه المَلَك وهو بالغار، قال الله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢]، لم يكن ينتظر وحيًا، ولا يترقَّب أحدًا يطرقه؛ ولذا فوجئ وهو في الغار بالمَلَك يأتيه على حين غِرَّة[٢]، ويتوجَّه إليه في لحظة لا أنيس معه فيها، ولا يستطيع أحد أن يدفع عنه.. مخلوق عظيم غير مألوف الهيئة يطرقه ويضمه ويعصره حتى يُجهد، ثم يرسله ويقول له بلغة الآمر: ﴿اقْرَأْ﴾. ثم يأخذه ويقول: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ⁽١⁾﴾ [العلق: ١]، فأصاب النبيَّ ﷺ من ذلك همٌّ وغمٌّ ورعبٌ وفزع؛ لأنه لم يكن يترقب ذلك، وكان أحب الناس وأقربهم إليه زوجه خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فهي موضع سرِّه وأمانه، فجاءها فزعًا يقول: «**زَمِّلُوني زَمِّلُوني**»[٣]. فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ⁽١⁾﴾ [المدثر: ١]، ثم نزلت بعد ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ⁽١⁾﴾.

وقد كان نزول السورتين قريبًا في الزمن، وإذا كانت ﴿الْمُدَّثِّرُ﴾ ثاني سورة بعد ﴿اقْرَأْ﴾، فـ﴿الْمُزَّمِّلُ﴾ هي الثالثة أو الرابعة، ولا يعني ذلك أن السورة كلها نزلت جميعًا، وإنما المقصود صدرها.

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٥٦).

(٢) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٣٦- ٢٣٧)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ٣٠١- ٣٠٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ١٤٧)، و«الشفا» (٢/ ١٠٢)، و«تاريخ دمشق» (٦٣/ ١٢)، و«البداية والنهاية» (٤/ ٩)، وما تقدم في «سورة القمر»: ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ⁽٢٥⁾﴾، وما سيأتي في أول «سورة العلق».

(٣) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١﴾ مثلما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾، لكن القيام هنا مختلف؛ لأن القيام في ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ للنِّذارة والدعوة، وأما في ﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ فالمعنى: صَلِّ لربك، و﴿قُمِ﴾ فعل لازم ليس له مفعول؛ ولهذا قال: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾، فـ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ منصوب على الظرفية[1]؛ لأنه محل القيام، فيأمره ربه أن يقوم.

وقد يجوز أن يكون ﷺ وقتها كان مضطجعًا على فراشه أو على فراش خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ملتفًّا باللِّحاف، فالجو بارد، والخوف يزيد الإنسان قشعريرةً وانتفاضًا، والنبي ﷺ قلق من هذا الأمر الطارئ في حياته.

* ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢﴾:

لم يأمره ربه أن يقوم الليل كله، وكان النبيُّ ﷺ لا يقوم الليل كله، إلا في العَشْر الأواخر من رمضان، كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان إذا دخل العَشْرُ، شَدَّ مِئْزَرَهُ، وأَحْيا ليلَهُ، وأَيْقَظَ أهلَهُ»[2].

وكان ﷺ في سائر أيامه يصلِّي وينام؛ كما في «الصحيحين» من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء ثلاثةُ رَهْطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألونَ عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبروا، كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ، قد غُفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر! قال أحدُهم: أما أنا فإني أُصلِّي الليلَ أبدًا. وقال آخرُ: أنا أصومُ الدهرَ ولا أُفطرُ. وقال آخرُ: أنا أعتزلُ النساءَ، فلا أتزوجُ أبدًا. فجاء رسولُ الله ﷺ إليهم، فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله، إني لأخشاكم لله وأتقاكم لله، لكني أصومُ وأُفْطِرُ، وأصلِّي وأَرْقُدُ، وأتزوَّجُ النساءَ، فمَن رغبَ عن سنتي فليسَ منِّي**»[3].

فخيَّره الله سبحانه بين أن يقوم نصف الليل أو يَنقص منه قليلًا؛ فيقوم ثلث الليل، أو يزيد على الثلث قليلًا؛ فيقوم ثلثي الليل، وينام ثلثه.

---

(١) ينظر: «فتح القدير» (٥/ ٣٧٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ١١٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٠٦٣)، و«صحيح مسلم» (١٤٠١).

* ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣﴾:

﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾: يجوز أن يكون هذا هو القليل، أي: نم قليلًا هو النصف أو أقل من النصف بقليل أو أكثر من النصف بقليل.

ويجوز أن يكون المعنى: قم الليل، قم نصفه أو أقل من النصف بقليل أو أكثر من النصف بقليل. والمؤدَّى واحد، والمقصود بيان أن الآية الثانية والثالثة تعود إلى ﴿ٱلَّيْلَ﴾ الذي يُقام، أو إلى ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ الذي ينام[1].

* ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾:

عود إلى الترغيب في أن تكون مدة القيام أكثر من نصف الليل، ولذلك لم يقيِّد ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ بمثل ما قيَّد به النقص بقوله: ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣﴾؛ لتكون الزيادة على النصف متَّسعةً[2]، وقد ورد عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: كان رسولُ الله ﷺ إذا صلَّى قام حتى تَفَطَّر رجلاه، فقلتُ له: يا رسولَ الله، أتصنعُ هذا وقد غُفر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟! فقال: « **أفلا أكونُ عبدًا شكورًا**»[3].

والتخيير المستفاد من حرف ﴿أَوْ﴾ منظور فيه إلى تفاوت الليالي بالطول والقصر؛ لأن لذلك ارتباطًا بسعة النهار للعمل، ولأخذ الحظ الفائت من النوم.

وفي ذلك توسيع على النبي ﷺ برفع حرج تحديده لزمن القيام، فسُلك به مسلك التقريب.

وأمره سبحانه: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾؛ مع أنه لم يكن قد نزل عليه من القرآن إلا سورة أو سورتان أو ثلاث، وهي: ﴿ٱقْرَأْ﴾، و﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، و﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، و﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، ولم تكن هذه السور قد نزلت كاملة؛ لأن بعض السور- كهذه السورة- لم ينزل آخرها إلا في المدينة[4]، **فالمراد إذًا**: رتِّل ما أُنزل عليك

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٦٨)، و«الكشاف» (٤/ ٦٣٦- ٦٣٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٧٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٥٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٢٦)، والمصادر السابقة.

(٣) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨٢٠).

(٤) كما تقدم في أول السورة.

من القرآن، وما سوف ينزل[1].

والترتيل: حسن التلاوة بإرسال الكلام من الفم بسهولة واستقامة[2].

وأصله من: الرَّتَل، يقال: جاء القوم أرتالًا، أي: مجموعة بعد أخرى، ومنه: رتل الأسنان، وهو أن يكون بين كل سن والتي تليها فراغ[3]، وهذا نوع من الجَمَال، حتى إن بعض الناس يتكلَّفونه، وهو ما نهى عنه النبيُّ ﷺ[4].

والمقصود: أن تقرأ القرآن بتدبُّر وترسُّل، وكان ﷺ يقرأ القرآن بتدبر، كما في حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن قراءةَ النبي ﷺ كانت مفصَّلة حرفًا حرفًا[5].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سُئل عن قراءة النبي ﷺ، فقال: «كانت مَدًّا». ثم قرأ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، يمدُّ ﴿ٱللَّهِ﴾، ويمدُّ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، ويمدُّ ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾[6].

ولما قال رجلٌ لابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنني قرأتُ المفصَّل البارحة. قال له: «هَذًّا كَهَذِّ الشِّعر!»[7].

وكان من عادة العرب السرعة في إلقاء الشِّعر، وكما تلحظون اليوم أن كثيرًا ممن يلقون الشِّعر يهذُّونه هذًّا؛ إظهارًا لإتقان الحفظ، أو سرعته البديهية بارتجال الشِّعر، لكن القرآن ليس كهيئة الشِّعر، فهو كتاب للتدبر، وكتاب لحياة الأمم؛ فحقه أن يرتل ترتيلًا، دون عجلة ولا تسرع.

والترتيل يعني أيضًا: تدبر القرآن، والوقوف عند آياته، وترديد بعضها[8]، وقد قام النبيُّ ﷺ ليلةً حتى أصبح بآية واحدة يردِّدها ويبكي؛ وهي: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٦٠).

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣٤١)، و«لسان العرب» (٢٩/ ٣٢) «ر ت ل».

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٦٠).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٩٣١)، و«صحيح مسلم» (٢١٢٥).

(٥) أخرجه أحمد (٢٦٥٢٦)، وأبو داود (١٤٦٦)، والترمذي (٢٩٢٣)، والنسائي (٢/ ١٨١)، وابن خزيمة (١١٥٨)، والحاكم (١/ ٢٣٢، ٣٠٩).

(٦) أخرجه البخاري (٥٠٤٦).

(٧) أخرجه البخاري (٥٠٤٣)، ومسلم (٨٢٢).

(٨) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٥٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٧٩).

﴿عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾[1] [المائدة: ١١٨].

وأكثر المسلمين اليوم غافلون عن قراءة القرآن إلا في المناسبات والمآتم؛ يجتمعون حول قارئ حسن الصوت تنشغل أسماعهم بالاستمتاع بجمال الصوت، متشاغلين بذلك عن تدبره والخشوع عند تلاوته.

وكثير ممن يقرؤون يغلب على قراءتهم الحَدْر الشديد الذي يفوت معه التدبر؛ استعجالًا لختم القرآن، كما في رمضان، وكم من القرَّاء يقرأ بترتيل وتجويد ويقف عند معاني الآيات ويعرض قلبه وسلوكه وحياته عليها؟!

وهذه الآيات أخذ منها جماعة أن الله تعالى أوجب على نبيه ﷺ قيام الليل؛ ليكون زادًا في طريقه ودعوته[2].

ويحتمل أن يكون حكم ذلك صار إلى الاستحباب؛ لقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾[3] [الإسراء: ٧٩].

وهذا لا فائدة من بحثه الآن؛ لأن النبيَّ ﷺ إلى أن لقي ربه كان يقوم أكثر الليل، ولا يترك قيام الليل إلا لعارضٍ من مرضٍ أو غلبة نوم أو نحو ذلك.

قال كثير من أهل العلم: كان المؤمنون مخاطبين بقيام الليل، وقد أوجب عليهم سنةً أو أكثر، ثم خفّف عنهم بعد ذلك، **وقيل**: نزل التخفيف بالمدينة[4].

والأقرب أن الأمر بالنسبة للمؤمنين كان استحبابًا[5]، ولم يكن واجبًا عليهم شيء قبل الصلاة المكتوبة، إلا ركعتان قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، كما نُقل

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٣٢٨، ٢١٣٨٨، ٢١٤٩٥)، وابن ماجه (١٣٥٠)، وابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٤٨)، والنسائي (٢/ ١٧٧)، والحاكم (١/ ٢٤١)، والبيهقي (٣/ ٢٠) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال ابن خزيمة (١/ ٢٧١): «إن صح الخبر». وينظر: «أصل صفة صلاة النبي ﷺ» (٢/ ٥٣٤- ٥٣٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٥٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٢٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٥٨).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٧)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٤)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٧٩).

في كتب السير[(١)]، فلم يكن قيام الليل واجبًا عليهم وجوبًا متعينًا، وإن قال بهذا بعض أهل العلم.

* ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾:

وكأن هذا تعليل لأمره له بالقيام الطويل، وأن يصفَّ قدميه ثلث الليل أو نصف الليل أو ثلثيه يخاطب ربه ويرتِّل القرآن.

والإلقاء يستخدم في الكلام، فتقول: ألقى محاضرةً أو خطبةً أو قصيدة، لكنه في الأصل يعني: إلقاء الشيء الثقيل، كأن تقول: ألقى حجرًا أو حملًا بشِدَّة وقوّة[(٢)]، فهو إشارة إلى القول الثقيل، **والمقصود**: الوحي الموجَّه إلى النبي ﷺ[(٣)]، وسماه تعالى: ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ **بالنظر إلى أمور:**

١- ثقل استقباله على النبي ﷺ، كما جاء في قصة بدء الوحي، حين جاءه المَلَك فقال له: «**اقرأ. قال: ما أنا بقارئ**». فأخذه وغطَّه حتى بلغ منه الجَهْد[(٤)].

وكان النبي ﷺ يعاني من التنزيل شدة؛ حتى إنه ربما نزل عليه الوحي وهو على الناقة، فبركت حتى يفرغ الوحي[(٥)].

وربما نزل عليه الوحي- كما تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- في اليوم الشديد البرد، فَيَفْصِمُ عنه وإن جبينهُ ليتفصَّدُ عرقًا مثل الجُمَان[(٦)]، أي: مثل حبات اللؤلؤ من جبينه ﷺ.

وثبت أن الوحي نزل عليه مرةً وفخذه على فخذ زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى كادت ترضُّها من ثقلها[(٧)].

---

(١) ينظر: «الروض الأنف» (٢/ ٢٨٤)، و«سبل الهدى والرشاد» (٢/ ٢٩٨).

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٧٤٥)، و«بصائر ذوي التمييز» (٤/ ٤٤١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٦١).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٧٩)، والمصادر السابقة.

(٤) تقدم تخريجه عند قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾.

(٥) ينظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (٧/ ٥٣).

(٦) ينظر: «صحيح البخاري» (٢، ٢٦٦١)، و«صحيح مسلم» (٢٧٧٠).

(٧) أخرجه البخاري (٢٨٣٢) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. **وترضّها**: تدقّها.

إن الوحي اتصال بالملأ الأعلى، واستقبال رسالة من عند الله تبارك وتعالى؛ ولهذا كان له ثقل على جسد النبي ﷺ، فهو قولٌ ثقيل.

٢- وهو قول ثقيل باعتبار أن النبي ﷺ مطالب بأن يقرأه ويحفظه، وأن يُبلِّغه إلى الناس؛ ولذلك كان جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا قرأ القرآن على النبي ﷺ حرَّك النبيُّ ﷺ شفتيه؛ خشية أن ينسى شيئًا[١]، ثم نُهي عن ذلك، وقال الله تعالى له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ [القيامة: ١٧].

٣- وهو ثقيل باعتبار تبعاته من الأوامر والنواهي والتكليف، والأمر بالدعوة والبلاغ وإقامة الحجة وتبليغ الدعوة والصبر على الناس، وما يتوجب عليه من الالتزام بهذا القرآن والعمل به.

٤- وهو ثقيل باعتباره قولًا فصلًا ليس بالهزل، ثقيل المقدار والقيمة، وأنت تقول: هذا كلامٌ ثقيل. وتقصد أنه ليس كلام سفسطة ولا سفاسف، وإنما له وزن وقيمة، وهكذا القرآن فيه لبُّ العلم والمعرفة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

٥- وهو ثقيل بمعنى أنه ثابت لا يتغير، فهو ثابت ثبوت الجبال الثِّقال الراسيات، فالقرآن مُحْكَم كله، وإن كان فيه المتشابه، كما قال الله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود: ١].

٦- وهو قولٌ ثقيلٌ من جهة أنه باقٍ عصي على محاولات التحريف والتبديل التي يحاولها أقوام إلى اليوم، فيبقى القرآن ثقيلًا في رسوخه وثباته، وتذهب كل هذه المحاولات أدراج الرياح.

٧- وهو ثقيلٌ في الميزان عند الله تعالى يوم القيامة، وثقيل في الأجر والثواب، سواء في تلاوته أو العمل به، فمَن قرأه فله بكل حرف عشر حسنات[٢]. وكذلك هو حجة للعامل به، كما قال النبي ﷺ: «**والقرآنُ حجةٌ لك أو عليكَ**»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٢٤)، ومسلم (٤٤٨) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) كما في «جامع الترمذي» (٢٩١٠)، و«المستدرك» (١/ ٥٥٤)، و«شعب الإيمان» (١٨٣١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٦٦٠، ٣٣٢٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد أخذ الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هذه الآية أن تكاليف الدِّين كلها ثقيلة، وقد سُئل عن مسألة، فقال: «لا أدري». فقيل له: إنها مسألة خفيفة سهلة. فغضب، وقال: «ليس في العلم شيءٌ خفيفٌ، أما سمعتَ قوله جل ثناؤه: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾، فالعلم كله ثقيل، وبخاصة ما يسأل عنه يومَ القيامة»[(١)].

وكيف نوفِّق بين هذا، وبين قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾ [القمر: ١٧]؟

الجواب: أنه ثقيلٌ باعتبار، وميسَّر باعتبار آخر، وهو ثقيلٌ على قوم لم يرد الله لهم الهداية، وميسَّر على مَن أراد الله تعالى أن يفتح على قلوبهم.

ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «**كلمتان خفيفتان على اللِّسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحانَ الله وبحمده، سبحانَ الله العظيم**»[(٢)]. فوصفها بأنها ثقيلة وأنها خفيفة، فهي ثقيلة باعتبار أجرها، وخفيفة باعتبار سهولة نطقها وقصرها، وأنت تجد هذا في القرآن؛ فهو ميسَّر للحفظ، يحفظه صغار الأعاجم، مع أنهم لا يحسنون العربية، ومن الناس مَن يعجز عن الحفظ، لكن تجد عنده سلاسة في قراءة القرآن.

ومن تيسيره: وضوح معانيه في معظم آياته، وسهولة أوامره وأحكامه؛ لموافقتها للفطرة، ووضعها الآصار والأغلال عن المكلَّفين.

ومن تيسيره: أن عقائده لا تعقيد فيها ولا غموض، فيسهل على كل أحد أن يفهم التوحيد وأصول الإيمان.

* ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦﴾:

﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ هي: أوقات الليل المختلفة، وهذا مذهب الأكثرين[(٣)].

---

(١) ينظر: «ترتيب المدارك» (١/ ١٨٤- ١٨٥)، و«أدب المفتي والمستفتي» (ص٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٦٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٤٠)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٥٢).

وقيل: المقصود: صلاة الليل[1]، **والناشئة** هي التي تنشأ، يقال: أنشأ الشيء: إذا ابتدأه[2]، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥﴾ [الواقعة: ٣٥]، فـ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ هي أوقات الليل المتنوعة.

ويحتمل أنها القيام بعد النوم، فيكون ذلك مخصوصًا بأن يستيقظ بعد نومه.

والقول الأول هو مذهب الأكثرين، واختاره مالك وغيره[3]، فيكون المقصود: أن الصلاة في أوقات الليل كلها وإنشاء الذكر والعبادة فيها أفضل من النهار؛ لأنها أشد كُلفة وتعبًا؛ فالوطء والمواطأة معناها: التعب، تقول: وَطِئه التعبُ، ووطئه الأمرُ، إذا شقَّ عليه وكلَّفه، وقيام الليل فيه تعب وعناء، فالنفوس تخلد في الليل إلى الراحة، والنوم يداعب الأجفان، فمقاومة ذلك والقيام لله تعالى فيه وطء على النفس وشدة.

ومن معانيها: أنها أشد أثرًا في النفس، ومنه آثار المواطئ أو آثار الأقدام في الأرض[4]، فكأن قلب الإنسان مثل الأرض، وقيامه في الليل كآثار الماشين والعابرين على هذه الأرض، يترك وَسْمًا وعلامة لا تُنسى، ويظل الإنسان يحنُّ إلى هذه الأوقات التي يخلو بها بربه ويناجيه، وهي أبعد عن أعين الناس وأسلم من الرِّياء، وهذا يجعلها ثقيلة عند قوم ومؤثِّرة[5].

أما كونها ثقيلة؛ فلأن من الناس مَن قد يقوم بالعبادة؛ ليُذكر بها، فيفعلها رِياءً، ومن الناس مَن يستسهل العبادة إذا كان مع الآخرين؛ ولهذا شرع الإسلام صلاة

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٧٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٢٧)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٣٢٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٨٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٣٩).

(٣) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٤٠)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٢٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٧٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٦٢).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٤١)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣١٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٦٢- ٢٦٣).

(٥) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٧٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ١٥١٠)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٥٣)، والمصادر السابقة.

الجماعة؛ لأن الإنسان ينشط فيها ما لا ينشط إذا كان منفردًا، فهذا يجعلها شاقة، ولكنه يجعل أثرها أعظم؛ لأن المصلِّي يخلو بربه ويخاطبه ويناجيه، وربما بكى أو دمعت عينه أو استحضر معنى آية وهو يدري أن لا أحد يسمعه ويراه إلا الله.

ومن معانيها: أنها أشد مواطأةً وموافقةً بين ما تقوله بلسانك وما تستشعره بقلبك، أو تفكر فيه بعقلك[1]؛ فإن قارئ القرآن ربما قرأ وقلبه غافل، حتى إنك لتجد بعضهم يقرأ سورة ثم ينتقل إلى سورةٍ أخرى لا علاقة لها بها، فتتداخل الآيات والسور بسبب غلبة النوم وشدة الإجهاد، أو الغفلة والسرحان.

أما قوله: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي: قرآن الليل أكثر استحضارًا، فيقل خطأ القارئ[2]؛ لأن المواطأة تحصل بين اللسان والقلب والعقل، فتجمع قوى النفس كلها، في هدوء الليل دون إزعاج ولا أصوات ولا حركة أقوام يدخلون ويخرجون؛ فيكون أكثرًا خشوعًا، والذين يحفظون القرآن ويرددونه ويراجعونه يجدون في الليل فرصة وإدراكًا وفتوحًا لا يجدونها في النهار.

وقد لا تكون الآية خاصة بتلاوة القرآن، بل بالصلاة كلها، والمصلِّي في الليل يقوم ويركع ويسجد، ويسبِّح ويحمد ويشكر ويطيل في ذلك، ويتدبر المعاني، والنبي ﷺ كان يفعل ذلك، فكان الله تعالى يفتح عليه من المعاني ما لم يكن في البال، وقد جاء في الحديث أن النبيَّ ﷺ ذكر يوم القيامة فقال: «**فأحمدُه بمحامد لا أقدر عليه الآن، يُلهمُنيه الله**»[3].

فهي إذًا أقوم قيلًا في القرآن وفي التسبيح وفي الدعاء وفي الاستحضار.

* ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾:

السَّبْح الطويل: من جوامع الكَلِم القرآني، وكلمة السَّبْح مأخوذة من سَبَحَ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٧٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣١٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٦٣).

(٢) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٩٣)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٤١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٥٢).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤١٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يسبح؛ لأن الإنسان الذي يسبح في الماء يحرك كل جسده في الماء ويمضي فيه لا يعترضه ما يعوقه، واستعير ذلك لجري الخيل، فسمِّيت: السابحات.

وقيل: السَّبْح: الفراغ، أي: فراغًا طويلًا لحوائجك في النهار، فافرغ لصلاتك بالليل، والسَّبْح هو الضرب في الشؤون كلها[1].

ووصفه بالطويل إشارة إلى بركة الوقت، وأن الليل والنهار خِلْفَة، فما فاتك هنا تعوِّضه هناك، وإذا أحسن الإنسان استثمار الوقت كان بركة وإنجازًا ومتعة في الوقت ذاته، وأكثر ما يقضي على الوقت إضاعته عند أناس، وقتله عند آخرين، وإن من الناس مَن يستطرد في أحاديث أو ثرثرة لساعات طويلة دون أن يشعر، فإذا كان في أمر جِدٍّ، فإنه يستثقل الوقت حتى لو كان بضع ساعات، وهذا مثل قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح: ٧- ٨]، أي: انصب في عبادة الله سبحانه وارغب إليه في الذكر والتسبيح والصلاة وقراءة القرآن في الليل[2].

وفي «سورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾» جعل الله النهار هو مقصد الحديث، فقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾.

فإذا فرغت من عمل النهار فانصب في الليل وارغب إلى الله؛ لأن الليل يأتي بعد احتدام الدعوة، وانشغال النبي ﷺ بأمر الناس وانهماكه فيه، أما في هذه السورة فالدعوة ما زالت في بدايتها؛ ولهذا جعل الله الليل هو مقصد الحديث، فقال: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾، باعتبار أن النبي ﷺ كان يتهيَّأ لأمر جَلَل، وخَطْبٍ عظيم، ومواجهة الناس بهذه الدعوة التي علم الله ماذا سوف يكون من مواجهة الناس لها، وماذا سوف يكون من أثرها العظيم في البشرية كلها إلى قيام الساعة.

* ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾:

أي: اذكره بلسانك[3]، و﴿ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ هنا المقصود به جنس الأسماء، أي:

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٤٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣١٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٦٣- ٢٦٥).

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٣٣)، و«تفسير السعدي» (ص٩٢٩).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٣٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٨٦)، و«تفسير أبي السعود» (٩/ ٥١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٦٥).

اذكر أسماء ربك وأوصافه وجلاله وكمالاته سبحانه(١)، كما في قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١]، فهنا أمرٌ بأن يذكر النبي ﷺ أسماء الله عَزَّوَجَلَّ ويُوحِّده ويحمده.

وفي آية أخرى ذكر تعالى الذكر في النَّفْس، فقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، فهذا ذكر القلب، وكلا الأمرين المقصود به المواطأة، فتذكر ربك بقلبك وتذكره بلسانك، مع المواطأة، بحيث يكون مع ذكر اللسان استحضار عظمة مَن تناجي.

والمقصود: اذكر اسم الله في قيام الليل، واذكره أيضًا في النهار؛ ولهذا صح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن النبيَّ ﷺ كان يذكرُ اللهَ على كُلِّ أحيانه(٢)، أي: في كل حال، كما قال تعالى: ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وهكذا المؤمن لا يفتر لسانه عن: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»، على كل حال، حتى عند تقلب الطقس؛ كهبوب ريح ونحو ذلك، أو إن رأى شيئًا يعجبه قال: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، وإذا سأله أحد عن حاله قال: الحمد لله. فلا يزال لسانه رَطْبًا بذكر الله.

والتَّبَتُّل: الانقطاع، أي: انقطع إلى ربك، ولا تذكر غيره، ولا تعبد إلا الله(٣)، ففيه معنى الوحدانية.

ومن معاني التبتل: الانقطاع عن الزواج؛ ولهذا يقال لمريم عَلَيْهَاالسَّلَامُ: البتول؛ لأنها انقطعت عن الرجال فلم تتزوج(٤).

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٤٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٤٦٦)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ٣٨٧).

(٢) أخرجه مسلم (٣٧٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٧٧)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٧٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٢٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٣٦٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٥٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٤٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٥٥).

(٤) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٤/ ٢٠٧)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٣٣٢)، و«غريب الحديث» لابن الجوزي (١/ ٥٤)، و«لسان العرب» (١١/ ٤٣)، و«تاج العروس» (٢٨/ ٥٢) «ب ت ل».

وبعضهم يسمون فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بنت النبي ﷺ: البتول[١].

وهذا إن أريد به العبادة، فقد كانت كذلك، وبناءً عليه نستطيع أن نقول أيضًا: عائشة البتول، وخديجة البتول.. وهكذا، وفضل فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عظيم، ومقامها كبير، وهي من سيدات نساء الأمة[٢].

وبيان فضيلة أحد من الرجال أو النساء لا يعني مصادرة فضيلة الآخرين، ففضل فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند جميع المؤمنين عظيم، وهي بنت نبينا ﷺ، ونحن نحبها أكثر من بناتنا وأكثر من أخواتنا وأكثر من أمهاتنا، وفي الوقت ذاته فإن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هي بالمحل الأرفع؛ لأنها زوج النبي ﷺ في الدنيا والآخرة، وهي أحب نسائه إليه، كما أخبر بذلك النبي ﷺ[٣].

* ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾:

أي: تبتَّل إليه، وأفرده بالعبادة؛ لأنه ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ بمعنى: رب الآفاق مشرقها ومغربها؛ مشرق الشمس ومغربها، ومشرق القمر ومغربه.

والجمع بينها وبين ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ [الرحمن: ١٧]، و﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] مبسوط في «سورة المعارج».

ومن معانيها: ربُّ وقت الشروق ووقت الغروب، فإنه يسمى: مشرقًا ومغربًا[٤].

والله سبحانه هو ربُّ الزمان وربُّ المكان، ولكن تعبير ﴿ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أبلغ؛ لأنه إشارة إلى تحول الأحوال وتغيرها، ففيه إشارة إلى طلوع الشمس وإلى

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٨٠)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢١/ ١٤)، و«روح البيان» (١٠/ ٢١١).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٦٢٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٥٠).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٦٦٢، ٣٧٧٢، ٤٣٥٨، ٧١٠٠، ٧١٠١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٤).

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٦٧).

غروبها، وطلوع الشمس وغروبها يكون به الليل والنهار، وفي ذلك انتقاص من عمر الإنسان، فهي دعوة إلى تدارك الوقت واستغلاله، وأنه ينبغي ألا تغيب عليك الشمس ولا تطلع إلا وأنت في خير، كما كان بعض السلف يقول: «إذا طلعت عليَّ الشمسُ أو غربت وأنا لست في خير، فلا بُورك لي في ذلك اليوم».

وفيه إشارة إلى ربوبية الله، وأنه خالق الزمان والمكان، وهذا ما كانوا يؤمنون به في الجاهلية من حيث المبدأ النظري؛ ولهذا عقَّب عليه سبحانه بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فانتقل من الأمر المقرر الذي يؤمنون به وهو الربوبية، إلى الأمر الجديد الذي يُجادلون فيه، وهو الألوهية، وألَّا يُعبد إلا هو، ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: ٦٥].

وقوله: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ أي: توكَّل عليه، فقرن بين العبودية وبين التوكل، والتوكل من العبودية، ولكنه يُجمع معها في القرآن في مواضع كثيرة، كما في قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]؛ لأن التوكل من أقوى الأسباب لتحقيق العبودية واستمرارها، ودفع ما يطرأ على النفس وعلى الحياة من عوارض.

واتخاذه وكيلًا سبحانه لا يعني القعود، كما يظن بعض الناس؛ لأن الله تعالى أمره بقيام الليل، وهذه عبادة، وأمره بالسَّبْح الطويل في النهار، وهذا عمل، فالتوكل يكون مع استيعاب الأسباب كلها والقيام بها، وليس هو التواكل وترك العمل، كما يظنه بعض العوام الذين يقعدون ويتركون العمل، ويظنون أن السماء تمطر عليهم ذهبًا أو فضة أو جنودًا يقاتلون عنهم.

وكم جنى هذا الفهم السقيم للتوكل على المسلمين وأخَّرهم عن ركب الحضارة والمدنية؛ فقد تحوَّلوا من متوكِّلين إلى متواكلين، وكان العدو إذا طرق بلادهم اجتمعوا في الجوامع يقرؤون القرآن أو يقرؤون «صحيح البخاري»، ويظنون أن قراءة القرآن في المسجد أو قراءة «صحيح البخاري» في المسجد تدفع شرَّ العدو الذي بات يحاصرهم ويدك حصونهم، والله تعالى أمرهم أن يواجهوا الأسباب بما يكافئها، حتى الرسل والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أُمروا بذلك.

* ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾:

أمره بالصبر، وما أكثر ما يتردد ذكر «الصبر» والأمر به في القرآن الكريم! وكثير من الناس قد لا يدركون فضل الصبر، ولو سُئل كل الناجحين عن سرِّ نجاحهم، لأجمعوا على الصبر؛ ولهذا ختم الله سبحانه صفات الناجين بقوله: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ٣]، فالإيمان يحتاج إلى صبر، وعمل الصالحات يحتاج إلى صبر، والحق يحتاج إلى صبر، والصبر يحتاج إلى صبر.

أمره بالصبر على ما يقولون؛ لأنهم كانوا يقولون قولًا عظيمًا مؤلمًا، كقولهم: ﴿سَٰحِرٌ﴾.. ﴿شَاعِرٌ﴾.. ﴿كَاهِنٍ﴾.. ﴿مَّجۡنُونٌ﴾(١)، وهو أطهر الناس وأصدقهم وأعقلهم وأكملهم، فكان أمرًا شاقًّا على النفس، وأحدنا يجد في حكاية ذلك عنهم ثقلًا وانزعاجًا، فكيف والنبي ﷺ يسمعه منهم ويبلغه عنهم، بل هو يُواجه هذا العناء من بعض أقرب الناس إليه!

وظُلْمُ ذَوِي القُرۡبى أَشَدُّ مَضاضَةً ... على المَرءِ مِن وَقعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ(٢)

وخص الصبر على القول؛ لأن أكثر ما كانوا يؤذونه به هو الإيذاء بالقول، ويظنون أن هذا سيضطره إلى الكفِّ عن الدعوة، ولأن القول الرديء أشد وقعًا على النفس من كثير من الأفعال، وهذا مجرَّب معروف، والقول يقدر كل أحد أن يقول ويردِّده، بخلاف الفعل، فإنه لا يطيقه إلا أصحاب القوة والرئاسة فيهم.

وفي الآية سرٌّ بديع؛ حيث جمعت بين الصبر، والهجر.

فهي قد حوت أصول معاملة الناس؛ إما أن تخالطهم فتصبر عليهم، أو تهجرهم فتسلم منهم، والنبي ﷺ أُمِر أولًا أن يصبر على ما يقولون، أي: أن يخالطهم ويصبر

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة القلم»: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢﴾.

(٢) ينظر: «ديوان طَرَفة بن العبد» (ص٢٧).

وذكر في «شرح المعلقات التسع» - المنسوب خطأ إلى أبي عمرو الشيباني - (ص٧٣)، و«شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» لأبي بكر الأنباري (ص٢٠٩)، و«شرح القصائد العشر» لأبي زكريا التبريزي (ص٩٣) عدم صحة نسبته إلى طَرَفة بن العبد، وإنما هو لعدي بن زيد العِبَادي، ونسبه إليه في «عيون الأخبار» (٣/ ١٠١)، و«الصداقة والصديق» (ص١٢٤)، وغيرهما.

على أذاهم، وهذه هي وصيته ﷺ: «**المؤمنُ الذي يخالطُ الناسَ، ويصبرُ على أذاهم، خيرٌ من الذي لا يخالطهم، ولا يصبرُ على أذاهم**»[1].

فإن من شأن الناس الأذية، إلا مَن رحم الله، وأنت واحد منهم، تُؤذِي الناس مثلما يؤذونك، وكما أنك تشتكي من زوجتك، فزوجتك تشتكي منك، وتشتكي من جارك، وجارك يشتكي منك، وزميلك في العمل تشتكي منه، ويشتكي منك، وأخوك لأمك وأبيك تشتكي منه، ويشتكي منك، فما من إنسان إلا وهو يُؤذِي ويُؤذَى، إلا مَن رحم الله، وقد يؤذِي بغير قصد، لكن بحكم القصور ونوازع النفس البشرية.

وزهَّـدني في الناس معرفتي بهم ... وطُولُ اختباري صاحبًا بعدَ صاحبِ
فلم تُـرِني الأيـامُ خِـلًّا تسرُّني ... مباديه إلا سـاءني في العواقبِ
ولا صِرتُ أدعـوهُ لدفعِ ملمَّةٍ ... من الدهر إلا كان إحدى النوائبِ[2]

والأمر الثاني: أن تهجر الناس، وليس المقصود هنا: أن يتركهم كليّةً، كلا! لأنه ﷺ مطالب بأن يغشاهم في مجالسهم، ويدعوهم إلى الله، فليس هجرًا مطلقًا بمعنى: أنه لا يكلمهم، وإنما هجر مقالاتهم ومجادلاتهم، فلا تدخل معهم في جدل عقيم.

وهذا يُشبه ما قاله الله تعالى لمريم عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦].

وكما أمره الله بالصبر الجميل، أمره أيضًا بأن يكون هجره هجرًا جميلًا، والهجر الجميل: هو الذي لا يصحبه جفاء ولا إغلاظ ولا سبٌّ[3].

فبعض الناس يهجر أخاه المسلم لأمر من أمور الدنيا، حتى لو كان زميله

(١) تقدم تخريجه في «سورة الحديد»: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ...﴾ [الحديد: ٢٧].

(٢) ينظر: «الحلة السيراء» لابن الأبار (ص١٠٣)، و«المطرب من أشعار أهل المغرب» لابن دحية (ص٤٩) منسوبًا إلى المعتصم بالله بن صمادح الأندلسي.

ونُسب أيضًا إلى ابن الرومي، ينظر: «ديوان ابن الرومي» (ص٢٤٦).

(٣) ينظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٦٠).

أو شقيقه أو صديقه، فلا يكلِّمه ولا يستجيب لدعوته، وهذا محرَّم، فقد جاء في الحديث: «**لا يحلُّ لمسلم أن يهجرَ أخاه فوقَ ثلاث**»[(١)].

وبعض الناس لا يكون هجره جميلًا؛ لأنه إذا ذكر عنده في مجلس سبَّه واغتابه، فإذا كان ورعًا ولا يريد أن يغتابه قال: اتركوه، الله يستر علينا وعليه. وهذه غيبة مبطنة؛ مثل قول بعضهم: لا نريد أن نغتاب. فهي من أشد الغيبة؛ لأنه يعني أن للغيبة فيه مجالًا واسعًا، ولكننا ورعون عافون كافّون! ولو أردنا أن نقول فهناك مجال للقول.

وقد وَجَدتَ مكانَ القَولِ ذا سَعَةٍ ... فإن وَجَدتَ لِسانًا قائِلًا فَقُلِ[(٢)]

وهذا من أعظم التوجيهات الربانية للدعاة؛ لأن كثيرًا من المصلحين يدخلون في هذا المعترك، فيأخذ من جهدهم وأعمارهم، والعمر محدود، والطاقة محدودة، فالدخول في معارك كلامية أو إعلامية تحفز إليه دوافع التوضيح والرد، وفي حالات عديدة يكون مباحًا وربما مشروعًا، ولكن حظوظ النفس تفسده وتجعله ضررًا على الداعية حين يكون كلامه دفاعًا عن نفسه أكثر مما يكون بيانًا للحق أو نقضًا للباطل، ومَن جرَّب عرف[(٣)]!

ومن المهم أن نتذكر أن أمر الدعوة والتعليم والبناء والإصلاح هو أمر ابتدائي، نقوم به في بناء الحياة، وتعليم الناس ونشر الأخلاق والقيم، وتوجيه الضالين وهداية الحائرين وإجابة السائلين، دون أن نُلزم أنفسنا بأن نكون وقودًا لمعارك إعلامية أو كلامية يكثر فيها التعدِّي والسِّباب، وقد يكون ثمة مَن يحاول أن يُسلِّط هؤلاء على هؤلاء، وهؤلاء على هؤلاء، فيتحول الناس إلى احتراب وتنازع، في حين أن الدعوة تتطلب الحلم والصبر الجميل والهجر الجميل أيضًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٥، ٦٠٧٧، ٦٢٣٧)، ومسلم (٢٥٥٨، ٢٥٦٠) من حديث أنس وأبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) ينظر: «شرح شعر المتنبي» (٢/ ٧٣)، و«محاضرات الأدباء» (١/ ٤٥٥)، و«التذكرة الحمدونية» (٤/ ٦٦)، و«الحماسة المغربية» (١/ ٤٥٣).

(٣) وينظر حول ذلك: «شكرًا أيها الأعداء» للمؤلِّف.

* ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾:

﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: لا تشتغل بهم، واتركهم لي[1]، ولم يذكر مكذِّبًا واحدًا، كما في «سورة المدثر»: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾، وإنما ذكر مجمل المكذِّبين، ولم يسمِّ في القرآن من هؤلاء الكافرين الذين كانوا أحياء إلا أبا لهب، أما بقيتهم فقد ذُكرت صفاتهم دون تعيين أشخاصهم؛ لعلهم أن يهتدوا ويصلحوا، وحفاظًا على أولادهم وأسرهم ألا يتأثروا أو يتضرروا بذكرهم.

﴿أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ أي: أصحاب النَّعْمة، المرفَّهين، المنعَّمين، المستمتعين المترَفين[2].

وهذا فيه تعريض بهم، إذ لم يشكروا النعمة، ولا أَدَّوْا حقها، ولا شكرها، وإنما زادتهم كبرًا وعتوًّا وترفعًا أن يؤمنوا بدين أكثر أتباعه من الضعفاء والمساكين.

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: وقتًا يسيرًا[3]، والحياة الدنيا كلها قليل: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]، ولم يُحدِّد هنا: هل هي الدنيا كلها، فيكون الإمهال إلى الموت، أو الإمهال إلى يوم توعَّدهم الله فيه بالنَّكال الشديد، فيكون ما أصابهم يوم بدر هو موعدهم الذي أنظرهم الله تعالى فيه في هذه السورة؟

* ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾:

هذا من توابع الإمهال؛ وهو وإن كان عذابًا موعودًا في الآخرة أو في البرزخ بعد موتهم وقبل بعثهم، إلا أنه من «الإمهال».

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٨١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٣٧١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٥٥)، و«تفسير أبي السعود» (٩/ ٥١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨١)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٦٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٧٧)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٨١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٤٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥١١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٢٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٥٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٤٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٥٦).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥١١)، «تفسير السمعاني» (٦/ ٨١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨١)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٤٣).

نعم أمهلهم، لأهوال كثيرة تنتظرهم:

منها: الأَنْكال، وهي جمع: نِكْل، وهي القيود التي تكون في الأرجل[1]، وكأن هذا في مقابل أنهم كانوا يضربون في الأرض، تنعُّمًا وترفًا، فلهم يوم القيامة أنكال وقيود تُوضع في أرجلهم فلا يتحركون.

ولدينا: جحيم؛ وهي النار التي تُكْوَى بها أجسادهم؛ جزاء كفرهم وصدِّهم عن دين الله.

ولدينا: طعام ذو غُصَّة، يَغَصُّ به الحلق؛ كالشَّوك والغِسلين والزَّقُّوم، فيغصّون به فيَنْشَب في حلوقهم، بدلًا من الطعام اللذيذ الذي كانوا يتمتعون به في الدنيا[2].

ولدينا: عذاب أليم؛ إشارة إلى أن الألم ينتظرهم في مقابل اللَّذَّة، وهم قد منعتهم اللذات من الإيمان.

* ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾:

سينالون ذلك العذاب في اليوم الذي ترجف فيه الأرض والجبال، وقد كانوا يرون الأرض راسية بتلك الجبال لا تضطرب ولا تميد، فهي يوم القيامة ترجف وتميد، وترجف الجبال معها وقد كانت من قبل سببًا في ثبات الأرض ورسوِّها وحفظ توازنها.

﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي: تتحول بعد الرجفة إلى رمل مجتمع، وليس كالرَّمل الذي يعرفه الناس، وإنما هي رمال مهالة، والإهالة: النثر، ومنه إهالة التراب على الميت، فهو ذاهب في الهواء كالتراب الذي يُهال من أعلى[3].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٨٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٤١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٥٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٤٦).

وينظر أيضًا: «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٣٨)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٨٢٥)، و«تاج العروس» (٣١/ ٣٣) «ن ك ل».

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٥٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٧١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٨٥)، و«الكشاف» (٤/ ٦٤١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٧٢).

وقد ورد في مواضع أخرى تشبيهُ الجبال بأنها تكون كالسَّراب، وكالعِهن[1]، وهي أوصاف متقاربة لموصوف واحد، أو هي دلالة على تحول الجبال، فتكون أوصافًا مختلفة في أوقات مختلفة.

* ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي: يبيِّن لكم الحق، ويُبَلِّغكم رسالة الله، وينصح لكم، وهو شاهد عليكم يوم القيامة إن آمنتم أو كفرتم[2].

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾: وهذه أول مرة يذكر فيها ﴿فِرْعَوْنَ﴾ في القرآن من حيث ترتيب النزول؛ فهذه السورة من أوائل ما نزل.

وهنا ذكر تعالى اسم ﴿فِرْعَوْنَ﴾، ولم يذكر اسم الرسول؛ لأن المقام مقام تهديد للكافرين، وخصوصًا كبارهم، وقد كان أبو جهل يُعرف بـ«**فرعون هذه الأمة**»[3]، وكان المشركون في مكة يُشْبِهُونَ آلَ فرعون في كثير من مقالاتهم، فكان فرعون يعترض ويحتج على أن يُختار موسى بالرسالة، فيقول: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٥٢- ٥٣]، وكذلك قالت قريش، كما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]، وكانوا يفتخرون بأموالهم وأنهم أولو نَعْمة، وكان ثمة الملأ الكبار والسادة الذين يتآمرون ويحاولون أن يصرفوا عقول الناس عن الإيمان، وأن ينشروا بينهم قالة السوء، ومن هنا كان مناسبًا ذكر فرعون ومصيره، مع الإشارة إلى الرسول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مع أنه كثيرًا ما يُذكر في القرآن قصة موسى وفرعون؛ لوجود شبه كبير حتى في المصير، وإهلاك الله تعالى لأعدائه، وقيام الأمر والدعوة، ووجود أمة كبيرة تتبع موسى، وأثر دعوته العظيم،

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ: ٢٠]، وقوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾ [المعارج: ٩، القارعة: ٥].

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٢).

(٣) كما في «مسند الطيالسي» (٣٢٦)، و«مسند أحمد» (٤٢٤٦)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٥/ ٤٣٢) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهو من أولي العزم من الرسل(١).

* ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾:

ذكر ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ هنا معرفًا؛ لأنه ذكر قبل، **والمقصود هنا:** الأخذ الدنيوي الذي عرفوه، مع ما يدَّخِرُه الله له في الآخرة من العذاب الشديد: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر: ٤٦]، أي: أخذًا حاضرًا قويًّا شديدًا عاجلًا، فهذا هو الذي ينتظركم إن لم تؤمنوا(٢).

* ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧﴾:

سؤال استنكاري عام للناس كلهم: هل تستطيعون إذا كفرتم بالله ورسوله، ولم تؤمنوا بالحساب أن تتقوا ما تشاهدونه من العذاب والأَنْكال والجحيم والأغلال، وقد فات وقت الإمهال؟ كيف تنجون من يوم ﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾؟ وهذا من بديع الوصف!

وقد أخذ بعض الأدباء والشعراء هذا المعنى وتصرَّفوا فيه، حتى قال الصِّمَّة ابن عبد الله القُشيري(٣):

ذَرانــيَ من نَـجْـدٍ فــإنَّ سِنِينَه ... لعبْـنَ بنـا شِـيبًا وشَـيَّبْنَنا مُـرْدَا

وقال الآخر(٤):

والهـمُّ يَخْتَـرِمُ الجَسِـيمَ نَحافَـةً ... ويُشِـيبُ ناصِيـةَ الصبيِ ويُهْـرِمُ

لكن شتَّانَ شتَّانَ ما بين القرآن وما بين كلام الناس!

إن الإنسان لا يشيب في الدنيا في يوم ولا في عشر سنوات، وإنما في عشرات

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٧٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٨٧)، و«الكشاف» (٤/ ٦٤١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٤٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٥٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٢).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٩٢)، و«أمالي ابن الشجري» (٢/ ٢٦١)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٨/ ٦٣).

(٤) ينظر: «الأمثال السائرة من شعر المتنبي» (ص٣١)، و«أبو الطيب المتنبي ما له وما عليه» (ص١٣٨)، و«مجاني الأدب في حدائق العرب» (٤/ ١٠٧).

السنين، أما في يوم القيامة فيشيب في يوم؛ ربما لطوله، وربما لهول ما فيه، وقد أطلق وصف «الشَّيْبِ» ليشمل كل آثار الشيخوخة في الشعر والجسد والروح..

فهنا قال تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ أي: يشيب الصغار مباشرةً من ذلك اليوم وأهواله(١).

* ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾:

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ أي: بذلك اليوم، كما في قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾.

وعبَّر بالمذكَّر، ولم يقل: «منفطرة»، إما لأن السماء يجوز فيها التذكير والتأنيث، كما قال بعض أهل اللغة(٢)، وإما على إرادة السقف(٣)، وقد قال الشاعر(٤):

إذا نَـزَلَ السماءُ بـأَرضِ قَـومٍ   رَعَـيـنـاهُ وإن كـانـوا غِضَابا

أي: إذا نزل المطر، فقد تُذكَّر السماء، باعتبار ما يراد منها، كما إذا أريد منها المطر أو أريد منها السقف، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾﴾ [الطور: ٥].

ويجوز فيما يظهر أن التأنيث على إرادة الجمع، أي: السماوات منفطرة.

﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ أي: وعد ذلك اليوم حق واقع لا ريب فيه.

ويحتمل المعنى: كان وعد الله لكم بالبعث والنشور والجزاء والحساب مفعولًا لا ريب فيه(٥).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٨٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٥٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٧٥).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٩٩)، و«لسان العرب» (١٤/ ٣٩٩)، و«الإتقان» (٢/ ٣٤٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٧٦).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٥٦)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٥١).

(٤) ينظر: «تحرير التحبير» (ص٤٥٨) منسوبًا إلى جرير، و«جواهر البلاغة» (ص٣٠١) منسوبًا إلى معاوية بن مالك.

(٥) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٥١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٣).

* ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾:

أي: أن هذه الآية، أو هذه السورة، أو هذه الشريعة، تذكرةٌ لكم جميعًا، فتذكروا، وهي تذكرة، حتى لأولئك الذين أعرضوا وكذَّبوا وهدَّدوا وتوعَّدوا، فيعرض الله تبارك وتعالى عليهم طريق الأوبة إليه[١].

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ فالأمر بأيديهم وبمقدورهم، وهم حينما يقولون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥] كاذبون، فما الذي أدراهم أن الأمر متعلِّق بالمشيئة قبل أن يفعلوا؟! ولِم لم يعتقدوا أن الهداية والصلاح بمشيئة الله أيضًا؟! وهذا ما تبيِّنه الآية الكريمة، أن بمشيئتهم أن يتخذوا سبيلًا للطاعة يوصِّلهم إلى الله[٢].

ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة، ولو أرادوا الهداية لسلكوا سبيلها.

وهذا القسم الأول من السورة نزل بمكة.

ثم جاءت خاتمتها بالآية الطويلة التي نزلت بالمدينة على **الراجح**؛ لأن سياق هذه الآية الكريمة سياقٌ مدنيٌّ، كما هو ظاهر[٣]؛ وهي قوله تعالى:

* ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾:

فهذه من ثواب الله للنبي ﷺ في الدنيا، بعد سنواتٍ طوال من القيام والتهجد والتبتل والتضرع والتخشع والعبودية، ويكفيه أن يقول له ربه: إنه يعلم بنصبه

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٢٨٧- ٢٨٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٥١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٧٨)، والمصادر السابقة.

(٣) كما تقدم أول السورة.

وقيامه، كما قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧- ٢١٩]، فالله يعلم أنك تقوم نصف الليل، وتقوم ثلثه، وتقوم أقل من ثلثيه أو ثلثيه، كما أمرك ربك جَلَّ وعَزَّ.

﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ معية الصحبة والطاعة والاتِّباع والتأسِّي.

ويحتمل أن يكون المقصود: الذين يقومون ولو في بيوتهم ممن آمن معك.

أو الذين يقومون الليل معك مُؤْتَمِّين بصلاتك منصتين لقراءتك(١)، فربما توارد الصحابة إلى النبي ﷺ فصَلَّوْا بصلاته، كما في الحديث، أن رسولَ الله ﷺ اتخذَ حجرةً من حصير في رمضان، فصلَّى فيها ليالي، فصلَّى بصلاته ناسٌ من أصحابه، فلما علم بهم جعل يقعد، فخرج إليهم فقال: «**قد عرفتُ الذي رأيتُ من صنيعكم، فصلُّوا أيها الناسُ في بيوتكم؛ فإن أفضلَ الصلاة صلاةُ المرء في بيته إلَّا المكتوبةَ**»(٢). وفي حديث آخر: «**لكني خشيتُ أن تفرضَ عليكم، فتعجزُوا عنها**»(٣).

والمقصود: ثمة أناس يصلون معك، وقد يكونون من أزواجه أو من خاصة أصحابه، فكانوا يُصلون معه في السفر أو في الحضر، فالله تعالى يقول: هذه الطائفة ربك يعلمهم ويحصي قيامهم، ويكتب لهم الأجر والثواب، ويمنحهم هذه الفضيلة وهذا الشرف أن يذكرهم في كتابه بصحبة نبيه وقيامهم نصف الليل أو ثلثه أو نحوًا من ثلثيه(٤).

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾: **والتقدير:** تقليب الليل والنهار، فيزيد هذا وينقص

---

(١) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٣٨٥)، و«الكشاف» (٤/ ٦٤٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٩٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٨٢)، والمصادر الآتية.

(٢) أخرجه البخاري (٧٣١)، ومسلم (٧٨١) من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٩٢٤، ١١٢٩)، ومسلم (٧٦١) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٩٢)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥١٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٩/ ٤٨٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٢٤)، والمصادر السابقة.

ذاك، فيختلف الصيف عنه في الشتاء[١].

ومن هنا قال سبحانه: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾، **وأصل الإحصاء**: العدُّ بالحصى، فقد كان العرب يستخدمون الحصى في العدِّ، فسُمِّي: إحصاءً[٢]، **والمقصود**: لن تضبطوه ضبطًا تامًّا؛ لأن الليل لا ينضبط، ولا يستطيع الإنسان أن يعرف على وجه الدقة: كم ثلث الليل، وكم نصفه، ولا يعرف متى يبدأ ثلث الليل الآخر، فمثل هذه الأمور لا يستطيع أن يحصيها المرء بدقة[٣].

ومن معنى ذلك: أنه لن يستقيم لكم القيامُ بالأمر على وجهه التام[٤]؛ فالإنسان يُصيبه المرض والعجز والانشغال، وتضعف همته؛ ولهذا قال ﷺ: «**إن لكُلِّ عابدٍ شِرَّةً، ولكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ**»[٥].

فالعابد أحيانًا يقوى ويندفع ويتحمَّس، وأحيانًا يصيبه فتور وقعود وملل وسأم، وهذه جِبلَّة جبل الله تعالى العباد عليها.

وفي الآية درس عظيم، وهو: أن على الإنسان أن يكون معتدلًا، فلا يَشُقُّ على نفسه، ولا يُحمِّلها ما لا تطيق، ولا يثقل عليها، والنبي ﷺ يقول: «**اكْلَفُوا من العمل ما تُطيقونَ**»[٦]. أي: تكلَّفوا العمل الذي تستطيعونه، ولا تشُقُّوا على أنفسكم أو تحمِّلوها أثقالًا.

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٥٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٥٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٥)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٤٤). وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٦٥٩).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٨٣).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٥٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٥)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٤).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٥٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٢٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٥).

(٥) أخرجه أحمد (٦٧٦٤، ٦٤٧٧)، وابن خزيمة (٢١٠٥)، وابن حبان (١١) من حديث عبد الله ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأصله في «صحيح البخاري» (٥٠٥٢).

وأخرجه الترمذي (٢٤٥٣)، وابن حبان (٣٤٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) أخرجه البخاري (٦٤٦٥)، ومسلم (٧٨٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وأخرجه البخاري (١٩٦٦)، ومسلم (١١٠٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكم من الناس مَن حمَّل نفْسَه ما لا تطيق، ففُتن والعياذ بالله! كما ذكر النبي ﷺ عن بني إسرائيل في تعبدهم في الصوامع وانحرافهم عن دين الله(1).

وهذا الاعتدال منهج مطلوب في العبادة والدعوة والعمل والجهاد وغير ذلك؛ فلا تحَمِّل نفسك ما لا تطيق، ولا تحَمِّل الآخرين ما لا يطيقون، فتكلفهم وتشقَّ عليهم، وتَعَلَّم كيف تسوس زوجتك وتتعامل معها دون أن تشقَّ عليها، وتَعَلَّم كيف تعامل أولادك في البيت، وممَّ تمنعهم وبماذا تأمرهم، وكيف تربِّيهم، وتَعَلَّم كيف تعامل طلابك في المدرسة أو جيرانك أو عامة الناس.

وهذا يتأكد لمَن يخاطبون جماعات متنوعة ليست على طبيعة واحدة، بل هي طبقات وفئات وشعوب ومستويات في عصر الخطاب المعولم في القنوات الفضائية أو الإذاعات أو الشبكات الاجتماعية أو المواقع الإلكترونية أو الكتابة، فعَسْفُ الناس على المشقات لا خير فيه، والرفق بهم مأمور به محمود؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**سدِّدُوا وقاربوا**»(2).

وقال في حديثٍ آخر: «**إنكم لن تُطيقوا كلَّ ما أُمرتم به**»(3). أي: لن تطيقوه كله، فما من أحد من الناس إلا ويقع عنده تقصير أو عجز أو انشغال أو فتور في الهمة، والنفس البشرية تنتابها حالات مختلفة، وعلينا أن نراعي هذا في نفوسنا وفي الآخرين.

﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: سامحكم وغفر لكم، وحطَّ عنكم بعض ما أمركم به سبحانه، ولم يجعل قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ [المزمل: ٢- ٤] أمرًا حرفيًّا يشق عليكم ويعنتكم، أو يتحول عند بعضكم إلى محاسبة للنفس دقيقة، تتحول إلى العجز أو الوسوسة أو الانقطاع.

---

(١) كما في «سنن أبي داود» (٤٩٠٤)، و«مسند أبي يعلى» (٣٦٩٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن رسولَ الله ﷺ كان يقول: «**لا تشدِّدوا على أنفسكم، فيُشَدَّدَ عليكم، فإن قومًا شدَّدوا على أنفسهم فشدَّدَ اللهُ عليهم، فتلك بقاياهم في الصَّوامع والدِّيار** ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾ [الحديد: ٢٧]».

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٧)، ومسلم (٢٨١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٨٥٦)، وأبو داود (١٠٩٦)، وأبو يعلى (٦٨٢٦) من حديث الحكم بن حَزْن الكُلَفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «البدر المنير» (٤/ ٦٣٢- ٦٣٤).

﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾: قد يكون هذا في الصلاة؛ لأن الآية نزلت بعد فرض الصلوات الخمس في المدينة؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: لما فرضت الصلوات الخمس سقط عنهم وجوب قيام الليل[(١)]، فمن هنا قال: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: في صلاة الفريضة[(٢)].

وقال بعضهم: أي: في صلاة المغرب والعشاء، أو صلاة العشاء وصلاة الفجر[(٣)].

و﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ يصدق على كل قدر من القرآن تتيسر قراءته.

ولكن صحَّ في السنة- كما في حديث عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا صلاةَ لمَن لم يقرأْ بفاتحة الكتاب**»[(٤)]. فسورة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يتعيَّن على كل مصلٍّ أن يقرأها في كل ركعة[(٥)]، إلا أن يكون غير قادرٍ على قراءتها لحَدَاثَةِ عهده بالإسلام، أو لكونه أبْكَم، فيسقط عنه ذلك، أو يكون مأمومًا في الصلاة الجهرية فتكفيه قراءة إمامه، فإن سكت الإمام بين قراءة الفاتحة والسورة الأخرى قرأ في سَكَتَاتِه، وإلا فلا شيء عليه.

والتعبير بـ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ يشير للتيسير والتسهيل، وأن تقرأ ما حفظت، حتى من قصار المفصَّل، والرجل الذي قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، قال له النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حُبُّك إيَّاها أدخلكَ الجنةَ**»[(٦)]. وقال في الحديث الآخر: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٤٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٩٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٣٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٥٧)، والمصادر الآتية.

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٦٥)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٧٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٥٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٥٦)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٩٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٦).

(٤) أخرجه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤).

(٥) ينظر: «المجموع» (٣/ ٣٢٧)، و«المغني» (١/ ٣٤٤). وينظر: «فقه العبادة» (٢/ ١٦٩- ١٧٤).

(٦) أخرجه أحمد (١٢٤٣٢)، والبخاري معلقًا (١/ ١٥٥)، والترمذي (٢٩٠١)، وابن خزيمة (٥٣٧)، وابن حبان (٧٩٢)، والضياء في «المختارة» (٥/ ١٢٨- ١٢٩) (١٧٥٠) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تعدلُ ثلثَ القرآن»(1). مع أنها من قصار السور.

وكذلك «سورة العصر» فقد ورد أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا إذا التقوا، ثم أرادوا أن يفترقوا، قرأ أحدهم: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢...﴾ حتى يختمها(2).

وهذا متصل بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ [القمر: ٤٠]، وشاهد على تعهده سبحانه وتكفله بحفظ القرآن، ولكن من الناس مَن يشق عليهم الحفظ؛ لانشغالهم أو لكبرهم أو لكونهم لا يجدون في أنفسهم قدرةً عليه.

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ﴾: والمرضى محتاجون إلى النوم والرِّفق، ويشقُّ عليهم القيام، وكان عددهم أول الأمر قليلًا، والأعذار بينهم محصورة باعتبارهم جماعة ناشئة، ولكن الله علم أنهم سيكثرون ويزيدون وتتنوع ظروفهم وأحوالهم، فيحتاجون إلى التوسعة في التشريع، وهكذا يظهر الفرق البيِّن بين جماعة صالحة نشأت واحتضنت الشباب تربية ودعوة، فمن أعظم الخطأ أن تغفل عن أن طبيعة مجتمع الناس من حولها مختلفة عن طبيعتها، ولا يمكن انتظام الخلق كلهم في مجموعات أو جماعات، فيظل الناس على عادتهم وبساطتهم وسذاجتهم، ولا بد من توسيع أبواب العذر وتفهم ظروفهم.

﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: **والمقصود**: المسافرون؛ لأن الذي يمشي يضرب الأرض بقدميه، باعتبار أنه يمشي على قدميه، ثم أصبح ذلك معنى لكل مَن يسافر، كما قال الله: ﴿وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النساء: ١٠١]، أي: إذا سافرتم، وهذا أيضًا من الأعذار الموجِبة للتخفيف، فالسفر

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٣- ٥٠١٥) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (٨١١، ٨١٢) من حديث أبي الدرداء وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أبو داود في «الزهد» (٤٠٢)، والطبراني في «الأوسط» (٥١٢٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٦٣٩).

وقال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (٦/ ٥٣٩- ٥٤٠): «هذا حديث غريب جدًّا، ورواته مشهورون». وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٦٤٨)، وما سيأتي في «سورة العصر».

والغربة قطعة من نار[١]، وقد لا يتيسر للمسافر المسكن ولا الطعام الذي يريد؛ ولذا خُفِّف عنه الصوم والصلاة.

﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾: وهذا الاصطلاح يُقصد به: الرزق والتجارة[٢]، كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، أي: في الحج، فلا بأس بالبيع والتجارة في الحج[٣].

ولذلك إذا دخل الإنسان المسجد قال: «**اللهمَّ افتحْ لي أبوابَ رحمتك**». وإذا خرج قال: «**اللهمَّ إني أسألُكَ من فضلك**»[٤]؛ لأنه انتقل من العبادة إلى شؤون المعاش.

وهكذا قال سبحانه في يوم الجمعة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، أي: انشغلوا بالتجارة وطلب المعاش بعد أن مُنعتم من ذلك بخطبة الجمعة وصلاتها: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩].

والناس مطالبون بأن يضربوا في الأرض طلبًا للرزق والمعاش، وقد أحلَّها الله لهم وسلَّطهم عليها، بل جعل هذا من أبواب الخير، وقرنها بالقتال في سبيله دفاعًا عن دينه، فقال: ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في جهادٍ شرعي لحماية البَيْضة وإقامة الدولة، فجمع الله تعالى بينهما.

وهذا فيه إشارة وتوكيد على أهمية الضرب في الأرض، والاشتغال بالزرع والحرث والتجارة وأعمال الدنيا التي لا بد للناس منها، وهي سبب للرزق

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (١٨٠٤)، و«صحيح مسلم» (١٩٢٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**السفرُ قطعةٌ من العذاب**».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٩٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٦)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٨٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٥٠٢)، و«تفسير البغوي» (١/ ٢٢٨)، و«تفسير القرطبي» (٢/ ٤١٣)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٥٤٩).

(٤) أخرجه مسلم (٧١٣) من حديث أبي حُميد أو أبي أُسيد الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والاستغناء عن الناس، كما هي سبب للصحة والنشاط والحيوية وسعادة القلب.

والآية أشارت للجهاد في سبيل الله، ولعلها إرهاص وتعبئة للمؤمنين أن أسباب هذا الجهاد قد انعقدت وقرُب فرضها دفاعًا عن أنفسهم، قبل أن ينزل قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ [الحج: ٣٩].

﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ يعني: من القرآن، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: الصلوات الخمس المفروضة التي أصبحت واجبةً عليكم[1]، فلا تُقصروا فيها حضرًا ولا سفرًا، سواء كنتم مرضى أو غير مرضى.

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يا مَن تضربون في الأرض تبتغون من فضل الله، فالصلاة حق النفس في العبادة، والزكاة حق المال.

﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾ أي: فوق الزكاة، **والقرض**: هو العطاء، أي: أعطوا الله تعالى، وسماه: قرضًا، مع أن المال من عنده سبحانه، **والمقصود**: أن تتصدَّقوا، ليوفيكم يوم القيامة أجورًا مضاعفة، فأعطوا الفقير والمسكين وابن السبيل، شيئًا فوق الزكاة، فهو على سبيل الندب والاستحباب، أو على سبيل الوجوب إذا وُجد ما يدعو إلى ذلك، مثل: أوقات الضرورات، والفاقة، والحاجة الشديدة، فإنه يتعيَّن ويتوجَّب على أهل الغنى واليَسار أن يرفقوا بإخوانهم المسلمين؛ لقول الله: ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾، وسماه: ﴿حَسَنٗاۚ﴾ لئلا يكون فيه مِنَّة، وليكون طيبًا غير خبيث[2]، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗىۙ﴾ [البقرة: ٢٦٢]، وقال: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ﴾ أي: ستجدون ما قدمتم عند الله تعالى خيرًا مما قدمتموه، والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٧٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٥٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٨٧).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٨٨).

ولم يحدِّد الأجر هنا؛ لأن هذا يختلف بحسب صِدْق النية، وبحسب الفاقة والحاجة، وبحسب الغنى، وقد جاء في الصحيح: «**سَبَقَ درهمٌ مائةَ ألف درهم**»(١). وصحَّ عنه ﷺ لما سُئل: أيُّ الصدقة أفضلُ؟ قال: «**جُهْدُ المُقِلِّ**»(٢).

والتاجر بطبعه يميل للحساب، ويقارن بين الفرص التجارية؛ ولذا أكدَّ أنهم سيجدونه ولن يضيع، بل سيجدونه خيرًا وأعظم مما أعطوه، وفي الآية الأخرى حدَّد لهم نسبة الربح بدقة؛ ليحسنوا الأمور جيدًا، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢٦١].

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: أمر بالاستغفار في ختم العبادة؛ إشعارًا للنفس بتقصيرها؛ حتى لا يدخلها العُجب بالعمل، ولأنه قال: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ أي: لن تحصوا الصلاة ولا العمل ولا القرض، ولكن ابذلوا وقدِّموا واستغفروا الله على التقصير؛ ولهذا كان النبيُّ ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا(٣).

وهكذا في الحج أمرنا الله بأن نستغفر الله ونحن نتقلب بين المناسك: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٩٩﴾ [البقرة: ١٩٩]، فقد كان ﷺ يستغفر، كما استغفر ليلة جَمْع، يعني: ليلة مزدلفة(٤).

لقد شرع الله الاستغفار عقب الأعمال الصالحة؛ لأن العمل قد يُداخله نقص أو انشغال أو انصراف ذهن، أو تقصير في الطهارة، أو في حضور القلب، أو في النية، أو في أشياء ربما يذهل عنها، زد على ذلك أن العبد مهما عمل فإنه يظل

---

(١) أخرجه أحمد (٨٩١٦)، والنسائي (٥/ ٥٩)، وابن خزيمة (٢٤٤٣)، وابن حبان (٣٣٤٧)، والحاكم (١/ ٤١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٨٧٠٢)، وابن زنجويه في «الأموال» (١٣٣٤)، وأبو داود (١٦٧٧)، وابن خزيمة (٢٤٤٤، ٢٤٥١)، وابن حبان (٣٣٤٦)، والحاكم (١/ ٤١٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٥٦٦)، و«إرواء الغليل» (٨٣٤).

(٣) أخرجه مسلم (٥٩١) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «صحيح مسلم» (١٢١٨).

مقصرًا، قال الله: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ [عبس: ٢٣].

ثم إن الاستغفار يقطع الطريق على العُجب بالعمل أن يتسلَّل إلى القلب، ويشعر المستغفِر أنه على تقصير ونقص مهما اجتهد في الإتقان.

فكفى بالإنسان إثمًا أن يقدِّمَ عملًا ثم يتبعه بالإدلال[1] على ربه بهذا العمل، أو يظن أنه أدَّى ما عليه، أو قام بما يلزمه، ولو أنه قضى عمره كله في سجدة واحدة لربه ما أدَّى شكر نعمته، ولكنه يطلب منا القليل، ويسامحنا على الكثير، ويوصينا أن نستغفره عقب الأعمال الصالحة، وإذا كان الله يأمر محمدًا ﷺ والصحابة وأمهات المؤمنين بعد قيام الليل وبعد صيام النهار وبعد القرض الحسن أن يستغفروه فكيف ونحن أصحاب الذنوب والإسراف والظلم؟!

أستغفر الله العلي العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه.

❍ ❍ ❍

(١) أي: المنة والافتخار. ينظر: «تاج العروس» (٢٨/ ٥٠١- ٥٠٢) «ب ت ل».

سُورَةُ المُدَّثِّرِ

*** تسمية السورة:**

هي من السور ذات الاسم الواحد، كما في المصاحف، وكتب التفسير والسير والحديث: «**سورة المدَّثِّر**»(١).

*** عدد آياتها:** ستٌّ وخمسون آية عند أهل الشام وأهل المدينة، وخمس وخمسون عند أهل الكوفة والبصرة(٢).

وهذا الاختلاف لا يعني زيادة في أحرف القرآن أو نقصانًا، فهم يختلفون أحيانًا في بعض الآيات، فإنها قد تُقسم عند بعضهم إلى آيتين، وعند آخرين هي آية واحدة.

*** وهي مكية** بإجماع أهل العلم، ذكره ابن عطية، وغيره(٣).

ورُوي عن مقاتل وغيره في إحدى آيات هذه السورة أنها نزلت بالمدينة؛ وهي قوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ

---

(١) ينظر: «تفسير الشافعي» (٣/ ١٤١١)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٦١)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٤٢٨)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٠٠)، و«المستدرك» (٢/ ٥٠٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٦٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٩١).

(٢) وقد اختلفوا في آيتين: ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠﴾، و﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٥٨)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٨)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٩٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٥٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٥٩)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٠٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٩١).

رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾، وهو غريب(١).

وهي أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ بعد فترة الوحي.

وقد جاء في «الصحيحين» ما يدل على أن أول ما نزل من القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، فروى جابر رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال- وهو يحدِّث عن فترة الوحي-: «**بينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتًا من السماء، فرفعتُ بصري، فإذا المَلَك الذي جاءني بحِراءٍ جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض، فرُعِبْتُ منه، فرجعتُ فقلتُ: زمِّلوني زمِّلوني**». فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ...﴾، فحمي الوحي وتتابع(٢).

ولكن في هذه الرواية ما يؤكِّد أن «سورة ﴿ٱقْرَأْ﴾» هي أول ما نزل؛ لأن حديث جابر فيه ذكر المَلَك الذي جاءه بحراء، وقد جاءه في حراء بـ«سورة ﴿ٱقْرَأْ﴾»، وفيه أنه قد عرفه، وأنه طلب من خديجة أن تزمِّله، ثم حمي الوحي بعد ذلك.

فعلى هذا يكون معنى أول ما نزل «سورة المدثر»، أي: أول ما نزل بعدما فتَرَ الوحي، فقد جاء الوحي أول ما جاء إلى الرسول ﷺ بـ﴿ٱقْرَأْ﴾، ثم فتَرَ- كما في حديث عائشة رضي الله عنها- ثم عاوده الوحي بـ«سورة المدثر»، فهذا هو الجمع بين الأقوال، وهو الصحيح، كما رجَّحه عامة علماء التفسير والسير(٣).

وهو ما يقتضيه النظر؛ فإنه ﷺ نُبِّئ بـ﴿ٱقْرَأْ﴾، وأُرسل بـ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، فكانت ﴿ٱقْرَأْ﴾ نبوءة له، وكانت ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ رسالة، فقيل له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

وهذه المدة التي فتَرَ فيها الوحي، قال بعضهم: إنها سنتان. وهذا خطأ،

---

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٥٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٩١).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٤، ٤٩٢٥)، و«صحيح مسلم» (١٦١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٢٧- ٥٣٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٠٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٠١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٠٠)، (٣٢/ ٢١٥)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١١٦)، (٢٠/ ١١٧)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٠٣)، (٨/ ٢٦١، ٤٣٦)، و«فتح الباري» (١/ ٢٨)، (٨/ ٦٧٨، ٧١٤- ٧١٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٥٨)، (٣٠/ ٤٣٣)، وما سيأتي في أول «سورة العلق».

والصواب: أنها أيام، **قيل**: خمسة عشر يومًا، **وقيل**: كانت نحوًا من أربعين يومًا، وهو **الأقرب**(١).

وهي سورة النِّذارة، وقد نزلت ولم يكن يومئذٍ قرآنٌ يُتلى عند الناس، فكل معانيها جديدة وقوية ومؤثِّرة.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ①﴾:

أي: المتدثِّر(٢)، **والدِّثار**: الغطاء(٣)، وما كان تَدَثُّر النبي ﷺ إلا من فُجاءة الوحي الذي لم يكن يرتقبه، فأصابه بسبب ذلك رعب ورهبة.

وفيه إشارة إلى أن النبي ﷺ لم يكن متطلِّعًا إلى شيءٍ مما أعطاه الله إيَّاه، وقد كان في مكة والجزيرة العربية مَن يتطلَّع إلى النبوة ويشرئب إليها، كأمية بن أبي الصَّلْت(٤)، فاختار الله تعالى نبيًّا لم يكن هذا أمَلَه ولا من طَلَبِه ولا من تَطَلُّعِه، فلم يكن يتطلَّع إلى مجد أو مكانة، ووجَّه إليه خطابًا خاصًّا مباشرًا، أي: أنت على وجه التعيين والتحديد مَن اختارك الله من بين جميع البشر، وقد جاء في الحديث: «**إن الله نَظَرَ إلى أهل الأرض، فَمَقَتَهُم، عَرَبهم وَعَجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب**»(٥). ثم نظر فوجد قلب النبي ﷺ أصفاها وأصدقها وأصحها فاختاره لهذه الرسالة العظيمة.

والدِّثار: الثوب، وهو مقابل الشِّعار الذي يلي الجسد، وسمِّي: شِعارًا؛ لأن

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٣١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٩٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩٢)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (١/ ٤١٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٩٣)، (٣٠/ ٤٤٣)، و«التفسير البياني للقرآن الكريم» (١/ ٣٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٠٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٥٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٩٤).

(٣) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣٠٨)، و«لسان العرب» (٤/ ٢٧٦)، و«تاج العروس» (١١/ ٢٧٢) «د ث ر».

(٤) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٣٠٦)، و«تفسير البغوي» (٣/ ٣٠٣)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٣٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٩/ ١٧٤).

(٥) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عِياض بن حمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الإنسان يشعر به، وأما الثوب الذي يراه الناس فيسمَّى: دِثارًا[1]، كما جاء في الحديث الصحيح: «**الأنصارُ شِعارٌ، والناسُ دِثارٌ**»[2]. أي: الأنصار مثل الثوب الذي يلي جسدي، والمقصود بهذا: قرب الأنصار من النبي ﷺ، وفيه إشارة إلى أنهم لن يكونوا أصحاب رئاسة وسلطة وولاية، فعلاقتهم به روحية صرفة[3].

بناءً على هذا فيمكن أن يكون المقصود بالتدثر هنا: ما دثَّره الله به وخصَّه وأعطاه من النبوة والعلم والوحي[4]، فالثوب لا يُطلق فقط على الثوب المادي، بل يُطلق على الثوب الحسِّي وعلى الثوب المعنوي، كما قال: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾، وكثيرًا ما يُطلق الثوب على السُّمعة والمال والجاه والمظهر، كما قيل:

مُـدَثَّـر بـرداء الـوحـي جلَّله ... نورٌ من الله لا صوف ولا خزفٌ

وفي تفسير ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ مزيد بيان في المقارنة بينهما.

* ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾:

الأمر هنا ليس طلبًا للقيام فحسب، بل هو دعوة للشروع في جهاد تبليغ الرسالة، فأنت عند ما تقول: فلان قام بهذا الأمر، أو وَلِيَ هذه الولاية، فقام بها خير قيام، فليس المقصود أنه قام على قدميه، وإنما أدَّى عمله على أكمل وجه[5].

وتتضمن الكلمة: القيام من النوم، وقد كان النبيُّ ﷺ قليل النوم بعد ذلك، وفي الآيات الأخرى يخاطبه الله فيقول: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزمل: ٢]، فكان ﷺ لا ينام من الليل إلا قليلًا.

وقد امتثل ﷺ هذا الأمر، وباشر الإنذار والصَّدْعَ بالدعوة، فقام على الصفا

---

(١) ينظر: «غريب الحديث» للقاسم بن سلَّام (١/ ٣١١)، و«لسان العرب» (٤/ ٢٧٦) «د ث ر»، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (٧/ ١٥٧)، و«فتح الباري» (٨/ ٥٢).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٠٤)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٩٤).

(٥) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٩٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٩٤).

وقال: «**يا صباحاهْ!**». فاجتمعت إليه قريشٌ، فقال: «**إني نَذِيرٌ لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديد**»(١).

أمره أن ينذر، ولم يبيِّن مَن هم الـمُنذَرون، فلم يقل: «أنذر أهل مكة، أو العرب، أو الناس»، وإنما قال: «أنذر»؛ ليكون ذلك شاملًا لكل الناس، عَرَبهم وعَجَمهم، حاضرهم وقادمهم، فكانت هذه الآية دليلًا على شمولية رسالته وخلودها.

ولم يبيِّن بِمَ يُنْذِر؟ فلم يقل: «أنذرهم النار»، أو «أنذرهم الموت»، أو «أنذرهم العقاب»، وترك الأمر مفتوحًا؛ ليشمل كل ما يُنذر به من العذاب في الدنيا والآخرة، فمع هذا الاختصار في اللفظ إلا أنه يدل على الشمولية والتوسع في كل ما يُنذر.

وهذه الآية متضمنة رسالة النبي ﷺ ووظيفته في الحياة.

*** وتضمنت السورة الكريمة سبع وصايا، هي من جوامع الحِكَم والأوامر الربانية، وهي للنبي ﷺ، ولكل العلماء والدُّعاة والمصلحين؛ لشدة حاجتهم إليها، وهي:**

١- **القيام بهذا الأمر والحرص عليه والاستعداد لتبليغه**، وليس مجرد الشعور العابر، فقد كان يوجد في الجاهلية الحنفاء، من أمثال: زيد بن عمرو بن نُفَيل، وأُميَّة ابن أبي الصَّلْت، وكانوا يستنكرون عبادة الأوثان، ويرفضون كثيرًا من معتقدات الجاهلية الفاسدة، وقد كان زيدٌ يقول(٢):

عزلتُ اللَّاتَ والعُزَّى جميعًا ... كذلك يفعل الجَلْدُ الصبورُ
فلا العُزَّى أَدِينُ ولا ابنتيها ... ولا صَنَمَيْ بني عمرو أزورُ
ولكن أعبدُ الرحمنَ ربي ... ليغْفِرَ ذنبيَ الرَّبُّ الغفورُ

(١) أخرجه البخاري (٤٨٠١)، ومسلم (٢٠٨) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) ينظر: «الأصنام» للكلبي (ص٢١- ٢٢)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٢٦- ٢٢٧)، و«سبل الهدى والرشاد» (٢/ ١٨٤).

٢- **النِّذارة بشموليتها لمَن توجَّه إليهم**، وعمومها لكل أمر مخوف قادم يجب أن يحذروا منه ويستعدوا له.

٣- ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾: فالقيام بالنِّذارة ليس مشروعًا شخصيًّا، ولا مجدًا ذاتيًّا، ولا عزًّا هاشميًّا، وليس قيامًا لفرد أو قبيلة أو جنس أو بلد، بل هو قيام لله، كما قال سبحانه: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ۝٢٣٨﴾ [البقرة: ٢٣٨].

ولذا أمره بالتكبير، فالله تعالى هو الكبير، والدعوة له وحده لا شريك له.

ويدخل في هذا: أن تقول: «الله أكبر»، فهو من تكبير الله[(١)]، ولم تكن الصلاة يومئذٍ مفروضة؛ لأن هذه السورة من أول ما نزل.

ولا يمنع أن يكون هذا إرهاصًا بمشروعية الصلاة وتمهيدًا لها، لا سيما أنه أمره بعد ذلك بطهارة الثياب، وكأن هذا الأمر تمهيد لعبادة معينة[(٢)]، والصلاة تبدأ بالتكبير، كما هو معروف، لكن النص أوسع من هذا؛ لأن المقصود بتكبير الله سبحانه: تعظيمه بلفظ: «الله أكبر»، وبمعرفته سبحانه وبأسمائه وصفاته وأفعاله، وبالعبودية له، وامتلاء القلب بإجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونفي ما يقول المشركون عنه من النقص والعيب بالتسبيح والتنزيه.

ومن معاني التكبير: العبادة، فلا يعبد إلا الله تعالى؛ عبادة القلب واللِّسان والجوارح، ويشمل توحيد الله وترك عبادة غيره[(٣)]؛ لأنه سبحانه لما قدَّم اسم «الرب» على الفعل الذي هو التكبير، صار حصرًا وقصرًا أَلَّا تكبِّر تكبير التأليه إلا لله، ولا تعبد سواه، ولا تعظِّم غيره[(٤)].

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٨٩)، و«الكشاف» (٤/ ٦٤٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٦٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٩٦).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٩٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٠٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٦٢)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٩٦).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٤٥)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٥٦٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٢٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٤٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٩٥).

٤- ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾: **والمقصود**: أَلَّا تكون الثياب نجسة، بل تكون طاهرة نظيفة[١].

وطهارة الثياب في الصلاة شرط لصحتها عند الفقهاء[٢]، والله تعالى يقول: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وحسن الثياب وجمالها أمر مطلوب، وفي الحديث عند الترمذي: «**إن اللهَ نظيفٌ، يحبُّ النظافةَ**»[٣]، وهو حديثٌ غريب، ولكن جاء في «صحيح مسلم»: «**إن اللهَ جميلٌ، يحبُّ الجمالَ**»[٤].

فحُسن الثياب كان من هَدْي النبي ﷺ حتى في أول الدعوة؛ ليكون كالشَّامَةِ بين الناس في جمال المظهر والمَخْبَر.

ومن طهارة الثياب: أن تكون طيبة حلالًا، فلا تكون مغصوبةً، أو من مال حرام، وإنما تكون من رزقٍ حلال، ومن لبس حلال؛ ليست حريرًا، ولا لباس فتنة[٥].

ويدخل في الثياب المعنوية: سمعة الإنسان، كما ذكر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وغيره: أن سُمعة الإنسان تسمى: ثوبًا[٦]، وكان غَيْلان بن سلمة الثقفي يقول[٧]:

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٠٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٦٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٩٧).

(٢) ينظر: «بدائع الصنائع» (١/ ١١٤)، و«منح الجليل» (١/ ٢٠٧)، و«المجموع» (٣/ ١٣١)، و«المغني» (٢/ ٤٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٧٩٩)، والبزار (١١١٤)، وأبو يعلى (٧٩٠، ٧٩١) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «العلل المتناهية» (١١٨٦)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٣٦)، و«السلسلة الضعيفة» (٧٠٨٦).

(٤) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٠٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٦٥)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٣٨٦)، والمصادر السابقة.

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٠٥)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٦٨)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٣٤٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٢٥)، والمصادر السابقة والآتية.

(٧) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٩٥)، و«تهذيب اللغة» (٦/ ١٠٠)، و«التذكرة الحمدونية» (٣/ ٨)، و«لسان العرب» (١/ ٢٤٥).

فإني بحمد الله لا ثـوبَ غـادرٍ   لبستُ ولا مـن خـزيـةٍ أتقنَّعُ

يقول: ما لبستُ ثوبَ غدر أو غيلة أو تغرير أو خيانة، ولا تقنعت وتسترت من خطأ أو انحراف أو خزي.

والدِّين ثوب، كما في رؤيا النبي ﷺ لعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وعليه ثوب يجرُّه، وفسَّره بالدِّين[1]، والأخلاق الحسنة ثوب، والإحسان إلى الناس ثوب، وقد قال ﷺ: «**مَثَلُ البَخيل والمُنْفق كمَثَل رجلين عليهما جُبَّتان من حديد، من ثُدِيِّهما إلى تَرَاقيهما، فأما المُنْفقُ فلا يُنفقُ إِلَّا سَبَغَتْ- أو: وَفَرَتْ- على جلده، حتى تُخفيَ بنانه وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ**..»[2]. أي: تسحب وراءه مثل الثوب الطويل الذي يسحب، فهكذا ثوب المنفق المتصدق.

والعرب كانت تمدح الإنسان بطهارة الثوب، كما في قول أبي تَمَّام[3]:

مَـضى طاهِرَ الأَثواب لَم تَبقَ رَوضَةٌ   غَـداةَ ثَـوى إِلَّا اشْـتَهَت أَنَّهـا قَبـرُ

وكانوا يقولون: فلان نقي الثوب، نقي الجيب، أي: لا تلحقه سُبَّة.

٥- ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥﴾:

﴿وَٱلرُّجۡزَ﴾: بضم الراء وكسرها قراءتان سبعيتان[4]، ومعناهما متقارب، ويُطلق الرِّجْز على العذاب[5]، قال تعالى: ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ

---

(١) كما في حديث أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**بينا أنا نائمٌ رأيتُ الناسَ عُرضوا عليَّ، وعليهم قُمُصٌ، فمنها ما يبلغُ الثُّدِيَ، ومنها ما يبلغُ دونَ ذلك، وعُرِضَ عليَّ عمرُ وعليه قميصٌ اجترَّهُ**». قالوا: فما أوَّلْته يا رسولَ الله؟ قال: «**الدِّينَ**». ينظر: «صحيح البخاري» (٣٦٩١، ٧٠٠٨)، و«صحيح مسلم» (٢٣٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٤٣)، ومسلم (١٠٢١) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) ينظر: «ديوان المعاني» (٢/ ١٧٦)، و«الحماسة المغربية» (٢/ ٨٥٧)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» (٥/ ٢١٠).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤١٠)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٥٩)، و«معاني القراءات» للأزهري (٣/ ١٠٢)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢١٦)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٣)، و«معجم القراءات» (١٠/ ١٥٨).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤١٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٤٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٤٠٦- ٤٠٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٦٥)، و«الكشاف» (٤/ ٦٤٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٦٦- ٦٧).

مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٣٤﴾ [الأعراف: ١٣٤].

ويُطلق على الأصنام[١]، والنبيُّ ﷺ لم يسجد لصنم في الجاهلية قط، ولا طاف ولا تمسَّح به، فيكون تأكيدًا لترك الأصنام، ودعوة إلى الثبات على ذلك.

وهجر الأصنام: البعد عن كل ما يلابسها؛ كعدم الأكل مما ذُبح للأصنام، وقد كان النبيُّ ﷺ لا يأكل مما ذُبح على النُّصُب[٢]، وكان قبل البعثة بمعزل عنها، حماه ربه من كل ما كان عليه أهل مكة من عبادتها أو التقرب إليها أو الذبح لها أو القسم بها أو النذر أو الاستقسام أو غير ذلك من صور التعظيم.

وقد يكون من معاني هجر الرُّجْز- وإن لم أجد مَن ذكره في هذا الموضع-: عدم سبِّها بما يُفضي إلى سبِّ الله تعالى، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. فهذا كقوله: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾، وكان ﷺ حريصًا على هدايتهم واختيار أفضل الطرق لدعوتهم.

ويُطلق **الرُّجْز** على الشيطان وعلى المعاصي[٣]؛ ولذا وصف الله الخمر والميسر والأنصاب والأزلام بأنها رجس من عمل الشيطان، وأمر باجتنابها في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [المائدة: ٩٠]، **والاجتناب**: الهجر[٤].

وكان ﷺ مجتنبًا لكل هذا، حتى قبل أن يُبعث[٥]، فالآية تحمل الثناء عليه

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤١٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٦٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٤)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٦٤)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٥)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «مسند الطيالسي» (٢٣١)، و«مسند أحمد» (١٦٤٨)، و«صحيح البخاري» (٣٨٢٦، ٥٤٩٩)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ١٣٠- ١٣١)، و«العواصم والقواصم» (٣/ ٢٣٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤١١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٩٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٤)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٥).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٨/ ٦٥٦)، و«تفسير القرطبي» (٦/ ٢٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٧/ ٢٥).

(٥) ينظر: «فتح الباري» (٧/ ١٤٤)، و«خاتم النبيين» لأبي زهرة (١/ ١٥٨).

بامتثاله أمر الله، حتى قبل أن يُوحى إليه، وتحمل تأكيد الاستمرار على ذلك، وتحمل دعوة الناس جميعًا إلى هذا.

٦- ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾:

أي: إذا أعطيت فلا تَمُنَّ، وقد كان ﷺ كريمًا معروفًا بالعطاء والسَّخَاء قبل البعثة وبعدها[١].

تَــراهُ إذا مــا جِـئـتَـهُ متَهَلِّلًا ... كأَنَّكَ تُعطيهِ الَّذي أنت سائِلُه[٢]

ما قال: «لا» قطُّ إلَّا في تشهُّده ... لولا التشهُّد كانت لاؤه: «نَعَمُ»[٣]

وفي الحديث أن خَدِيجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت له: «والله، لا يخزيك اللهُ أبدًا؛ إنك لتَصِلُ الرحمَ، وتحملُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدومَ، وتَقْرِي الضيفَ، وتعينُ على نوائب الحقِّ»[٤]. فهذه بعض خصاله قبل بعثته[٥].

فهو هنا يقول: لا تنتظر من الناس أن يردُّوا لك أكثر مما أعطيت[٦].

وقيل: هذا خاصٌّ بالنبي ﷺ، وأما عموم الأمة فللإنسان أن يعطي ويُهدي هدية ويرجو أكثر منها[٧].

والمعنى الأوسع: لا تنتظر من الناس ردَّ الجميل، فليس مؤكَّدًا أن يردُّوا لك الجميل، والذي ينتظر ردَّ الجميل ربما يُصدم بأن كثيرًا من الناس يقابلون الإحسان

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٣١٢) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ما سُئل رسولُ الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، قال: فجاءه رجلٌ، فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم، أسلموا؛ فإن محمدًا يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة».

(٢) ينظر: «ديوان زُهير بن أبي سُلمى» (ص٩٢).

(٣) ينظر: «ديوان الفرزدق» (ص٥١٢).

(٤) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٥) ينظر ما سيأتي في «سورة الضحى»: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾.

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤١٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٦٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٤).

(٧) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤١٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٥٥)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٩٠)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٥).

بالإساءة.

لا تَغْتَرِرْ ببني الزمانِ ولا تَقُلْ عند الشدائدِ: لي أخٌ ونَدِيمُ
جربتُهم فإذا المُعاقِرُ عاقرٌ والآلُ آلٌ والحَمِيمُ حَمِيمُ(١)

ويقول عنترة(٢):

نُبِّئتُ عَمرًا غيرَ شاكرِ نِعمَتي وَالكُفرُ مَخبَثَةٌ(٣) لنَفسِ المُنعِمِ

فالإنسان الذي يعطي الناس وهو ينتظر الردَّ سوف يفاجأ بعكس ذلك.

والأب ربما يفقد ثقته بأولاده فيقول: ربيتهم صغارًا ثم أهملوني كبارًا، وتجاوزوني ونسوا فضلي، والشريك والأخ والزوج والمولى وابن العم والجار.. فكيف بالبعيد؟!

ولذلك نهانا الله عن المَنِّ بالعطاء وانتظار الجزاء من الناس، وأمرنا بالإخلاص واحتساب الأجر، وحكى قول المؤمنين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان: ٩]، ومَن أعطى وهو ينتظر ويرجو أن يكسب قلوب مَن أعطاهم، وأن يقفوا معه في الشدائد، أو يوافقوه في دعوته، فسيطول انتظاره ويخيب رجاؤه كثيرًا، وربما حمله ذلك على الانقطاع عن العطاء؛ لأن الوقائع سوف تثبت له أنهم يجاملونه ثم يتخلون عنه ويتنكرون أو يجدون مَن يعطيهم أكثر.. أما إن أعطاهم إيمانًا واحتسابًا، فلن يتوقف عن العطاء مهما وجد من النكران.

ومن معانيها: أَلَّا تنتظر من الناس جزاءً ولا شكورًا على دعوتك لهم إلى الخير والبر وعبادة الله(٤)، وقد عَلِمَ ربنا سبحانه أن النبيَّ ﷺ مقبل على مهمة جليلة جسيمة هي الأكبر في التاريخ، فهو قائد أكبر حركة وأكبر نهضة وأعظم أمة، فكم أجرى تعالى على يديه من الخير لمَن آمن به وحتى لمَن لم يؤمن به! فهو رحمة

(١) ينظر: «معجم الأدباء» (٥/ ٢٢٠٧)، و«الوافي بالوفيات» (٢٤/ ١٠٠) منسوبًا إلى الحريري.

(٢) ينظر: «ديوان عنترة» (ص٨٣).

(٣) أي: مفسدة. ينظر: «تاج العروس» (٥/ ٢٣٥) «خ ب ث».

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤١٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٦٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٤).

للعالمين، وعليه أَلَّا ينتظر من الناس ردَّ ذلك، فلا يستكثر ما أَعْطَى، فمهما أَعْطى فهو قليل، وفي ذلك تربية للمسلم لكي لا يكبر في عينه عمله؛ لأن هذا قد يفضي إلى العُجب بالعمل، وبعض الدعاة إذا ألقى كلمة في مسجد خُيِّل إليه أن هذه الكلمة سوف تُغير وجه التاريخ.

وقد يعمل أحدنا العمل اليسير، كالاستغفار، وهو مطلوب، ويظن أنه عمل شيئًا لم يأت به الأولون والآخرون، وقال الشاعر[1]:

وإنِّي وإن كنتُ الأخيرَ زَمَانُه ... لآتٍ بما لم تستطِعْهُ الأوائلُ

عليك أَلَّا تستكثر العمل الذي تقوم به، فهذا مما ربَّى الله تعالى عليه نبيه محمدًا ﷺ، وسواءً كان هذا مع القريب؛ كالعلاقة بين الزوجين، أو بين الآباء والأبناء، أو بين الشركاء، أو بين التلاميذ والشيوخ، أو بينك وبين سائر الناس.

وعلى المسلم أَلَّا يطلب رد الجميل الذي عمله، وأَلَّا يستكثر العمل الذي قدَّمه، بل يحمد الله الذي وفَّقه إليه، وجعل بعض حاجات الناس عنده، واستعمله في خير أو إحسان.

* ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾:

وهي خاتمة الوصايا، والصبر هو إِكْسير الحياة، وهي ضرورة للعبادة: ﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾ [مريم: ٦٥]، وضرورة للعلم والصحبة: ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۝٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ [الكهف: ٦٧ - ٦٨].

وقدَّم قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ إشارة إلى أن الصبر المطلوب المثاب عليه هو ما كان لله تعالى، بخلاف الصبر من أجل مصالح الدنيا ومكاسبها، فهو تعالى أمر نبيه بأعلى درجات الصبر؛ وهي أن يكون صبره لله، ليس صبرًا للدنيا أو من أجل الحصول على نجاح أو مجد.

ومن معاني الآية الكريمة: الصبر لحكم الله[2]، كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ

---

(١) ينظر: «الحماسة المغربية» (١/ ٧٦٦)، و«وفيات الأعيان» (١/ ٤٥٠) منسوبًا إلى أبي العلاء المَعَرِّي.

(٢) ينظر: «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٥٣٨)، و«روح البيان» (١٠/ ٢٢٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٢٩٩).

رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨]، فالله تعالى هو الذي يحكم بين الناس، كما قال: ﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾ [يونس: ١٠٩]، أي: لا تعجل بنفسك ولا تستعجل العقوبة لمَن أخطأ، ولا تستعجل الحكم ولا تستعجل الأمر(١).

وهذا مما يُبتلى به كثير من الناس، فيضعف إيمانهم بحكمة ربهم، حتى إن أحدهم لعجلته وقلة صبره كأنما ينازع ربه حكمه وتدبيره، والعبد يعجل والله تبارك وتعالى حكيم حليم لا يعجل لعجلة عبده.

ومنه الصبر لحكمه الشرعي؛ في أوامره ونواهيه، وأحكامه وتشريعاته، فهو من البلاغ المبين الذي أمره ربه أن يتمثله قولًا وفعلًا(٢).

فهذا المقطع الأول من السورة، وهو مجموعة وصايا تتعلق بالدعوة والأخلاق والعطاء والكرم وسلامة النفس والصبر، ومن لم يعمل بها فلن يستطيع أن يقوم بأمر الله حق القيام.

* ثم انتقل السياق إلى موضوع آخر، وهو التذكير بمعنى من أعظم معاني الرسالة؛ وهو البعث: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ٨﴾:

وهذه الآية الوحيدة التي فيها ذكر ﴿ٱلنَّاقُورِ﴾، وهو: الصُّور الذي يُنقر فيه، أي: يُنفخ فيه(٣)، كما قال الله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨﴾ [الزمر: ٦٨]، وهو قَرْنٌ، أو بُوقٌ، الله تعالى أعلم بصفته.

وعند ما نقول: هو قَرْن، أو بُوق، فلا يذهب بك الظن والوهم والخيال إلى أنه من جنس ما تعرف من القرون والأبواق التي يُنفخ فيها، ولو حاولت أن تبالغ

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٣٠٦)، و«تفسير الماتريدي» (٦/ ٩٣).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٦٩)، و«التفسير المظهري» (١٠/ ١٢٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤١٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٤٦)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٠)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٠).

وتتصور بوقًا أو قرنًا بحجم مدينة أو بحجم الأرض أو.. أو.. فلن يفلح خيالك أن يتصوره، إنها مجرد كلمة للوصف أو التقريب، أما تصورها فكل ما خطر عنها بخيالك فأمرها أعظم من ذلك، والعقل قاصر عن تصور الأمر على حقيقته.

والخبر جاء مجملًا دون تفصيل، وهو ليس من أمر الدنيا ومادياتها، وإنما هو من أمر الغيب ومن أمر الآخرة، فلا يقدر قدره إلا الله تعالى، ومهما تخيَّل الإنسان فأحوال الدنيا لا تقاس بأحوال الآخرة.

والنَّقْر: هو الضرب والطَّرْق بشدة[1]، وهنا عبَّر بالنَّقْر في النَّاقُور، وفي سور أخرى عبَّر بالنَّفْخ في ﴿ٱلصُّورِ﴾[2]، وهو أكثر، وهما لفظان لمعنى واحد، الله أعلم به، فنحن لا ندري كيف ينفخ حتى نقول: إن النَّقْر مختلف عنه، فهي من أمور الغيب التي يَصْدُقُ عليها أنها «نَقْر»، وأنها «نَفْخ»، وهو الصُّور، وهو ﴿ٱلنَّاقُورِ﴾، وإسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي ينفخ، والله وحده هو الذي يعلم كيف ينفخ.. **والمقصود**: الاعتبار والخوف من هول ذلك الموقف، فهو ينقر في القلوب ويثير الفزع لدى الخلق أجمعين.

* ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ٩﴾:

«**ذلك**» اسم إشارة إلى اليوم الذي نُقِرَ فيه ﴿ٱلنَّاقُورِ﴾، و«**إذا**» في قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾ تُوحي بالزمان، ففي صبيحة ذلك اليوم ينقر في ﴿ٱلنَّاقُورِ﴾، ومن عادة العرب أنهم يصفون اليوم بما يُلابسه من الأحوال، فيقولون: هذا يوم نَحْسٍ، كما قال سبحانه: ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩﴾ [القمر: ١٩]، أو يقولون: هذا يوم سَعْد؛ لأنه يوم مبارك وجميل، ويقولون: هذا يومٌ عَسِير؛ لأن فيه صعوبات وعقبات، وهنا سماه: ﴿يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾؛ إشارة إلى تعسر الأمور فيه من كل وجه، وأن العُسْر سمة من أقوى وأظهر سماته.

---

(١) ينظر: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢١/ ٤٦)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٥٤٢).

(٢) كما في «سورة الأنعام»: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣﴾، وما سيأتي في «سورة النبأ»: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ١٨﴾.

* ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾:

وهذا ليس تكرارًا، بل هو تأكيد، وتخصيص[1].

فهو ﴿عَسِيرٌ﴾ على الناس كافة، حتى يقول الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: «**اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ**»[2]. «**نَفْسِي نَفْسِي**»[3]، ولكن الله يقول: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح: ٦]، فثَمَّ وجوه من اليُسر للأخيار والصالحين، وإن كان ظاهرها العُسر.

أما الظالمون والمعاندون فليس لهم فيه وجه من اليُسر، بل هو ﴿عَسِيرٌ﴾ عليهم عُسْرًا لا فرج معه ولا بعده.

وفي الآية تلميح إلى وجوه اليُسر للمؤمنين؛ وهو رُكُون المؤمنين إلى رحمة الله وفضله وكرمه وعطائه، وشعورهم بأنهم موقوفون بين يديْ رحيم غفور[4].

وهذا اليوم وعيد للكافرين وإنصاف للمظلومين، ووصفه بـ﴿عَسِيرٌ﴾ تكرر في مثل قوله: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٦].

ولعل من مناسبة ذلك أنه جزاء ما كانوا يكيدون به لرسول الله ﷺ، فيلقى بسببهم عناءً وعسرًا ومشقةً في تبليغ الدعوة، وقد علم الله أنهم سيضطرون نبيه وأصحابه إلى الهجرة ومفارقة أوطانهم وأولادهم وأموالهم، وأنهم سيلقون العَنَت والأذى، ويعزِّز هذا المعنى ما يرد بعده من التهديد لبعض معارضي الدعوة ومعانديها.

* ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾:

أجمع العلماء على أنها نزلت في الوليد بن المغيرة[5]، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٠٣)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٧/ ١٧٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠١).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٨٠٦، ٦٥٧٣)، و«صحيح مسلم» (١٨٢، ١٨٣، ١٩٥).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٣٤٠، ٣٣٦١، ٤٧١٢)، و«صحيح مسلم» (١٩٤).

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٢/ ٥٣٥)، و«تفسير الثعلبي» (٧/ ١٣٠).

(٥) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٤٤٦-٤٤٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٩٤)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٠٤)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٥٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٣).

أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفرٌ من قريش- وكان ذا سِنٍّ فيهم- وقد حضر المَوْسِم، فقال لهم: يا معشرَ قريش، إنه قد حضر هذا المَوْسِمُ، وإن وفودَ العرب ستقدمُ عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا، فيكذِّبَ بعضُكم بعضًا، ويردَّ قولُ بعضكم بعضًا.

فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل، وأقم لنا رأيًا نقولُ به. قال: بل أنتم، فقولوا أسمع.

فقالوا: نقولُ: كاهنٌ! قال: والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكُهَّانَ، فما هو بِزَمْزَمَةِ الكُهَّان[1] ولا سجعهم.

قالوا: فنقولُ: مجنونٌ! قال: والله ما هو بمجنون، فقد رأينا الجنونَ وعرفناه، فما هو بخَنْقه ولا تخالُجه[2] ولا وسوسته.

قالوا: فنقولُ: شاعرٌ! قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشِّعرَ كله؛ رَجَزَهُ وهَزَجَه وقَرِيضَه ومقبُوضَه ومبسُوطَه، فما هو بشاعر.

قالوا: فنقولُ: ساحرٌ! قال: والله ما هو بساحر، لقد رأينا السُّحَّارَ وسِحرهم، فما هو بنَفْثِهم ولا عَقْدِهم.

قالوا: فماذا نقولُ يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إنَّ لقوله حلاوةً، وإنَّ أصله لعَذِقٌ[3]، وإن فَرْعَه لجَناةٌ[4]، فما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرفَ أنه باطلٌ، وإن أقربَ القول فيه أن تقولوا: ساحرٌ، فما يقولُ سحرٌ يفرِّق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته.

فتفرَّقوا عنه بذلك، وجعلوا يجلسونَ بسُبل الناس حين قدموا المَوْسِم، لا يمرُّ بهم أحدٌ إلا حذَّروه إيَّاه، وذكروه، فأنزل الله في الوليد من قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ

(١) أي: الكلام الخفي الذي لا يُفهم.

(٢) التخالج: اضطراب الأعضاء وتحرُّكها من غير إرادة.

(٣) أي: كثير الشُّعَب والأطراف في الأرض. ورُوي: «لغَدِقٌ» أي: كثير الماء.

(٤) أي: فيه ثمر يُجنى.

﴿خَلَقْتُ وَحِيدًا ...﴾ إلى قوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[1] [المدثر: ١١- ٢٦].

ويؤكِّد هذه الرواية: خبر فُتور الوحي؛ فإن الوحي بدأ في رمضان الذي أُنزل فيه القرآن ثم فتر، وكانت فترة انقطاع الوحي أربعين يومًا على **الراجح**، أي: إلى أواخر شوال أو أوائل ذي القَعْدة، وموسم الحج على الأبواب، وقريش يشعرون بأن الحج ربما يكون فرصة ليدعو النبي ﷺ الناس فيها إلى دين الإسلام، فكان لا بد أن يتفقوا على أمر يقولونه للحُجَّاج، وقد بدأت أوائلهم تصل إلى مكة، فاجتمعوا في ذلك الوقت ربما قبل الحج بشهر أو نحوه، واتفقوا على رأي الوليد بن المغيرة أن يقولوا: إن محمدًا ﷺ ساحر.

وكان زعيم هذه الفِرْية الوليد بن المغيرة، فيتصدَّى الله له، وينزل وحيه على نبيه ﷺ المهموم المغموم، فيقول سبحانه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ أي: اتركني- يا محمد- وإيَّاه، ولا تحمل همَّه. وفي هذا تذكير الرسول ﷺ بمعيَّة الله له، وكأن الجانب واحد؛ فمحمد ﷺ مع ربه وربه معه، وهذا الوحيد الضعيف يحارب الله ويحارب رسول، فهو إلى هلاك.

وقوله: ﴿ذَرْنِي﴾ استخدام عربي معروف يُوحي بالتهديد، أي: دعه لي واتركني له، سأتولَّى أمره[2].

وجاء وصفه في الآية: بالوحيد، مطابقًا لما كان الوليد بن المغيرة يسمَّى به، فقد كان يسمَّى في مكة: الوحيد[3]؛ لأنه لم يكن أحد بمكة مثله؛ كان عنده عشرة من البنين، **وقيل**: ثلاثة عشر ابنًا من أكابر أبناء مكة، وهم شباب أقوياء يتعزَّز بهم،

(١) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص١٥٠- ١٥١)، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم (ص٢٣٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ١٩٨- ٢٠٠)، و«عيون الأثر» (١/ ١١٩- ١٢٠)، و«تاريخ الإسلام» (١/ ١٥٥- ١٥٦)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٤٩- ٥٥٠)، و«البداية والنهاية» (٤/ ١٥٣- ١٥٤)، و«سبل الهدى والرشاد» (٢/ ٣٥٤- ٣٥٥).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٠)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٢٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٥٠٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٣).

(٣) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٦٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٢٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٤)، والمصادر السابقة.

وكان عنده أموال كثيرة، **قيل**: كان عنده أكثر من ألف ألف دينار من الذهب(١)، وكان يملك أراضي واسعة بين مكة والطائف(٢)، وكان له جاه كبير، ولبنيه من بعده، وكان كبير السن، فهو من أكبرهم سنًّا، وله عقل ورأي؛ ولذلك كان متوجًا موحدًا في منزلته، لا يوجد في مكة مثله.

وهنا وصفه بالوحيد، ولكن بطريقة أخرى، فالله خلقه في بطن أمه وحيدًا، وأخرجه من بطن أمه وحيدًا فردًا لا أحد معه(٣)، كما قال الله: ﴿**وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ [الأنعام: ٩٤].

* ﴿**وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ١٢**﴾:

أي: أنعمت عليه وأعطيته مالًا طويلًا عريضًا كثيرًا(٤)، فهو أكثر الناس مالًا، ليس بكَدِّه وكسبه، بل بما رزقه الله، وهو يدري أن أمواله غالبها يعتمد على الماء النازح من الأرض أو النازل من السماء، وعلى تجارة تنميها الكعبة بقدسيتها وتعتمد على الحجاج والمعتمرين والزوار المنتابين لمكة.

* ﴿**وَبَنِينَ شُهُودًا ١٣**﴾:

أي: كثيرين، **قيل**: كانوا ثلاثة عشر ابنًا لا يغيبون عنه، بل هم شهود حاضرون، ملازمون له، قد كُفُوا إدارة المال بالخدم والعبيد، فلا يحتاجون إلى سفر يخشى عليهم فيه من مخاطر السفر ومغبته، فهم عند أبيهم، وهو يتعزَّز بهم إذا جاءه ضيوف أو حلَّت به مصيبة(٥)، والعرب كانت تفاخر بكثرة البنين.

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧١)، والمصادر السابقة والآتية.

(٢) ينظر: «الدر المنثور» (١٥/ ٧٠)، و«التفسير المظهري» (١٠/ ١٢٧)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٢١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٥).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٢٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٥)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٥٣)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٦).

(٥) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٢)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٦٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٤).

* ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤﴾:

تقول: هذا طريق ممهَّد، أي: مذلَّل مسهَّل ليس فيه عقبات، ومنه: مَهْدُ الصبي؛ لأنه يُمهد فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ٤٤﴾ [الروم: ٤٤]، فالمهد، والمهاد، والتمهيد: التسهيل، أي: سهَّلتُ له تسهيلًا، فكل شيء مسَهَّل له؛ المال والصحة والفراغ والولد والأزواج والجاه، كل ما يريد وما يتمنى موجود(١).

* ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥﴾:

أي: بعد هذا كله يطمع أن أزيده في الدنيا(٢)، فهو يفكِّر كل يوم بالمزيد من الأرباح والمكاسب والصفقات، ولا يخشى النقص أو الفوات، ولا يفكِّر بالخسارة في ماله أو في ولده أو صحته وعافيته.

و«الطمع يُذهب ما جمع»، وهذا نهي عن أن يكون الإنسان طمَّاعًا طموحًا في أمر الدنيا مع ما رزقه الله، وأنه ينبغي أن يكون طمعه وطموحه في أمر الآخرة، فالإنسان لا يُذم بأن يكون عنده طموح أخروي، بل بالطمع الدنيوي الذي يفضي إلى التعدي على حقوق الآخرين، أو بنسيان الآخرة والغفلة عنها.

والتعبير بالطمع فيه معنى الذَّم والعيب؛ لأن الطمَّاع مثال الدَّناءة والخِّسَّة، بخلاف طمع الآخرة، فهو رُقِيٌّ ونُبل، كما في استخدام لفظ: الطمع في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥١﴾ [الشعراء: ٥١]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾ [الشعراء: ٨٢]، وقوله: ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦﴾ [الأعراف: ٤٦].

وفيه إشارة إلى أنه يدرك أن المال من الله سبحانه؛ ولهذا فهو يطمع من الله أن يزيده، فهم مُقِرُّون أن الأصنام لا ترزقهم، وإنما يعبدونها لتقرِّبهم إلى الله زلفى، كما قال تعالى حاكيًا عنهم: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩١)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٤- ٣٠٥).

(٢) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٦٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩١)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٥).

* ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ١٦﴾:

﴿كَلَّآ﴾ أي: لن أزيده، وقد كان طمعه في الدنيا في المجد والملك، وطمعه في الآخرة أن يقول: إذا بُعثت فسوف أكون أكثر الناس مالًا وولدًا، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ٧٧﴾ [مريم: ٧٧]، فأخبر سبحانه أنه لن يزيده، ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾، وهذا متضمن لكفرانه للنعم، فلم يكن كفره بسبب الجهل أو عدم بلوغ الرسالة أو نقص العقل والفهم، كلا، كان العناد والإصرار هو السبب في رفض الدعوة وجحد الآيات، وعبر بالجمع، فلم تكن آية واحدة، بل آيات كثيرة، وكما قال سبحانه عن آل فرعون: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨].

ويشمل هذا الآيات القرآنية التي تلاها عليهم النبي ﷺ، واعترف هو ومَن معه بصِدْقِها وقوتها وعظمتها، ثم تحايلوا كيف يصرفون الناس عنها.

ومنها الآيات القدرية والأحداث التي تجري، وفيها حِكَم وأسرار، ثم يعرضون عنها ولا يعتبرون(١).

ولذا كان الله تعالى يُبيِّن أن العقاب والعذاب على مَن عَلِمُوا ثم عاندوا وجحدوا: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ١٥﴾ [الإسراء: ١٥].

* إن شكر النعمة هو سبب المزيد، يقول تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ٧﴾ [إبراهيم: ٧]، وهذا كَفَر؛ ولهذا فالعذاب ينتظره، ولا شك أنه بعد نزول هذه الآية كان في انحدار وتسفل، ينقص ماله وولده، وتكثر همومه وغمومه(٢)، فإذا توقف العطاء عن المزيد بدأ النقص والتراجع؛ ولذا جاء الوعيد بعدها مباشرة، ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧﴾:

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٩٤)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٢٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٢٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٩٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥١٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٢).

توعَّده بالإرهاق والتعب في الدنيا والآخرة، والإرهاق: الإتعاب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ [الكهف: ٧٣]، أي: لا تحمِّلني ما لا أطيقه، **والمعنى**: سأكلِّفه وأُجهده وأُتعبه[(١)].

والصَّعود: صعود الإنسان لجبل وَعْر، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ومنه العقبة التي في الجبل، فإن صعودها مرهق[(٢)]، والناس يسمونها: صَعْدة، كما سميت بذلك بعض المدن؛ لوعورتها[(٣)]، وهذه العقبة الشديدة التي توعَّدها الله تعالى للوليد بن المغيرة لم يسمها: صَعْدة، بل: ﴿صَعُودًا﴾، على صيغة المبالغة؛ لشدتها وكلفتها؛ لأنه كَفَرَ ورمى النبيَّ ﷺ بالسحر، فالله سوف يرهقه صَعُودًا، وهذا عقاب دنيوي، فتكون الأمور صعبة عليه مشدَّدة، كلما جاء إلى طريق وجده مغلقًا، وهذا مقدمة لعذابه في الآخرة.

وقد نُقل عن ابن عباس وأبي سعيد الخُدْري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيرهما أن ﴿صَعُودًا﴾: جبل في النار[(٤)].

وهذا لا يُعارض ما نُقل عن جماعة من السلف من أن المقصود: العذاب[(٥)]، فيشمل العذاب في الدنيا قبل العذاب في الآخرة: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١].

فالعذاب الدنيوي هنا من نقص الولد والمال وتعسر الأمور بسبب عدم الشكر لنعمة الله عليه بالمال والولد وكان عنيدًا.

* ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾:

أي: أعمل فِكْره وعقله، والتفكير بحد ذاته ليس أمرًا معيبًا، بل هو مطلوب،

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٦).

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٨٤) «ص ع د»، و«شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم» (٦/ ٣٧٤٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٧).

(٣) ومن ذلك مدينة: «صَعْدَة» في اليمن. ينظر: «لسان العرب» (٣/ ٢٥٦).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٢٦)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٧).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٢٧)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٥٦)، والمصادر السابقة.

وهو من المساءلة والمسؤولية والمؤاخذة لهذا ولغيره أن يستخدموا ما أعطاهم الله من الفكر والعقل في العناد وجحد الحق، وإلا فالله تعالى وعَظَهم بأن يتفكروا، وقال لهم: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ﴾ [سبأ: ٤٦]، والعقل الصحيح الرشيد لا يخطئ، والفكر الصحيح الرشيد لا يخطئ، وإنما يخطئ إذا تلبَّسه الهوى.

هذا الوحيد المغرور قد فكَّر وقلَّب الأمور على وجوهها؛ لينظر أنسب وصف يمكن أن يصف به النبيَّ ﷺ؛ ليصرف الناسَ عنه، وعَقَدَ حلقة نقاشية استمع فيها لآراء القوم، لينتهي إلى اختيار أقروه كلهم واعتمدوه، أن يقولوا: إن النبي ساحر، ويعتمدوا في هذا على ما يجري حين يسلم بعض الشباب، فيثور عليهم ذووهم وأهلوهم، ويكون ذلك سببًا في مفارقة الزوج لزوجته وكذا العكس، ومفارقة القبيلة، فهذا إذًا يفرِّق بين الناس بدعوته(١).

ومع التفكير فهو قد قدَّر وحسب حساباته فيما كان له من الجاه والمكانة، وماذا سوف يقول الناس عنه، وماذا سوف يخسر إذا لم يقل هذا.

التفكير هنا ليس حرًّا ولا متجرِّدًا، ولا إعمالًا للعقل السليم، بل هو تفكير مبني على التقدير.

❊ ويحتمل كلمة: «قدَّر»- والله تعالى أعلم-: التقدير، بمعنى: التضييق، أي: أنه لم يُفكِّر في الأمر تفكير الباحث عن الحق، وإنما ضيَّق على نفسه، فقصر تفكيره على ما يمكن أن يجيب به عن القرآن فقط، وحصر نفسه بين خيارات ثلاثة: إما سحر أو شعر أو كهانة، وحينئذ اختار واحدًا منها، ولو أنه وسَّع إطاره وفكَّر تفكيرًا حرًّا متجرِّدًا، فإن الله تعالى سيهديه إلى الصواب، والله سبحانه هنا لم يعبه بالتفكير، وإنما عاب عليه التقدير، فقال: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠﴾: وهو دعاء عليه بالهلاك، وهذا جارٍ في لغة العرب مثل قولهم: ثكلته أمه،

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٠٩).

أي: هلك أو قتل، كما قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [عبس: ١٧]، وقوله: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون: ٤]، فهذا دعاء عليهم(١).

وفيه معنى العتب وتعييب على فعلهم، فطريقته في التقدير كانت هوى وضلالًا.

وقوله: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾ فيه تكرار، ولكن التكرار في القرآن يحمل على التوكيد(٢)، أو يحمل كل لفظ على أمر مختلف عن الآخر.

فالأولى: دعاء عليه بالهلاك؛ كيف كان تقديره وتفكيره حين قرَّر اختيار المال والجاه والدنيا على الدعوة والإيمان.

والثانية: دعاء عليه بخصوص الموقف حين قدَّر وقرَّر أن يقول: إن القرآن سحر والنبي ساحر، ويختار أمر التفريق بين الأحبة، وهو يعلم في قرارة نفسه أن هذا الإفك لا ينطلي إلا على الجهلة الأغرار، ولكن التكرار والنقل يجعله سائغًا، خاصَّة عند القادمين لمكة لفترة محدودة، ومصالحهم مرتبطة بتجار قريش وسادتها.

* ثم ذكر تعالى تفصيل ما جرى، وكأنك تراه: ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾:

والمقصود بـ﴿نَظَرَ﴾: نظر العين، وليس نظر العقل فقط؛ ليكون زائدًا على ما أفاده ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾. و﴿نَظَرَ﴾ معناه: أنه كان يُقلِّب عينيه في الحضور، والإنسان الذي يتظاهر بأنه حَصِيف وعاقل وصاحب تفكير بعيد وتحليل عميق، يسكت ثم يُجيل نظره في الحاضرين، ويتأمَّل، فهذا يعطيه هَيْبة، ويعطيه فرصة لاستجماع فكره وصياغة كلامه، ويهيِّئ الحاضرين لاستماع ما يقوله(٣).

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٩٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٨).

(٢) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٨٣)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٩٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩٢).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٤٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٣٠- ٣٣١)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٥٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٩).

* ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢﴾:

أي: طأطأ رأسه وقطَّب جبينه؛ إشارةً إلى صعوبة الأمر[1]، وأنه يحتاج إلى إعمال الفِكْر والذهن.

* ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝٢٣﴾:

هذه هي النتيجة، **والإدبار** قد يكون إدبارًا حسيًّا، بمعنى: أنه قام من المجلس منصرفًا، وقد يكون معنويًّا؛ بأن قرَّر بعد هذا التفكير المجْهِد والتقدير والنظر والعُبوس والبُسور، أن يُعْرِض عن الإسلام، وأن يستكبر، وأن يختار طريق الكفر والضلال[2].

* وهذا هو الذي كان منه ولُعن بسببه، ثم قرَّر تبعًا لهذا أن يفتري الفرية التي عنها يصدرون: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤﴾:

أي: هذا الذي جاء به محمد ﴿سِحْرٌ﴾ أخذه عن غيره؛ يُفرِّق به بين المرء وزوجه، وبين المرء وأخيه، ويؤثِّر في نفوس مستمعيه، ويشلّ قدرتهم على التفكير؛ فما هو إلا أن يسمع أحدهم كلام محمد حتى يزول عقله ويتغير مزاجه.

وهذا الذي قاله مخالف للواقع الذي يشهد أن أصحاب النبي ﷺ كانوا أحسن الناس برًّا بآبائهم وأمهاتهم، حتى في حال الكفر، كما علَّمهم ربهم فقال: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: ١٥]. وكانوا أحسن القوم عقولًا وأسلمهم نفوسًا وأصبرهم على الحق وأطوعهم للحجة.

وادَّعى أنه ﴿سِحْرٌ﴾ قوي يغيِّر الناس بقوله وليس بنفثه وعقده، وأن محمدًا يأخذه عن أناس سابقين، فهو يقول: هو نوع خاص من السحر يعرفه أهل الصناعة

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٢٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٠٩).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣١١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٦).

والتخصص.

وكم تنطلي مثل هذه التعبيرات على الجاهلين أو المتعالمين! وقال هذا لأن نصوصه فيها إعجاز وبلاغة، والعرب يعرفون ذلك، فخرج من هذا المأزق بقوله: إنه ساحر، أخذًا عن بعض مَن سبقوه.

* ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾:

أي: هذا من كلام الناس، وهذا ما تفتق عنه ذهنه الفاسد!

* وبعد أن وصف الله تعالى موقف الوليد بن المغيرة من القرآن، وتزعمه للحرب الضَّروس الشرسة على نبي الإسلام، ذكر العقاب الذي توعَّده به في الآخرة: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾:

والصِّلِي هنا معناه: أن يدخل فيها كله[1]، كما قال الله: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ [مريم: ٧٠]، وكما في قوله: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾ [الليل: ١٥]، وقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ [إبراهيم: ٢٩].

فالمقصود: المَصْلِيّ التام الذي يُشوى كل جزء من جسده، وهو كان صاحب سفر وعزٍّ وجاه، يُوقد النيران في الشتاء ويصطلي بها من البرد، ويختار المكان الذي يريده قربًا أو بعدًا من النار، أما هنا فالأمر ليس بيده، بل بيد الله يُصليه هذا السعير.

و﴿سَقَرَ﴾ أحد أسماء النار، **وقيل**: هو اسم لإحدى دَرَكاتها، **قيل**: الدَّرَك السادس[2].

وهو أول موضع ذُكر فيه هذا الاسم لها، فكل مَن سمعها سوف يسأل: ما ﴿سَقَرُ﴾؟ **فالجواب**: أن لا أحد يدركها، فأمرها أعظم من أن يُحيط به عقل، أو

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩٣)، وما سيأتي في «سورة الأعلى»: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾.

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١١٠)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٣٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٩٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٧)، (١٧/ ١٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣١١).

يحدّه ذهن، أو يفهمه سمع، أو تدركه لغة، أو يلحقه خيال.

* ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧﴾:

قال سُفيان بن عُيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يخبره به».

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر[1].

* ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ٢٩ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ٣٠﴾:

هذه أوصاف ﴿سَقَرَ﴾؛ فهي ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾، وهذه كلمة جارية عند العرب، فيقولون: فلان لا يُبقي ولا يَذَر، أي: لا يترك شيئًا، والمعنى: لا تُبقي أحدًا ممن يستحق العذاب إلا أصابته[2]، فهي لا تستثني منهم أحدًا، ولا تترك منهم شيئًا، ولا تتركهم وقتًا من الأوقات، فعذابها دائم لا يُرفع أو يُخفف، ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر: ٣٦].

﴿لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ﴾ أي: تلوِّح وتضرب أبشارهم، **والبَشَر** هي: الجلود، جمع بَشَرة، فهي تضرب جلودهم، فتُصيبها بالسواد والعذاب وتباشرها[3]؛ كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء: ٥٦]. وإنما سُمي الناس: بشرًا؛ لظهور بشرتهم، بخلاف الحيوانات التي تكون مغطاة بالشعر أو الوَبَر أو الصوف أو الريش.

﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ أي: يقوم عليها ويتولَّى أمرها تسعة عشر مَلَكًا ممن يعلم الله قوتهم وبأسهم، فهم قادرون على ما وُكِّلوا به منهم مهما كان: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: ٦].

ويحتمل أن يكونوا تسعة عشر مَلَكًا، أو تسعة عشر ألف مَلَك، أو ما شاء الله، ولم يأذن الله للبشر أن يعرفوا أكثر من ذلك؛ ولذا كانت عدتهم خوفًا وتقوى

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٣﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٠٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣١٢).

(٣) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٨٤)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣١٢).

للمؤمنين، وفتنة للكافرين والمرتابين؛ فعند ما نزلت هذه الآية قابلها الملأ من قريش بالتهكُّم والسخرية، فقالوا: هذا عدد يسير. وقال رجل يقال له: أبو الأَشَدَّين الجُمَحي: خلُّوا بيني وبين خَزَنة جهنم، أنا أكفيكم مؤنتهم(1).

وجاء آخر فقال: كل ثلاثة منَّا على واحد، فإذا عجزنا عنهم فليس فينا خير(2).

وأصبح هؤلاء الحقراء يوظِّفون العدد توظيفًا للسخرية بالنبي ﷺ وإيذائه، ولصدِّ الناس عن الدين، ولإثارة الشبهة في القرآن، وصاروا يتساءلون: لماذا لا يكونون عشرين أو ثمانية عشر؟! ولو كانوا تسعة عشر ألفًا أو أكثر فيمكن أن يُخاف منهم.

* ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾:

وأنتم لا تعرفون شأن الملائكة، ولم تروهم بأعينكم: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢].

وهكذا كل ما يُبيِّنه الله تعالى من العلم والوحي يختلف الناس فيه بحسب ما يكون في قلوبهم من المعاني، فمَن أقبل عليه بصدق استفاد وازداد إيمانًا، ومَن أعرض عنه وكذَّب به ازداد كفرًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥].

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: فهم خلق لا يعلمه إلا خالقه، وبيان عددهم في هذه السورة جعله الله فتنة للكافرين، بين مستقلٍّ ومستخِفٍّ ومتساءل.

---

(١) ينظر: «فتح القدير» (٥/ ٣٩٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٨٠)، والمصادر السابقة والآتية.

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٩٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٧٠)، و«الكشاف» (٤/ ٦٥١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٨١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٩).

﴿لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: و﴿لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ فاليهود يعرفون هذا العدد، وهو مما استأثر به علماؤهم[1]؛ ولهذا جاء في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ناسٌ من اليهود لأُناس من أصحاب النبي ﷺ: هل يعلمُ نبيُّكم كم عددُ خَزَنة جهنمَ؟ فقالوا: لا ندري حتى نسأله. فجاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا محمدُ، غُلبَ أصحابُكَ اليومَ. قال: «**وَبِمَ غُلبوا؟**». قال: سألهم يهودُ: هل يعلمُ نبيُّكم: كم عددُ خَزَنة جهنمَ؟ قال: «**فما قالوا؟**». قال: قالوا: لا ندري حتى نسأل نبيَّنا. قال: «**أفغلبَ قومٌ سُئلوا عما لا يعلمون، فقالوا: لا نعلمُ حتى نسألَ نبيَّنا؟**». ثم أخبرهم أنهم تسعة عشر[2].

فالنصُّ على العدد ليتيقن أهل الكتاب صدق النبي ﷺ، وأنه يوافق ما عندهم مما جاء في كتبهم ونزل عليهم، و«الاستيقان» هنا لا يعني أنهم آمنوا، بل استيقنوا وعرفوا أنه حق، ولكن لم يؤمنوا به؛ إما لأنهم يقولون: هو نبي العرب. أو لأنهم حسدوه، أو طاعة لكبرائهم وسادتهم[3].

﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ فيقوى إيمانهم؛ لتواطؤ ما جاء به القرآن مع ما هو موجود عند أهل الكتاب؛ ولأنه جاء بعلم جديد فآمنوا بها، فزاد عدد ما آمنوا به، فإن الإيمان يزيد حتى في قدره؛ فإن قوة يقين الإنسان بالشيء تزداد كلما تضافرت الأدلة[4].

﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي: يرتاب الكافرون والمشركون والوثنيون الجاهلون الساخرون المتخذون آيات الله هزوًا، وأمّا الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون فلا يرتابون في ذلك، ولا يؤثر فيهم أن يكون العدد تسعة عشر

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٨٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣١٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٢٧). وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٣٣٤٨).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣١٥).

(٤) ينظر: «فتح القدير» (٥/ ٣٩٦).

أو أقل أو أكثر(١)؛ لأن الإنسان لا يسأل مثل هذا السؤال، وإلا لكان يقول: لماذا السماوات سبع، والأرضون سبع؟ ولماذا فُرضت الصلوات؟

ومن آمن بالله آمن بأنه الخالق المُشرِّع ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فهذا يُؤخذ بالتسليم؛ ولا يدرك تفصيله بالعقل.

إن عقل المسلم عقل إيماني وليس عقلًا أسطوريًّا، عقل يؤمن بالغيب إذا جاء بالخبر الصحيح، ولكنه يقف عنده، ولا يؤمن بالأساطير والخرافات والأقاويل، وما لا يدل عليه دليل، ولا تقوم عليه حجة، وإن كان من المسلمين اليوم مَن تحولت عقولهم إلى عقول خرافية، تؤمن بالكهانة والتنجيم والخرافات والروايات المنكرة التي لا سند لها أكثر مما تصدق بالأخبار الصحيحة؛ وهذا بسبب غفلتهم عن القرآن وهديه وأدبه.

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مرض الشك من الكافرين، وليس مرض النفاق؛ لأن النفاق لم يكن وُجد يومئذ(٢).

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ من أهل الكتاب أو من المشركين، **فالذين يقولون هذا القول فئتان:**

١- الشاكُّون الذين في قلوبهم مرض الشك، وهم غير مؤمنين، بل متردِّدون لا يجزمون.

٢- المكذِّبون ممن يعلن الكفر الصريح من المشركين أو أهل الكتاب.

وهؤلاء وأولئك يتساءلون: ماذا وراء هذا المثل؟ ولماذا ضربه الله؟

وهم وإن اشتركوا في القول، إلا أنهم متفاوتون في المنْزلة، فالأولون في مقام التردُّد والشك الذي يمكن أن يزول ويمكن أن يبقى ويزيد، والآخرون كفروا وأعلنوا.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٤٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٤٤٠)، و«الكشاف» (٤/ ٦٥٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٦٤)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧١٠- ٧١١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٨٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٥٢٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٤١).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٨٢)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٧/ ١٧٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣١٧).

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: في مثل هذا؛ كعدد ﴿تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾، يقع الإضلال والهداية لمَن شاء الله تعالى من العباد، فتكون الآية الواحدة أو المعلومة الواحدة حجة لقوم وسببًا في زيادة إيمانهم، وحجة على آخرين وسببًا في زيادة كفرهم وتردِّيهم(١).

ويمكن أن يكون هذا خاصًّا بمَن ذكروا الله في قلوبهم ومَن بعدهم من الكافرين، فإن الشك قد يزول بهداية من الله، وقد يغلب على صاحبه فيضله الله.

﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ فلا أحد يعلم حقيقة مراده سبحانه بهذا العدد، ولا مدى قوتهم.

قال بعضهم: هؤلاء هم القائمون عليها، ولا يمنع أن يكون تحت الواحد منهم مَن لا يحصيه إلا الله من عدد الملائكة(٢)، كما جاء في الحديث، أن النبيَّ ﷺ قال: «**يُؤْتَى بجهنمَ يومئذ، لها سبعونَ ألفَ زمام، مع كلِّ زمام سبعونَ ألفَ مَلَك يجُرُّونها**»(٣).

ولا ينحصر جنود الله في الملائكة فحسب، بل هم خلق كثير لا يحصيهم إلا خالقهم سبحانه؛ فمن جنوده الريح، ومن جنوده المطر، ومن جنوده البحر، ومن جنوده النجوم، ومن جنوده البشر، ومن جنوده الرعب والفزع؛ ولذا قال: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾ [الأحزاب: ٩].

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ٣١﴾ أي: ﴿سَقَرَ﴾ التي سخروا من ملائكتها، ما ذكرها هنا إلا لتذكيرهم؛ حتى تُساق نفوسهم إلى الخير سوقًا بسياط الخوف والرهبة،

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٩٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٠)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٩٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٣٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٤٢) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ورجَّح الدارقطني وغيره وقفه. ينظر: «الإلزامات والتتبع» (ص٢٢٧)، والتعليق على «مختصر صحيح مسلم» للمنذري (١٩٧٣)، وما سيأتي في «سورة الفجر»: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣﴾.

والرغبة فيما عند الله[1].

* ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ٣٢ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ٣٤﴾:

﴿كَلَّا﴾ هنا للنفي، وفيه معنى الردع والزجر عما ادَّعوه وقالوه وسخروا به[2].

وهنا يُقسِم تعالى بثلاثة مخلوقات، لعلها بعض جنوده:

١- القمر: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ﴾.

٢- والليل: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾، و﴿إِذۡ﴾ تعني: حين أدبر، وهي حكاية الماضي[3].

٣- والصبح: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ أي: حين يسفر، وهي حكاية الحال والمستقبل، فـ﴿إِذَآ﴾ ظرف للمستقبل، بخلاف ﴿إِذۡ﴾[4].

وهذه الثلاثة التي أقسم الله بها كلها نور أو على مقربة من النور، فأقسم بالقمر، وأقسم بالليل إذ أدبر وصار في آخره، وأقسم بإسفار الصبح، أي: إذا أضاء وعمَّ الكون.

فالقَسَم إشارة إلى كشف ظلمات الجاهلية والشرك وانتصار الإسلام، وفيه إيحاء وإيماء للنبي ﷺ بأن أمرك ظاهر ظهور الشمس والقمر، بيِّن بيان الصبح لكل ذي عينين، كما قال سبحانه: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، فهناك ظلمات الكون، وهناك ظلمات القلوب والعقول، وبينهما ترابط.

* ﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ٣٥﴾:

هذا هو جواب القَسَم، أي: ﴿سَقَرُ﴾ إحدى الأمور الكبيرة العظيمة، و﴿ٱلۡكُبَرِ﴾ جمع، والمفرد: كُبْرى، وقد يقال: كبريات[5].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٤١)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٨٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٢٠).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧١٣)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٥٨)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٦٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٢٢).

(٤) ينظر: «حروف المعاني والصفات» (ص٦٣)، و«شرح المفصل للزمخشري» لابن يعيش (٣/ ١٢٠).

(٥) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٧٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧١٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٨٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩٧). وينظر أيضًا: «لسان العرب» (١٥/ ٤٠٨)، و«تاج العروس» (٤٠/ ٢٥٢)، و«معجم اللغة العربية المعاصرة» (٣/ ١٨٩٦).

* ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ٣٦﴾:

أي: نِذارة للناس جميعًا، وليس لبعضهم، ليس للعرب ولا لقريش ولا للناس في عصر الرسالة، بل للبشر كلهم جميعًا، إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

* ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ٣٧﴾:

أي: ﴿يَتَقَدَّمَ﴾ في الطاعة، أو ﴿يَتَأَخَّرَ﴾ فيها، أو ﴿يَتَقَدَّمَ﴾ للإسلام، أو ﴿يَتَأَخَّرَ﴾ في الكفر(١).

وفي ذلك إشارة إلى أن التقدم والتأخر معياره: التقوى والإيمان، وهذا لا يُعارض التقدم في العلم والمعرفة والحضارة، والبناء والتشييد والاقتصاد، والانتفاع من الكون، فهذا مما يأمر الله به، وهو من نتائج العبودية الحقة له سبحانه، فالإيمان بالله ليس هروبًا من الحياة ولا إعراضًا عنها، وإنما هو إعراض عن الحرام والمعصية.

* ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ٣٨﴾:

كل النفوس ذلك اليوم مرهونة، **والرَّهْن**: الأسر والإمساك، ومنه رهن المال؛ بأن يرهنه شيئًا يؤتمن عليه ويضمن به حقه(٢)، كما قال: ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ٢١﴾ [الطور: ٢١].

والرَّهْن هنا ليس لحسب ولا لنسب، ولا لأسرة ولا لبلد، وإنما بالعمل والكسب، فيطلقها العدل أو يوبقها الجَوْر(٣)؛ ولذا قال ﷺ: «**كلُّ الناس يغدُو، فبائعٌ نفسَه، فمعتقُها أو مُوبِقُها**»(٤).

---

(١) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٥٣١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩٨)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٥٩).

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣٦٧) «ر هـ ن»، و«بصائر ذوي التمييز» (٣/ ١٠٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٤٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥١٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٤٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٩٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧١٤)، وما تقدم في «سورة الطور»: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ٢١﴾.

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

* ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ٣٩﴾:

قيل: إن ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾ هم: أطفال المؤمنين الذين ماتوا قبل الحُلُم، **وقيل**: هم الأطفال جميعًا، فهم في مأمن لعدم التكليف(١).

والأقرب ما عليه جمهور أهل التفسير؛ وهو أن المقصود بـ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾: أهل الإيمان والإسلام(٢)، فإنهم يُحاسبون حسابًا يسيرًا، كما قال تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨﴾ [الانشقاق: ٨]، والنبيُّ ﷺ يقول: «**مَن نُوقِشَ الحسابَ عُذِّب**»(٣). وإنما يُعرض عليهم عرضًا، ثم يخلصون إلى الجنة برحمة أرحم الراحمين.

* ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤١﴾:

يسأل بعضُهم بعضًا، والسياق يدل أن النفوس مرهونة في ذُعْر وخوف، في حين أن هؤلاء الناجين قد حَطُّوا رحالهم في الجنة، واطمأنوا على أنفسهم، فصاروا يتساءلون عن غيرهم.

وفي طيَّاتِ المعنى: أنهم أُقدِروا بقدرة الله على مخاطبة المجرمين، ومساءلتهم عن سوء مصيرهم، وما الذي قادهم إليه؛ ولذا وجَّهوا الخطاب إليهم مباشرة، والله تعالى ذكر في «سورة الصافات» قصة أحدهم: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ٥٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ٥٣ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٥٧﴾.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٤٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٤٩)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٧٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٨٧)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٦٣)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٣٠)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٥٥٥)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٨٥).

(٢) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٢٥)، والمصادر السابقة.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقال في «سورة الأعراف»: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤، ٥٠]، فعلى رغم البُعد بينهم، إلا أن الله تعالى ذكر محاورات ومخاطبات ومساءلات ونداءات فيما بينهم، وهذا مما لا يحيط به العقل، ولكن يؤمن به بموجب ما أخبر.

ونحن نرى اليوم كيف أن التقنية قرَّبت البعيد بمجهود البشر العادي، ووفق السنن والنواميس المادية، فكيف بأمر الآخرة الذي لا يخضع للنواميس الدنيوية؟! ولذا سَمَّى الله يوم القيامة: ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢﴾ [فاطر: ٣٢]، الذي ينادي فيه بعضهم بعضًا[١].

* ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢﴾:

السَّلْكُ: إدخال الشيء في الشيء، كإدخال الخيط في المَخِيط.

والمعنى: ما جعلكم مسلوكين في هذا السَّلْك؟! وما الذي أَوْدَى بكم في ﴿سَقَرَ﴾؟ وما أدخلكم فيها[٢]؟

فيأتي جوابهم، وهو دليل على أن السؤال لم يكن سؤال توبيخ وتبكيت، وإنما هو سؤال مستفهم: ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ...﴾.

ولماذا يسأل المؤمنون عن هذا، مع أنهم يعرفون حقيقة الأمر؟

الجواب: يجوز أن يكون هذا سؤالًا لبعض أهل ﴿سَقَرَ﴾ الذين كانوا على الخير في ظاهر الأمر، مثلما جاء في حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسولَ الله ﷺ قال: «**يُجاءُ بالرجل يومَ القيامة، فيُلْقَى في النار، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ في النار، فيدورُ كما**

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧١٢)، و«تفسير الطبري» (٢٠/ ٣١٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٢٠٥)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ١٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ٣١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ١٤٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٤/ ١٣٦).

وينظر أيضًا: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٢٤)، و«معاني القرآن» للنحاس (٦/ ٢٢٠)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٧٩٦).

(٢) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٤٥٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٦٦)، و«تفسير الرازي» (١٩/ ١٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٨٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٩٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٤٧).

يدورُ الحمارُ برَحاهُ، فيجتمعُ أهلُ النار عليه، فيقولونَ: أَيْ فلانُ، ما شأْنُكَ، أليسَ كنتَ تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟! قال: كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»(١). فعُذِّب بإتيانه للمنكر وتركه للمعروف، وليس لأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

أو سألوا أقوامًا لا يعرفونهم؛ لأن الخطاب بين أمم وقرون وأجيال في قديم البشر وحديثهم، وليس وقفًا على مَن كانوا في عصر الرسالة.

وقد يكون السؤال سؤال توبيخ وتبكيت، وهو جزء من عذاب الكافرين والظالمين(٢).

* ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣﴾:

أي: تركوا الصلاة، وتَرْكُ الصلاة معناه: ترك العبودية لله، فهو إشارة إلى تركهم للعبادة، كما قال في وصف المؤمنين الناجين: ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢﴾ [المعارج: ٢٢].

* ﴿وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ٤٤﴾:

أي: تركوا الإحسان إلى الخلق، ودائمًا يُقرن الإحسان في طاعة الله بالإحسان إلى عباد الله، فيُذكر هذا وهذا لتربية المؤمن، فبقدر ما يكون عابدًا لله ينبغي أن يكون محسنًا إلى عباد الله، والصلاة قُرنت مع الزكاة في أركان الإسلام(٣).

* ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ٤٥﴾:

والخوض هو: الكلام الذي لا فائدة منه من القيل والقال، كما قال سبحانه: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾ [التوبة: ٦٩]، وقال: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ٦٨].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٥٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٢٦- ٣٢٧)، والمصادر السابقة.

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٨)، و«صحيح مسلم» (١٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**بُني الإسلامُ على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسولُ الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة...**».

فالغالب أن الخوض: الهذر، يلقى ناسًا يتكلمون فيتكلم معهم، ولا يشعر بأهمية الكلمة؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**إن العبدَ ليتكلمُ بالكلمة من رضوان الله، لا يُلقي لها بالًا، يرفعه اللهُ بها درجات، وإن العبدَ ليتكلمُ بالكلمة من سخط الله، لا يُلقي لها بالًا، يَهْوي بها في جهنَّم**»(١).

وهذا ينطبق على ﴿ٱلْخَآئِضِينَ﴾ في المواقع الإلكترونية أو القنوات والحوارات أو المجالس العامة، الذين يلقون الكلام على عواهنه من غير رويَّة ولا تفكير، وقد يكون سخرية بآيات الله أو عباده الصالحين أو نصرة لباطل أو تعويقًا لحق دون تبين، بل لمجرد المجاراة والموافقة للأصدقاء أو النصرة بالباطل للظالمين أو الاسترزاق بالوقيعة والكذب والتشويه، ولا يستوي هؤلاء ومَن على كلمته نور وبرهان، يقولها نصرة لحق أو إزهاقًا لباطل.

* ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾:

وختم الله أوصافهم بذلك؛ لأنه أهم الأسباب كلها، فكأنه سبب لما قبله.

* ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾:

المقصود بـ﴿ٱلْيَقِينُ﴾: الحق الذي لا مرية فيه، أي: أتاهم اليقين بالموت(٢)، والموت من اليقين، كما قال النبيُّ ﷺ: «**أما هو فقد جاءهُ اليَقِينُ من ربِّه**»(٣). أي: الموت، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ١٩].

و﴿ٱلْيَقِينُ﴾: البعث ثم النار؛ فإنها قد أصبحت يقينًا؛ لأنهم رأوها عيانًا، ولم تعد مجرد خبر يُخبرون عنه، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التكاثر: ٧]، ويمكن أن يقال: أتاهم الحق ثم الموت ثم النار، وكل من هذه الثلاث المتتابعة يقين يقوِّي ﴿ٱلْيَقِينُ﴾ الذي قبله.

وكونهم كانوا يكذِّبون بيوم الدين حتى أتاهم ﴿ٱلْيَقِينُ﴾ يدل على أن مقصودهم

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٨٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢٧٤٥٧) من حديث أم العلاء الأنصارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

بـ﴿ٱلۡيَقِينُ﴾: الخبر إذا تحوَّل إلى حقيقة، ولا مجال للمجادلة في وقوعه، فهو ماثِلٌ للعيان، وهكذا صار أمر الموت والبعث والعذاب بالنسبة لهم.

* ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

في هذا إشارة إلى أن المؤمن قد يُعذَّب، ولكن تنفعه ﴿شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾، فمَن يُقصِّر في الصلاة، أو يخوض مع الخائضين، أو يقع منه ما يقع مما لا ينقض أصل الإيمان؛ عُرضة للعذاب، ولكن يخرج بـ﴿شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ من الأنبياء والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، أو برحمة أرحم الراحمين، بخلاف هؤلاء المكذِّبين، فلا يشفع لهم أحد، بل كُتب عليهم الخلود في النار.

* ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

أي: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ﴾ بـ﴿سَقَرَ﴾، و﴿ٱلتَّذۡكِرَةِ﴾ بالقرآن، و﴿ٱلتَّذۡكِرَةِ﴾ بالآخرة ﴿مُعۡرِضِينَ﴾، فلا يلتفتون ولا يُصغون، مع أنهم كانوا يخوضون ﴿مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾ في كل شيء، فإذا جاء الجِدُّ أعرضوا عنه أو خاضوا بالباطل والهزء والتكذيب[1].

* ﴿كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ﴿٥٠﴾﴾:

﴿حُمُرٞ﴾ جمع: حمار، **والمقصود**: حمار الوحش؛ لأنه هو الذي يُستنفر، بخلاف الحمار الأهلي، وحُمُر الوحش متوحِّشة سريعة النفور، وإذا نفر أحدها لحقه بقية القَطِيع بسرعة[2]، وفي بعض القراءات: ﴿مُّسۡتَنفَرَةٞ﴾ بفتح الفاء[3]، أي: أتاها مَن ينفِّرها، أو ما ينفرها، فهي مذعورة، ورواية حفص عن عاصم: ﴿مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾؛ لأنها في حالة نفار، يعني: هاربة.

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٢٩)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٨٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٣١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٢٩).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٥٤)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٦٠)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٥٦)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢١٦)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٣)، و«معجم القراءات» (١٠/ ١٧٣- ١٧٤).

* ﴿فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ٥١﴾:

القَسْوَرَة جمع: قَسْوَر، وهو الصياد، وهذا هو قول جمهور المفسرين؛ لأن حمر الوحش تُؤكل، وهي من أفضل الصيد.

وقيل: القَسْوَرَة: الأسد، بلسان الحبشة، أي: فرَّت من الأسد(١).

والمقصود: أنها فَرَّت من شيء تخافه، فهؤلاء الناس يعرضون عن الموعظة التي تنفعهم إعراض هذه الوحوش، وفي ذلك وصف لهم بأنهم شابهوا هذه الوحوش في شدة النفور عن الحق، وقوة الإعراض عن سماعه وقبوله.

وجدير بالتأمل أن الذَّمَ الآن على إعراضه عن أصل التذكرة والدعوة والقرآن، فلا يسوّغ إطلاق هذه الآية على مؤمنين أعرضوا عن موعظة عابرة؛ لشغل أو لسآمة أو لوجهة نظر، وأين هذا من ذاك؟!

* ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ٥٢﴾:

بعدما شبَّههم بالحُمر الوحشية في حالة فرار ونِفَار، لا تسمع ولا ترى، أَضْرَبَ عن هذا المعنى ليشير إلى أن الحُمُر أحسن حالًا منهم من بعض الوجوه؛ لأنهم مع جهلهم ونفارهم مصابون بالكِبر والغرور والإعجاب بالنفس على غير شيء ومن دون سبب، فهم مثل العائل المستكبر الذي حُرِّمت عليه الجنة(٢)، فكل واحد منهم يقول: إنه لن يؤمن حتى ينزل عليه كتاب يخصه، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وهو دليل التكبر، ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ [غافر: ٥٦]، وهو دليل الحسد، إذ يقولون: كيف يُبعث محمد ولا نُبعث نحن؟! وقالوا: كيف يأخذ بنو هاشم الرِّفادة والنبوة

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٠٦)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٤٩٨)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٥٥، ٤٥٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٨٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٣٠).

(٢) كما في «صحيح مسلم» (١٠٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**ثلاثةٌ لا يكلِّمُهم اللهُ يومَ القيامة، ولا يزكِّيهم، ولا ينظرُ إليهم، ولهم عذابٌ أليمٌ: شيخٌ زانٍ، ومَلِكٌ كذَّابٌ، وعائلٌ مستكبرٌ**».

أيضًا؟! فلذلك أعرضوا.

والله لم يخبر أن ذلك إرادة كل مجموعة أو قبيلة، بل إرادة كل فرد ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ﴾، يريد أن يكون عنده ﴿صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ مكشوفة تقوم بها الحجة![1].

* وهذا تعجيز وتحكُّم وصدود؛ لأن القرآن حجة للجميع؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْأَخِرَةَ ٥٣﴾:

﴿كَلَّا﴾ أي: لن يُؤتوا هذه الصحف المنشَّرة، فمَن هم؟! وبأي حجة يطلبون ذلك؟! فخلقتهم لا تؤهِّلهم لذلك، والمال والولد والوجاهة لا يؤهِّلهم لذلك، فهذا للدنيا متاع، والله تعالى يُؤتي النبوة مَن يشاء، فهم ﴿لَّا يَخَافُونَ ٱلْأَخِرَةَ﴾ أي: ليس عندهم خوف، وإلا لآمنوا وأسلموا، ﴿لَّا يَخَافُونَ﴾ بسبب إعراضهم وخوضهم وشكِّهم، وإلا لو وُجد عندهم شيء من الخوف لحملهم على البحث والتحرِّي والاستعداد واليقظة.

* ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ٥٤﴾:

أي: لن يُؤتى أحدٌ منهم صحفًا منشَّرة، ولا يحلمون بهذا، فعندهم تذكرة واحدة هي ﴿ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾، وهم من البشر، والنبيُّ ﷺ ﴿تَذْكِرَةٌ﴾، والقرآن ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي: موعظة تدعو الغافل أن يتذكَّر فيؤوب، والعاصي أن يتوب[2].

* ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ٥٥﴾:

فالمسؤولية على الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ٢٨﴾ [التكوير: ٢٨]، وأعاد المشيئة إليهم، فلهم مشيئة التذكر أو الإعراض، وحجتهم بقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] حجة داحضة، وهم قادرون على

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٦٠- ٤٦١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٤٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٤٦٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٩٩- ٤٠٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٣١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٦٢)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٢١٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧١٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٤).

أن يهتدوا باختيارهم كما ضلوا باختيارهم، وقد جعل الله تعالى لهم الإذن بذلك: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠].

* ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾:

أي: لن يُطاع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولن يُعصى إلا بعلمه، فالله أقام الحجة على الناس بالوحي، ثم وفَّق مَن شاء من عباده إلى سلوك السبيل وخَذَل مَن يشاء، وتلطَّف بمَن شاء من عَبيده، فسهَّل لهم الإيمان ومهَّده لهم تمهيدًا، وعاقب مَن يشاء من عَبيده بصدودهم وإعراضهم، فجعل مسلكهم صعودًا: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وهو سبحانه أهلٌ لأن يُتَّقى ويُخَاف بتجنب الشرك وكبائر الذنوب، وهو أهلُ المغفرة للمتَّقين، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾[1] [الأعراف: ٥٦].

والتعبير هنا بـ﴿أَهْلُ﴾ متفرد، لم يرد في غير هذا الموضع في حقِّ الله سبحانه، يعني: صاحب ومستحق[2].

○ ○ ○

(١) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٦٢)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٨)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٦٤)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٣٣)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٨٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٦٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٣٤).

سُورَةُ القِيَامَةِ

* **تسمية السورة:**

تسمى: «**سورة القيامة**»، وهو اسمها في المصاحف، وكتب التفسير[1].

وسُمِّيت في بعض التفاسير: «سورة ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾»[2].

وسماها البعض: «**سورة** ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾»[3].

وفي هذا نظر؛ لأن المقصود بالتسمية التمييز، وهذه التسمية لا تميزها؛ لأنها تصدق على «سورة البلد»: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾.

* **عدد آياتها:** تسعٌ وثلاثون آية عند جمهور العلماء، وهي أربعون آية عند الكوفيين[4].

* **وهي مكية** بالاتفاق[5].

---

(١) ينظر: «جامع الترمذي» (٥/ ٤٣٠)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٣٩).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٨٦)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٦٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٣٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٩٨).

(٣) ينظر: «جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٩٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٥٠)، و«معجم علوم القرآن» (ص٢٢٧).

(٤) واختلفوا في آية: ﴿لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٥٩)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٣٦).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٠١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٦٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٠٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٣٦).

* ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾:

يستفتح سبحانه السورة بقوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وهو من حيث الظاهر نفي؛ لأن ﴿لَآ﴾ نافية، ومن هنا أخذ بعضهم المعنى على ظاهر اللفظ، وهو النفي؛ فيكون المعنى: أن الله تعالى لا يقسم بيوم القيامة، ولا يقسم بالنفس اللَّوَّامة، ولا يقسم بهذا البلد، ولا يقسم بمواقع النجوم(١).

وذهب الأكثرون- وهو قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وسعيد بن جُبير، وقتادة، وابن جرير الطبري- إلى أن الآية قَسَم(٢)، وهو الأصح، فهو تعالى يقسم بيوم القيامة وبالنفس اللَّوَّامة، وإن كان ظاهر الصيغة «النفي»، **والدليل على ذلك أمور:**

١- من حيث اللغة، فإنه جار على قواعد اللغة، فالإنسان إذا أقسم على شيءٍ منفي فإنه يأتي بـ﴿لَآ﴾، كما لو قال لك إنسان مثلًا: إنك فعلت كذا وفعلت كذا، فقلت له: لا وربِّ الكعبة ما فعلته. فيكون فيه نفي، ومعناه القسم.

٢- أن ذِكْر المقسَم به آيةٌ على وجود القَسَم، فهو هنا أقسم ﴿بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وأقسم ﴿بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾، كذلك أقسم ﴿بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١﴾ [البلد: ١]، وأقسم ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾[الواقعة: ٧٥]، وأقسم ﴿بِٱلۡخُنَّسِ ١٥﴾ [التكوير: ١٥]، فذِكْر المقسَم به يدل على وجود القَسَم.

٣- أن الله تعالى ضمَّن السياق إشارة للمقسَم عليه واضحة جلية أو منصوصة، وهو جواب القَسَم، وهو شيءٌ عظيم، كالقَسَم هنا على البعث، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧﴾ [الواقعة: ٧٧]، فذكر الشيء المقسَم عليه- وهو البعث وعظمته- دليلٌ على أن الأمر فيه قَسَم.

وليس جيدًا أن يقال: إن ﴿لَآ﴾ هنا نافية للقَسَم، أو أن يقال: إنها زائدة، كما

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٢٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٦٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٦٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٤٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٣٨).

يقول بعضهم[(١)]، فليس في القرآن شيءٌ زائد، وإن كانوا يقصدون: أن لا إعراب لها.

وعادة القرآن القَسَم على أمور عظام، واستفتاح بعض السور بالقَسَم، وهذه منها، فالله تعالى يقسم بيوم القيامة، وهو يوم قيام الناس لرب العالمين، ويوم بعث الناس من قبورهم، وهي القيامة العامة التي يجادل بها المكذِّبون.

ويدخل في القَسَم: القيامة الخاصة، وهي قيامة كل فرد، كما ورد- وفي سنده ضعف-: «**إذا ماتَ أحدُكم فقد قامت قيامتُه**»[(٢)]. وقد جاء في صحيح السنة ما يشهد لهذا المعنى من قول النبي ﷺ في شأن غلام صغير: «**إن يَعِشْ هذا لا يدركه الهَرَمُ حتى تقومَ عليكم ساعتُكم**»[(٣)]. **فالمقصود**- والله أعلم-: القيامة الخاصة[(٤)].

فأنت نصيبك من هذه الدنيا هو عمرك المحدود، وقيامتك التي تخصُّك هي حينما ينهدم هذا الجسد بمغادرة الروح، كما ينهدم الكون في القيامة الكبرى، حيث يختل نظام الكون، ويُدمر ويتغير كل شيء.

* ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾:

هذا قَسَمٌ ﴿بِٱلنَّفۡسِ﴾، وقد أقسم تعالى بها في موضع آخر فقال: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨﴾ [الشمس: ٧- ٨]، **والمقصود**: القَسَم بكل نفس، سواءً كانت نفسًا مؤمنة أو غير مؤمنة، فالقَسَم هو بما خلقه الله تعالى من النفوس، سواء أُلهمت فجورها، أو أُلهمت تقواها[(٥)].

---

(١) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٦٣)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٩٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩١).

(٢) ينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (١/ ٤٣٦)، و«الفوائد المجموعة» (ص٢٦٧)، و«السلسلة الضعيفة» (١١٦٦، ٥٤٦٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥١١)، ومسلم (٢٩٥٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٨/ ٩٠)، و«فتح الباري» (١٠/ ٥٥٦)، و«إرشاد الساري» (٩/ ٢٩٧).

(٥) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧٥)، و«تفسير السعدي» (ص٩٢٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٦٨)، وما سيأتي في «سورة الشمس».

وأقسم هنا ﴿بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾: نفس المؤمن؛ وهي التي تلوم صاحبها، فإن كان مسيئًا لامته: لماذا أساء؟ وإن كان محسنًا لامته: لماذا لم يزدد إحسانًا؟ كما قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن المؤمنَ لا تراهُ إلا يلومُ نفسه؛ يقولُ: ما أردتُ بكلمتي؟ ما أردتُ بأكلتي؟ ما أردتُ بحديث نفسي؟ فلا تراهُ إلا يعاتبُها، وإن الفاجرَ يمضي قُدُمًا، فلا يُعاتبُ نفسه»[1].

والنفس اللَّوَّامة تحمل صاحبها على الطموح والتطلُّع للأفضل. وغالب نفوس الناس ليست ممحضة للخير ولا خالصة للشر، بل هي في برزخ بين هذا وذاك؛ تغريها الشهوة ثم تندم وتحْدُوها التوبة إلى الملام، وهكذا لا تستلم للشر، ولا تَسْلم منه!

وكما أن منازل الناس في الجنة مختلفة، وبينهم كما بين المشرق والمغرب، فكذلك هم في الدنيا في مقدار طموحهم وأعمالهم؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**إني لأعلمُ آخرَ أهل النار خروجًا منها، وآخرَ أهل الجنة دخولًا: رجلٌ يخرجُ من النار حَبْوًا، فيقولُ اللهُ: اذهب فادخل الجنةَ. فيأتيها، فيخيلُ إليه أنها مَلْأَى، فيرجعُ فيقولُ: يا ربِّ، وجدتُها مَلْأَى. فيقولُ: اذهب فادخُل الجنةَ. فيأتيها فيخيلُ إليه أنها مَلْأَى، فيرجعُ فيقولُ: يا ربِّ، وجدتُها مَلْأَى، فيقولُ: اذهب فادخُل الجنةَ، فإن لك مثلَ الدنيا وعشرةَ أمثالها**- أو: **إن لك مثلَ عشرة أمثال الدنيا**»[2].

وكأن هذا الرجل كان في الدنيا من الناس الذين كلما فُتح لهم بابٌ من الخير تردَّدُوا وأَحْجَمُوا وقالوا: لا مكان لنا. وإذا جيء لهم بمشروع خيري أو عمل أو إصلاح قالوا: ليس ثَمَّ مجال، فالمساجد مليئة والدروس مليئة وفرص الخير قد ضاقت بطلَّابها، فلا مكان لنا، حتى إذا وافوا الجنة وقيل لأحدهم: ادخل، يرجع ويقول: «وجدتُها ملأى»!

(١) ينظر: «الزهد» لأحمد (١٦١٦)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٨٢)، و«ترتيب الأمالي الخميسية» (١٣٨٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٢- ٩٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧١)، ومسلم (١٨٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ومن وراء هذا اللَّوم عمل وإنجاز وبر وخير، وكم استخرج الله به من نفس عبده من صدقة عظيمة لا يقدر عليها غيره، وبر بوالد، أو صلة رحم، أو عطف على مسكين، أو بحث عن أسباب المغفرة والتوبة، أو رحمة لملهوف رجاء أن يدخل صاحبها في عموم: «**الراحمونَ يرحمهم الرحمنُ**»[١].

وكم وقع فيها من انكسار القلب، وتواضع النفس، والخوف من سوء العاقبة، وعدم الاعتداد بالعمل مهما كان.

ومن معاني ﴿ٱللَّوَّامَةِ﴾ - كما قال ابن تيمية وابن القيم[٢]-: التي تتلوَّم على صاحبها، والتلوم: التردد وعدم الاستقرار، وهذا من طبيعة النفس الإنسانية، فإن النفس متقلِّبة في الساعة الواحدة؛ بل في اللحظة الواحدة، ومشاعر الإنسان وأحاسيسه متردِّدة ما بين الغضب والرضا، والحزن والسرور، والتفاؤل والتشاؤم، والطمأنينة والقلق، والإيمان والشك، وسواها من الأحوال المتناقضة، وهذا أمرٌ جَبَلَ الله تعالى العباد عليه، حتى إن العبد في اللحظة الواحدة يجمع بين معصية وطاعة، فقد يسمع ما حرم الله أو يشاهد ما حرم الله، فيتذكَّر ويستغفر ويسبِّح، أو يركب سيارته لعمل مشبوه ويقرأ دعاء الراحلة، أو ينتظر موعدًا لا يرضاه إيمانه وهو يسبِّح ويستغفر، أو يسافر سفر معصية وهو يصلِّي ويصوم ويتصدَّق، وقد يلقى إنسانًا على غير طاعة ويدعوه إلى الإسلام فيسلم، أو يدعوه إلى التوبة من بدعة غليظة أو معصية ما كالمخدرات وهو مشارك له في معصية أهون منها، ولا يضيع عند الله تبارك وتعالى شيء، فهذه النفس متلاومة متحوِّلة متقلِّبة، وعلينا أن ندرك هذا في طبيعة الناس، فلا نعاملهم كما لو كانوا حجارةً أو حديدًا.

ولذلك سمِّي: إنسانًا، وسمي القلب: قلبًا؛ لتقلبه واختلاف أحواله.

وما سُمِّي الإنسانُ إلا لنَسْيِه   ولا القلبُ إلا أنه يتقلَّبُ[٣]

---

(١) كما في حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقد تقدم في «سورة الملك»: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ...﴾ [الملك: ١٩].

(٢) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٩/ ٢٩٤)، و«إغاثة اللهفان» (١/ ٧٨).

(٣) ينظر: «سراج الملوك» لأبي بكر الطرطوشي (ص١٨٦)، و«تاج العروس» (١/ ١٢٤).

والله أقسم بالقيامة الكبرى، ثم بالنفس اللَّوَّامة؛ لأن القيامة الكبرى ليس المقصود بها: حشر الوحوش والبهائم، وإنما حشر الإنسان؛ ولهذا تكرر ذكره في هذه السورة خمس مرات؛ تنبيهًا على وظيفته، وما حمل من أمانة عظيمة.

* ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾:

لم يذكر السياق المقسَم عليه تصريحًا، بل جاء ضمنًا هنا، فالقَسَم على أن الله تعالى سيجمع عظام الناس، أي: سيبعثهم[١]، وهذا كثير، كما في «سورة الحاقة»، و«سورة القارعة»، وغيرهما.

والمقصود: الكافر أو المكذِّب، **وقيل**: إنسانٌ خاص، هو أبو جهل أو الأَخْنس ابن شَرِيق أو غيرهما من المشركين الذين كانوا ينكرون البعث[٢]، وقد كان أحدهم يأتي بالعظام، وهي رَمِيم، ويشير إليها ويقول: هل ستُجمع هذه العظام كلها؟ والله لا أؤمن حتى تجمع هذه العظام[٣]، والآيات وإن نزلت في معين، إلا أنها عامة تخاطب كل مَن ينكر البعث أو يشك فيه.

وجَمْعُ العظام تأكيد على البعث من جديد، فبعد جَمْعِ العظام تُكسى باللحم، **وأشار إلى العظام لأسباب، منها:**

١- أن العظام هي من أول ما يُخلق، كما قال الله سبحانه: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤].

٢- أن العظام كما أنها أول ما يتكون من الإنسان فهي آخر ما يبقى منه، فيزول اللحم والشحم والدم، وتبقى العظام لفترة طويلة.

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٢٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٦٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٢١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٣٩).

(٢) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٩١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٦٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٢٢)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٨٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٨٠).

٣- أن أصل الإنسان من العظم، كما جاء في الحديث، أن النبيَّ ﷺ قال: «**وليس من الإنسان شيءٌ إلا يَبْلَى، إلا عظمًا واحدًا؛ وهو عَجْبُ الذَّنَب، ومنه يركَّبُ الخلقُ يومَ القيامة**»[١]. وعَجْبُ الذَّنَب: العظم المستدير الصغير الذي يكون في أسفل الظهر، فمنه خُلق الإنسان، ومنه يُبعث ويُركَّب[٢].

٤- أن سبب النزول هو إنكار المشركين للبعث، وربما كانوا يستبعدون جمع العظام بعدما تفرقت أكثر مما يستبعدون غيره، ويضربون بها المثل؛ لأنهم يرون عظام الحيوانات من الإبل والبقر والحمير وغيرها وهي مرمية ذات اليمين وذات الشمال بعدما تحلَّلت أجزاؤها وبقيت عظامها، فكانوا يحتجون على النبي ﷺ بهذه العظام.

وهذا دليل على القدرة الإلهية أولًا، ودليل على الإرادة ثانيًا، فالله تعالى قدير وقد أراد ذلك، وأخبر أنه سوف يجمع عظامهم، وذكر العظام خاصة هنا يحدث هزة نفسية في القارئ الحيّ المتحرك وهو يرى نفسه فجأة قد بلي وصار عظامًا متفرقة.

وقد كانت المشكلة الشعورية عند المشركين هي صعوبة تصورهم لجمع العظام البالية، الذاهبة في التراب، المتفرقة في الثرى، لإعادة بعث الإنسان حيًّا! ولعلها لا تزال كذلك في بعض النفوس إلى يومنا هذا! والقرآن يرد على هذا الحسبان بعدم جمع العظام مؤكدًا وقوعه: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾[٣].

* ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤﴾:

فلن نجمع العظام فقط، بل نحن ﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾.

وقد ذهب أكثر أهل العلم- وهو المنقول عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ومجاهد وسَعيد بن جُبير وعكرمة- إلى أن المعنى: أن نجعل يد الإنسان مُسَوَّاة بدلًا من أن

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٨/ ٩٢)، و«إرشاد الساري» (٧/ ٣٢٣).

(٣) ينظر: «في ظلال القرآن» (٦/ ٣٧٦٨).

تكون متفرقة بالأصابع، فتكون كخف الحيوان أو حافره بلا أصابع، فلا يستطيع أن يتناول بها شيئًا، أو أن يأكل بها ويشرب(١).

وذكر الشيخ محمد عطية سالم رَحِمَهُ اللَّهُ في تتمة «أضواء البيان» أن جميع المفسرين على هذا، واستغربه، وقال: «وهذا في الواقع لم نفهم له وجهًا مع السياق»(٢).

والصحيح أن في المسألة قولًا آخر ذكره الزجَّاج وابن قُتيبة وعدد من أئمة اللغة، واختاره ابن القيم، وهو أن المعنى: أن الله تعالى قادر على إعادة الإنسان وعلى جمع عظامه حتى جمع الأطراف وتسويتها وإعادتها(٣).

والبَنَانُ: الأصابع، أو أطراف الأصابع(٤)، وفي هذا إشارة إلى كمال قدرته سبحانه.

وقد اكتشف العلماء المعاصرون أن البَصْمَة علامة فارقة بين البشر، فلكل إنسان بصمته، فلا يمكن أن يتفق اثنان في العالم في صفة تخطيط البَصْمَة، وفي ذلك إشارة إلى تحديد المسؤولية، بحيث: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، ولا يؤاخذ أحدٌ بذنب غيره، وإنما: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: ٣٨]، ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور: ٢١]. كما يتعامل الناس بالبَصْمَة في الدنيا عند ما يحدِّدون المسؤول عن عمل ما، فيوم القيامة كل أحد يتحمل عمله خيرًا أو شرًّا.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٦).

(٢) ينظر: تتمة «أضواء البيان» (٨/ ٣٧٢).

(٣) ينظر: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص٢٠٦- ٢٠٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٥١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٤)، و«التبيان في أقسام القرآن» (ص١٠٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٤١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٧٣)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٢٢/ ٤٧٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٤١).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص١٧٧)، و«مختار الصحاح» (ص٤٠)، و«تاج العروس» (٢٤/ ٢٧٨) «ب ن ن».

* ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ⁽٥⁾﴾:

والذين ينكرون البعث في الغالب ينكرونه لأحد أمرين:

١- شبهة عارضة في عقولهم، فهم يستبعدون هذا الأمر استبعادًا عقليًّا، ولهؤلاء جاء الجواب الإلهي بإثبات القدرة على تسوية البَنَان، فالذي خلق هذا الإنسان أول مرة قادر على أن يعيده، وعلى أن يسوِّي أدق التفاصيل فيه، وفي هذا إطاحة بالشبهة العقلية.

٢- شهوة، فإن من الناس مَن ليس عنده وقت ليفكِّر في مسألة البعث، ولا يريد أن يفكِّر؛ لأنه لا يريد أن يشغل بالَه بشيء يلهيه عن ملذاته، يريد أن ينطلق فيعبّ من الشهوات عبًّا، فيستمتع بشبابه وبحيويته وبالفرص المتاحة له، ويعبث بما تمكن منه من شرابٍ ونساءٍ ولذاتٍ، ولا يريد أن يسمع شيئًا يعكِّر عليه مسار حياته وعاداته وعلاقاته ونظامه.

وعن مثل هؤلاء تحدثت الآية الكريمة، وجاء حرف ﴿بَلۡ﴾ للإضراب[(١)] والانتقال من سبب سابق- هو الشك في البعث- إلى سبب آخر هو أوسع انتشارًا وأعمق في نفوس كثيرين، وكأن الدافع الأقوى والأكبر هو إرادة الفجور، فأبرز كلمة ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ مرة أخرى فقال: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أي: يريد الفجور[(٢)].

وفيه إشارة إلى تعلق الإنسان بالشهوة المستقبلة، وليس بالشهوة الماضية، فالشهوة التي مضت أصبحت حُلُمًا أو خيالًا أو وهمًا، وقصاراها أنها تغريه بالمزيد والتكرار وتلح على خياله وتمنعه التوبة، ولسان حالها يقول: كيف تدع متعًا جميلة مغرية متاحة في متناول يدك؟ ولو استحضر الآخرة، ومتعها ونعيمها وسرورها وخلودها السرمدي، لصغرت في عينه الشهوة الدنيوية، حتى لو كانت حلالًا، فكيف بالحرام؟

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ⁽٥٣⁾﴾، وما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ⁽١٩⁾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٦٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٠٤)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٦٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٤٢).

يـأسَـفُ الـمَـرءُ على مـا فاتَهُ   مِـن لُبانـات[1] إذا لَـمْ يَقْضِهـا
وتَـــراهُ فَـرحًـا مُـسـتَـبشــرًا   بالَّتـي أَمضــى كَأَن لَـمْ يُمضِهـا
إنها عِـنـدي كـأَحـلامَ الـكَـرَى   لقريـب بَعضُهـا مِـن بَعضِهـا[2]

والفجور: المعصية والفسق، **والفاجر**: العاصي، **ومن معاني الفجور**: التكذيب، والعرب يُطلقون الفجور على التكذيب، فيقولون: فلان فاجر، أي: كذَّاب[3]، لا سيما إذا حلف يمينًا بالله على شيء وهو كاذب.

* ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ٦﴾:

أي: ومن فجوره: سؤاله هذا، والله تعالى يوثِّق عليه هذا الموقف، فكأنك ترى هذا الفاجر الذي فضحه الله وجرَّده وعرَّاه وعرَّى مشاعره ومقاصده، لا يزال متبجِّحًا متعاظمًا يسأل وكأنه عالم أو محقِّق أو مدقِّق: متى يوم القيامة؟ وهو سؤال استبعاد واستنكار؛ ولذا جاء بأداة ﴿أَيَّانَ﴾، وهو أدلّ من «متى» على الاستبعاد.

ومن عادة الناس التعلق بالأرقام؛ ولذا يتحدَّثون عن الساعة الموعودة ويحاولون تحديدها وبالتقريب، فبعضهم يستنبط ذلك من الآثار النبوية، كحديث: «**مَثَلُ المسلمينَ واليهود والنصارى، كَمَثَل رجل استأجر قومًا، يعملونَ له عملًا إلى الليل، فعملوا إلى نصف النهار**...» الحديث[4]، وبعضهم يحاول استخراج أجلها المضروب من الحروف المقطَّعة في أوائل السور[5]، وبعضهم يحسبونها

---

(١) جمع: لُبانة، وهي الحاجة النفسية.

(٢) ينظر: «ديوان المعاني» لأبي هلال العسكري (١/ ٣١٥)، و«نفح الطيب» (١/ ١١٩)، (٥/ ١٦١) منسوبًا إلى عمران بن حِطَّان.

(٣) ينظر: «لسان العرب» (٥/ ٤٦- ٤٧)، و«تاج العروس» (١٣/ ٢٩٩- ٣٠٠) «ف ج ر».

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٨، ٢٢٧١) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولفظه: «**مَثَلُ المسلمينَ واليهود والنصارى، كمثل رجل استأجرَ قومًا، يعملونَ له عملًا إلى الليل، فعملوا إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجةَ لنا إلى أجركَ. فاستأجرَ آخرينَ، فقال: أكملوا بقيةَ يومكم، ولكم الذي شرطتُ. فعملوا حتى إذا كان حينَ صلاة العصر، قالوا: لك ما عملنا. فاستأجر قومًا، فعملوا بقيةَ يومهم حتى غابت الشمسُ، واستكملوا أجر الفريقين**».

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٢٢٠)، و«تفسير الرازي» (٢/ ٢٥٣- ٢٥٤)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٦١).

بالنجوم.

وكله من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وإن كانت أشراطها قد اقتربت وعلاماتها قد ظهرت، وقبل مدة خرجت علينا قصة: «هرمجدون» وأشراط الساعة الكبرى، وخرج كتاب يقول صاحبه: لم يبق إلا ستون سنة أو سبعون سنة على القيامة!

والله تعالى يريد من الناس ألَّا يتعلَّقوا بهذه الأوهام، وأن يصمدوا للحقائق؛ ولهذا لم يُجب الله عن السؤال بما يريد السائل، وإنما اكتفى بذكر ما يحدث فيها، وما يقول الإنسان، وما يترتب على البعث من سؤال وحساب، ونعيم وعذاب.

وهذا مثل قول الله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾، فقد كانوا يسألون عن الهلال: لماذا يصبح صغيرًا ثم يكبر؟ فما أجابهم الله على السؤال بخصوصه؛ لأنه لا فائدة لهم أن يُخبروا عنه بالوحي، والوحي لم يأت ليخبرهم بتفاصيل الفلك، وإنما أخبرهم الله سبحانه عن الحكمة من وراء ذلك، فقال: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، فأخبرهم بالمقصد والمصلحة من وراء ذلك، وترك لهم أن يبحثوا: لماذا يبدأ الهلال صغيرًا ثم يكبر؟ فيدركوا ذلك بعلومهم وعقولهم ومحاولتهم[١].

* ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾:

﴿بَرِقَ﴾ أي: أصابه من البرق شيء، فعند ما يكون البرق شديدًا وينظر إليه الناظر فإن العين تتأثر وتنتكس الرؤية ولو مؤقتًا، ويقال: برقت العين.

وفي قراءة أهل المدينة بفتح الراء، وكلاهما قراءة سبعية: ﴿بَرَقَ﴾[٢]، كأن هذا ﴿ٱلْبَصَرُ﴾ أصبح مشدودًا لا يطرف ولا يلتفت بسبب الهول[٣].

وهي من علامات القيامة، والجواب هنا يغني جوابًا عن السؤال عن أوانها.

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة القمر»: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٧٨)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٦١)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٥٧)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢١٦)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٣)، و«معجم القراءات» (١٠/ ١٨٥- ١٨٦).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٦٠)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٤٤).

* ﴿وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ٨﴾:

أي: ذهب ضوؤه[1].

* ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ٩﴾:

قد يكون جمعهما: بأن يذهب ضوء كل منهما[2]، فاشتركا في الحكم.

أو أن المعنى: جُمع ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ معًا، بدلًا من أن تكون الشمس في جهة والقمر في جهة، فطلعت الشمس من مغربها، وأصبح القمر بإزائها.

أو يكون المعنى: أنهما جُمعا ثم أُلقيا[3]، كما ورد أن الشمسَ والقمرَ يلقيان في النار يومَ القيامة؛ ليُعذَّب بهما الذين كانوا يعبدونهما من دون الله ويبكتوا، فقال ﷺ: «**الشمسُ والقمرُ مُكَوَّران يومَ القيامة**»[4]. ولا مانع من إرادة المعاني كلها، وأنها تقع في وقت واحد، أو في أوقات مختلفة، والله أعلم.

وذهب بعضهم إلى أن هذه العلامات تكون عند النزع والاحتضار قبيل خروج الروح[5]، وهذا مفهوم في قوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ﴾، لكنه غير واضح في قوله: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾، إلا إن قيل: إن هذا بسبب اضطراب حواس الإنسان، كما ذكره بعضهم، وهو بعيد.

والصحيح أن المقصود هنا ما أخبر الله عنه في غير هذا الموضع من علامات يوم القيامة حينما يخسف القمر، ويجمع الشمس والقمر.

وهنا تلحظ أن الله تعالى لم يجبهم إلى ما سألوه؛ وإنما لفت أبصارهم إلى ما كان يجب أن يهتموا به ويستعدوا له، ونظير ذلك في السنة النبوية قصة الأعرابي

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٨١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٩١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٤٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٨١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٦)، و«روح البيان» (١٠/ ٢٤٦).

(٣) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٧٠)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٢٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٦- ٩٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٠٥).

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٢٤)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٦٦).

الذي جاء إلى النبي ﷺ فقال له: متى الساعةُ؟ فقال له النبيُّ ﷺ: «**وماذا أعددتَ لها؟**». قال: لا شيء، إلا أني أحبُّ اللهَ ورسولَهُ ﷺ. فقال: «**أنتَ مع مَن أحببتَ**»(١).

فلم يجبه النبيُّ ﷺ على خصوص السؤال؛ وإنما أجاب الإجابة المفيدة النافعة.

وقائلٍ: هل عملٌ صالحٌ أَعْدَدْتَه يدفعُ عنك الكُرَبْ
فقلتُ: حسبي خدمةُ المصطفى وحبُّه، فـ«**المرءُ مع مَن أحبْ**»(٢)

* ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ١٠﴾:

فهذه العلامات تقع يوم القيامة، وهذا الإنسان الذي كان يسأل قبل: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ٦﴾ [القيامة: ٦] هو نفسه الآن يقول: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾؟

والمعنى: أنه لا مفرَّ، فهو يتلفت فيرى الأمر صعبًا، والملائكة تحيط به من كل جانب، فيقول: لا مفرَّ، وهو كان يسأل بتبجح وتعاظم، والآن يسأل بخوف وذُعر.

* ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ١١﴾:

ولعل هذا من قول الحق سبحانه جوابًا على سؤال: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾، ويحتمل أنه من تمام كلام الإنسان، فهو يرجع إلى نفسه بالتأنيب والتذكير(٣).

و﴿وَزَرَ﴾ في الأصل: هو الجبل أو الواقي، قال الشاعر(٤):

تَعَزَّ فلا شيءٌ على الأرضِ باقيَا ولا وَزَرٌ مما قَضَى اللهُ واقيَا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «الجواهر والدرر» (٢/ ٨٤٩)، و«شرح صحيح البخاري» للسَّفِيري (١/ ٤٠٨)، و«العقد التليد في اختصار الدر النضيد» للعَلْمَوي (ص٢٨٠)، و«المطالع البدرية في المنازل الرومية» لبدر الدين الغَزِّي (ص١٨٠)، و«ريحانة الألِبَّا» للشهاب الخفاجي (ص١٤٣) منسوبًا إلى الحافظ ابن حجر.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٨٤)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٥٤)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٢٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٤٦).

(٤) ينظر: «شرح التسهيل» لابن مالك (١/ ٣٧٦)، و«اللمحة في شرح الملحة» (١/ ٤٨٥)، و«أوضح المسالك» لابن هشام (١/ ٢٧٥).

فالوَزَر هو: الشيء الذي يقي الإنسان(١)، وهنا لا شيء يقي الإنسان أو يمنعه من مواجهة الحساب.

والمؤازرة: المساعدة والمساندة، فالمرء هناك بلا حليف ولا أنيس ولا صاحب ولا أخ ولا قريب، واعتماده على ما قدَّم من عمل، أو ما ظن بربه من فضل ورحمة.

* ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾:

أي: أن الاستقرار موكولٌ إلى الله سبحانه، فهو الذي بعث عباده وجعل لهم هذا المستقر، فهذا فعله عَزَّوَجَلَّ.

أو أن الناس استقروا إلى ربهم وعادوا إليه.

أو أن الحساب والمصير إلى جنة أو نار بيده(٢).

وهو جواب مناسب لسؤالهم: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾؟ فلا مفرَّ، بل الأمر ثابت مستقر واضح، وشأن الآخرة ليس كشأن الدنيا فيه إمهال وإملاء، بل هو أمر صارم، والإنسان في مصيدة لا نجاة له منها، إلا بما أسلف.

* ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾:

وهذا شيء عجيب؛ أن يذكَّر الإنسان بما عمله هو، فكيف ينساه؟! كما قال الله تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، وبعض الناس يتناسى ويتجاهل، فينبَّأ يوم القيامة بما عمل.

وهذا الإنسان كان يريد أن يفجر أمامه ويمضي في طريقه دون تردد، في حين أن آخر لوَّام لنفسه يقدِّم رِجْلًا ويؤخِّر أخرى، وكل هذا أو ذاك مرصود مدوَّن، حتى الهَمُّ والنية(٣).

وينبَّأ فوق هذا بما حصل من أثر عمله بعد موته من خير أو شر، كما قال

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٨٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٤٦).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٦٠)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٢٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٤٦).

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة الانفطار»: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

سبحانه: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر: ٤٧]، أي: من مضاعفة حسنات أو عظمة سيئات بأسباب عملوها ولم يتوقعوا أن تصير إلى هذا، فقد يرونه صغيرًا هينًا، وهو عند الله عظيم.

وربما قدَّم الإنسان الأعمال الصالحة فعملها في حياته، وأخَّر بعضها فلم يعملها وسوَّف؛ لأنه كان يمنِّي نفسه بالأماني والآمال، فأخَّر العمل حتى باغته الموت قبل أن يتمه(١).

أو يكون المقصود: ما قدَّم من الأعمال وما أخَّر من الآثار: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢]، كالسنن الحسنة، والعلم النافع، والولد الصالح، والصدقة الجارية التي بقيت بعد موته وحفظت له، أو ضد ذلك من سيئة جارية؛ فقد يوقف الإنسان مالًا في معصية أو بدعة، أو يسن سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها، وكل ذلك صحيح وداخل في معنى الآية.

ومن ذلك: أن ينبَّأ بما قدَّم من المال وما أخَّر فتركه لورثته(٢)؛ «**فإن مالَ الإنسان ما قدَّم، ومالَ الوارث ما أخَّر**». كما قال ﷺ(٣).

* ﴿بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾:

فهو يوم القيامة بصير على نفسه، مبصر عارف بها، تشهد عليه جوارحه وأعضاؤه إذا جحد أو أنكر، كما في الحديث أن الإنسان يقول: «**يا ربِّ، ألم تُجِرْني من الظلم؟ قال: يقولُ: بلى. قال: فيقولُ: فإني لا أُجيزُ على نفسي إلا شاهدًا مني. قال: فيقولُ: كفى بنفسكَ اليومَ عليكَ شهيدًا، وبالكرام الكاتبينَ شُهودًا. قال: فيُختمُ على فِيهِ، فيقالُ لأركانه: انْطِقِي. قال: فتنطقُ بأعماله**»(٤).

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٩١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٨).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٨٥)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٩٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٩٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٥٥٥).

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٦٤٤٢) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٦٩) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهو بصيرٌ على نفسه في الدنيا، وكثيرًا ما يجادل عن نفسه بالباطل، ويحتج ويعتذر، وهو في قرارة نفسه يعرف الحق، ولو أنه كان صادقًا مع نفسه، بعيدًا عن الخداع والتمثيل والتلاعب، لأدرك حقيقة الأمور التي يجادل عنها، كما قال سبحانه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ أي: أعذاره[١]، وقد تكون جمعًا أو جمع الجمع؛ جمع مِعذار، أو عذر، ومهما اعتذر الإنسان فهو يعلم حقيقة هذا في نفسه.

وقيل: المعاذير: السُّتور[٢]، فلو وضع الستور وأرخاها عليه في الدنيا حتى لا يراه أحد، فهو بصير على نفسه، ولا يوجد عليه شهود، ولكنه يعرف حقيقة الأمر ويشهد على نفسه.

وورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن المعاذير بلغة اليمن: الثياب، أي: ولو أَلْقَى ثيابه[٣].

وهذا يحتاج إلى تأمل، وكأن المعنى: أن الإنسان ولو كان فيه نوع من الخبل أو الجنون يلقي ثيابه ويتعرَّى من شدة جنونه، فهو يعرف ما يضره وما ينفعه في كثير من الحالات مما يأكل أو يشرب أو غير ذلك، وهذا معنى ضعيف.

وفي هذا درس تربوي يحث الإنسان على أن يخلو بنفسه، يراقبها ويحاسبها، ويسلِّط على النفس اللَّوَّامة هذا المصباح الكاشف، بدلًا من أن يسلِّطه على الآخرين، كما يقول ابن كثير[٤]: «كان يقال: إن في الإنجيل مكتوبًا: «يا ابنَ آدمَ،

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٠٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٠١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٨)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٦٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٩٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٥٣)، و«الكشاف» (٤/ ٦٦١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٥٥٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٠٦)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٥٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٠١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٨).

(٤) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٧).

تبصرُ القَذاةَ في عين أخيك، وتتركُ الجذع في عينك لا تبصره!»[1].

❁ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾:

أي: بالقرآن، وكان النبيُّ ﷺ يتلقَّى الوحي، ومنه هذه السورة التي ربما نزل قبلها حوالي ثلاثين سورة، فكثرت السور، وكان ﷺ حريصًا على حفظها وإتقانها، حتى إنه من شدة حرصه إذا نزل عليه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يلقِّنه القرآن، يحرِّك شفتيه مع جبريل همسًا؛ ليتأكد من حفظها وضبطها، وخوفًا من النسيان.

وجاء أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حرَّك شفتيه، وقال: «أنا أحرِّكهما لكم كما كان رسولُ الله ﷺ يحرِّكهما». وهكذا فعل الراوي عنه، وهو سَعيد بن جُبير[2]، وهذا يسمى في مصطلح المحدثين: بالتسلسل، فالحديث المسلسل: ما تواطأ الرواة فيه على قول أو فعل أو صفة[3]، أي: حكى فعل النبي ﷺ بتحريك الشفتين.

وهذا كقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤]، وكأن نزول الآية ووجودها في هذا السياق بسبب عارض؛ وهو تحريك النبي ﷺ شفتيه أثناء نزول هذه الآيات، فنهاه ربه عن ذلك وعن الاستعجال، وأمره بالإنصات والإصغاء، ولعله من ذلك أخذ النبي ﷺ حين خرج على الصحابة وهم يجهرون بالقرآن، فقال: «**إنَّ المصلِّي يناجي ربَّه** عَزَّ وَجَلَّ**، فلينظرْ أحدُكم بما يناجي ربَّه، ولا يجهرْ بعضُكم على بعض بالقراءة**»[4].

---

(١) وقد رُوي مرفوعًا من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والصواب وقفه. ينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٣)، و«تبييض الصحيفة بأصول الأحاديث الضعيفة» (٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥)، ومسلم (٤٤٨) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) ينظر: «الاقتراح في بيان الاصطلاح» (ص١٨)، و«فتح المغيث» (٤/ ٣٩)، و«التقريرات السنية شرح المنظومة البيقونية» (ص٢٨)، و«تيسير مصطلح الحديث» للطحان (ص٢٢٩).

(٤) أخرجه أحمد (٥٣٤٩، ٦١٢٧)، وابن خزيمة (٢٢٣٧) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه أبو داود (١٣٣٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٣/ ١٧) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأوله في «صحيح البخاري» (٤٠٥)، و«صحيح مسلم» (٥٥١) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٩٧، ١٦٠٣).

* ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ١٧﴾:

فالله تعالى سوف يجمعه لك في صدرك، وسيجمعه في المصحف، وعد من الله حق، وقد حقَّق هذا الوعد بجمع المصحف في عهد أبي بكر الصديق، ثم في عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[1]، وظلَّت المصاحف موجودة في أيدي المسلمين، لا يختلفون في حرف منها، فجمعه في السطور، وجمعه في الصدور، وجعل المهمة الأولى للخليفة الأول هي جمع المصحف وضبطه بملأ من الصحابة وإجماع قاطع، وصار القرآن يحفظ متلوًّا عن ظهر قلب، ويحفظ مسطورًا في الصحف، كما وعد الله.

وهو هنا سماه: قرآنًا، فقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، وفي موضع آخر سماه: كتابًا، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، فأشار للكتاب قبل أن يُجمع؛ إشارة إلى ما سوف يحدث من ضبطه وجمعه، وإذا قيل: «القرآن» قصد به: «الكتاب»، وإذا قيل: «الكتاب» قصد به: «القرآن»، فالقرآن مجموعٌ محفوظ في هذا الكتاب، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ٩].

* ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ١٨﴾:

أي: إذا قرأه عليك جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾: اقرأ بعده كما كان يقرأ واعمل بمقتضاه[2].

وفيه تنبيه للتأدب مع الشيخ بالاستماع، وعدم الاستعجال في السؤال، والتأنِّي والتفهم، فقد أمر الله نبيه هنا أن يستمع إلى جبريل حين يلقي إليه الوحي، ثم يتبعه بعد فراغه بأن يقرأ كقراءته، وقد كان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يعارض النبيَّ ﷺ القرآن في كل سنة مرة، فلما كان العام الذي قُبِضَ فيه عارضه مرتين[3]، حتى يضبط ويتقن

(١) ينظر: «فضائل القرآن» للمستغفري (١/ ٣٥١)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٠٧-٦٠٨).

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٠٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٠٦).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٢٨٦)، و«صحيح مسلم» (٢٤٥٠).

القرآن.

وقد قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير هذه الآيات: إن النبيَّ ﷺ كان يعاني من التنزيل والوحي شِدَّة، وكان مما يحرِّك شفتيه، فأنزل الله هذه الآية[1].

* ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾:

تكفَّل الله تعالى لنبيه ﷺ ببيان القرآن الكريم، كما قال: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]؛ ولهذا فإن أعظم البيان: تفسير القرآن بالقرآن؛ فبعض الآيات يفسِّر بعضًا.

ويكون البيان بحديث النبي ﷺ وأقواله وأفعاله، مع أن الأحاديث الصحيحة الواردة في التفسير ليست كثيرة؛ ليجتهد الناس في البحث والاستنباط، وليفهموا القرآن وفق لغة العرب، وعلى ضوء قواعد الشريعة، وكان النبي ﷺ يبيِّن القرآن بأفعاله، كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فإن خُلُق نبيِّ الله ﷺ كان القرآنَ»[2]. ولما قال له ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ١٩﴾ [العلق: ١٩] سجد النبيُّ ﷺ، وقال: «**أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ**»[3].

لقد كان ﷺ يعمل بالقرآن، ويفسِّره بفعله، وعبادته، وخُلُقه، وعمله، وحياته كلها[4].

* ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ٢١﴾:

﴿كَلَّا﴾ بمعنى: حقًّا[5]، وهذا عتاب وتقريع وتوبيخ للكافرين، والغافلين من

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٥، ٤٩٢٨، ٧٥٢٤)، و«صحيح مسلم» (٤٤٨).

(٢) أخرجه مسلم (٧٤٦).

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانكَ اللهمَّ ربَّنا وبحمدكَ، اللهمَّ اغفرْ لي**». يتأوَّل القرآن. وينظر ما سيأتي في «سورة النصر»: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ٣﴾.

(٥) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٥٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٢٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٩/ ٥٦١).

المؤمنين، فبعدما ذكر أن النبي ﷺ كان يستعجل حفظ القرآن الكريم بترديده، ونهاه عن ذلك، وكأن العجلة طبيعة في الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾ [الإسراء: ١٧].

وهنا يتبين الفرق الهائل والبَوْن الشاسع بين مَن عجلته في الخير والقرآن والوحي، ومَن يتعلَّق بالدنيا العاجلة الفانية ويؤثرها على الآخرة.

وفي هذه الآية تقريعٌ وتوبيخٌ للكافرين على إيثارهم الدنيا وتركهم للآخرة، وليس العيب مجرد حبهم للدنيا أو رغبتهم في الخير العاجل، كما قال الشاعر(١):

إني لأرجـو مِنـكَ خَـيرًا عاجِـلًا والنَّفـسُ مُولَعَـةٌ بحُـبِّ العاجِـلِ

لكنهم يتركون الآخرة ويغفلون عنها، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۝٢٧﴾ [الإنسان: ٢٧]، فهذه وإن كانت عاجلة مقدَّمة لكنها قصيرة، والآخرة مؤجَّلة ولكنها طويلة، وهذه فانية وتلك باقية.

* ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢﴾:

عبَّر بالوجوه؛ لأن الوجه مجمع كمال الإنسان، ومشاعر الفرح والحزن والغضب والرضا تظهر عليه، ويعبَّر عنها بلغة الوجه، فأحيانًا قد ترى إنسانًا فتسأله عن معاناته فينكرها، فتقول له: ملامح وجهك وحركة عينيك توحي بأنك تخفي شيئًا ما.

و﴿وُجُوهٌ﴾ هنا نكرة، والتنكير للتقسيم والتنويع(٢)؛ لأن وجوهًا كذا ووجوهًا كذا، و﴿نَّاضِرَةٌ﴾ من النضرة، أي: الجَمَال، قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤﴾ [المطففين: ٢٤]، فهي جميلة حسنة، مشرقة مضيئة، تبرق بالسرور(٣)، كما قال ﷺ: «**نَضَّرَ اللهُ امرأً سمع مقالتي، فوعاها فبلَّغها، فرُبَّ حامل فقه ليس بفقيه،**

(١) ينظر: «ديوان جرير» (٢/ ٢٥٣).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٥٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٠٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٨٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٠٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ / ٢٧٩).

ورُبَّ حاملِ فقه إلى مَن هو أفقَهُ منه»[١].

مع أنه وقع ما أخبر الله عنه في أول السورة: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ٩﴾، وأصبح الناس في رعب يتساءلون: ﴿أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾؟

* فهذه الوجوه لها ملجأ ولها مستقر، وتبين عليها علامة الفرح والغبطة والرضا والحُبور: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾:

أي: تنظر إلى جمال ربها في الجنة، فمنهم مَن ينظر إلى جمال الله وجلاله ووجهه الكريم في اليوم مرات، ومنهم مَن ينظر إليه في الأسبوع كيوم الجمعة، ومنهم دون ذلك[٢]، فهم على درجات متفاوتون حتى في مقدار النظر ومتعته ووقته بحسب إيمانهم وأعمالهم[٣].

والآية أثبتت نظر المؤمنين إلى ربهم، وهذا ما كان عليه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهو الذي يفهم من قول الله تعالى عن المنافقين والكافرين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ [المطففين: ١٥]، قال الشافعي: «ما حجب الكافرين إلا لأنه أذن للمؤمنين»[٤].

وجادل في ذلك أقوام[٥]، وقد زلَّ في تفسيرها الإمام مجاهد بن جبر رَحِمَهُ اللَّهُ،

---

(١) أخرجه الطيالسي (٦١٨)، وأحمد (٤١٥٧، ١٣٣٥٠، ١٦٧٣٨)، وأبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦- ٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣٠- ٢٣٦)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٩٤)، وابن حبان (٦٦- ٦٩، ٦٨٠)، والحاكم (١/ ٨٦- ٨٨)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٨٤- ١٩٩) عن جماعة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وينظر: «جزء فيه قول النبي ﷺ: «**نضَّر اللهُ امرأً سمع مقالتي فأدَّاها**» لابن مَمَّك، و«نظم المتناثر من الحديث المتواتر» (ص٣٣- ٣٤)، و«السلسلة الصحيحة» (٤٠٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٠٧)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٦٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨١)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٩).

(٣) كما جاء في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إن أدنى أهل الجنة منزلةً لينظرُ في مُلكِ ألفي سنة، يرى أقصاه كما يرى أدناه، ينظرُ في أزواجه وخدمه، وإن أفضلهم منزلةً لينظرُ في وجه الله تعالى كلَّ يوم مرتين**». ينظر: «مسند أحمد» (٤٦٢٣)، و«رؤية الله» للدارقطني (١٧٣)، و«الإبانة الكبرى» لابن بطة (٧/ ١٥) (١٤)، و«المستدرك» (٢/ ٥٠٩)، و«شرح أصول الاعتقاد» للَّالَكائي (٨٤١).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ١١٧)، والبيهقي في «الاعتقاد» (ص١٣١).

(٥) ينظر: «مقالات الإسلاميين» (١/ ١٣١).

وحسبُك به جلالةً وإمامةً في التفسير، فقد أخذ التفسير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وله قدم صدق في الإسلام والعلم والمعرفة والخير، ومع ذلك قال في تفسير هذه الآية: «تنتظر الثواب من ربها»(١).

وهذه من زلات العلماء، ومع ذلك انظر إلى أدب الأمة في احترام علمائها، حيث لم يسقطوا كل عالم بخطأ وقع فيه، بل حفظوا مقامات الرجال، ولم يقعوا في أعراضهم، ولم يلمزوهم، ولم يتابعوهم على الخطأ؛ لجلالة أقدارهم.

ومما يدل على أنها تنظر إلى الله عَزَّوَجَلَّ أنه عدَّى الفعل بـ﴿إِلَىٰ﴾، كما تقول: نظرتُ إلى الشمس، نظرتُ إلى القمر، والنبيُّ ﷺ لما سُئل: هل نرى ربَّنا يومَ القيامة؟ قال: «**هل تُضارُّونَ في القمر ليلةَ البدر؟**». قالوا: لا يا رسولَ الله. قال: «**فهل تُضَارُّونَ في الشمس، ليس دونها سحابٌ؟**». قالوا: لا يا رسولَ الله. قال: «**فإنكم ترونه كذلك**»(٢).

❁ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: كالحة مكفهِرَّة(٣)، وهي كانت ﴿بَاسِرَةٌ﴾ في الدنيا، كما قال سبحانه في «سورة المدثر»: ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾، فذاك الذي نظر وعبس وبسر في الدنيا حربًا على الحقِّ يُحرم من النظر إلى الله، ويكتب عليه العبوس والبسور في الآخرة.

❁ ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾:

أي: تتيقَّن(٤)؛ فالأمر يقينٌ لا شك فيه، و﴿فَاقِرَةٌ﴾: أمرٌ يكسر فَقَار الظهر(٥)،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٠٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٠٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٠)، و«فتح القدير» (٣/ ٢٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥١٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٠٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨١).

(٤) ينظر ما سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾﴾.

(٥) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٠٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٨٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٣٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٠).

وهذا مثل يضرب، فإذا أصابت الإنسان مصيبة صغيرة تحملها، فإذا كانت عظيمة يقعد لها فيقال: فلان انكسر ظهره، أي: لا حيلة له، وكما قال الحُطَيْئَة(١):

وتلك لَعَمْرُ الله قاصمةُ الظَّهْر

أي: هذه الفاقرة التي تقصم الظهر وتكسره، فمصيبة الكافر يوم القيامة لا مصيبة أعظم منها؛ لأن فيها خسارة النفس والأهل والحرمان الأبدي السرمدي الذي لا يعوض، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾ [الزمر: ١٥].

* ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦﴾:

وتكرار ﴿كَلَّآ﴾ هو مزيد من الوعيد والتهديد يعود إلى أولئك الذين يحبون ﴿ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ ويتركون ﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾، وينشغلون بزخارف عابرة عن الوجوه الناضرة، وهذا إيذان بالقيامة الصغرى.

ولم يذكر تعالى ما هذه التي ﴿بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾، لكن المقصود: الروح، أو النفس للمعرفة بالسياق(٢)، فيكون المعنى: إذا وصلت الروح إلى التَّرْقُوة، وبلغت الحلقوم، كما في الآية الأخرى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ٨٣﴾ [الواقعة: ٨٣].

والتَّرْقُوة: العظم المشرف في أعلى الصدر بين ثغرة النحر والعاتق، وللإنسان ترقوتان يمين ثغرة النحر وشمالها(٣)، وربما سميت بذلك لأنه يرتقي فيها النفس.

و﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ ذكرهما هنا بالجمع؛ لأن أقل الجمع اثنان(٤)، ولأنه أجود وأجمل من التثنية، وقد يكون إشارة إلى عموم الناس(٥).

---

(١) ينظر: «فوات الوفيات» (١/ ٢٧٦)، و«الوافي بالوفيات» (١١/ ٥٤)، و«ديوان الحطيئة» (ص٤٦).

(٢) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٩٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٣٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٥٧).

(٣) ينظر: «مختار الصحاح» (ص٤٥)، و«لسان العرب» (١٠/ ٣٢) «ت ر ق».

(٤) ينظر: «الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي (٢/ ٢٢٢)، و«المزهر» للسيوطي (١/ ٣٩)، و«البُلغة إلى أصول اللغة» لصديق حسن خان (ص٨٠)، و«فتح رب البرية في شرح نظم الآجرومية» (ص٢٠٨-٢٠٩)، و«النحو الوافي» (١/ ١٤٩).

(٥) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٥٨).

* ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾:

لم يذكر تعالى مَن هو القائل، بل جاء به على صيغة ما لم يُسَمَّ فاعله؛ لأن القائل- والله أعلم- متعدِّد، فالملائكة فيما بينهم يتكلمون ويقولون: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ أي: مَن الذي سوف يرقى بهذه الروح وينزعها، ويذهب بها إلى الملأ الأعلى؟ فهم يتدبرون الأمر فيما بينهم، والناس لا يحسُّون بذلك(١).

وأهل الميت يبحثون عن الحيل، ويقولون: هل ثَمَّ راقٍ ينفث أو يقرأ على هذا المريض لعله يشفى(٢)، وقد أدركوا أن الطب لم يعد يجدي، وقد أعلن عجزه وإخفاقه في حالة هذا المريض، وإنما بحثوا عن السبب الإلهي الرحماني الربَّاني، فقالوا: لعل راقيًا يرقيه، فربما يكون الدعاء سببًا في الشفاء، كما جرت عادة الناس أن يفعلوا، وقد يكون من بركة القراءة والنفث على المريض أن تهدأ نفسه ويسكن، وكأنها نوع من الرعاية التلطيفية لمحتضر يعالج النزع.

قرأ حفص عن عاصم بالسكت عند ﴿مَنْ﴾، مثل قوله في «سورة المطففين»: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ﴾ [المطففين: ١٤]، وجمهور القراء على الإدغام: ﴿وَقِيلَ مَن رَّاقٍ﴾(٣).

* ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: أدرك المريض الأمر، وأيقن الفراق لهذه الدنيا وأهلها(٤)، وهو لم يصل إلى درجة المعاينة والنزع الأخير، ولكنه تيقن أو غلب على ظنه أن الأمر قد اقترب.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥١٤)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٨٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٧٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٢)، و«أضواء البيان» (٨/ ٣٧٥).

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٠٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١١)، و«تفسير السعدي» (ص٩٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٥٨)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٦١)، و«معاني القراءات» للأزهري (١/ ١٠٦- ١٠٧)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٥٧)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢١٧)، و«معجم القراءات» (١٠/ ١٩٣- ١٩٤).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥١٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٥٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ٥١٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٠٦)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٣٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٠)، وما سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾﴾.

وما أشد ألم الفراق حين يكون المرء قد بلغ تمام النعمة عليه! فالأطفال صغار، والبيت جديد، والزوجة مشتاقة، والحياة جميلة، والآمال باقية!

* ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩﴾:

﴿ٱلسَّاقُ﴾ لها نبأ وخبر، وهما ساقان؛ فهناك الساق الحسية، وهو العضو المعروف، فتلتف إحدى الساقين بالأخرى، فالمريض تيبس ساقاه، وسوف تُلفُّ ساقاه في الكفن، فهناك التفاف حسي.

وفي مثل هذا المشهد تلتقي أمور متنوعة، تلتقي الدنيا بالآخرة في آخر مرحلة من الدنيا وأول مرحلة من الآخرة، وتلتقي الشدائد والأهوال[1]، حتى إن الرجل العظيم المتكبِّر المتجبِّر يكون في أضعف حال مكسورًا هزيلًا ضعيفًا محطَّمًا خائفًا مرعوبًا مجرَّدًا باكيًا حزينًا، والآخر المستضعف المؤمن يجد الراحة والسكينة وتتنزل عليه الملائكة، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾ [فصلت: ٣٠].

* ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ٣٠﴾:

فالمساق إلى الله، وليس هذا نهاية المطاف، فمن الناس مَن يقدم على ربه كقدوم الغائب على أهله بالبشر والسرور، ومن الناس مَن يقبل على ربه كالعبد الآبق يقدم على سيده:

قالوا: غدًا نأتي ديارَ الحِمَى ... وينزلُ الرَّكبُ بمغناهمُ
فقلتُ: فلي ذنب فما حيلتي ... بأيِّ وجهٍ أتلقَّاهمُ
وكلُّ مَن كان مطيعًا لهمُ ... أصبحَ مسرورًا بلُقياهمُ
قالوا: أليس العفوُ من شأنهم ... لا سيِّما عمَّن ترجَّاهمُ[2]

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٥٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٥٩).

(٢) ينظر: «وفيات الأعيان» (٣/ ٣٤١)، و«تاريخ الإسلام» (٤٧/ ١٩٥) منسوبًا إلى أبي الحسن السَّخاوي.

* ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾:

هذا حال صنف من الناس، ويظهر أنه ذاك الذي كان يقول: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾ [القيامة: ٦]، ويحسب أن لن يجمع الله عظامه، فهو قد ترك التصديق، وتجرَّد من الإيمان، **وقيل**: ترك الصدقة(١).

والأقرب أنه لم يصدِّق بالإيمان(٢)، كما في قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الليل: ٥- ٧]، فذكر الله التصديق بالقلب والعمل بالجوارح، وهنا قال: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ أي: كفر بالإيمان، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥]، وترك العبادات والأعمال، فلم يكن في قلبه إيمان، ولا في حياته عبادة وطاعة للرحمن.

* ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾:

فسجَّل عليه نقيض ما أمر به وطلب منه، وبعض الناس لم يؤمن بسبب أنه لم يأته بشير ولا نذير، ولا قامت عليه حجة، ولا بلغته دعوة، أما هذا فهو قد كذَّب وتولَّى عن عمدٍ وتقصد، فالتكذيب مقابل قوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾، والتولِّي: الإعراض، مقابل قوله: ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾.

* ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾:

قيل: المراد به أبو جهل، **والمعنى**: يتبختر؛ افتخارًا بذلك، **وقيل**: ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أصله: يَتَمَطَّطُ، وهو التمدُّد من التّكسُّل والتثاقل، فهو يتثاقل عن الدَّاعي إلى الحقِّ(٣).

---

(١) ينظر: «تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٣٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٦١).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٣٦)، و«تفسير السعدي» (٩٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٦١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٢٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٥٨- ١٥٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٠٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٦٢).

* وسجل تعالى عليه أربعة ذنوب، ثم هدَّده بأربع تهديدات، فقال: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾:

﴿أَوۡلَىٰ لَكَ﴾ هذا تهديد، ﴿فَأَوۡلَىٰ﴾ تهديد آخر، ﴿ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ﴾ هذان تهديدان آخران[١]، أي: الويل لك، فهذه كلمة تهديد جارية في عرف العرب.

* ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾:

أي: هل يظن الكافر المكذِّب أنه سيترك ﴿سُدًى﴾، بلا أمر ولا نهي ولا شريعة؟![٢].

هذا محالٌ في العقول: أن يخلق الله الخالق الحكيم الثقلين ثم يترك أهم ما يحتاجون إليه وهو الإيمان وما بعد الموت بغير بيان!

* ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾:

أي: قطرةً من ﴿مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٨﴾﴾ [المرسلات: ٢٠]، وهو المني، إشارة إلى ضآلة الإنسان وضعفه، ثم الله تعالى درَّجه في مدارج الكمال حتى وصل إلى ما وصل إليه.

وبداية خلق الإنسان، وما فيها من معان كثيرة مطوية، وكيف يكبر ثم يطغى ويريد أن يفجر أمامه ولا يبالي بوعد القيامة، وفي السياق نموذج للغة القرآنية التي تسمي الأشياء بأسمائها الحقيقية للحاجة العلمية أو التربوية أو القانونية التي لا بد منها في بيان الحجة ووضوح التكليف، مع التسامي عن الدخول في التفاصيل التي لا حاجة إليها، فيُعبِّر عنها بأجمل عبارة وأوضح إشارة، كما يعبِّر تعالى عن إتيان النساء بالمس، فيقول: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، أو باللمس، فيقول: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣]، أو بالتغشِّي، فيقول: ﴿فَلَمَّا

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٢٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٣)، و«التفسير المظهري» (١٠/ ١٤٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١١)، و«تفسير السعدي» (ص٩٠٠).

﴿تَغَشَّىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وكما في قوله تعالى عن عيسى ومريم: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ [المائدة: ٧٥].

* ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾:

انتقل من كونه نطفة إلى علقة من دم أحمر تلتصق وتعلق بجدار الرحم، ثم تم الخلق والتسوية، وأنشأه الله تعالى إنسانًا بسمعه وبصره وقيامه وقعوده، كما قال الله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ [الانفطار: ٧].

وللتسوية معنى بديع، والإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم لو وُجد عنده عيب في شعره أو ظفره أو سِنِّه أو جلده أو شفته، فإنه يشعر بالحرج البالغ، مع أن الله خلقه في أحسن تقويم، وربما غفل عن أسرار الجمال والكمال في الصنعة الربانية.

ولو أن الإنسان سأل نفسه عن خلق العينين والأنف والشفتين والوجه والشعر واليدين والأصابع والأظفار والقدمين، فضلًا عن القوة الخفية من قوى السمع والبصر والأجهزة العصبية والهضمية والتناسلية والمخ وغيرها لوجد حقائق مذهلة، يقف الناس أمامها حائرين.

* ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾:

والزوج: يُطلق على المرأة والرجل، فالرجل زوج والمرأة زوج(١)، وهذه حكمة لله في بقاء النسل على ظهر الأرض، وشاء الله أن يتكامل الخلق من البشر وغيرهم، وتتقارب نسبة الذكور والإناث؛ لتستمر الحياة وفق مشيئته إلى الأجل الذي ضربه لعباده.

* ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾:

وهذا دليل عقلي على البعث، فالقادر على ابتداء الخلق قادر من باب أولى

---

(١) ينظر: «المحكم والمحيط الأعظم» (٧/ ٥٢٥)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٣٨٤)، و«تاج العروس» (٦/ ٢٠) «ز و ج».

على إعادته.

وقد رُوي أن النبيَّ ﷺ كان إذا قرأ هذه السورة في الصلاة قال: «**سُبحانكَ فبلى**»[1]. أي: بلى ربنا قادر على أن يحيي الموتى.

○ ○ ○

(١) أخرجه أحمد (٧٣٩١)، وأبو داود (٨٨٧)، والترمذي (٣٣٤٧)، والحاكم (٢/ ٥١٠)، والبيهقي (٢/ ٤٤٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه أبو داود (٨٨٤)، والبيهقي (٢/ ٤٤٠)، والبغوي (٦٢٤) من حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ، وفي إسناده انقطاع، وله شواهد مرسلة. وينظر: «أصل صفة صلاة النبي ﷺ» للألباني (١/ ٤٠٧-٤٠٨).

سُورَةُ الإِنسَانِ

*** تسمية السورة:**

تعدَّدت أقوال العلماء في تسميتها: فسُمِّيت في عهد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «**سورة ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾**»، كما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان النبيُّ ﷺ يقرأُ في الجمعة في صلاة الفجر: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾»(١).

ولها اسم آخر مختصر: «**سورة ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾**»، كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في النظائر التي كان النبي ﷺ يقرأُ بها في الصلاة، وفيه: «أنه كان يقرأ فيها بـ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾، و﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١﴾»(٢).

ومن أسمائها: «**سورة الإنسان**»، وهو المثبت في كثير من المصاحف، وكتب التفسير(٣).

ومن أسمائها أيضًا: «**سورة الدَّهْر**»(٤)؛ لذكر الدهر فيها. فهذه أسماء أربعة

---

(١) أخرجه البخاري (٨٩١)، ومسلم (٨٨٠).

وأخرجه مسلم (٨٧٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٧٧٥، ٤٩٩٦، ٥٠٤٣)، ومسلم (٨٢٢)- بدون سرد السور- وأبو داود (١٣٩٦)، وابن خزيمة (٥٣٨).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥١٥)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٢٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٦٩).

(٤) ينظر: «غريب القرآن» (١/ ٥٠٢)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٣٥٢)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٦٩)، و«الموسوعة القرآنية- خصائص السور» (١٠/ ٢٨٠).

مشهورة.

ولها اسمان غير مشهورين: **أحدهما**: «**سورة الأبرار**»[1]؛ لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ﴾، وتشترك معها «سورة المطففين» في ذكر ذلك.

والثاني: «**سورة الأَمْشاج**»[2]؛ لأن الأَمْشاج لم تُذكر في القرآن الكريم إلا في هذه السورة.

* **عدد آياتها**: إحدى وثلاثون آية عند جميع علماء العدِّ[3].

* **وهي مكية** عند كثيرٍ من أهل العلم، فقد رُوي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره أنها نزلت بمكة[4].

وقيل: مدنية، قاله الحسن وعكرمة، وهي رواية أخرى عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[5].

والأكثرون على أنها مكية، وأسلوب آياتها يدل عليها، وموضوع السورة يشبه القرآن المكي؛ حيث فيها جدل مع المشركين الآثمين الذين كانوا يحاولون صدَّ رسول الله ﷺ عن دعوته وعن طريقه، فيقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإنسان: ٢٤]، ويوصيه بالصلاة، والصبر، والتبتُّل، وهذا كله من شأن القرآن المكي، وفيها شيء من تفصيل النعيم في الجنة، وما كان هذا شأنه فالغالب أنه مكي.

وفي القرآن المكي قبل الهجرة إلى المدينة كان يأتي الخطاب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾، وفي المدينة ظل الخطاب كذلك، وأضيف إليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) ينظر: «روح المعاني» (١٥/ ١٦٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٦٩).

(٢) ينظر: «روح المعاني» (١٥/ ١٦٦)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (٢/ ٥٨٦)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٦٩).

(٣) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦٠)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٣١٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٧٠).

(٤) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٧٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٨)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٣٧٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٧٠).

(٥) ينظر: «تفسير البغوي» (٥/ ١٨٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٠٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ١٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٧٠)، والمصادر السابقة.

ءَامَنُواْ ﴾.

فالراجح أن السورة كلها نزلت بمكة، وهي في سياقٍ واحد.

* ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ①﴾:

بدأ الله تعالى صدر السورة بسؤال تقريري مبدوء بـ﴿هَلْ﴾.

و﴿هَلْ﴾ في القرآن تأتي للنفي والإنكار والجحد، وتأتي للإثبات بحسب السياق(١)، فالسياق هنا معناه الإثبات، أي: قد جاء على الإنسان حين من الدهر لم يكن فيه شيئًا مذكورًا(٢)، وعند ما يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢]، أي: لا تتربصون بنا(٣)، وكذا قوله: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٩]، أي: لا تنقمون منا شيئًا إلا هذا(٤).

و﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾ هنا **قيل** هو: آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ(٥)؛ وذلك لأن الله تعالى لما خلقه من طين الأرض، ظل مُنْجَدلًا في طينته سنين طويلة الله تعالى أعلم بها، فبعضهم يقول: مائة وعشرون سنة(٦)، وكان مُخَلَّقًا مصوَّرًا مثل التمثال، ليس فيه روح، ثم نفخ الله تعالى فيه من روحه فقام واستوى بشرًا سويًّا.

وقد ورد عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**لما صوَّر اللهُ آدمَ في الجنة تركه ما شاء اللهُ أن يتركه، فجعل إبليسُ يُطيفُ به، ينظرُ ما هو، فلما رآه أجوفَ عرف أنه خُلِقَ**

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٢٩)، و«حروف المعاني والصفات» (ص٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٦٨).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٢١)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٢٩)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٦٦٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١١٢)، و«التفسير المظهري» (١٠/ ١٤٧).

(٣) ينظر: «تفسير السعدي» (ص٣٣٩)، و«التحرير والتنوير» (١٠/ ٢٢٤).

(٤) ينظر: «الكشاف» (١/ ٦٥٠)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٢١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ١٤٢).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٢٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٦١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٩٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٠٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٥)، وما تقدم في «سورة الرحمن»: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ⑭﴾.

(٦) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٩٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٣٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٩)، و«التفسير المظهري» (١٠/ ١٤٧).

خَلْقًا لا يتمالكُ»[1]. أي: يتأثر بالمغريات والشهوات؛ لأنه جُبل عليها.

وعلى هذا فـ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ هو الوقت الطويل الممتد لما شاء الله قبل أن يكتمل خلق آدم وتنفخ روحه[2].

والأقرب أن المقصود: كل إنسان؛ آدم وذريته[3].

والدليل على ذلك: أن الله تعالى قال بعد ذلك: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾، وآدم لم يُخلق من نُطفة، بل من طين الأرض.

وإذا قلنا: المقصود ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾ فيحتمل أن يكون ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ ما لا يحصيه إلا الله؛ لأن المقصود أن الواحد منا قبل أن يخلق لم يكن شيئًا.

ويحتمل أن المقصود: الآجال التي يمكثها الإنسان في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم يُرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح[4].

﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾: إما أن المعنى: أنه لم يُذكر في الكتب السماوية؛ ولم يُذكر في الوحي، ولم يُذكر في العلم، فيكون المقصود: أنه ليس شيئًا يذكر[5].

وإما أن يكون المقصود: أنه لم يكن شيئًا له أهمية وقدر[6]، وهذا معروف، تقول: هذا المال الذي كسبه فلان ليس شيئًا مذكورًا، أي: شيء لا يستحق الذكر؛ لأنه قليل، والمعنى: أتى عليه حين من الدهر لم يكن له ذكر وشأن، فهي إذًا إشادة

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦١١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٣٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٦٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٣٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٥).

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١١٢)، و«الكشاف» (٤/ ٦٦٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٥).

(٤) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٧٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٦)، و«التفسير المظهري» (١٠/ ١٤٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٥).

(٥) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٢١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٩٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٧٢).

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٣٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٥).

بالإنسان، وأنه شيءٌ مذكور، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقد ذكر الله تعالى الإنسان في كتابه وخاطبه، وحسبه شرفًا وفخرًا أن الله تعالى يخاطبه.

وهذا تكريم لجنس الإنسان؛ ولذلك جاء الدين ليعمِّق المعاني الإنسانية الفطرية، حتى قال النبيُّ ﷺ: «**كلُّ مولود يُولَدُ على الفطرة**»(١). فالمعاني الإنسانية جاء الدين بتقويتها وتعزيزها، ومنها احترام جنس الإنسان.

* ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾:

النُّطْفة في الأصل هي: القطرة من الماء(٢).

ولما كان عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في غزوة مُؤْتة، أنشد يخاطب نفسه لما رأى منها جُبْنًا، فقال(٣):

أَقسَمتُ يا نَفسُ لَتَنْزِلِنَّهْ ... لَتَنْزِلِنَّ أو لَتُكرَهِنَّهْ
إن أَجْلَبَ الناسُ وشَدُّوا الرَّنَّهْ ... ما لي أَراكِ تكْرَهينَ الجَنَّهْ
قد طالَ ما قد كُنتِ مُطمَئِنَّهْ ... هل أَنتِ إلَّا نُطفَةٌ في شَنَّهْ

فقوله: نُطفَةٌ في شَنَّهْ، أي: قطرة في قربة يابسة.

والإنسان مخلوق من قطرة من ﴿مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾، وقوله: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ بَدَلٌ من ﴿نُّطْفَةٍ﴾، وهما شيء واحد، **والأَمْشاج** إما أن تكون جمعًا أو مفردًا على صيغة الجمع(٤)؛ وهي الأخلاط عند جمهور المفسرين(٥)؛ فهي مختلطة من ماء الرجل

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٨١١)، و«تاج العروس» (٢٤/ ٤١٩) «ن ط ف». وينظر أيضًا: «مشارق الأنوار» (٢/ ١١).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٠٦٦)، وابن ماجه (٢٧٩٣)، وابن أبي عاصم في «الجهاد» (٢٥٨). وينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٣٧٩)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» (١٧/ ٢٨٠- ٢٨١).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٠- ١٢١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٧٤).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٣١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٩٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٩٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٥)، والمصادر السابقة.

وماء المرأة، والعرب لم يعرفوا هذا إلا من القرآن، وكانوا يظنون أن الإنسان يُخلق من ماء الرجل فقط، فجاء القرآن يؤكِّد لهم أن الإنسان يُخلق من ماء الرجل مع بُويضة المرأة(١).

ومن معاني الأَمْشاج- كما ذكر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: الألوان التي يدخل بعضها في بعض، فالشيء ذو الألوان المتعدِّدة المتداخلة يسمى: أمشاجًا.

ومن معاني الأَمْشاج: العناصر؛ فإن النُّطفة في الرَّحم هي مجموعة من العناصر والمركبات المختلفة التي تتكون منها هذه النُّطفة(٢).

﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ أي: خلقنا الإنسان لنبتليه، **فالمقصود من الخَلْق**: الابتلاء، وهذا نص في أن الله تعالى خلق الإنسان للابتلاء؛ ولهذا قال: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾، وهذا من عدله سبحانه، فإنه لم يخلق الإنسان كما خلق الحيوان أو الجماد مسخَّرًا لشيء لا يتعدَّاه ولا يتحرك إلا بالغريزة، وإنما خلقه ليبتليه، ومنحه العقل والسمع والبصر والمَلَكَات.

والابتلاء إما أن يكون بالإيمان والكفر، وبالسؤال والحساب، فيكون الإنسان مبتلى بسلوك إحدى السبيلين: الإسلام أو الكفر، كما قال سبحانه: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠﴾(٣) [البلد: ١٠].

وإما أن المعنى: نبلوه بالخير والشر، بالحسنة والسيئة، بالفقر والغنى، والصحة والمرض، والعزِّ والذُّل، وغير ذلك من ألوان تقلبات الحياة التي تمر به، فيُبتلى بما سبيله الواجب الشكر، ويُبتلى مرة أخرى بما سبيله الواجب الصبر، وهكذا(٤)، كما قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ [النمل: ٤٠]، وكلا

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الطارق»: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٣٣)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٧٠) «آ د م»، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٩٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢١)، و«الموسوعة القرآنية» (١١/ ٤٠٦).

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة البلد».

(٤) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٥٠٢)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٤٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٦).

القولين مراد، ولا تعارض بينهما، فيُبتلى المرء بالإسلام والكفر، ويُبتلى كذلك بالسراء والضراء.

﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾: وهذا من شروط الابتلاء، فالابتلاء يقتضي أن يكون الإنسان مسؤولًا عن قرار يتخذه، وهو تعالى يذكر هنا شروط الابتلاء.

فالشرط الأول: وجود الحواس، وأهمها: السمع والبصر، وهذا قد ذكره الله تعالى صراحةً.

وتضمنت الآية شرطًا آخر، وهو: العقل والفهم؛ وذلك لأن السمع والبصر لا ينفع إلا لمَن كان له عقل وفهم؛ فالسمع والبصر حاستان توصلان إلى المخ إشارات معينة، فيترجمها المخ، والإنسان الذي لا يعقل لا ينفعه سمعه ولا بصره؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠﴾ [الملك: ١٠]، وقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: ١٧١]، أي: كإنسان يصرخ في القَطِيع، ولكن هذا القَطِيع لا يسمع ولا يعقل، فذكر الصمم والبكم والعمى، أي: وإن كانت هذه الحواس موجودة عندهم إلا أنها في حكم المفقود؛ لأنهم لم ينتفعوا بها؛ لأن الهوى وعماية الجهل غطَّت عليها[1].

* **وهناك شرط ثالث، وهو:** هداية الله تعالى للإنسان بالفطرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾:

والهداية هنا تحتمل- والله أعلم- الهداية الفطرية، كما قال موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ [طه: ٥٠]، وكما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣﴾ [الأعلى: ٣]، أي: هدى كل شيء[2].

فالله هدى الحيوان كيف يأكل ويشرب ويتوالد ويحمي نفسه وصغاره، وهدى الطفل لمثل ذلك، وهدى الإنسان العاقل للبحث عن مصالحه، فهذه من الهداية

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الملك».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤٠٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥- ١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٧٦- ٢٧٧).

العامة.

ومن ذلك: الهداية إلى مصالح الدنيا.

ومن هداية السبيل: دلالته على طريق الخير وطريق الشر، أي: بَيَّنَّا له الطريقين[1].

فـ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ يمكن أن يسلكه الإنسان مهتديًا، ويمكن أن يسلكه ضالًّا، قال الله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فالمعنى: دللناه على الطريق، وبَيَّنَّا له الحجة، وأقمنا عليه البينة، **فكملت لوازم الابتلاء الأربعة:**

١- السمع والبصر والحواس.

٢- العقل.

٣- الهداية الفطرية، فالإنسان بفطرته يعرف الخير والمصلحة، ويستطيع أن يصل إلى المصالح.

٤- الحجَّة الشرعية والهداية الربانية بنزول الكتاب وإرسال الرسول، فهذا من هداية السبيل.

﴿إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ إشارة إلى أن الله تعالى هدى الإنسان هذا السبيل أو ذاك السبيل، فيكون ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ محتملًا للأمرين معًا: سبيل الخير أو سبيل الشر.

وقدَّم الشاكر لأنه أحب إلى الله؛ ولأن سياق السورة فيه احتفاء كبير بالشاكرين، ولهذا كانت غالب آياتها في وصف نعيم الجنة، وليس فيها إسهاب في وصف عذاب أهل النار.

ولم يقل: «وإما كافرًا»، وكأن في ذلك إشارة إلى أن الكفر إذا وُجد- وإن كان في أدنى درجاته- فهو جحود عظيم، وحرمان من رضوان الله تعالى ودخول

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٦٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٦).

الجنة، وتنكر للعقل والفطرة والوحي والشريعة، فقليله كثير؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾، فهو تشنيع وتفظيع للكفر، ولأن الآية تبيِّن صنفين من الناس؛ فإنها ذكرت الشاكر المقرّ بنعمة الله وهو المؤمن، وذكرت مقابله الكفور، فهو في أبعد درجات الكفر؛ لأنه اختار الطريق الأسوأ عمدًا وقصدًا، وليس على كفر الجهالة وعدم العلم، بل أضاف إليه كفرًا آخر اختاره بنفسه، وسبيلًا أراده وقصده، فصار كفورًا.

* ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾:

بدأ بذكر الكافرين؛ لأنه سوف يَطْوي خبرهم.

و﴿أَعْتَدْنَا﴾ بالتاء: أعددنا، وهما فعلان بمعنى واحد، فـ«أَعْتَدَ»، و«أَعَدَّ»، و«أَعْدَدَ» بمعنى واحد؛ ولذلك يقال: الإعداد، وأحيانًا يقال: العتاد، وغالبًا ما يقال الأخير في أمر السلاح[1].

والسلاسل جمع: سلسلة، وهي ممنوعة من الصرف، وفي بعض القراءات بالتنوين: ﴿سَلَٰسِلًا﴾[2]، ومن العرب مَن يصرفون كل الأسماء التي لا تنصرف[3]، أي: هذه لغة عند العرب، وإن كانت في الأصل لا تنون إلا أنهم ينونونها.

و﴿سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ هنا فيها ألف المد من غير تنوين على القراءة المشهورة، وهذا من ضبط القرآن وإتقانه؛ فإن هذه الكلمة مضبوطة في المصاحف كما كُتبت أول مرة منذ عهد النبوة إلى اليوم[4]، وهذه أبلغ حجة على

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٧٧).

(٢) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٦٣)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٨٥)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٤٨)، و«حجة القراءات» (ص٧٣٧)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٢٠٧- ٢٠٩).

(٣) ينظر: «مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب (٢/ ٧٨٣)، و«إبراز المعاني من حرز الأماني» (ص٧١٣)، و«الموسوعة القرآنية» (٤/ ٤٨٤).

(٤) وثَمَّ مخطوطات نادرة للمصحف، موجودة في تركيا وألمانيا وطشقند واليمن ومصر وهولندا، كُتبت عنها دراسات قيِّمة تكشف دقتها وأهميتها التاريخية، والباحثون بصدد التنقيب عن المصحف الإمام الذي جُمع وكُتب في عهد أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ووُزِّعت على الأمصار نسخ منه في خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الناس في ضبط المصحف وحفظه وإتقانه، كما قال الله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، حتى ما يُكتب ولا ينطق- كالألف الأخيرة من كلمة ﴿سَلَٰسِلَاْ﴾- فهو موجود، فالقرآن تتواطأ فيه الكتابة والنقل والرواية والمشافهة عن الأئمة.

والسلاسل عادةً ما تكون في الأيدي، **والأغلال** جمع: غُل، بضم الغين، أما الغِل بكسرها، فهو الحقد، أما الغُل، فهو قيد يوضع في الرقبة(١)، قال سبحانه: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١﴾ [غافر: ٧١]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ [يس: ٨]، فالرباط الذي يوضع في العنق هو الغُل، والرباط الذي يوضع في اليد هو السلسلة، والعادة أن الإنسان المقيَّد المكبَّل يفعل به هذا وهذا، وتجمع يده إلى عنقه.

والسَّعير: النار التي توقد وتُسعَّر، عقوبة لهم على عدم توظيفهم ما أعطاهم الله تعالى في معرفته واتباع هديه؛ ولهذا كان أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «ارفعوا أيديكم إلى ربكم، واسألوه قبل أن تُغل أيديكم إلى أعناقكم»(٢).

* ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾:

﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾ جمع: بَرٍّ، وهو مَن اتصف بالبِرِّ(٣)، وفي القرآن الكريم كثيرًا يرد ذكر البِرِّ، كما في قوله سبحانه: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وفي الحديث عن الكفار الذين لم يحاربوا قال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة: ٨]، ومدح الله التعاون على البر

---

(١) ينظر: «مجاز القرآن» (١/ ٣٢٢)، و«الصحاح» (٥/ ١٧٨٣)، و«لسان العرب» (١١/ ٥٠٤) «غ ل ل».

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١١٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٤).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٧٩).

والخير، فقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

فـ﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾ صنف من أهل الجنة درجتهم دون درجة المقرَّبين، كما في «سورة المطففين»[(١)].

والكأس: القدح حين يوجد فيه الشراب، فإذا خلا من الشراب سمي: كُوزًا وكُوبًا[(٢)]، ولا يسمى: كأسًا إلا إذا كان الشراب فيه: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤﴾ [النازعات: ٣٤].

وهذا معروف في اللغة في إطلاق الأسماء على الأشياء، فتُسمى باسم في حال وباسم آخر في حال أخرى: فالهَوْدَج لا يُسمى: هَوْدَجًا، إلا إذا كانت المرأة فيه، وإلا فيسمى: رَحْلًا.

والمقصود بالشراب هنا: الخمر الذي أعدَّه الله تعالى للمؤمنين في الجنة[(٣)].

﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ أي: تمزج الخمر بالكافور[(٤)]، والكافور: نوعٌ من النبات فيه رائحة عطرية طيبة، ويُتخذ منه ألوان من الطيب، وجرت عادة مَن يشربون الخمر في الدنيا أن يأتوا بكأس الخمر فيمزجوها مع الماء أو غيره، وقد يضعون على أطرافها شيئًا من المسك أو الكافور لتطييب رائحتها، فذكر تعالى هذا في نعيم الجنة، وظاهر الآية أن الكافور يُمزج مع الخمر فيشربونه ممزوجًا، والكافور الذي في الجنة ليس هو الذي في الدنيا، فكافور الدنيا لا يُشرب؛ لأن فيه أضرارًا، وخمر الدنيا فيها أضرار، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ

(١) سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾.

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٥٨)، و«التلخيص في معرفة أسماء الأشياء» (ص١٩٨)، و«مشارق الأنوار» (١/ ٣٤٩)، و«تاج العروس» (١٦/ ٤٢٣)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٧٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٥).

(٣) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٥)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٨٠).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٧).

﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ومن أضرارها: أنها تذهب بالعقل؛ ولهذا قال الله تعالى عن خمر الجنة: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧﴾ [الصافات: ٤٧]، قال بعض العلماء: الغَوْل هنا هو الكحول الموجود في خمر الدنيا، فخمر الجنة لا تسكر، وليس فيها آفات خمر الدنيا(١).

* ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾:

فالكافور: عين في الجنة اسمها: كافور(٢)، أو هي عين تنبع بالكافور، وهذا لا غرابة فيه، فالجنة فيها ما لا عين رأت، قال تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

ففيها عين من الكافور يشرب بها المؤمنون، ولم يقل: «يشربون منها»، وإن كان المعنى متقاربًا، وحروف الجر ينوب بعضها عن بعض أحيانًا(٣)، لكنه قال: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾؛ لأنها تمزج لهم، فلا يشربونها خالصة ولكن ممزوجة، ولهذا وصفهم الله بأنهم ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾؛ إشارة للرضا عنهم، فهم ﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾، وهم ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾، وهذه عبودية الاختيار؛ لأنه استهل السورة بذكر خلق الإنسان وابتلائه وهدايته سبيل الشكر أو الكفر، فهؤلاء العباد الذين نجحوا في الابتلاء سماهم: ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ تسمية الرضا، مع أنه قد يسمى القوم: عباد الله، وهم غير مؤمنين، بمقتضى العبادة الاضطرارية، مثل قول الله سبحانه: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ﴾ [الزمر: ٧]، فهؤلاء كافرون، ومع ذلك سماهم: عبادًا.

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾: المعنى: أن هذه العين ليست كعيون الدنيا؛ لها مكان

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٠٦)، و«تفسير الطبري» (١٩/ ٥٣٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٣/ ١١٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٣٨)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٨١).

(٣) وهذا مذهب أكثر الكوفيين وبعض المتأخرين، أما البصريون فلا يرون ذلك. ينظر: «الجنى الداني» (ص٤٦)، و«مغني اللبيب» (ص١٥٠- ١٥١).

مخصَّص مَن أرادها جاء إليها ليغترف منها أو يشرب منها، بل هي تأتيهم حيث كانوا، فيفجرونها ويُجْرونها حيث شاؤوا، سواء كانوا في علو أو نزول، أو في الطريق أو في مساكنهم أو في أي مكان، وليس الإنسان قادرًا على أن يتصور تفصيل النعيم في الجنة، ولا على أن ينفكّ وينفصل عن جاري العادات في الدنيا.

وفي الآية إشارة إلى سهولة ذلك عليهم وتكرره منهم. وفي ذكر المصدر إشارة إلى قوة نبعها وكثرته، وعبر عن ذلك بصيغة المبالغة بالفعل المضَّعف بقوله: ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾.

* ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾:

وهذا نوع من الانتقال الذي فيه تنويع للخطاب، ولفتٌ للنظر، ومراوحة بين حالهم في الجنة وحالهم في الدنيا، فأحيانًا تكون مع القرآن في الجنة، ثم ينقلك إلى الدنيا، ثم يُعيدك إلى الجنة؛ من أجل أن يكون ذهن الإنسان حاضرًا، والكلام إذا كان كله على وتيرة واحدة يملُّه الإنسان أو يسهو عنه، لكن إذا كان السياق فيه تنقل يكون مدعاةً للانتباه.

والمقصود ﴿بِالنَّذْرِ﴾ أحد أمرين:

إما أن يكون النَّذْر: كل طاعة، فالطاعات كلها نذور، أي أنها واجبة بأصل الشرع[1]، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]، وذلك في الحج والنُّسك، فيكون أثنى على قيامهم بالطاعات كلها، فالصلاة والصيام والحج تدخل في هذا المعنى.

أو يكون المعنى: النَّذْر الخاص[2]؛ وهو ما أوجبه المسلم على نفسه، مثل أن ينذر لله أن يصوم، أو يتصدَّق، أو يصلِّي، بناءً على أمر يمكن أن يتحقَّق له، فيُلْزِم

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٣/ ٤٣٥)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٧٠)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٤١٧)، (٨/ ٢٨٧)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٢١)، و«روح المعاني» (٩/ ١٣٩)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٧٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٨٢)، والمصادر السابقة.

نفسه بما ليس بواجب عليه في أصل الشرع، فهذا يسمى: نذرًا، وهو مكروه، وقال بعض السلف بأنه محرم[1]؛ لأن بعض الناس يلجأ إليه وكأنه يشارط ربه، فيقع في الحرج الشديد، ويعجز عن الوفاء بالنذر؛ ولهذا نهى النبيُّ ﷺ عن النَّذْر، وقال: «**إنه لا يأتي بخير، وإنما يُستخرجُ به من البخيل**»[2].

فالنذر لا يأتي بشيء لم يكن مكتوبًا في أصل القضاء والقدر، فإذا قال: إن شفى الله مريضي، أو إن نجحت في الاختبار فعلت كذا؛ فهذا لن يغيِّر شيئًا في القدر لم يكن مكتوبًا.

وهؤلاء القوم إذا كانوا يوفون بالنذر الذي أوجبوه على أنفسهم، فمن باب أولى أن يوفوا بما أوجبه الله تعالى عليهم في أصل الديانة[3]، وهذا إشارة إلى التزامهم بالواجبات التعبدية، وبالإحسان في عبادة الله تبارك وتعالى، وهذا هو أحد أركان العمل الصالح، والركن الثاني هو الإحسان إلى عباد الله بالبر والإقساط والجود، وهو الذي ذكره سبحانه في قوله بعده: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾.

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ فذكر الخوف الذي حملهم على هذا الفعل، فقد كانوا يخافون شر ذلك اليوم العظيم، وذلك اليوم فيه خير عظيم، وهو كان خيرًا لهم بالعقبى الحسنة.

وعبَّر بالشر؛ لأن المقام مقام خوف، والإنسان إنما يخاف من الشر، **والمستطير**: الطائر، كقولهم: استطار الفجر، أي: انتشر في الأفق، **فالمستطير**: هو الشيء المشتهر العظيم المنتشر الذائع[4].

والخوف هو أحد دوافع العبادة، وهو طبع في النفس الإنسانية لا تنفك عنه بحال، ومثله الرجاء، وهو الطمع في فضل الله وعطائه ونعيمه.

---

(١) ينظر: «المغني» (١٠/ ٣)، و«المجموع» (٨/ ٤٥٠)، و«الشرح الممتع» (١٥/ ٢٠٧)، و«الموسوعة الفقهية الكويتية» (٤٠/ ١٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٩٢)، ومسلم (١٦٣٩) من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٣) ينظر: «تفسير السعدي» (ص٩٠١).

(٤) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٥٠٢)، و«لسان العرب» (٤/ ٥١٣).

والخوف والرجاء كالجناحين للطائر متساويان، وقد يغلب هذا حينًا وهذا حينًا.

والحب أعظم منهما؛ فهو أساس الإيمان، ولُبَاب العلاقة مع الرحمن، وصفة أولياء الله السابقين: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[1] [المائدة: ٥٤].

ولعله وصفهم بالخوف هنا لأنهم ﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾، ويكون الحب صفة مَن سبقوهم من المقربين، والله أعلم.

* ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾:

إشارة إلى إطعامهم الطعام مع محبتهم له وحاجتهم إليه، كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

ويحتمل أن يكون المقصود: على حُبِّ الله تبارك وتعالى[2]، فهم يطعمونه حبًّا لله، وآثروا محبة الله على محبة الطعام، ولا مانع من إرادة الأمرين معًا، فالمقصود أنهم مع محبتهم للطعام وحاجتهم إليه قدَّموا محبة الله تبارك وتعالى فأطعموا الطعام، وهذا من أعظم القربات، كما قال تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد: ١٤- ١٦]، والآيتان متشابهتان، فهنا قال: ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾، **والمسكين**: الذي لا يجد شيئًا[3]، **واليتيم**: الذي مات أبوه قبل البلوغ[4]، وهو مظنة ألا يجد مَن ينفق عليه، **والأسير**: المأسور[5]، وقد

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الحشر»: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾، وما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٨)، و«أضواء البيان» (٨/ ٣٩٤).

(٣) ينظر ما سيأتي في «سورة الماعون»: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾.

(٤) ينظر ما سيأتي في «سورة الفجر»: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾، و«سورة البلد»: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾، و«سورة الماعون»: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٤٣)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٩١٤)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١١٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٩).

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وسَعيد بن جُبير والحسن البصري وغيرهم: لم يكن يومئذٍ أسيرٌ إلا أهل الشرك[1]. ومع ذلك أمر الله تعالى بإطعامهم؛ لأن «**في كلِّ كبد رَطْبَة أَجْرٌ**» كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2].

فالله تعالى بيَّن حق الأسير، وفرَّق بينه وبين المقاتِل، فما دام قد ترك القتال وكُفَّ شرُّه، فإن من البر أن يُطعم ويُسقى ويُحسن إليه، فـ«**في كلِّ كبد رَطْبَة أجرٌ**». والإحسان إليه يحبب الإسلام إليه.

وذهب بعضهم إلى أن المقصود بالأسير: العبد الرَّقيق[3].

وقيل: المقصود: المرأة؛ لأن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَلَا واستوصُوا بالنساء خيرًا، فإنما هُنَّ عَوانٍ عندكم**»[4]. أي: أسيرات في أيديكم.

وهذان قولان ضعيفان؛ لأن المرأة لا تسمى: أسيرة، وكذا العبد لا يسمى: أسيرًا، وأما الحديث النبوي: «**أَلَا واستوصُوا بالنساء خيرًا، فإنما هُنَّ عَوانٍ عندكم**». فهذا في مناسبة خاصة، وهو إلى التشبيه أقرب، وليس وصفًا مطَّردًا بحيث يشملهم إطلاق لفظ الأسير، والواقع: أن الرجل وإن كان مطلوبًا منه أن ينفق على عبيده وزوجاته وبناته، إلا أن المقصود بالأسير في هذا السياق: هو المأسور أيًّا كان، والمأسور المسلم من باب أولى؛ لأن الإنفاق والإطعام والإحسان إليه فيه الأجر العظيم، ولا يلزم أن يكون أسيرًا عندك، بل تطعمه إن استطعت، ولو

---

(١) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٢٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٩٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٧٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٤١٩).

(٤) أخرجه أحمد (١٥٥٠٧)، والترمذي (١١٦٣، ٣٠٨٧)، وابن ماجه (١٨٥١)، والنسائي في «الكبرى» (٩١٢٤)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢٥٢٤) من حديث عمرو بن الأحوص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرج البخاري (٣٣٣١، ٥١٨٥، ٥١٨٦)، ومسلم (١٤٦٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: «**واستوصوا بالنساء خيرًا**». وينظر: «إرواء الغليل» (١٩٩٧، ٢٠٣٠).

كان أسيرًا عند معتدين أو ظالمين أو كافرين، ومن باب أولى السعي في فكاكه وإطلاقه بكل ما يمكن، فقد قال ﷺ: «**فُكُّوا العاني**»[1].

* ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾:

أي: كأنهم يقولون ذلك، وهذا مقول القول، كما قال بعض السلف: إنهم ما قالوا هذا، وإنما علم الله تعالى ذلك منهم[2].

فحكاية القول والمخاطبة لمَن يطعمونهم كأنها بلسان الحال، فهؤلاء القوم فعلوا ما فعلوا لوجه الله تبارك وتعالى، وإلا فهم لم يكونوا يمنُّون على الناس ويخبرونهم بمثل هذا العمل، وربما لا يرون هذا الذي يطعمونه أو لا يستطيعون مخاطبته.

والأقرب أن هذا الكلام كانوا يقولونه في أنفسهم، وقد يقولونه عند مناسبته، فلا يمتنع أن يكون بعضهم قال هذا[3]، لكن ليس المقصود: أنه قولٌ يقوله كل واحد منهم كلما أطعم، أو يُشرع لكل واحد منهم أن يقوله، ومعنى كونه ﴿لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ أي: ابتغاء مرضاة الله[4]، ومن هنا جمعوا بين الخوف والرجاء، فهم يخافون يوم القيامة، ويطعمون الطعام لوجه الله ورجاء ما عنده.

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾: **والجزاء** بالفعل، **والشُّكور** بالقول[5]، نفى عنهم أن يكون الدافع الرِّياء والسُّمعة أو انتظار الشكر والمجازاة بأحسن مما فعلوا، **وفي ذلك إشارة إلى أنهم جمعوا في هذا الإطعام بين أمرين:**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤٦) من حديث أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٧٥)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٤٦)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٦٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٣٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٣٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٢٤).

(٣) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٣٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٦١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٨٥)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٢٥)، و«تفسير الطبري» (١٥/ ٢٠٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٤٠٢)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١١٦)، والمصادر السابقة والآتية.

(٥) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٦٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٧٨)، والمصادر السابقة.

١- وجود الدافع الإنساني الأخلاقي في البذل والإحسان.

٢- ووجود الدافع الإيماني وإرادة وجه الله، ولو أن أحدًا عمل الخير ليس بدافع الرغبة فيما عند الله، ولكن حبًّا في الإحسان إلى الناس لكان له بذلك أجر، كما في قصة المرأة التي سقت كلبًا فغفر الله لها بذلك(١).

وقد نص أهل العلم على أن أعمال الإحسان لا يشترط فيها حضور نية التقرب إلى الله، فقد يكون باعثها الرحمة والرقة والعطف، فيثيب الله عليها(٢)، كما قال ﷺ: «**والشاةُ إذا رحمتها رحمك اللهُ**». وقال: «**الراحمونَ يرحمهم الرحمنُ**»(٣).

ولكن إذا وُجدت النية تضاعف الأجر والثواب، كما في هذا السياق، وكما في قوله تعالى: ﴿**لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾**﴾ [النساء: ١١٤].

* ﴿**إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾**﴾:

فأكَّدوا على معنى الخوف منه سبحانه، وأنهم يخافون ذلك اليوم، فهو مفعول به، أي أنهم يخافون من يوم القيامة، أو أنهم يخافون من الله سبحانه حين يكونون في ذلك اليوم وهم لا يدرون ما هو فاعل بهم.

ووصف الله ذلك اليوم بهذين الوصفين، وكأنها أوصاف لِمَن يقومون فيه، فالعَبوس من العُبوس، وهو كُلوح الوجه وشدته، والقَمْطَرير: هو إما تقطيب ما بين الحاجبين، أو يكون بمعنى الطويل(٤)، وهذا معروف في لغة العرب؛ فهم

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٣٤٦٧)، و«صحيح مسلم» (٢٢٤٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر ما سيأتي في «سورة الماعون»: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾.

(٢) ينظر: «التوضيح» لابن الملقن (٢/ ٢٠١)، و«عمدة القاري» (١/ ٣٥، ٣١٤)، وما تقدم في «سورة الملك»: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾، وما سيأتي في «سورة الماعون»: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾.

(٣) تقدم تخريجهما في «سورة الملك»: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ ...﴾ [الملك: ١٩].

(٤) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٢٩٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٧٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٩).

يصفون يوم الحر الشديد بالعَبوس القمطرير.

* ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾:

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ انتهى الكرب، وطُويت الصحائف، وعُلِمَ الفائزون وامتازوا عن غيرهم، ووقاهم الله تعالى شر ذلك اليوم الذي كانوا يخافونه، لقد خافوا حتى بلغوا المأمن، و«**مَن خاف أَدْلَجَ، ومَن أَدْلَجَ بلغَ المنْزلَ**»(١).

﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ تلقتهم النضرة والسرور، واستقبلتهم فأصبحت جزءًا منهم، فجمع لهم حُسنًا في وجوههم، وسعادة في قلوبهم يسرُّون بها.

والنضرة في الوجه تكون لأسباب:

منها: الصحة والعافية، والجمال والبهاء.

ومنها: الراحة النفسية، فالإنسان قد يكون صحيحًا، ولكنه مهموم مغموم، فيظهر الحزن والهم والغم والقَتَرة على وجهه، فهؤلاء القوم لقَّاهم الله ﴿نَضْرَةً﴾ في وجوهم ﴿وَسُرُورًا﴾ في قلوبهم(٢).

* ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾:

فيه إشادة بالصبر، وأنه أساس الإيمان، فالصبر أمره عظيم، وهو من أعظم صفات المؤمنين، قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤].

ومن الصبر: الصبر على طاعة الله تعالى؛ فلا يكون الإنسان متقلِّبًا.

ومن الصبر: الصبر على المعصية، وإن كثرت المغريات.

ومنه: الصبر على النفس وإن تلاومت وعاندت، فيحاول الإنسان أن يطبعها على الخير.

ومنه: الصبر على الأذى من العباد، من الأقربين والأبعدين.

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه عبد بن حميد (١٤٦١)، والترمذي (٢٤٥٠)، والحاكم (٤/ ٣٠٧)، وابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (١١٥)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٣٨٢)، و«السلسلة الصحيحة» (٩٥٤، ٢٣٣٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٤٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٩٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٩).

ومنه: الصبر في طلب العلم.

ومنه: الصبر على الولد والزوج والشريك والقريب.

ولا يستقيم الإيمان إلا بالصبر، ولا الإسلام إلا بالصبر، ولا الحياة إلا بالصبر، وكما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وجدنا خيرَ عيشنا بالصبر»(١).

* ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾:

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ هذا وصف لمجلسهم، وهذا من صفة أهل الجنة في تنعمهم وتلذذهم، فمأكلهم ومشربهم بخلاف حال الدنيا؛ ولهذا كان النبي ﷺ لا يأكل متَّكِئًا، ويقول: «**لا آكلُ متَّكئًا**»(٢). ويقول: «**آكلُ كما يأكلُ العبدُ، وأجلسُ كما يجلسُ العبدُ**»(٣)؛ لأن أكل المتكئ يدل على كمال التلذذ والتنعم، والإنسان الذي يدري أنَّ للمسكين والفقير حظًّا في طعامه لا يبالغ في ذلك.

أما أولئك الأبرار فهم متَّكئون؛ لأنهم وصلوا الغاية، فلم يعد ثَمَّ ما يقلقهم بعد اليوم.

و﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمع: أريكة، وهي: السرير الذي عليه الوسائد(٤)، وغالبًا ما يكون عليه مثل الظلة، فإذا كان السرير كذلك سُمِّي: أَرِيكة، وتُسمَّى: الحِجال، فهي سُرر عليها ظِلال، لكن سُرر أهل الجنة لا تحتاج إلى شيء يظلُّها، ولذلك قال: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي: ليس فيها حرٌّ، ولا زمهرير، وهو: البرد الشديد(٥).

---

(١) تقدم تخريجه في «سورة المعارج»: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾.

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٩٨) من حديث أبي جُحيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ابن سعد (١/ ٣٢٨)، وأبو يعلى (٤٩٢٠)، والبغوي (٢٨٣٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وينظر: «البدر المنير» (٧/ ٤٤٥- ٤٤٦)، و«التلخيص الحبير» (٣/ ٢٦٧)، و«السلسلة الصحيحة» (٥٤٤).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٥١)، و«تفسير الماتريدي» (٨/ ٥٣٠)، و«التفسير المظهري» (٦/ ٣٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٨٩).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٥١)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٣٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٠).

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**اشتكتِ النارُ إلى ربها، فقالت: ربِّ، أَكلَ بعضي بعضًا. فأَذِنَ لها بنفسين: نفسٍ في الشتاء، ونفسٍ في الصيف، فأشدُّ ما تجدونَ من الحرِّ، وأشدُّ ما تجدونَ من الزَّمْهَرِيرِ**»[1].

والزمهرير: البرد، بلغة الحجاز، وهو بلغة طيئ: القمر[2]، **والمقصود هنا**: البرد، ويحتمل أن يكون المقصود: القمر، وبناءً عليه فيكون السياق فيه نفي الشمس والبرد والحر والقمر، فكل هذه ليست موجودة في الجنة، وإنما فيها اعتدال الجو.

* ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾:

وهذا يثير العجب، جنةٌ ليس فيها شمس، ومع ذلك دانية عليهم ظلالها، فمن أين جاءت الظلال؟

يحتمل أن يكون المعنى: دانية عليهم أشجارها وأغصانها، فهي بمثابة الظلال في الدنيا[3].

ويحتمل أن في الجنة ظلالًا ليست كالظلال الذي يعرفها الناس في الدنيا، ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾، ودنو الظلال عليهم يعني: دنو الأشجار[4]، **والقُطوف** هي: الثمار[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٠)، ومسلم (٦١٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٩٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٦٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٣٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٣٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٢١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٨٩).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٣٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٣١).

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٦٥)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٢٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٢٢)، والمصادر السابقة والآتية.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٣٣)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٢٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٣٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٣٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٢٢)، وما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

والتذليل يعني: قربها منهم، يأكلونها قيامًا وقعودًا ومضطجعين[1].

* ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ١٦﴾:

أي: وتُدار عليهم آنية مصنوعة ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾، وصناعة الآنية من فضة إشارة إلى وجود آنية من الذهب، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١]، فذكر أحد الطرفين قد يُغني عن الآخر، **والأكواب** ﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾، يُروى عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه كان يقول: «ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه، إلا ﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾»[2]، أي: هي مصنوعة من فضة، فكيف تكون قوارير يرى ما بداخلها؟!

نقول: إما أن هذا من خصائص الجنة لها ﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾، ومع ذلك يُرى ما بداخلها.

وإما أن تكون ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ ليس بمعنى أنها من زجاج، وإنما بمعنى أنها مدوَّرة[3].

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي: قدَّرها الله لهؤلاء، فوضعها بمقدار، فلا تثقل اليد بحملها، وتكون بقدر الفم، وتكون بقدر الحاجة، وبقدر ما يروي الإنسان[4].

وهذا فيه بيان جانب الحاجة، وجانب جمال الشكل والمظهر، وجانب الصفاء، وكل ذلك مطلوب؛ فالإنسان ينظر إلى الشراب وإلى الوعاء الذي فيه الشراب وإلى نظافته، وكل ذلك مذكور في الآية الكريمة.

* ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ١٧﴾:

بعد أن ذكر القوارير التي هي وعاء الشرب، أتبعها بوصف الشراب؛ فيُسقى

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٥٣)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٧٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٩٣)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٤١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٣٥)، و«الدر المنثور» (١٥/ ١٦٢)، و«تفسير المراغي» (٢٩/ ١٦٩).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٢٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٥١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٣٥).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٥٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩١)، والمصادر السابقة.

أصحاب الجنة من كأس من الخمر ممزوجة بالزَّنْجبيل، فهذا مما يخلط معها أيضًا، وهي عين أخرى مثل عين الكافور، لكنها دونها في الفضل، فهؤلاء خلطوا عملًا صالحًا بآخر سيِّئًا.

* ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾:

لعلَّ الأقرب أن هذا اسم للعين، فاسمها: سَلْسَبِيل[١]، وذكر ابن الأعرابي أنه لا يُعرف «السَّلْسَبِيل» إلا في القرآن الكريم[٢]، ولكن غيره من علماء اللغة أثبتوا السَّلْسبيل، وقالوا: إن السَّلْسَل، والسَّلْسال، والسَّلْسبيل، كلها ألفاظ لغوية تعني: الماء البارد العذب الفرات[٣]، ولهذا يخلط مع الزَّنْجبيل شيءٌ من السَّلْسبيل؛ لأن الزَّنْجبيل يكون حارًّا مؤذيًا، فإذا وُضع معه الماء البارد العذب فإنه يزيل حدته.

* ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بهم، ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: غلمان صغار السن؛ لأنهم أسرع وأخفّ في الحركة، وأكثر استعدادًا للخدمة، ولا يجد الإنسان حرجًا أو مشقة في أن يأمرهم وينهاهم[٤].

وهم ولدان لا يتغيرون عن هذه الصفة التي وصفهم بها ربهم، وليسوا ولدان اليوم شيوخ الغد، فهم لا يكبرون ولا يَفْنَون، فالزمن يؤثِّر في الإنسان في الدنيا، حيث يكبر ويهرم، لكن الدار الآخرة شيء آخر، لا يفعل فيهم الزمان فعله، ولا

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١١٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٧٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٢)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٤٠٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٥٧)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٦١٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٩٦)، والمصادر السابقة والآتية.

وينظر أيضًا: «المحكم والمحيط الأعظم» (٨/ ٦٥٦)، و«لسان العرب» (١١/ ٣٤٤) «س ل س ل»، و«تاج العروس» (٢٩/ ٢٢١) «س ل س ب ل».

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢١٧)، و«جمهرة اللغة» (٢/ ١٢١٩)، و«الزاهر في معاني كلام الناس» (٢/ ١٩٦)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٩٧).

يؤثِّر، ولا يُغيِّر، فأهل الجنة يدخلونها وهم أبناء ثلاث وثلاثين سنة[١]، وهؤلاء الولدان مخلَّدون في خدمتهم.

ومن معاني التخليد: أنهم يلبسون ألوانًا من الأساور والأقراط في آذانهم[٢]، فهذا مما يمتع به أهل الجنة، حتى منظر خدمهم يدعو إلى الراحة والفرح والرضا.

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي: إذا رأيت هؤلاء الوِلْدان وهم متفرقون، هذا ذاهب وهذا آت وهذا قائم وهذا قاعد؛ إذا رأيت هذا المنظر بشموليته وعمومه وَجَدْتَهم كاللؤلؤ المنثور، وهذا تشبيه لانتشارهم في خدمة أهل الجنة، فهم هنا وهناك، وأينما وقعت العين وقعت على حسن وجمال[٣]، وفي الآية الأخرى قال: ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الطور: ٢٤]، فمع قيامهم بالخدمة على أتم وجه، إلا أنهم كاللؤلؤ المكنون، فقد جمعوا بين الجمال والتذلل لأهل الجنة بالعمل، وهم يشبهون اللؤلؤ المكنون في نظافتهم وسلامتهم، ويشبهون اللؤلؤ المنثور في حركتهم وانتظامهم.

* ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾:

﴿ثَمَّ﴾ معناها: هناك[٤]، أي: إذا رأيت هناك في الجنة رأيت نعيمًا عظيمًا، وما سبق ليس سوى شيء يسير مما وعد الله المتقين، وفي الحديث: «**إني لأعلمُ آخرَ أهل النار خروجًا منها، وآخرَ أهل الجنة دخولًا الجنةَ؛ رجلٌ يخرجُ من النار حَبْوًا، فيقولُ اللهُ تبارك وتعالى له: اذهبْ فادخل الجنةَ. فيأتيها فيخيَّلُ إليه أنها مَلْأَى،**

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٧٩٣٣)، و«جامع الترمذي» (٢٥٤٥)، و«صفة الجنة» لابن أبي الدنيا (١٥)، و«صفة الجنة» لأبي نعيم (٢٥٥)، و«صفة الجنة» للضياء المقدسي (١٠٨)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٤٠٨) من حديث معاذ وأبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٦٤)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٤٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٣٩٧).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٥٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٦٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٢).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٤٤)، و«تفسير السعدي» (ص٩٠١).

فيرجعُ فيقولُ: يا ربِّ، وجدتُها مَلْأَى. فيقولُ اللهُ تبارك وتعالى له: اذهبْ فادخل الجنةَ. قال: فيأتيها، فيخيَّلُ إليه أنها مَلْأَى، فيرجعُ فيقولُ: يا ربِّ، وجدتُها مَلْأَى. فيقولُ اللهُ له: اذهبْ فادخل الجنةَ، فإن لك مثلَ الدنيا وعَشَرَةَ أمثالها- أو: **إن لك عَشَرَةَ أمثال الدنيا**»(١).

وقال ﷺ: «**إن أهلَ الجنة يتَرَاءَوْنَ أهلَ الغرف من فوقهم، كما يتَرَاءَوْنَ الكوكبَ الدُّرِّيّ الغابرَ في الأُفُق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم**». أي: يرون كوكبًا لا يكاد يُرى من بُعْده وعظمته يتلألأ فيقولون: إن هذه درجة فلان، وفي الحديث: قالوا: يا رسولَ الله، تلك منازلُ الأنبياء لا يبلغُها غيرهُم! قال: «**بلى، والذي نفسي بيده، رجالٌ آمَنوا بالله وصدَّقُوا المرسلينَ**»(٢).

فهو مُلك كبير؛ لكثرة الخدم والحشم، والسعادة العظيمة، واللباس، وتيجان الملوك على رؤوسهم، والملائكة لا يدخلون عليهم إلا باستئذان، قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣- ٢٤]، فيدخلون عليهم بتبريك وتهنئة وتزكية وثناء على صبرهم وعلى جهدهم، وهم يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

* ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾:

السُّندس، وهو ما يلي البدن، وهو من الحرير الناعم.

والإستبرق هو: الحرير الغليظ الظاهر الذي تراه العيون، وفيه لمعان(٣).

﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ إضافة إلى هذه الثياب فعندهم أساور من فضة يلبسها

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧١)، ومسلم (١٨٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيد الخُدْري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٤٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٣).

الرجال والنساء، والذهب حرامٌ على الرجال في الدنيا، حِلٌّ للإناث[(١)]، وأما في الجنة فهو حِلٌّ لهم رجالًا ونساءً، يتمتعون به كيف شاؤوا، ولا يتناقض هذا مع كمال رجولتهم وتمتعهم بألوان النعيم.

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ وصفه هنا بأنه طَهور، وفي ذلك تعريض بخمر الدنيا؛ ولهذا ذهب جمهور الفقهاء إلى أن خمر الدنيا نجسة نجاسة حسيَّة.

وقال آخرون: هي طاهرة، وهو **الراجح**[(٢)]، وإن كانت خبيثة محرمة.

وفي الحديث: «**مَن شربَ الخمرَ في الدنيا، ثم لم يتبْ منها، حُرِمها في الآخرة**»[(٣)].

ثم ذكر أن الذي سقاهم هو الله سبحانه، فهذه مِنَّةٌ عُظمى؛ لأنه هو الذي أعدَّ لهم هذا، وأمر بأن يُسقوا منه، فيسقيهم إيَّاه الولدان أو غيرهم.

وهذا شرابٌ خاص إذا شربه المؤمن كان سببًا في زوال الشبع وتجدد شهوته، ويتحول الطعام الذي أكله إلى عَرَقٍ كالمِسْك[(٤)]، فأهل الجنة لا يتبولون ولا

---

(١) كما في حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ قال: «**الحريرُ والذهبُ حرامٌ على ذكور أمتي، وحِلٌّ لإناثهم**». أخرجه الطيالسي (٥٠٨)، وأحمد (١٩٥٠٢، ١٩٥١٥)، والترمذي (١٧٢٠)، والنسائي (٨/ ١٩٠)، وغيرهم.

وأخرجه أحمد (٧٥٠، ٩٣٥)، وأبو داود (٤٠٥٧)، والنسائي (٨/ ١٦٠)، وابن ماجه (٣٥٩٥)، وابن حبان (٥٤٣٤)، والضياء (٢/ ٢٠٦- ٢٠٧) (٥٨٨- ٥٩١) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ورُوي عن غير واحد من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وله أصل في «صحيح البخاري» (٨٨٦، ٢٦١٤، ٢٦١٩، ٥٤٢٦، ٥٩٨١)، و«صحيح مسلم» (٢٠٦٨، ٢٠٧١، ٢٠٩٠). وينظر: «نصب الراية» (٤/ ٢٢٢- ٢٢٥)، و«البدر المنير» (١/ ٦٤٠- ٦٥٠)، و«التلخيص الحبير» (١/ ٨٦- ٨٩)، و«إرواء الغليل» (٢٧٧).

(٢) ينظر: «المغني» (٩/ ١٧١)، و«المجموع» (٢/ ٥٦٣)، و«الموسوعة الفقهية الكويتية» (٥/ ٢٧)، و«موسوعة مسائل الجمهور في الفقه الإسلامي» (١/ ١١٨)، و«فقه العبادة» (١/ ٩٩- ١٠٥).

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٦٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٤٠٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٤٧).

يتغوطون ولا يمتخطون[١]، وهو بمثابة ما يتعاطاه الناس من أشربة الهضم بعد الطعام.

* ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾:

أي: شَكَرَه الله عَزَّوَجَلَّ، وهو الشكور الحليم[٢]، الذي وفَّقهم إليه واستعملهم فيه وأعانهم عليه، ثم قبله منهم وكافأهم عليه أفضل المكافأة، فأي فضل ورحمة أعظم؟!

فجمع الله بين العدل والفضل؛ فجازاهم على سعيهم بأن شكرهم، وجازاهم على ذنبهم بأنه غفره، وزادهم من واسع فضله ورحمته ما لم يكونوا يحتسبون.

* ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾:

إشارة إلى أنه نزل منجَّمًا على حسب الوقائع والأسباب والأحوال، وقد استمر نزوله حتى آخر حياة النبي ﷺ، فاستمر ثلاثًا وعشرين سنة[٣].

* ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: إن كذَّبوك ولم يؤمنوا بهذا الكتاب، والأمر بـ«الصبر» هنا له ﷺ ولأمته أجمعين.

اصبر فيما أمرك الله واصبر عما نهاك، واصبر على ما قدَّره عليك، واصبر للشريعة ولا تعجل؛ كما قال سبحانه في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]؛ ولهذا كان ﷺ في أول بعثته كلما عُرض عليه قتال الكفار قال: «**لم نُؤمر بقتال**»[٤]. فكان يقول ذلك مع ما يلقاه من الأذى؛ لأنه مصطبر لحكم ربه،

(١) كما في «صحيح البخاري» (٣٢٤٥، ٣٣٢٧)، و«صحيح مسلم» (٢٨٣٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، و«صحيح مسلم» (٢٨٣٥) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٧١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٥٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٥٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٦٩).

(٣) ينظر: «الإتقان» (١/ ١٤٦)، و«قلائد المرجان» (ص٢٣٤).

(٤) أخرجه أحمد (١٥٧٩٨)، والفاكهي في «أخبار مكة» (٤/ ٢١٥)، وابن حبان (٧٠١١)، والآجري في «الشريعة» (١١٤٢)، والحاكم (٣/ ٤٤١)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٤٤٩).

وينظر أيضًا: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٤٨)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (٢/ ٢٠٤).

ولن يُقدم حتى يأذن له بذلك، فهذا أمره وهذا شرعه.

وقد أُمِر بالصبر لحكم ربه، لا إلى حكم غيره، ولا إلى حكم النفس، والذين ينزلون عند حكم نفوسهم تضطرب أمورهم، وإن كانوا يحتسبونه حكم الله ورسوله.

﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾: فالكفار كانوا يحاولون أن يصرفوا النبيَّ ﷺ ومَن معه عن بعض الوحي[1]؛ فأمره الله بالصبر وثبَّته، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾ [الإسراء: ٧٤]، فهذا أبو جهل قال: «هل يُعفِّرُ محمدٌ وجهَه بين أظهركم؟ فقالوا: نعم. فقال: واللَّاتِ والعُزَّى، لئن رأيتُه يفعلُ ذلك لأطأنّ على رقبته، أو لأعفرنّ وجهه في التراب». فأنزل الله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ١٩﴾ [العلق: ١٩]»[2].

وهذه الآية ليست خاصة بأبي جهل، بل عامة لكل مَن هو على شاكلته، والآثم هو فاعل الإثم، وأما الكَفور فهو الذي في قلبه الكفر؛ ولهذا فكل كفور آثم، وليس كل آثم كفورًا، فقد يقع المرء في الإثم الذي هو دون الكفر[3].

* ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥﴾:

أي: مما يُثبِّتك ويُصبِّرك أن تذكر اسمه تبارك وتعالى ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾، ويدخل في هذا الصلوات الخمس؛ لأن **البُكور** يعني: صلاة الفجر، **والأَصْيل** هو آخر النهار، **والمراد به**: صلاة العصر[4]؛ ولذا جاءت الأحاديث في فضل هاتين الصلاتين[5].

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٤٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٠٤).

(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٧٩٧)، وما سيأتي في «سورة العلق».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٧٢)، و«تفسير السمرقندي» (٢/ ٢٢٢)، و«تفسير الماوردي» (٤/ ٤٠٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٥٨)، و«تفسير ابن كثير» (٢٩٤).

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٢٩)، و«زاد المسير» (٣/ ٤٧٠).

(٥) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٥٤، ٥٧٤)، و«صحيح مسلم» (٦٣٥).

وقد يراد بالأَصْيل: النصف الآخر من النهار، فتدخل صلاة الظهر معها(١).

* ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾:

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: صلاة المغرب وصلاة العشاء(٢)، فذكر الصلوات الخمس، كما ذكرها في مواضع أخرى، كقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء: ٧٨]، والأمر ليس مقصورًا عليها فحسب، وإنما الأمر بالذكر عام، فلا يزال اللسان رطبًا بذكر الله تبارك وتعالى، ومن ذلك: الذكر طرفي النهار بأذكار الصباح والمساء، وذكر الله تعالى يكون في كل حين وأوان، وكلما تجدَّدت للإنسان نعمة وكلما ألمَّ به أمرٌ.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ أي: قيام الليل(٣)، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل: ٢- ٤]، وقد كان قيام الليل واجبًا أول الأمر، ثم تحول إلى نافلة(٤).

وقيام الليل من أشقِّ ما تجاهده النفس، وحريٌّ بالمؤمن أن يقوم ولو بثلاث ركعات أو خمس أو سبع أو تسع أو إحدى عشرة أو ما يسَّر الله، ولو أن تقوم ساعة أو نصف ساعة أو ربع ساعة، ففي ذلك خير كثير.

* ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ﴿٢٧﴾﴾:

القاعدة المطردة أن ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ اسم إشارة للجماعة، وإذا جاءت في القرآن

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٢٦)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٢٩)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٧٥)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٩٤٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٧٢)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٦١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨١).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٥/ ١٨٣)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٩٤٤)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر ما تقدم في «سورة المزمل»، والمصادر السابقة.

الكريم دون أن يسبقها شيء فإن المقصود بها الإشارة إلى الكافرين[1]، كقوله تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام: ٨٩]، وكما هنا، وهذا فيه تعريض بحمقهم؛ لأنهم أحبوا ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾، وليس هذا فقط، بل تركوا ﴿وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾!

ووصف الله الدنيا بـ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾، وسماها: الدنيا، من الدون[2]، فهؤلاء يحبون الحياة الدنيا دون غيرها، ولو أحبوا العاجلة والآجلة لم يضرّهم ذلك، فإن الله يقول: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧]، وأثنى على المؤمنين الداعين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: ٢٠١]، وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ﴾ [آل عمران: ١٤].

﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾: **المقصود باليوم الذي وراءهم** هو: ما أمامهم من يوم القيامة، وإنما جاء التعبير هنا بالوراء؛ لأنهم غفلوا عنه وتركوه وراءهم، فلم يهتموا به، ولم يذكروه، ولم يعملوا له، وولَّوه ظهورهم[3].

فهو ليس كسائر الأيام التي ألفوها، وإنما هو يوم ثقيل، طويل مهول رَعيب.

ثم إن كلمة «وراء» و«أمام» تأتي في اللغة بمعنى واحد[4]، وهذا يسمى: التضاد في الألفاظ، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف: ٧٩]، أي: أمامهم[5].

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٠٧).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٢٥٢)، و«مقاييس اللغة» (٢/ ٣٠٣) «د ن ى»، و«تاج العروس» (٣٨/ ٦٩) «د ن و».

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٦٠)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٥٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٢٧).

(٤) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٥/ ٢١٩)، و«تاج العروس» (١/ ٤٨٦).

(٥) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٥٧)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٢٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١١/ ٣٥)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ١٧٨)، و«روح المعاني» (٨/ ٣٣٢).

وهذا تدوين لحماقة الذين أحبُّوا ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾، فلو أنهم عاشوا الدنيا كلها منذ خُلقت إلى قيام الساعة ما كانت مكافئة وموازية للآخرة، فكيف والواحد منهم ما عاش سوى خمسين أو سبعين أو مائة سنة؟!

* ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾:

والأَسْر: الأطراف، أو اتصال بعض الجسد ببعض، يقال: إنسان شديد الأَسْر، أي: قوي الجسم(١).

وما دام أنه هو الذي خلقهم فهو قادر على إعادتهم، فهو احتجاج بالخلق الأول على الخلق الثاني(٢)، كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥]، أي: هم يستغربون من الخلق الجديد، فلماذا لم يتذكَّروا خلقهم أول مرة(٣)؟!

أولم يعلموا أن الذي خلقهم أول مرة قادر على بعثهم؟! فهذا بقياس العقل أهون، وإن كان الأمر بالنسبةِ لله عَزَّوَجَلَّ سواء.

وفيها تذكير بالنعمة ودعوة إلى الشكر، أليس الله سبحانه قد أحسن خلقهم وشدَّ أسرهم؟ فالأطراف والمفاصل والأعضاء أحكمها الله عَزَّوَجَلَّ، وكلما تقدم العلم اكتشف المزيد من القوة والإبداع والقدرة والأسرار في خلق الإنسان والحيوان.

في أول السورة ذكر الله الإنسان والروح الذي به أصبح إنسانًا، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾، وبيَّن مراحل خلق الإنسان، وأنه صار إنسانًا لما نُفخ فيه الروح؛ ولهذا يقول تعالى في «سورة المؤمنون»: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٧٢)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٩٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥١).

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٤)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٢٠)، و«الكشاف» (٤/ ٣٨٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٩٧).

مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ أما قبل نفخ الروح- حتى مع حياة الحيوان المنوي- فليس بإنسان.

وفي آخر السورة أشاد بالجسد وجماله وإتقانه وأَسْره[1].

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾: جمهور المفسرين على أن المعنى: أن الله تعالى قادر على أن يذهب بهؤلاء ويأتي بغيرهم[2]، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣].

وهناك معنى آخر أشار إليه بعض المفسرين، ومنهم الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو: أن المقصود إحياؤهم للبعث مرة أخرى، كما خلقهم في الدنيا[3].

* ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ أي: هذه السورة، أو هذه الشريعة[4]، **وهو الأقرب**، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: اختار، كما في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣]، أي: مَن شاء أن يكون شاكرًا ومَن شاء أَلَّا يكون كذلك، ولم يذكر الأمر الآخر؛ وهو: مَن شاء اتخذ إلى الشيطان سبيلًا؛ لأن سياق السورة- كما ذكرنا- يبين جانب الرحمة والإيمان والنجاة والجنة، وهذا فيه إشارة إلى مسؤولية العبد في الاختيار، وأن مشيئة العبد مؤثِّرة وفاعلة في اختياره الطريق والسبيل إما إلى إيمان أو كفر، أو طاعة أو معصية- وليس صحيحًا

---

(١) وما ذكره بعض المتقدمين من أن العظام والعصب ونحوها من ماء الرجل، واللحم والشحم من ماء المرأة؛ فليس عليه دليل لا طبي ولا شرعي، وإنما هي اجتهادات لا تُسلَّم. ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٦٥٩)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤١٧)، و«خلق الإنسان بين الطب والقرآن» لمحمد علي البار (ص٢٩٧- ٢٩٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٧٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤١٠).

(٣) ينظر: «تفسير السعدي» (ص٩٠٣).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤١٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٤٠)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢١/ ١٥٣).

أن الإنسان مقهور بالجينات كما يقال- وهي ضرورة يجدها الإنسان في نفسه، وأنه ليس بمجبور مطلقًا.

* ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٣٠﴾:

هذا معنى آخر، وليست الآية ناسخة للأولى كما ادَّعى بعضهم(١)، بل هما في سياق واحد هنا وفي مواضع أخرى، كـ«سورة التكوير»(٢)؛ فإن مشيئة العبد وإرادته منطوية في إرادة الله تبارك وتعالى، فالعبد لا يغلِب ربه ولا يسبقه، والذين يكيدون لربهم تحبط أعمالهم ولا يصلون إلى شيء، ومن حكمته تعالى وعدله أن الذي يريد الهُدى يهديه، والذي يريد الضلال يخلِّي بينه وبين ما يريد حتى يلقى الله بذنبه، ومشيئة الله ثابتة؛ وهو تعالى علم مَن سيطيع ومَن سيعصي، وكتب ذلك عنده في كتاب، وليس الإنسان مقهورًا على طريق الخطأ أو على طريق الانحراف، ولا على طريق الطاعة، ولكنه مختار؛ ولذا ينعَّم أو يعذَّب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فهو سبحانه عليم بعباده وما سيفعلونه، وسيختارونه، وهو حَكِيمٌ في خلقه؛ ولهذا كان القدر سره في عباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وكان عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «كثير من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، وأنا انفتحت لي فيه رَوْزَنَةٌ- يعني: فتحة- فنازعتُ أقدارَ الحقِّ بالحقِّ للحقِّ»(٣).

ومراده: أن ينازع المؤمن أقدار الضلال بالهدى، والكفر بالإيمان، والجهل بالمعرفة، والإخفاق بالنجاح، والمرض بالعلاج، وهذا قَدَرٌ وهذا قَدَرٌ، كما قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «نفرُّ من قَدَر الله إلى قَدَر الله»(٤). مع الاستعانة بالله على ذلك، ومعرفة

---

(١) ينظر: «نواسخ القرآن» لابن الجوزي (٢/ ٥٠٥)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٤٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٥٧).

(٢) في قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾.

(٣) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٥٨)، (٨/ ٣٠٦)، (١٠/ ١٥٨)، و«طريق الهجرتين» (ص٣٧)، و«مدارج السالكين» (١/ ٢١٧).

(٤) أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

أنه لا يريد الكفر والضرر على عباده إرادة شرعية، وإن كان هذا يقع كونًا وقدرًا.

* ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾:

والرحمة هنا هي: الجنة[1]، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي عن الجنة: «**أنت رحمتي، أَرْحَم بك مَن أشاءُ من عبادي**»[2].

وهي أوسع من الجنة، فتشمل الإيمان في الدنيا؛ فإنه من رحمة الله تبارك وتعالى، وتشمل المغفرة والتوبة واللطف الإلهي.

﴿وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ هؤلاء هم الطرف الآخر الذين أخفقوا في الابتلاء.

وقال هنا: ﴿وَٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ منصوب بفعل محذوف، أي: وتوعَّد الظالمين بأن أعد لهم عذابًا أليمًا، وفي «سورة الشورى» يقول: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّـٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾، فقال: ﴿وَٱلظَّـٰلِمُونَ﴾؛ لأنه ليس بعدها فعل، أما هنا فبعدها فعل، فنُقَدر قبلها فعلًا يدل عليه ويتضمنه الفعل الذي جاء بعدها[3].

وفي ابتداء السورة ذكر قصة الإنسان، وفي ختامها ذكر نهاية القصة، وأن هؤلاء صاروا إلى الجنة وهؤلاء صاروا إلى النار، والأمر لم يكن صعبًا ولا شاقًّا ولا شديدًا، بل هو يسيرٌ على مَن يسره الله عليه.

❍ ❍ ❍

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٣٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٥/ ٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٩٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٦٦- ٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٣).

سُورَةُ المُرْسَلَاتِ

*** تسمية السورة:**

لها أسماء عدة، منها:

«**سورة المرسلات**»، وهو المثبت في المصاحف، ومعظم كتب التفسير(١).

و«**سورة** ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾»، كما في بعض روايات حديث النظائر(٢).

و«**سورة** ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾»(٣)، وهذا المعروف عند الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقد جاء في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع النبي ﷺ في غار، وقد أُنْزلت عليه: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾، فنحن نأخذُها من فِيهِ رَطْبَةً، إذ خرجت حيَّةٌ، فقال: «**اقتلوها**». فابْتَدرناها لنقتلها، فسبقتنا، فقال رسولُ الله ﷺ: «**وقاها اللهُ شرَّكُم، كما وقاكم شَرَّها**»(٤).

وفي حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا في النظائر التي كان النبيُّ ﷺ يقرأ بها في الصلاة، أنه كان يقرأ: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ١﴾، و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١﴾ في ركعة(٥).

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٣٧)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٨٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٤٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٣)، و«التفسير المظهري» (١٠/ ١٦٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤١٧).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٩١)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٦٤)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٧٧).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤١٧).

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٣٠، ٤٩٣١)، ومسلم (٢٢٣٤).

(٥) أخرجه البخاري (٧٧٥، ٤٩٩٦، ٥٠٤٣)، ومسلم (٨٢٢)- بدون سرد السور- وأبو داود (١٣٩٦)، وابن خزيمة (٥٣٨).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن أمَّ الفضل سمعته وهو يقرأ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا...﴾، فقالت: «يا بُنيَّ، والله لقد ذكَّرتني بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعتُ من رسول الله ﷺ يقرأُ بها في المغرب»[١].

وبعضهم يذكر أن من أسمائها: «**سورة العُرف**»[٢]؛ لذكر «العُرف» فيها في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾.

* **عدد آياتها:** خمسون آية باتفاق علماء العدِّ[٣].

* **وهي مكية** عند أكثر العلماء[٤]، **ويدل على ذلك ما يأتي:**

١ - حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السابق، وفيه أنها نزلت في الغار؛ ولهذا قال ابن العربي وغيره: إن من طرائف السورة أنها نزلت تحت الأرض، فكما أنه وجد في القرآن المكي والمدني والسفري وغير ذلك، فيوجد ما نزل تحت الأرض، ومنه هذه السورة، فإنها نزلت في الغار[٥].

٢ - أن نزولها كان في ليلة الجنِّ بمنى[٦].

٣ - ومما يؤكِّد ذلك موضوعات السورة؛ فإنها حافلة بالوعيد والتهديد والتخويف، وذلك غالب في القرآن المكي.

٤ - أن السورة مليئة بتقرير التوحيد والإيمان بالله واليوم الآخر والثواب والعقاب والجنة والنار، وهذا شأن القرآن المكي في الغالب.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٦٣)، ومسلم (٤٦٢).

(٢) ينظر: «مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ١٤٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٨٧)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٨١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤١٨).

(٣) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦١)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٩)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٣١٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤١٩).

(٤) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤١٨).

(٥) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٣٥٦).

(٦) ينظر: «صحيح البخاري» (١٨٣٠، ٤٩٣٤)، و«الدر المنثور» (١٥/ ١٧٢).

٥- أن من علامات المكي قِصر آياته(١)، والسورة من هذا القبيل.

وقد أشكل على كونها مكية ذكر الركوع في آخرها في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾، فذُكر عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره أنهم يرون هذه الآية مدنية(٢).

والصواب أن السورة كلها مكية، وأما ذكر الركوع، فإن الذين استشكلوه ظنوه مدنيًّا وقالوا: إن هذا يوم القيامة، أي: إذا قيل لهم يوم القيامة: اركعوا، لا يركعون، كما ورد في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم: ٤٢- ٤٣]، وهذا شأن المنافقين، والنفاق لم يوجد إلا في المدينة.

والصواب أن ذلك في الدنيا، وفيه إشارة إلى تمردهم وإبائهم ورفضهم الانصياع للحق وعدم إيمانهم وأدائهم للصلاة، كما في قوله سبحانه: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ﴾ [الروم: ٣١- ٣٢]، فذم المشركين بأنهم لا يقيمون الصلاة، فيكون المقصود: وصف المشركين في الدنيا، وبناءً عليه فالسورة مكية على القول **الراجح**.

* **وقد ورد في فضلها** حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال لرسول الله ﷺ: يا رسولَ الله، قد شِبْتَ! فقال: «**شَيَّبتني هودٌ، و﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾، والمرسلاتُ، و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾**»(٣).

وهو حديث مضطرب، كما ذكر ذلك ابن الصلاح، وغيره(٤).

---

(١) ينظر: «مباحث في علوم القرآن» لصبحي صالح (ص١٨٣).

(٢) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤١٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٢٦٨)، والترمذي (٣٢٩٧)، وفي «العلل الكبير» (٦٦٤)، والحاكم (٢/ ٣٤٣)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣٥٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) ينظر ما تقدم في أول «سورة الواقعة».

وتتميَّز بأن فيها عشرة مقاطع، كل مقطع منفصل عن الآخر ليس معطوفًا عليه، وإنما يبدأ مستقلًّا، يُفصل بينه وبين سابقه بالتهديد الرباني: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ ليعطي معنى جديدًا يتعلَّق بالمقطع المشار إليه.

* ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧)﴾:

وهذا القَسَم يُشبه القَسَم في «سورة الذاريات»: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١)﴾، وفي «سورة النازعات»: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١)﴾، فهو قَسَم بأشياء أراد الله تعالى أن يلفت نظر الناس إليها مما لا يعرفه الناس لأول وَهْلة.

ويقول بعض المفسِّرين: إن المقسَم به هنا كله شيء واحد؛ وهو القَسَم بالرِّيح[1]، فهي «المرسلات»، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ ﴾ [الروم: ٤٨]، وقال: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢]، وجاء من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبيَّ ﷺ كان أجودَ الناس بالخير من الريح المرسلة[2].

وهي «العاصفات»، وهذا من أسمائها، ومن صفتها: أنها «الناشرات»، و«الفارقات».

ويشكل على ذلك أنه قال في آخرها: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥)﴾، فهل الرياح تُلْقِي ذِكرًا؟

قيل: نعم، تُلْقِي ذِكرًا؛ لأن الريح إذا عصفت ودمَّرت، فإن الناس يفزعون إلى الذِّكر والتسبيح والاستغفار ويلجؤون إلى ربهم، والنبيُّ ﷺ أمر بالدعاء وسؤال الله الرحمة، والاستعاذة بالله من العذاب عند هبوب الريح[3]، فكأنها ألقت على

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٧٦- ٣٧٧)، و«الكشاف» (٤/ ٦٧٧)، و«تفسير الرازي» (٣/ ٧٦٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٠٢)، ومسلم (٢٣٠٨).

(٣) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في «صحيح مسلم» (٨٩٩): «كان النبيُّ ﷺ إذا عصفت الريح قال: «**اللهمَّ إني أسألُك خيرَها، وخيرَ ما فيها، وخيرَ ما أُرسلت به، وأعوذُ بك من شرِّها، وشرِّ ما فيها، وشرِّ ما أُرسلت به**».

ألسنة الناس ذكرًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو جدَّدت لهم ذكرًا لما نسوه[1].

* ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾:

والأقرب أن المقسَم به قسمان:

الأول: الرياح.

الثاني: الرُّوح؛ وهي الملائكة[2].

فالمرسلات هي: الرياح، وهذا ظاهر.

و﴿عُرْفًا﴾: عُرْف الفرس: الشعر الذي يكون على ناصيتها ذات اليمين وذات الشمال[3]، وكذلك عُرْف الديك، فيكون المقصود: الرياح المتتابعة[4]؛ لأن العرب يقولون: جاء القوم إلى فلان عُرْفًا كعُرْف الفرس، أي: إذا التفوا وتتابعوا عليه.

* ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢﴾:

الفاء ليست من حروف القَسَم، وإنما هي حرف عطف، فلا بد أن تكون «العاصفات» هي «المرسلات»؛ لأنها صفة لها وذكر لبعض فعلها، ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ﴾ هي: الرياح إذا اشتدت هبوبها وعصفت[5]، وقد وصف الله تعالى الرياح في القرآن الكريم بأنها عاصفة، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: ٢٢].

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٧٦- ٣٧٧)، و«تفسير الرازي» (٣/ ٧٦٥).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٢٠).

(٣) ينظر: «المحكم والمحيط الأعظم» (٢/ ١١١)، و«لسان العرب» (٩/ ٢٤١) «ع ر ف»، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٢١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٨٠)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٤٠٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٣٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٤).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٨٣)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٢٥)، و«تفسير السعدي» (ص٩٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٢١).

فتبدأ الريح هادئة ثم تزداد حتى تعصف عصفًا.

ولو قلنا: إن المقصود هو الملائكة، لكان المعنى واضحًا، فالملائكة تُرسَل إلى الأرض، فالله تعالى ﴿يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، و﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل: ٢]، يُرسلهم بالوحي وبالعذاب وبما شاء.

وعليه يكون قوله: ﴿عُرْفًا﴾ أي: معروفًا؛ فإنهم يُرسلون بالمعروف[1]، فيكون القَسَم هنا ليس بكل إرسال، وإنما بإرسالهم بالأمر الشرعي المعروف، كإرسالهم بالوحي وما أشبه ذلك.

ويكون المقصود بـ«العاصفات»: الملائكة في عصفها بالباطل، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، أو في عصفها بالمبطلين وإزالتهم ودحض حجتهم.

والأقرب أن المقصود بهاتين الآيتين: الرياح.

* ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝٣﴾:

هذا قَسَم آخر، وهنا أبدل الفاء بالواو، فلم يقل: «فالناشرات»، بل قال: ﴿وَالنَّاشِرَاتِ﴾، فدل على أنه قَسم مختلف جديد[2]، والقسم هنا بالملائكة، فأقسم الله بالريح والرُّوح.

وهنا مناسبة لطيفة في الجمع في القَسم بين الرياح والملائكة؛ لأن الريح تُرسل مبشِّرة، تبعث السحاب، كما قال الله: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨]، فهي تُرسل بالمطر، والمطر حياة للأرض وللنبات، والملائكة تُرسل بالوحي والحق، والحق فيه حياة القلوب؛ ولهذا جمع الله تعالى بينهما؛ لأن سرَّ الحياة فيهما.

وكثيرًا ما يجمع تعالى بين حياة القلوب وحياة الأرض، فمثلًا في «سورة

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٢١)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٦٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٤).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٢٠).

الحديد» لما ذكر تعالى حياة القلوب في قوله: ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ عقَّب ذلك بقوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ [الحديد: ١٧]؛ إشارة إلى أن القلوب الميتة تحيا بالقرآن، كما تحيا الأرض بالمطر.

* ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥﴾:

وهذا قَسم واحد بشيء واحد، هو: الناشرات الفارقات الملقيات، وعطف بعضها على بعض بالفاء، والفاء ليست حرف قسم، كما سبق(١)، فالملائكة تنشر أجنحتها حينما تطير بين السماء والأرض، وتنشر الحق والخير، وتنشر الصحف، سواءً كانت هذه الصحف في السماء أو كانت في الأرض أو كانت يوم القيامة(٢)، كما قال الله: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠﴾ [التكوير: ١٠]، وقال: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣﴾ [الإسراء: ١٣]؛ فإذا أخذت المصحف وفتحته فهو منشور بين يديك، وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قُتل والمصحف منشور بين يديه، وقد جاء في قصة الرجل والمرأة اللَّذَيْن زنيا من اليهود وفيه: «فأتوا بالتوراة فنشروها»(٣). ففتح الكتاب يسمى: نشرًا. والمصدر للتوكيد.

وبعدما نَشَرَت فَرَقَتْ، والفَرْق: التمييز والبيان، فهي تَفرُق فرقًا وفرقانًا بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والخير والشر، والإيمان والكفر، وبين أهل الجنة وأهل السعير(٤).

وقد ذكر الله الفرقان في مواضع كثيرة في كتابه العزيز، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقال: ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾ [الأنفال: ٤١]، والفرقان: التفريق والتمييز بين الحق والباطل، فالملائكة تفرق بما جاءت به من الوحي من السماء بين الحق والباطل، فيكون الفرق أثرًا

---

(١) تقدم في قوله: ﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۝٢﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٦٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٣٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٢١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٣٥)، ومسلم (١٦٩٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٢١- ٤٢٢).

عن نشرها[1].

وعند نزول الملائكة يبدأ الوضوح ويتمحَّض الحق من الباطل، ولا يحتاج الأمر إلى جهد جَهِيد وعمل كبير، فبعدما نشرت أجنحتها فرقت بين الحق والباطل، حتى قبل أن يتم إلقاء الذِّكر؛ لأن المقصود البداية والإرادة والتوجه لهذا الأمر؛ ولذا عبَّر بحرف الفاء الدال على التعقيب والمباشرة، والذِّكر هو الفرقان، فهي تُلقي الذِّكر على الرُّسل والأنبياء المصطفين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ومنه القرآن، كما قال: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [الحجر: ٦].

* ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾:

أي: هذا **الذِّكر** المنزَّل يكون إعذارًا أو إنذارًا، وفي القرآن معنى ثالث هو التبشير، كما في قوله سبحانه: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الكهف: ٢]، وقال: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الإسراء: ٩]، ولم يذكر البشارة هنا؛ لأن سياق الآيات سياق وعيد وتهديد وتخويف للكافرين المصرِّين الذين تعاظمت عليهم الحجج، ومع ذلك يصرفون وجوههم عنها، ويصدُّون عنها صدودًا.

والذِّكر عذر للمؤمنين الذين إذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ﷺ فاضت أعينهم من الدمع وأقبلوا وآمنوا بالله ورسوله، فكان ذلك إعذارًا لهم، وبيانًا للحجة، وغفرانًا لما سلف؛ لأن الله لا يؤاخذهم على ما كان منهم في زمن الجاهلية قبل أن تقوم عليهم الحجة؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال عن الكافرين: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ۝١٧٢﴾ [الأعراف: ١٧٢]، أي: حتى لا تقولوا ذلك.

والنُّذْر يكون للكافرين؛ لئلا يكون لهم حجة؛ لأنهم لم ينتفعوا بالوحي، ولكن الحجة قامت عليهم؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٢٢).

يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾ [النساء: ١٦٥]، فليس لهم حجة؛ لأن الإنذار بلغهم.

وعلى هذا المعنى يكون العذر في حق المؤمنين؛ لأنهم آمنوا ولأنهم بإيمانهم انتهوا، فغُفر لهم ما قد سلف، فلا يُؤاخذهم الله على ما كان منهم في زمن الجهل والشرك؛ لعدم العلم وقيام الحجة.

ولا بأس أن يكون المعنى عكس ذلك؛ فيكون إعذارًا للكافرين؛ لأنهم لن ينتفعوا من الوحي، ولكن معذرة إليهم لئلا يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، وهو إنذار للمؤمنين الذين كانوا في عماية وجهالة قبل الوحي، فأنذرهم وصدَّقوا النذير وآمنوا[1].

* ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾:

هذا جواب القَسَم، قَسم على أن الوعد واقع، **والمقصود به:** وعد الآخرة؛ القيامة والجزاء والحساب[2]، وسياق السورة كلها جاء بالوعد والوعيد ووصف القيامة وأحوالها وما يكون فيها.

ويحتمل أن يكون ما يُوعدون أشمل من ذلك، فكل ما تُوعدون على الإجمال وعلى التفصيل سيقع، فيدخل في ذلك الوعد بالخير أو بالشر، كقوله جل وعلا: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور: ٥٥]، ويدخل فيه تفاصيل الوعد الذي أخبر الله تعالى أنه سيقع من الكوارث والمصائب وأمور الخير والشر المذكورة في القرآن، أو فيما ثبت في صحيح السنة[3].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٦)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٥/ ١٣٩٢)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٨٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٦٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٧)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٩١)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٢٣)، والمصادر السابقة والآتية.

(٣) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٨١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٦٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٦٧).

وفيه إشارة إلى الفرق بين الوعد الحق والوعد الكاذب أو الوعد المفترى، والفرق بين وعد الرحمن ووعد الشيطان، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، فوعد الشيطان وعد كاذب، قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وأما وعد الله تعالى فهو حق: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [يونس: ٥٥].

وثمة أمر ثالث بينهما، وهو وعد الإنسان، والنبيُّ ﷺ يقول في وعد الإنسان لأخيه: «**آيةُ المنافق ثلاثٌ: إذا حدَّثَ كذبَ، وإذا وعَدَ أخلفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خانَ**»(١). وهذا دليل على أن المسلم إذا كان من عادته إخلاف الوعد، ففيه علامة من علامات النفاق، ولكنه لو وعد وفي نيته أن يفي، ثم لم يف لعارض فليس عليه شيء، وإذا ترتب على الوعد إقدام الآخر على فعل يكلِّفه ويحمله ما لم يكن يحتمل، **فالأقرب** أنه يجب الوفاء بالوعد ما لم يكن إثمًا.

* **انتهى المشهد الأول، وانتقل السياق في السورة إلى مشهد آخر:** ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾:

* ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾:

ذكر تعالى طمس النجوم، ولم يذكر مَن الذي طمسها؛ لأنه معلوم، فالأمر بيد الله سبحانه، والأمر أصبح عيانًا لا شك فيه؛ ولهذا لم يكن ثمة حاجة إلى أن يُبيِّن مَن هو الفاعل، وإنما أجمله بنوع من الاختصار.

والطَّمْس يحتمل أمرين:

١ - ذُهب بنورها فأظلمت، وعلى هذا فتكون ﴿ٱلنُّجُومُ﴾ أجرامًا لا ضوء لها(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٢٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٧)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٩١)، والمصادر الآتية.

٢- ذُهب بها وبنورها، فأُزيلت ومُحيت[١].

تقول: طُمس الكتاب إذا كان عليه كتابة فمُحيت، وكذلك الطمس على الأعين، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: ٦٦]، أي: بالعمى أو بإزالة العين بالكلية، وكذلك قوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨]، أي: نسألك أن تأخذ منهم أموالهم أو تُحيلها شيئًا آخر لا ينتفعون به.

من علامات الساعة والقيامة: أن تُطمس النجوم، وقد يكون في ذلك إشارة إلى زوال الشمس؛ لأن الشمس هي أكبر الأجرام الفلكية المضيئة القريبة من الناس، وكثير من النجوم التي يراها الناس نورها من نور الشمس، فذهاب نورها إشارة إلى ذهاب نور الشمس[٢]، كما جاء النص عليه في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التكوير: ١].

* ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩﴾:

﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ هي هذه القبة الزرقاء التي نراها فوقنا، وقوله: ﴿فُرِجَتْ﴾ معناها: تشقَّقت وصارت أبوابًا[٣]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩﴾ [النبأ: ١٩]، أي: صار فيها شقوق وصدوع.

وأنت اليوم تنظر إليها فتجدها في غاية الإحكام والإتقان والجمال، كما قال تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك: ٣- ٤]، أما في ذلك الموقف فالسماء تتصدَّع وتضعف فهي واهية مشقوقة.

* ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠﴾:

النَّسْف قد يكون: التفجير، وقد يكون معناه: أن تتحول إلى شيء خفيف

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٢٧)، و«الكشاف» (٤/ ٦٧٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٦٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٧٥)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٢٤).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٣١).

كالهباء(١).

* ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ١١﴾:

وهذه هي القراءة المشهورة، وثمة قراءة أخرى متواترة بالواو: ﴿وُقِّتَتۡ﴾(٢)، والمعنى واحد، أي: حُدِّد لها وقت(٣)، فالرسل حُدِّد لهم وقت منذ أن بُعثوا، كما قال: ﴿۞يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾ [المائدة: ١٠٩].

فتوقيت الرسل: تحديد وقت لهم يُجمعون فيه(٤)، **والمقصود:** أنه حان وقت تنفيذ ما أُقِّتت له.

* ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ١٣﴾:

لقد بُعث نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم من النبيين عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، وكانت الرسالة تأتيهم والأجل يُضرب لهم، فأجّل الحساب للرسل ولأممهم، وربما استعجلت بعض الأمم، لكن الله تعالى يصبر على عباده، فيقول: ﴿وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ [الإسراء: ٩٩]، وهو يوم الحساب.

فهذا المشهد يصوِّر لنا الدنيا وقد زالت، والنجوم وقد طُمست، والسماء وقد فُرجت، والجبال وقد نُسفت، والرُّسل وقد أُقِّتت وجُمعت، وانتهت الدنيا، وجاء موقف يوم القيامة.

و﴿ٱلۡفَصۡلِ﴾ يكون بين الخلق بعضهم مع بعض، فيُقتص لبعضهم من بعض، حتى يُقتص للشاة الجَلْحاء من الشاة القَرْناء(٥)، قال الله: ﴿فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٢٤)، و«معجم اللغة العربية المعاصرة» (٣/ ٢٢٠٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٩٢)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٦٦)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٢٣٨- ٢٤٠).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٢٢)، و«معاني القراءات» للأزهري (٣/ ١١٢)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٦٤)، و«حجة القراءات» (ص٧٤٢).

(٤) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٩٥٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٧)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٨٢).

(٥) كما في «صحيح مسلم» (٢٥٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ [الكهف: ٤٩].

ويكون بين الرسل والمكذِّبين، ويكون بين المؤمنين والكافرين، ويكون بين المظلومين والظالمين، فيقتص للناس بعضهم من بعض، وترفع المظالم وينصف المظلوم من الظالم حتى لو كان المظلوم كافرًا أو فاجرًا، ففجوره على نفسه.

* ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾:

هذا تأكيد وتعظيم لماهيته ومعناه، وأن المسؤول عنه أمر عظيم فوق الإدراك والاستيعاب والقدرة، **والمقصود**: التعظيم والتهويل من شأنه(١).

وقال سُفيان بن عُيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فلم يخبره به».

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر(٢).

* ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾:

الويل: العذاب(٣)، **والمعنى**: العذاب للمكذِّبين بالرسل يوم القيامة.

وهذا الوعيد متصل بميقات يوم القيامة، فهو يقول: الويل الشديد والعذاب الأكيد في موقِف الفصل والقيامة للمكذِّبين بهذا الموقِف الجاحدين للبعث الظالمين المعتدين.

* ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾:

وهذا استفهام، **والتقدير**: أهلكناهم(٤).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٩٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٨٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٧٠)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٨٣).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢٢٦)، و«تفسير البغوي» (١/ ١١٥)، و«تفسير الرازي» (٣/ ٥٦٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٧٤).

(٤) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٧٨)، و«تفسير الجلالين» (ص٧٨٤)، و«روح البيان» (١٥/ ١٩٢).

والمقصود: الأمم القديمة، مثل: أمة نوح، قال: ﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي: الأمم المتأخرة، كقوم هود وشعيب وصالح وموسى.

وقد يكون المقصود بـ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: كل الأمم الذين كانوا قبل رسالة محمد ﷺ، وهذا أحسن، فيكون المقصود بـ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ هنا: كل السابقين الذين أهلكهم[1].

وهل المقصود هنا: الإهلاك بالموت، أو الإهلاك بعذاب من عند الله سبحانه؟

الأقرب أن المقصود الإهلاك بالعذاب، بدليل قوله تعالى بعدها: ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٤﴾، فدل على أن المقصود: الإهلاك بعذاب الاستئصال[2]، كأن ينزل الله تعالى عليهم عذابًا من السماء، أو يسقط عليهم كسفًا، أو يزلزل بهم الأرض، أو يُبيدهم سبحانه بآيةٍ من عنده، فهذا موضع العبرة، مع أن في هذا إشارة إلى الاعتبار بالموت والهلاك، وأن الدنيا مهما طالت فهي قصيرة.

و﴿نُهۡلِكِ﴾ مجزوم بـ«لم»، في حين أنه قال في الآية التي بعدها: ﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ بالرفع في الفعل المضارع، فلم يقل: (ثُمَّ نُتْبِعْهُمُ) بالجزم، وإن كانت قراءة لبعضهم[3]؛ إشارة إلى أن المعنى: أننا سوف نتبعهم الآخرين، أو نحن نتبعهم الآخرين[4].

فكما أهلكنا مَن قبلكم نهلككم أنتم إذا فعلتم مثل فعلهم، فيكون المقصود بـ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ هنا: مَن كانوا في عهد الرسالة المحمدية وبلغتهم هذه الآيات، ومَن جاء بعدهم إلى اليوم، وفيه إشارة إلى عظمة القرآن، وأنه حجة على أبي لهب

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٧٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤١٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٠- ٧٧١)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٣١)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (٢/ ٥٩٢).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٢٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ٧٤)، و«مختصر في شواذ القرآن» لابن خالويه (ص١٦٧)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٦٤)، و«المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» (٢/ ٣٤٦)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٢٤١- ٢٤٢).

(٤) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٧٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٢٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧١)، والمصادر السابقة.

وأبي جهل وعُتْبة وشيبة والنَّضر بن الحارث بن كَلَدَةَ، كما هو حجة على الذين يسمعون القرآن اليوم، ففيه إشارة إلى أن الذي أهلك ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قادر على أن يهلك ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾ إذا عصوا وأصرُّوا.

فهو هنا يدعوهم إلى الاعتبار بحوادث التاريخ وسننه، وأن يستدركوا أنفسهم قبل أن تحق عليهم السنة الربانية.

* ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾:

أي: كما أهلكنا ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ نهلك ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾؛ لأن السُّنَّة واحدة، وليس بين أحد من البشر وبين الله نسبٌ ولا سبب إلا التقوى، فالأرض لا تُقدِّس أحدًا، والقبيلة لا تقدِّس أحدًا، ولو كان من نسل الأنبياء الكرام، ولو كان من عُمَّار المسجد الحرام، ولو كان مَن كان، فالعبرة بالإيمان والعمل الصالح.

* ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾:

وهذا وعيد متصل بالسياق، وعيد لمَن يسخرون من مصاير الأمم السابقة، ويستخفون بمَن يحذِّرهم الهلاك إن لم يرعووا، فيوم يأذن الله لهلاك الآخرين كما أذن لهلاك الأولين، فالويل ثم الويل لهم.

* ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾:

وهذا استئناف لمعنى جديد غير متصل بما قبله، ولم يأت بحرف عطف، بل ابتدأ بسؤال عن أصل الخلق.

فهنا انتقل إلى حجة أخرى، **فالحجة الأولى** كانت حجة كونية: النجوم، السماء، الجبال.

والحجة الثانية كانت حجة تاريخية وهي قصص الأمم الغابرة والحاضرة.

وهنا **حجة ثالثة** في الإنسان، بين جنبيه، في أصل خلقته، تأتي بصيغة سؤال تقرير، والقرآن كثيرًا ما يطرح الأسئلة للفت البصائر والأبصار إلى محل الاعتبار.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ ألستم مخلوقين؟

هل من خالق غير الله؟

هل ادَّعى أحدٌ خلق شيء في الكون؟ حتى ذبابة أو بعوضة أو ما دونها؟ أليس خلقكم ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ ضعيف مستقذر؟

سماه: ماءً مهينًا، وسماه: ماء دافقًا[1]، **والمقصود**: ماء الرجل[2]، مع أن الإنسان مخلوق من ماء الرجل ومن بويضة المرأة، كما في الحديث: «**ماءُ الرجل أبيضُ، وماءُ المرأة أصفرُ، فإذا اجتمعا، فعلا منيُّ الرجل منيَّ المرأة أذكرا بإذن الله، وإذا علا منيُّ المرأة منيَّ الرجل آنثا بإذن الله**»[3]. وسماه: أمشاجًا، كما في «سورة الإنسان»[4]؛ لأنه مخلوط من مائهما، وهو في الحالين ﴿مَّهِينٍ﴾.

وفي هذا أعظم العبرة؛ كيف خلق الله تعالى من هذا الماء المهين إنسانًا قويًّا جلدًا يسمع ويرى، ويبصر ويفكِّر، ويعقل ويتحرَّك، ثم يتعالى على ربِّه ويستكبر في نفسه ويعرض عن الإيمان.

* ولأن السؤال عن الخلق ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ تقرير وتوكيد كان بمثابة الخبر بأن خلقناكم ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾، وفيه مزيد السؤال المستفِز للعقل؛ عطف عليه خبرًا آخر عن هذا الماء المهين: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾:

وهو رحم المرأة[5]، يستقر فيه تسعة أشهر غالبًا أو ما دون ذلك، في مكان ثابت محكم متمكن، من الذي يمسكه إلا الله أن يسقط؟ ومَن الذين هيَّأ هذا المكان ووفَّر فيه متطلبات الحياة لهذا الجنين؟

---

(١) كما في «سورة الطارق»: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٨/ ٦٠١)، و«تفسير البغوي» (٦/ ٣٠١)، و«فتح القدير» (٤/ ٢٨٨)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٥/ ١٣٩٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٣٠).

(٣) أخرجه مسلم (٣١٥) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي «صحيح البخاري» (٣٣٢٩، ٣٩٣٨، ٤٤٨٠) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، و«صحيح مسلم» (٣١٤، ٣١١) من حديث أم سُليم وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا نحوه. وينظر: التعليق على «مختصر صحيح مسلم للمنذري» للمؤلِّف (١٩٦١).

(٤) ينظر ما تقدم في «سورة الإنسان»: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ...﴾ [الإنسان:٢].

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٩٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤١٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٣١).

* ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾:

القدر المعلوم: قدر نزول الحمل إن كان تامًّا أو ناقصًا[1].

* ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

﴿فَقَدَرْنَا﴾ من: القدرة، فالله القدير الذي أذن بذلك وأمر فكان[2].

وفي قراءة أخرى سَبْعية: ﴿فَقَدَّرْنَا﴾[3] من التقدير[4]، وهذا معنى صحيح، كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ٢]، أي: قدَّر أن يكون نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً، إلى أن يصل إلى كماله الإنساني[5].

* ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: ويل للذين تقوم عليهم هذه الحجة في أنفسهم، ويرون خلق الله تعالى، ويتذكرون أصل نشأتهم، ثم يُكذِّبون ويتنكرون!

* ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾﴾:

سؤال جديد، وموضوع مختلف، وفي كل مرَّة يحاصر المكذِّب بسؤال محيط به قريب منه لا مخلص له ولا مفرَّ من مواجهته، هذه الأرض التي تحملك مَن أنشأها؟ مَن جعلها ﴿كِفَاتًا﴾؟ والكَفْت: الضم والجمع[6]، فمن خصائص الأرض

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٢٨)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٣٢).

(٢) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٧٩)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٣٠٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤١٨)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٣٨٣).

(٣) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٦٦)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢١٨)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٧)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٢٤٤- ٢٤٥).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٩٥)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٦٠)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٦٥)، و«حجة القراءات» (ص٧٤٣).

(٥) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٣٠٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٠).

(٦) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٥٠٦)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٣٥٦)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٧٧٣).

أنها جُعلت كَفْتًا أو ذات كَفْت، تضم وتجمع الأشياء إليها من حيٍّ أو ميت(١).

ومن أقرب ما يفسِّر هذا: الجاذبية الأرضية التي تجعل الأشياء تنجذب إلى الأرض وتستقر عليها، ولولا ذلك ما كانت الأرض صالحة لحياة البشر.

* ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾:

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ أي: جبالًا، ترسو بها الأرض وتثبت ولا تضطرب في حركة دورانها، كما قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبأ: ٧]، أي: تثبت الأرض، وكذلك هي شامخة رفيعة، وفي اللغة يقال: شمخ فلان بأنفه، إذا ارتفع وتكبَّر، فقوله: ﴿شَامِخَاتٍ﴾ أي: مرتفعة(٢).

﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾: **الفرات:** العذب، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢]، ومنه سُمي: نهر الفرات؛ لأنه عذب، والأنهار كلها عذبة(٣).

والأرض والجبال والماء الفرات هي سرٌّ من أسرار الحياة، فلولا الماء ما عاش الناس، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وخاصية الكَفْت والجاذبية هي التي استدعت المطر من السماء؛ ليكون فراتًا عذبًا سائغًا للشاربين، والجبال بشموخها سبب في جريان الأنهار والينابيع ووصول الماء إلى مواقع لا يصل إليها إلا حين ينحط من قمم الجبال.

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٤٥)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٩٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦١).

(٢) ينظر: «غريب القرآن» للزجاج (٥/ ٢٦٧)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٣٠٦)، و«روح البيان» (١٠/ ٢٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٣٤)، وما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾.

وينظر أيضًا: «العين» (٤/ ١٧٤)، و«تهذيب اللغة» (٧/ ٤٧)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٩٥) «أ ن ف».

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٩٢)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٩٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٩٣)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٩).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٣١٤)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٦٢٨) «ف ر ت».

* ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: ويل يوم القيامة لهؤلاء المكذِّبين، الذين يمشون على الأرض، ويستمتعون بها، ويُسخِّرون الجبال في منافعهم، ويشربون المياه، ثم يكفرون بنعمة الله تبارك وتعالى ولا يؤمنون به.

* ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

الآن طُويت الدنيا، وانتقل المشهد إلى عَرَصات القيامة، والحديث عن الكفار والمجرمين والمكذِّبين؛ ولهذا يأتيهم خطاب الله تعالى آمرًا لهم بالانطلاق.. ولكن إلى أين؟

هم مقيَّدون مكبَّلون خائفون فزعون، فأول ما يسمع الواحد منهم كلمة ﴿انطَلِقُوا﴾ ربما يُداخله تساؤل عن الانطلاق من الأَسْر ومن القيود، ومن النار التي يسمعون حسيسها، أو يرونها من بعيد، أنه تهكُّم وسخرية.

والأمر بالانطلاق هنا ليس مخرجًا للنجاة، بل انطلاقٌ باتجاه هذا العذاب الذي يهربون منه!

﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾: انتهى الأمر، وأصبح عيانًا أمامكم، فهذا الذي كنتم به تكذِّبون، والأمر بالانطلاق فيه معنى السخرية(١)، كما في تبشير الكافرين بالعذاب في مواضع أخرى(٢).

* ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾:

﴿انطَلِقُوا﴾ مرة أخرى، وهذا قول الله تعالى، ويجوز أن يكون قول الملائكة(٣).

والانطلاق لفظ يبعث بعض الأمل أن ينفكُّوا من مضيقهم الذي هم فيه.

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٣٥).

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١، التوبة: ٣٤، الانشقاق: ٢٤].

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٤٥)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٤٠٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٩).

﴿إِلَىٰ ظِلٍّ﴾: إنهم يبحثون عن الظل؛ لأنهم قد آذاهم حرُّ الشمس، ولفحهم هجيرها، ﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾، فهذا الظل الذي ينطلقون إليه ليس كما يتمنون، بل هو ﴿مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ من دخان النار[1]، ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٤٣- ٤٤]، بخلاف ظل المؤمنين، فهم في ظلٍ ظليل: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء: ٥٧]، أما هؤلاء فظلهم هو النار نفسها أو ظل الدخان قبل أن يدخلوا النار.

فإذا بحثوا عن الظل قيل لهم: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ﴾، ولكنه ليس كظل المؤمنين، بل هو ظلٌّ خاصٌّ، إنه ظل دخان جهنم، ﴿ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾، قال كثير من السلف: إن هذا الظل من سرادق النار[2]، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال بعضهم: إن هذا الظل هو النار ذاتها[3]، فالنار قد تسمى: ظلًّا أو ظُلَّة، كما في قوله سبحانه: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

لكن **الأقرب** أن هذا الظل شيء يسبق النار، فهو كالتمهيد أو المقدِّمة لها؛ ولهذا قال تعالى في «سورة الواقعة»: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ فقال: «نُزُل»، والعرب تسمِّي ما يُقدَّم للضيف في بداية دخوله: نُزُلًا، وهي مقدِّمة الضيافة[4]، وليس هذا كل ما هنالك، فهناك ما هو أشدُّ وأنكى.

وفي قوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾ كأنما طوى الله تعالى الدنيا كلها، وأصبحنا في موقِف الآخرة، فالأمر يُشاهَد بالعيان، **وطريقة القرآن في تقرير**

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٣٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١١٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٦٠٠)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ٣٠٣)، و«الكشاف» (٤/ ٦٨٠)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٩٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٣٥).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٤)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٣/ ١٤٥)، و«المصباح المنير» (٢/ ٦٠٠) «ن ز ل».

معاني العقيدة وحوادث الآخرة تنقسم إلى قسمين:

الأول: مخاطبة العقل بإقامة الحجج، والله تعالى حينما خلق العقل خلقه ليكون شاهدًا للإنسان ومرشدًا، فالنظر في ملكوت السماوات والأرض وخلق الإنسان والأحوال هذا كله خطابٌ للعقل ليؤمن ويعتبر.

الثاني: مخاطبة الروح، وهو خطابٌ للقلب والعاطفة؛ لأنه ليس كل كفر سببه وجود الشبهات، بل قد يكون سببه الغفلة، وهذه يمكن رفعها بالمواعظ التي توقظ القلوب وتهزها هزًّا، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عند ما يقول: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ يشعر القارئ أنه انطلق من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، ومن عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، وكأنه يشاهد الأمر بعينيه، وكأنه معنيٌّ بهذا الخطاب.

وهنا ستجد في الآية الكريمة النص على ﴿ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾، فأنت إذًا أمام تفصيل واضح محدَّد، لم يرد له ذكر في غير هذا الموضع من الكتاب الكريم، فلماذا هذه الشُّعب؟

الظن- والله أعلم- أنها درجات ومنازل ورُتب بحسب كفر الكافرين، فكما أن الله تعالى جعل للمؤمنين درجات بعضها فوق بعض في الجنة، كما قال سبحانه: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢]؛ فكذلك الأمر بالنسبة للكافرين، فهم دركات وهلكات بحسب كفرهم.

ومن جميل ما يمكن فهمه هاهنا: أن قوله تعالى: ﴿ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾ يفسِّره ما بعده، فيكون الظل غير ظليل.

وعادة العرب أن الظل إذا كان معتدلًا لا حارًّا ولا باردًا قالوا: هذا ظل ظليل، أي: جميل ومناسب، بخلاف ما إذا كان مكدَّرًا بهواء السَّموم، فهو لا ينفع ولا يقي حرَّ الظَّهيرة، فيتركون الظل؛ لأنه لا ينفع مع حرِّ الشمس، فهذا ليس ظلًّا ظليلًا، وإنما الظل الظليل هو الظل الوارف الجميل الذي فيه هواء عليل، وهو ظل أهل الجنة المذكور في قوله تعالى: ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾ [النساء: ٥٧].

أما ظل الكافرين: فمنه **هذا القسم الأول** الذي هو غير ظليل، لا ينفع ولا يدفع.

ومنه القسم الثاني، وهو: ظل أشد من سابقه درجة، ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾، فهذا الظل فيه لهب النار، فلا يقيهم من اللَّهب، فهم قريبون من النار بحيث تلفحهم أو يصيبهم حرها.

والقسم الثالث: الظل الذي هو أقرب إلى النار، حتى إن شَرَر النار يغشاهم ويصل إليهم وهم في الظل، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾.

والمقصود بقوله: ﴿إِنَّهَا﴾ أي: النار[1]، وليست مذكورة في السياق، وإنما أعاد الضمير إليها في قوله: ﴿إِنَّهَا﴾؛ لأنها حاضرة في الأذهان، والقارئ أو السامع مأسور بالمشهد، وكأنه يرى النار ويسمع زفيرها ويجد لهيبها؛ فلا حاجة إلى ذكرها، بل تكفي الإشارة إليها بالضمير.

والشَّرر جمع: شررة، **والشَّرار** جمع: شرارة، والشَّرارة قطعة صغيرة من النار تنطلق منها[2]، وسرعان ما تنطفئ؛ لأنها انفصلت عن الأم، أما في هذه النار فالأمر مختلف، ﴿إِنَّهَا تَرْمِي﴾ أي: كأنها قصدًا تدفع إليهم بشواظ من لهب وشَرَر ضخم ﴿كَالْقَصْرِ﴾.

والأقرب من أقوال المفسرين- وهو قول الجمهور- أن المقصود: القصور والحصون والمباني المعروفة[3]؛ فتكون الشَّرارة حينما تنطلق كأنها القصر العظيم من ضخامتها وهولها، ثم تتفرق هذه الشَّرارة أيضًا؛ لأنه إذا كان الظل

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٣٠٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٣٧).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٣)، و«لسان العرب» (٤/ ٤٠١) «ش ر ر».

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١١٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٩)، والمصادر السابقة.

﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ فلا غرو أن الشَّرارة أيضًا تتفتت وتتقسم بعدما تنطلق، فبدايتها تكون كالقصر، ثم تتوزع فيكون القسم منها ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾، وهي: الإبل أو النُّوق، ذات اللون الأصفر، وهو معروف؛ وذلك لأن الشَّرر في الغالب يكون أصفر؛ لما فيه من اللَّهب[1].

وذهب بعض المفسرين إلى إن الأصفر هنا هو المائل إلى السواد؛ وذلك لما فيه من النار[2]، وليس ثمة ما يمنع أن يكون الشَّرر أصفر، ويكون فيه سَفْعة من السواد؛ لقرينة خروجه من النار.

وهذا الشَّرر يأتيهم وهم في الظِّل الذي هو ذو ثلاث شُعب، ولو كانوا داخل النار لم يكن لوعيدهم بالشَّرر معنى؛ لأن الشَّرر يخرج من النار، فهذا يُرجِّح -والله أعلم- أن هذا الشَّرر يصلهم وهم في الظل الذي أُمروا أن ينطلقوا إليه.

وقوله: ﴿كَٱلْقَصْرِ﴾: ذكر الجمهور أن القَصْر هو البناء[3].

لكن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فسَّرها بأنها أطراف الخشب التي تُقطع على قدر الذراع والذراعين، وتُتخذ في الصيف؛ من أجل أن يوقد بها في الشتاء، فهذه تسمى: قَصْرًا[4].

وقيل: إنها أطراف النَّخيل[5].

ولكن المعنى الأول هو الأرجح، وهو المتبادر للذهن، وهو واحد القصور.

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٣٠٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٤٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٣٤)، والمصادر السابقة والآتية.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٦٠٥)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٤٠٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٩).

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٨٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٩٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٩٧)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٣٤)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٣٧).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٦٠٤)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٨٥)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٣٨٤)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٣١)، والمصادر السابقة والآتية.

وقد شبَّه الله تعالى الشَّرر بالقَصْر؛ لأن هؤلاء الكفار كانوا في الدنيا منعَّمين، يسكنون القصور المشيدة الفخمة، ويأكلون الطيبات من الأطعمة، ويستمتعون بالحياة الدنيا، فكان ذلك تشبيهًا وإمعانًا في التهكُّم بهم فيما يُعذَّبون به في الدار الآخرة.

وكذلك قوله: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾؛ لأنهم كانوا يستمتعون بألوان المراكب في الدنيا، فالتشبيه له علاقة بما كانوا يتمتَّعون به في الدنيا، وكأن المعنى: ماذا أغنت عنهم دنياهم؟!

أو أن القَصْر إذا أوقدت مصابيحه ليلًا غدا أصفر يتلألأ، فكذلك الشَّرارة من النار تخرج صفراء تتلألأ مضيئة كأنها قصر في عظمها.

وذهب مجاهد إلى أن قوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾: أن تكون واحدة من الشُّعب فوق رأسه، وأخرى عن يمينه، وثالثة عن شماله(1).

فعلى هذا التفسير لا يكون المقصود بالشُّعب شُعبًا لعامة المعذَّبين، وإنما كل واحدٍ منهم، وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤- ٣٥]، فالله تعالى توعَّدهم بهذا الظِّل الذي هو مقدِّمة لما بعده من العذاب.

* ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

فهذا الموقِف الذي تشاهدونه الآن هو الوَيْل، وهو العذاب للمكذِّبين، قد أصبح عيانًا لا مجال للجدل ولا للتكذيب.

* ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

﴿هَٰذَا﴾ اسم إشارة، والإشارة عادة تكون لأمر مشاهَد يُرى بالعيان، واليوم

---

(1) ينظر: «تفسير ابن فورك» (٣/ ١٢٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٧٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٤).

قد حلَّ ووقع، وقُرئ بالضم: ﴿يَوْمُ﴾، وبالفتح: (يَوْمَ)[1]، فعلى الفتح هو ظرف؛ فهذا هو الوقت الذي لا ينطقون فيه، وعلى الضم خبر للمبتدأ، وهو اسم الإشارة.

وكيف يُجمع بين هذه الآية وبين آيات أخرى تدل على أنهم ينطقون ويحاجُّون، كقوله: ﴿قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝٢٣﴾ [الأنعام: ٢٣]، ويعتذرون إلى ربهم ويقولون: ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ﴾ [فاطر: ٣٧]... إلى غير ذلك مما يقولونه في الآخرة؟

والجواب: أن المقصود بالآية هنا: ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ أي: لا يقولون كلامًا له قيمة، فكلامهم هذر لا ينفع، ولا يدفع عنهم عذابًا؛ لأنه كلام باطل ولغو زائف، وهذا قول الحسن البصري[2].

أو يكون المقصود: حالًا دون حال، وهذا جواب ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لنافع بن الأَزْرق عند ما سأله عن هذا[3]، فيوم القيامة- وإن كان الله تعالى سماه: يومًا- مقداره خمسون ألف سنة من سنوات الدنيا، فما بالك بما بعده من الجنة أو النار؟!

فإذا كان يوم القيامة ﴿مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ [المعارج: ٤]، فليست كلها على حال واحد، وإنما فيها أحوال تختلف وتتغير، فأحيانًا يتجادلون، وأحيانًا ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝٣١﴾ [سبأ: ٣١]، وأحيانًا يسكتون، وأحيانًا يُبلسون، وأحيانًا يتكلمون.. إلى غير ذلك[4].

وثَمَّ جواب ثالث متفرِّع عن الثاني؛ وهو أن يكون المقصود بقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٢٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٧٨)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٦٤٣)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٢٥١- ٢٥٢).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٣٤).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٩٢)، و«المستدرك» (٤/ ٥٧٣).

(٤) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٤/ ٤٠٩)، و«الدر المنثور» (١٥/ ١٨٥).

يَنطِقُونَ﴾ في وقت خاص، وذلك حينما يُقال لهم: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٩ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ٣٠﴾ [المرسلات: ٢٩- ٣٠]، فلا ينطقون ولا يستطيعون جوابًا، ولا يمتنعون من شيء، فينطلقون بالقدر والأمر الإلهي الرباني من غير إرادتهم، ولا يتكلمون، بل يختم الله تعالى على أفواههم وعلى ألسنتهم(١).

وهذا غاية في الذِّلة والإهانة، أن يكونوا معذَّبين ينطلقون إلى ما يعلمون به عذابهم دون أن يتكلموا أو يعتذروا.

* ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ٣٦﴾:

أي: لا يُؤذن لهم في الكلام أصلًا، إشارة إلى أن ذلك الموقِف موقِف رُعب، كما قال الله: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ [النبأ: ٣٨]، فإذا كان جبريل والملائكة والرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ لا يتكلمون إلا مَن أذن له الرحمن، فكيف بمثل هؤلاء المجرمين المكذِّبين؟!

فهم لا يتكلمون أصلًا، ولا يُؤذن لهم في الكلام، ولا أحد يتكلم إلا بإذن الله تعالى، ولو تكلَّموا واعتذروا لربما كان أكثر ما يعتذرون به ما كانوا يردِّدونه في الدنيا من الاعتذار بالقضاء والقدر: يا ربِّ، عصينا بعلمك وبإذنك، ولو شئتَ ما أشركنا. وهذا ليس بعذر، بل هذا كلام لا طائل تحته؛ لأنهم كانوا يعلمون ويدركون في الدنيا أن لكل إنسان إرادة خاصة، وهي التي يُحاسَب عليها، فهم الآن ينطلقون إلى الظلِّ اللاهب مقهورين مأمورين غير مخيَّرين، أما حينما كانوا ينطلقون إلى شهواتهم وجرائمهم ومظالمهم ومطامعهم فكانوا ينطلقون بمحض رغبتهم.

وهم في الدنيا يمكن أن يعتذروا كغيرهم عن خطأ أو زلل، ويمكن أن يتوبوا، فباب التوبة مفتوح، وربهم يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، ويقبل توبة العبد ما لم يغرغر، فلو أن أحدهم قبل أن يموت بلحظة ندم وتاب وأناب واستغفر صادقًا لنفعه ذلك.

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٧٨).

وفي مواقف أخرى يمنعهم الله من الكلام، ويسمح لأعضائهم أن تنطق، فتتكلم بما كانوا يعملون في الدنيا من خير أو شر، يقول تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ [يس: ٦٥]، فالأيدي والأرجل حتى الألسن تتكلم، وليس هو الكلام المعتاد الذي يخرج من الحلق، وإنما يتكلم اللسان كقطعة أو مضغة، فيُعبِّر عما قال من باطل أو لغو أو غير ذلك، فهم في ذلك الموقف لا ينطقون ولا يُؤذن لهم فيعتذرون.

* ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

والويل هنا محدَّد، والله تبارك وتعالى أعلم بشدة ما يعانونه من هول الموقِف ومن عجزهم حتى عن النطق وعن الاعتذار.

* ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: الفصل بين الناس في الخصومات، الفصل في بيان الحق من الباطل؛ لأنه في الدنيا يكثر القيل والقال والجدل، فهناك خصام كبير في الدنيا، وجدل بين الناس حتى بين الطائفة الواحدة، وجدل بين المؤمنين، وجدل بين العلماء، وجدل بين الأزواج، وجدل في أمور الدين، وجدل في أمور العلم، وجدل في أمور الدنيا، فالله يقول: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: يوم إزالة اللبس والوهم عن كل قضية وفي كل أمر.

إنه تحريض للإنسان أن يكون صادقًا في الدنيا؛ لأن ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]، فالصادقون ينتفعون في يوم الفصل بالصدق، بخلاف الذي يجادل بالباطل، فحجته داحضة عند ربه؛ لأنه طالما جادل بالكلام الفارغ والسفسطة(١).

﴿جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾: يخاطب الله تعالى كفار قريش، أي: بعثناكم الآن لهذا اليوم، وجمعنا معكم الأولين من الأمم السابقة قبلكم.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٦١١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٤٢).

وعند ما تقرأ كلمة: ﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ تشعر بأن الأمر يتعلق بالديانة والإيمان، فلا يجدر بمن يؤمن بأن ثمة يومًا للفصل أن يقف مع قضية ظالمة أو كاذبة أو خاسرة، بل يجب أن يكون منساقًا للحق، وإن كلَّفه ذلك أعز ما يملك، فالمهم أن يكون ما بينك وبين الله قائم وعامر(١):

فلَيتَ الَّذي بيني وبَينَكَ عامِرٌ ... وبيني وبَينَ العالَمينَ خَرابُ

إذا صحَّ منك الوُدُّ فالكل هيِّنٌ ... وكلُّ الذي فوقَ التراب تُرابُ

وخاطب الأولينَ أيضًا بأنهم جُمعوا وجُمعت معهم أمم الأرض كلها، ولكن في ذلك إشارة إلى أن الحجة على الإنسان تقوم بالأولين أكثر مما تقوم بالآخرين، فالإنسان يعتبر بما سلف وما رأى بعينه أو سمعه بأذنه، وبذلك تقوم عليه الحجة، بخلاف ما لم يقع بعد.

* ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ٣٩﴾:

لقد كان الله يمهل الظالمين والطاغين ويصبر عليهم، ففرعون يقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، والمشركون يقولون: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وكفرة أهل الكتاب يقولون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وصبر عليهم وأمهلهم سبحانه، أما الآن فالأمر مختلف، وكلٌّ قد أتى فردًا، فلا يعتزون بالكثرة كما كانوا في الدنيا يقويهم اجتماعهم ويصبرهم، ففي ذلك الموقِف الرَّعيب أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم في صعيد واحد، وليس أحد منهم قادرًا أن ينفع نفسه ولا يساعد غيره، فضلًا عن أن يغيِّروا المعادلة أو يكيدوا له كما كانوا يكيدون له ولعباده المؤمنين في الدنيا: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ١٧﴾ [الطارق: ١٥- ١٧]، وأين هم من الكيد، والواحد منهم عاجز، حتى أن يتكلم بكلمة، وإنما الحال على ما وصف الله سبحانه: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ١٨ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: ١٨- ١٩]، فإن كان

---

(١) ينظر: «يتيمة الدهر» (١/ ٩٥)، و«علم العروض والقافية» (ص١٥٨).

لديكم قدرة تستطيعون بها أن تتخلَّصوا من العذاب أو تحتالوا كما كنتم تفعلون في الدنيا فافعلوا، وهذا تعجيز لهم؛ لأنهم لا يستطيعون.

والأقرب أن هذا كلام الله تعالى لهم، وهذا أوقع وأشد(١).

ويجوز- كما قال بعض المفسرين- أن يكون هذا من كلام الرسل أو الرسول ﷺ(٢)، كما قال هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾ [هود: ٥٥]، وكما قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ۝٧١﴾ [يونس: ٧١].

* ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٠﴾:

وهذا تكريرٌ للوعيد والتهديد، وهو متصلٌ بما قبله كاتصال نظيره المذكور آنفًا(٣).

* ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣﴾:

طوى صفحة المكذِّبين وحالهم وظلالهم وما قال الله لهم ليذكر ما يقابلها، وهي عادة القرآن ألَّا يذكر أهل النار إلا ذكر أهل الجنة، والمقصود بالتقوى أنهم اتقوا الكفر بالإيمان؛ كما كان يقول ابن المعتز(٤):

خَلِّ الذُّنوبَ صَغيرَها ... وكَبيرَها ذاك التُّقى
واصنع كماشٍ فَوقَ أَر ... ضِ الشَّوكِ يَحذرُ ما يَرَى
لا تَحقِرَنَّ صَغيرَةً ... إِنَّ الجِبالَ مِنَ الحَصَى

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٤٢).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٧)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٨٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٣٥)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٤٢).

(٤) تقدم تخريجه في «سورة الحديد»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٨﴾.

وقد سُئل أحد السلف عن التقوى، فقال: «هل أخذتَ طريقًا ذا شوك؟». قال: نعم. قال: «فكيف صنعتَ؟». قال: إذا رأيتُ الشوكَ عدلتُ عنه أو جاوزتُه أو قصُرتُ عنه. قال: «ذاك التقوى»[1].

وفي يوم القيامة وما بعده ظِلال المتقين ليست كظلال أولئك القوم المكذِّبين، بل ظلال حقيقة قبل الجنة، يظلهم الله في ظل عرشه يوم القيامة، وقد جاء في الحديث المتفق عليه: «**سبعةٌ يظلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ: الإمامُ العادلُ، وشابٌّ نشأَ في عبادة ربه، ورجلٌ قلبه معلَّقٌ في المساجد، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرَّقَا عليه، ورجلٌ طلبته امرأةٌ ذاتُ منصب وجمال فقال: إني أخافُ اللهَ. ورجلٌ تصدَّقَ بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شمالُهُ ما تُنْفِقُ يمينُهُ، ورجلٌ ذكرَ اللهَ خاليًا ففاضتْ عيناه**»[2].

فهذا نموذج ممن وعدهم الله تعالى بالظل الظليل، وهم خلقٌ كثير.

والمتقون، وإن تفاوتت ظلالهم، إلا أنهم جميعًا في ظلال طيبة؛ ولهذا جاء التعبير بالجمع: ﴿ظِلَٰلٍ﴾ اعتبارًا لكثرته وسعته، وأما في حق المجرمين فقد جاء مفردًا: ﴿ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾ [المرسلات: ٣٠].

ولهم كذلك عيون يشربون منها، والماء البارد قريب من الظل، وهذا قد يكون قبل دخول الجنة، كما يكون في الجنة أيضًا؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ **والفواكه**: كل ما يُتفكَّه به[3].

وربما يبدو في نظر السامع والقارئ أن المقصود بالفواكه ألوان الفاكهة التي في الدنيا، فالناس يعرفون البرتقال والرمان والتفاح وما أشبهه مما يسمى: فواكه،

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١٤٢)، و«أدب الدنيا والدين» (ص٩٨)، و«الزهد الكبير» للبيهقي (٩٦٣)، و«تفسير البغوي» (١/ ٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٦١)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٦٤)، و«الدر المنثور» (١/ ١٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «المغرب في ترتيب المعرب» (ص٣٦٥)، و«المصباح المنير» (٢/ ٤٧٩) «ف ك هـ».

وهي من المقصود في الآخرة، لكن شتَّان ما بين فواكه الجنة وفواكه الدنيا، فليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(١)، وإلا فالطعم مختلف، والحجم مختلف، فيفكهون بها وبالأصوات والمناظر الجميلة، وأعظم ذلك التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم في جنة عدن؛ لأن النظر إلى جمال الدنيا من الخضرة أو المياه يبهج النفوس، فكيف بالنظر إلى وجه الله الكريم؟!

وهم مع هذه المتع كلها يستمتعون برضوان ربهم عليهم، كما جاء في الحديث: «**أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا أَسخطُ عليكم بعده أبدًا**»(٢).

وهذا من أطيب النعيم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فهو سبحانه لم يقل لهم هذا إلا لرضاه عنهم، وما أعطاهم الذي أعطاهم إلا برضاه عنهم سبحانه.

وفي ذلك إشارة إلى أن أكلهم وشربهم هنيء لا تخالطه تخمة ولا مرض ولا ضعف ولا فتور، ولا عيب من العيوب التي تلحق متع الدنيا، وليس هذا عوضًا عن عملهم، بل هو فضل الله تعالى عليهم، ولكن بسبب أعمالهم تأهلوا لرحمة الله، فالباء هنا ليست باء المعاوضة المحضة، وإنما هي باء السببية.

* ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: مثل هذا الجزاء نجزيه المحسنين.

* وفي المقابل قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: الذين يكذِّبون بهذا النعيم لهم الويل بالعذاب المقيم في النار.

* ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

أَرْجَعَ الخطاب الآن للمكذِّبين أن يأكلوا ويتمتعوا بما عندهم من النِّعم العاجلة، التي هي قليل بالنظر إلى نعيم الجنة، والدنيا قليل بالنظر إلى الآخرة.

وهذا فيه إشارة إلى أن من أسباب تكذِيبهم وإيثارهم الدنيا على الآخرة

---

(١) تقدم في «سورة الملك»: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩) من حديث أبي سعيد الخُدْري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

استغراقهم في المتاع العاجل وركضهم وراءه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلى: ١٦- ١٧]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٣]، فهذا الأكل والشرب والتمتع كان من أسباب تكذيبهم وكفرهم، وهم ربما وجدوا في الدنيا بعض المتعة والراحة، وهذا ليس مستغربًا، فالتمتع بملذات الدنيا مشاع بين الخلق، يناله المسلم والكافر، فالله يعطي الدنيا مَن يحب ومن لا يحب، ولكن لا يعطي الآخرة إلا مَن يحب.

ومما يدل على أنه يتمتع في الدنيا قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ۝١٣﴾ [الانشقاق: ١٣]، أي: كان في الدنيا في سرور وفرح(١).

والدنيا جنَّة الكافر بالقياس إلى ما ينتظره عند الله تعالى من النَّكال والعذاب، والدنيا كلها متاع قليل، كما قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝١٩٧﴾ [آل عمران: ١٩٦- ١٩٧]، وقال سبحانه: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٧﴾ [النساء: ٧٧].

فهم يخاطَبون بأن يأكلوا ويتمتعوا وهم في الدنيا، ويوصفون بأنهم مجرمون، وهم الذين كتب الله عليهم أن يموتوا كافرين.

وفي السياق لم يخصِّص الله منهم أحدًا، وترك لهم باب التوبة مفتوحًا، كما قال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

* ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝٤٧﴾:

وهو مثل نظيره المذكور ثانيًا في هذه السورة، وله ارتباط خاصٌّ بقوله: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾؛ لما في «تمتَّعوا قليلًا» من الكناية عن ترقُّب سوء عاقبة لهم، فيقع قوله: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ موقعَ البيان لتلك الكناية، أي: كلوا وتمتَّعوا قليلًا الآن، وويلٌ لكم يوم القيامة(٢).

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الانشقاق».

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٤٦).

* ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

الراجح في الآية- والذي عليه جمهور المفسرين- أن المقصود بها: الكفار في الدنيا، الذين يأبون الركوع[١]، والمقصود بالركوع عند الجمهور: الصلاة كلها، فقد يُعبَّر عن الصلاة ببعض أجزائها، كما هو معروف[٢].

والركوع يُعبَّر به عن السجود أيضًا، فقد يقول الله في القرآن: ﴿ٱرْكَعُوا۟﴾، ويقصد به: اركعوا واسجدوا، فإذا لم يذكر السجود فهو يدخل في الركوع، فهنا قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟﴾ أي: اركعوا واسجدوا، وكان بعض قبائل العرب يستنكفون عن الركوع، فقالوا للنبي ﷺ: نؤمن لك، لكن لا نركع ولا نسجد[٣]. يقولونها أنفة عن تمريغ الجِباه والأنوف بالأرض، فهم لم يتذوقوا لذة المناجاة في السجود؛ لكِبْر في قلوبهم، ولجهالتهم، وإلا فلو أدرك الإنسان ما في الركوع والسجود من لذة التذلل لله ما أنف عنهما[٤].

* ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

هذه الجملة مثل نظيرها الموالية هي له، إذ يجوز أن تكون متصلةً بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾، ويكون التعبير بـ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ إظهارًا في مقام الإضمار

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٦١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠١).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٢١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٨٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٣٥).

(٣) كما عند الطيالسي (٩٨١)، وأحمد (١٧٩١٣)، وأبي داود (٣٠٢٦)، وابن الجارود (٣٧٣) من حديث عثمان بن أبي العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن وفد ثَقِيف لما قدموا على رسول الله ﷺ اشترطوا أن لا يُجَبُّوا، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: «**لا خيرَ في دين ليس فيه ركوعٌ**». وينظر: «نصب الراية» (٤/ ٢٧٠)، و«السلسلة الضعيفة» (٤٣١٩)، و«ضعيف أبي داود» (٥٢٩).

والمراد بقولهم: «أن لا يُجَبُّوا» أي: لا يصلون، وأصل التجبية: أن يقوم الإنسان قيام الراكع، وقيل: أن ينكبَّ على وجهه باركًا، وهو السجود. ينظر: «النهاية» (١/ ٢٣٨)، و«جامع الأصول» (٨/ ٤١٣).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٨٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٣٦).

لقصد وصفهم بالتكذيب.

والتقدير: ويل يوْمئذ لهم أو لكم، فهي تهديد ناشىء عن جملة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ﴾، ويكون اليوم المشار إليه بـ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: الزمان الذي يفيده «إذا» من قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ﴾ الذي يُجازَى فيه بـ«الويل» للمجرمين الذين إذا ﴿قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ﴾ أي: لا يؤمنون، وتفيد مع ذلك تقريرًا وتأكيدًا لنظيرها المذكور ثانيًا في هذه السورة[1].

* ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

ختام حاسم قاطع أن الله تعالى صرف لهم الآيات من الكون والنفس والدنيا والآخرة وأخبار السابقين، وصوَّر لهم مشاهد الحساب والقيامة كأنها رأي عين، فخاطب أرواحهم وعقولهم وأمهلهم وأنظرهم ثم أصرُّوا وعاندوا وكذَّبوا، فمَن سوف يهديهم من بعد الله؟!

ooo

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٩/ ٤٤٧).

سُورَةُ النَّبَإِ

*** تسمية السورة:**

التسمية الأشهر لهذه السورة: «**سورة النبأ**»[1]؛ لقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وسُمِّيت في بعض المصاحف، وكتب التفاسير، وهي كذلك في «صحيح البخاري»: «**سورة** ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾»[2].

وتختصر في بعض المصاحف والكتب إلى: «**سورة** ﴿عَمَّ﴾»[3].

وسمَّاها بعض العلماء: «**سورة التساؤل**»[4]؛ أخذًا للمصدر من الفعل في قوله تعالى: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾.

وتُسمَّى: «**سورة المُعْصِرات**»[5]؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾.

وقد كتب الشيخ محمد عبد الله دراز كتابًا سماه: «النبأ العظيم»، ودوَّن فيه من معاني الربانية في القرآن ما يثلج الصدور.

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٩٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٨٢)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٦٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٨٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٠١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٤) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦٢)، و«جامع البيان في القراءات السبع» (٤/ ١٦٨٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٥) ينظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص٢٩٥، ٤٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

❊ **عدد آياتها:** أربعون آية، أو إحدى وأربعون، على خلاف بين علماء العَدِّ[1].

❊ **والسورة مكية** بإجماع أهل التفسير، حكاه ابن الجوزي، والرازي، والقرطبي، والألوسي، وابن عاشور، وغيرهم[2].

❊ **وقد ورد في فضلها** حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال لرسول الله ﷺ: يا رسولَ الله، قد شِبْتَ! فقال: «**شَيَّبتني هودٌ، و﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾، والمرسلاتُ، و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾**»[3].

وهو حديث مضطرب، كما ذكر ذلك ابن الصلاح، وغيره[4].

❊ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١﴾:

﴿عَمَّ﴾ كلمة مركبة من حرفين: «عن»، و«ما»، فأُدْغِمت النون في الميم، وحُذِفت الألف؛ لدخول حرف الجر «عن» على «ما»، والمعنى: عن أي شيء يتساءلون؟

وهذا تساؤل عن التساؤل: عن ماذا يتساءل هؤلاء القوم وعلامَ يختلفون؟!

❊ ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ٢﴾:

أي: عن الأمر الهائل المُفْظِع، والحدث الكبير الذي وقع على العقول والقلوب والأسماع وقعًا عظيمًا غير هَيِّن، فهم يتساءلون عنه في مجالسهم ونواديهم وأسواقهم وأسفارهم.

ويحتمل أن تكون الآية استكمالًا للسؤال، أي: عن ماذا يتساءلون؟ هل

---

(١) واختلافهم في قوله: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ: ٤٠]. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦٢)، و«الكشاف» (٤/ ٦٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٠١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٢٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨٧)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٤١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٠١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٩٧)، والحاكم (٢/ ٣٤٣)، والبغوي (٤١٧٦)، وغيرهم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) ينظر ما تقدم في أول «سورة الواقعة».

يتساءلون عن النبأ العظيم[1]؟

أو يكون الأول سؤالًا والثاني جوابًا، والمعنى: أن الله تعالى سأل- وهو أعلم-: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾؟ ثم أجاب بأنهم يتساءلون ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾، وفي هذا إشارة إلى أن الموضوع خطير، وكفاه أن الله تعالى سمَّاه نبأً عظيمًا.

هل كان تساؤلهم تساؤل الجادِّ الباحث عن الحقيقة، يختارها، ثم يُؤثِرها، ويضحِّي في سبيلها؟ أم تساؤل العابث الذي يريد التشغيب والتسلية والتندُّر؟ أم تساؤل المُكذِّب الذي اتخذ قرارًا بالتكذيب قبل أن يسمع الخبر، وإنما يطرح بعض الأسئلة والشبهات حتى يصرف الناس؟!

وقد جاءت أقوال في ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾[2]:

فقيل: القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [ص: ٦٧- ٦٨].

وقيل: النبي ﷺ؛ لأن القرآن أُنزِل على شخصه ﷺ، وبه صار نبيًّا، وقد نُبِّئ بـ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، وأُرْسِل بـ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، وكان يقول: «**إني نذيرٌ لكم، بين يَدَيْ عذابٍ شديدٍ**»[3].

وقيل: البعث؛ لأنه من أعظم ما جاء به النبي ﷺ، وكان بالنسبة لهم أمرًا مُستغرَبًا، كما قال قائلهم[4]:

حياةٌ ثم موتٌ ثم نَشْرٌ حديثُ خُرافةٍ يا أُمَّ عَمرٍو

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥)، و«الكشاف» (٤/ ٦٨٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٩- ١٧٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦- ٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥- ٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٧١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٨٢)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٧٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ١٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٤) تقدم تخريجه في «سورة ﴿ قٓ ﴾»: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ منسوبًا إلى ابن الزِّبَعْرَى، وأبي العلاء المَعَرِّي.

وهذه الأقوال كلها حق، وقد يعمُّ المعنى ما هو أشمل وأوسع، وهو أمر الإسلام والنبوة والوحي والغيب والآخرة والحساب والجزاء.. فهي عندهم نبأ عظيم يختلفون حولها ويتساءلون.

* ﴿ٱلَّذِى هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ۝٣﴾:

والاختلاف هنا يحتمل أمرين(١):

- **الاختلاف بين المُكذِّبين والمُصدِّقين**، وهذه سنة الله في العباد: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ۝٤٥﴾ [النمل: ٤٥].

- **الاختلاف في تشخيصهم للرسول ﷺ، ووصفهم إياه**، فمنهم مَن قال: ساحر. ومنهم مَن قال: مجنون. ومنهم مَن قال: يريد الدنيا. ومنهم مَن قال: شاعر، ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ۝٣٠ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١﴾ [الطور: ٣٠- ٣١].

ذكر الله تعالى تساؤلهم واختلافهم، وسمَّى الموضوع الذي تساءلوا حوله بـ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، **وهذا يقودنا إلى قضية التساؤل والاهتمام، وكيف يجب أن يكون؟**

١- الموضوع؛ بمعنى هل يستحق موضوعٌ ما أن يتساءل الناسُ عنه؟

والذي ينبغي في ذلك أن يُراعَى صدق الموضوع، فيكون جديرًا بأن يبحثه الناس، أو يتساءلوا عنه.

ولو نظرتَ إلى واقع المسلمين، بل بعض خاصتهم من الفقهاء وطلبة العلم والدعاة؛ لوجدتَ كثيرًا مما يشتغلون به من الأنباء والحوادث والقضايا، لا يستحق هذا الجهد.

وهذه مشكلة تتصل بقصور في الجانب التربوي؛ فالكثير من المعارك

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١١٢- ١١٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٧٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠).

والصراعات تدور حول أشخاص أو مسائل وقتية أو هامشية على حساب ما هو أهم، بل حياة المسلمين اليوم أصبحت موبوءة بانشغالات، لا تنفعهم في دينهم، ولا تقرِّبهم إلى الله، ولا تصفِّي قلوبهم، ولا تنفعهم في دنياهم، بحيث تحقِّق لهم التقدم المدني والحضاري، بل هي أفكار وصراعات ومعارك، تشعرهم بالنشوة، وتخلق لهم شعورًا طيبًا بالإنجاز وهزيمة الطرف المقابل، والاحتشاد الوقتي حول قصة وهمية، أو موقف صغير يتم تضخيمه بتكرار الحديث عنه؛ حتى يصبح منفوخًا، وحقيقته: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩].

ولا يلتفت العاقل بعد سنة أو عشر ليتساءل: ماذا جنى وأفاد من الخروج من موقعة أو غزوة للولوج في أخرى؟ مع ما يصاحب ذلك من تغير النيات وقسوة القلوب والعجز عن الإنجاز الحق والبناء والتشييد، والمسألة مرتبطة من وجه آخر بخلل في التفكير ورعاية الأولويات وفقه الموازنات والمقادير.

٢- الاعتماد على المصادر الصادقة، وليس على شائعات أو ظنون أو وسائط مشكوك فيها، فهل سمعوا كلُّهم كلام الرسول ﷺ مباشرة؟

كلا، بل كان بعضهم يصل به الحال أن يضع في أذنه القطن، حتى لا يسمع النبي ﷺ؛ فيصيبه شيء من أثره وفعله في القلوب[(١)].

إن بعض الناس يعتمد في حكمه وتصوره للأمور على وسائط ونَقَلَةٍ يقع منهم التحريف والتدليس والتشويه، ويفقد حياديته واتزانه وبحثه عن الحق لصالح أمر سبق أن قرَّره واعتقده.

والواجب أن يعتمد في تلقِّيه على منهج سليم ونقل مصدَّق، وفق الشريعة، فالحجة: آياتٌ قرآنية ظاهرة الدلالة، أو أحاديثُ نبوية صحيحة مُحْكَمة، ليست

---

(١) ينظر: «طبقات ابن سعد» (٤/ ٢٣٣- ٢٣٤)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٣/ ١٥٦١- ١٥٦٢)، و«تاريخ دمشق» (٢٥/ ١١، ١٣)، و«أسد الغابة» (٣/ ٧٧)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٤٥)، وما تقدم في «سورة القلم»: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾.

ضعيفة ولا مردودة ولا متشابهة، أو وثيقةٌ واضحةٌ فيما يُحكى ويُنْسَب إلى قائله، فلا تكون مزوَّرة ولا محرَّفة.

٣- **قضية الدليل**، أكان دليلًا عقليًّا، مثل استدلالات القرآن على البعث بخلق الإنسان وبإحياء الأرض بعد موتها، أو كان شرعيًّا بإثبات حكم أو نفيه، أو كان منطقيًّا أو حسيًّا... إلخ.

أما الإِلْف والعادة، أو الموروث، أو قول فلان من الناس، فهذا كله ليس بدليل، وإنما ينبغي أن يكون الدليل على نمط ما في هذه السورة، فمثلًا قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾، فهذا نقل صادق قطعي؛ لأنه من الله، ولكنهم لا يؤمنون بالله، وهو دليل عقلي؛ لأنهم يشاهدونه بأعينهم، ولا يملكون نفيه أو نسبته لغيره، إذ لم يَدَّعِ أحدٌ أنه فعل ذلك.

٤- **الفهم**، حيث إن كثيرًا من الناس يعادون أفكارًا، لو سألتهم عنها لحاروا، ولم يعرفوا كنهها!

وقد يكتب أحدهم نقدًا لمسألة لم يفهمها جيدًا، أو كان سمعها ممن حرَّف ودلَّس، فبنى حكمه على تصور خاطئ، كما قال المتنبِّي(١):

وكم من عائبٍ قولًا صحيحًا ... وآفتُه من الفهمِ السَّقِيمِ

ولذا كان العلماء يعتنون في بحوثهم بتحرير محل النزاع والخلاف، بعد بيان ما هو متفَق عليه.

وقد يكون سبب الاختلاف عدم فهم أحدهم للآخر؛ فيتكلم أحدهم عن مسألة، ويتكلم الآخر عن مسألة أخرى، كما يُنسب إلى ابن عطاء الله السَّكَنْدري:

أقولُ له: عمرًا، فيسمعُه: سعدًا ... ويكتبه: حمدًا، وينطقه: زيدًا!

وقد يسمع أحدهم خلافًا، ليس لديه تصور واضح عنه، فينزع إلى أحد الطرفين، دون تحقيق ولا نظر، بل لأول بادرة في ذهنه، أو لأن أحدهم يتكلم بطريقة تعجبه وتناسبه، أو لأنه يعرفه ويعظِّمه.

(١) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص٢٣٢)، و«شرحه» المنسوب إلى أبي البقاء العكبري (٤/ ١٢٠).

٥- المقصد، وأهمية التجرُّد وسلامة القصد:

وكم من جدل وحوار بدأ بنية طيبة، ثم تحول مع الزمن إلى وسيلة للانتصار والغلبة وجرِّ نواصي الخَلْقِ وإذلالهم، أو إظهار التفوق والسيطرة، وقد قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣].

كم هو عدد الذين يتساءلون ويتجادلون بحيادية دون غرض، يبحثون عن الحق بصفاء وتجرد، وأنَّى وجدوه أخذوه! ومَن كان كذلك فإنه يُوَفَّق للخير، وحتى لو لم يُصِبْ في مسألة ما، إلَّا أنه أصاب حسن النية، فهو مأجور؛ لصدق مقصده واستفراغ وسعه في طلب الحق وعدم الصدود عنه، ومعذور في خطئه.

* ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾:

﴿كَلَّا﴾ عند جمهور أهل اللغة كلمة زجر وردع[١]، وهو يعني أن هؤلاء المتسائلين لم يكونوا أهل تحرٍّ وبحث عن الحق، وإنما تساءلوا تساؤل المكذِّب أو الملبِّس أو المشوِّه أو المُعرِض، ولهذا عاتبهم تعالى في مطلع البيان، والتكرار من أجل التوكيد[٢].

ولا يعني أنه ليس ثمة معنًى آخرُ، وإن كان التوكيد نفسه معنى؛ لأنه دعوة إلى منح الأمر أهمية مضاعفة.

قال بعض المفسرين: إن ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾: عذاب الدنيا، و﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾: عذاب الآخرة[٣].

وعذاب الدنيا حصل لهم في معركة بدر، حينما قُتِلوا وسُحِبوا إلى القَلِيب[٤]،

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفرَّاء (٥/ ٢٢٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٢).

(٢) ينظر: «الصناعتين في الكتابة والشعر» (١/ ١٩٣)، و«تفسير البيضاوي» (١/ ٤٣٨)، و«همع الهوامع» (٢/ ٥٩٤).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ٨)، و«البرهان في علوم القرآن» (٤/ ٢٨٢).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٩٧٦)، و«صحيح مسلم» (٢٨٧٤، ٢٨٧٥).

وأُتْبِعوا لعنة، ويوم القيامة بئس الرِّفْد المرفود.

وقريب منه أن يقال: **إن الأولى** إشارة إلى أن كثيرًا منهم سيعلم أن الله تعالى سينصر دينه ويعزُّ رسوله ﷺ، وأن مكة سوف يرثها القومُ الذين هم الآن مستضعَفون بها، حتى إن بلالًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصعد على الكعبة ويؤذِّن، وقد علموا هذا ورأوه عيانًا بعد سنين.

فهي كقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٨٧-٨٨]، أي: سيعلمون نبأ الإسلام، ونبأ القرآن، ونبأ النبي ﷺ، وما سيكون له من رفعة الشأن وظهور الدين وكسر شوكة أعدائه، ثم يعلمون عند ما يُبعثون صدق ما أخبر به(١)، وأن الميزان هناك ليس ميزانهم المادي، بل ميزان قسط يثقل فيه أمثال صُهيب وبلال وعَمَّار وسلمان وسُمَيَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ويطيش أكابر المجرمين وزعماء المكذِّبين، كأبي جهل وأبي لهب وساداتهم الذين ماتوا على الكفر، **وهذه هي الثانية**.

و﴿ثُمَّ﴾ تُستخدم للترتيب الزمني، بمعنى عطف المتأخِّر على المتقدِّم، كما هنا لأنهم سيعلمون في الدنيا، ثم يعلمون في الآخرة.

ما السر وراء تهديد الله لهم؟

هو أن يحملهم على النظر إلى الموضوع بجِدٍّ، وكأنه يقول لهم: انظروا.. تفكَّروا.. تدبَّروا.. تأمَّلوا: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ [الطارق: ١٣- ١٤]، إنه جدٌّ لا لعبَ فيه، فهو يقصد تحفيزهم وحملهم على أن يتأمَّلوا، ويتدبَّروا، وينظروا، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

من المسلمين اليوم مَن عزبوا وغفلوا عن آيات القرآن التي تدعو إلى التفكر والتعقُّل والبحث المتجرّد والنظر، بل ظن بعضهم أن الدين ينافي استخدام

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٠/ ١٥٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٣/ ٣١٠).

العقل، وأصبح العقل مسبَّة عند آخرين، وربما كان ذلك بسبب الخلط بين العقل والهوى.

والتهديد المبطن ليس هو الأسلوب الأوحد ولا الأول الذي جاء في القرآن، فهناك التعليم والترغيب وإثارة الأسئلة، وتحريك العواطف.

ومن أعظم الخطأ أن يعتمد الناس والمربُّون والآباء والدُّعاة على أسلوب التهديد والتخويف وحده، ويُغفلون الحديث عن الرحمة وزرع الثقة بالمستهدفين وإعطاء الأهمية لهم، وهي خير ما يقودهم إلى الحق، **وإنما يكون التهديد والترهيب في أحوال؛ منها:**

١- أن يكون أسلوبًا ضمن أساليب أخرى يكمِّل بعضها بعضًا.

٢- أن يكون لقوم أفرطوا وأمعنوا في الإهمال وعدم المبالاة وترك الانصياع، و«آخرُ الدواء الكَيُّ».

٣- أن يكون في حالات خاصة يحتاج المرء فيها إلى تحريك الخوف لترك معصية أو مخالفة شهوة.

* ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾:

السياق استفهام يحفِّز العقول على التفكير، والمعلومة قد تُقدَّم للإنسان جاهزة فيأخذها تقليدًا، أو لا يلتفت إليها بالكلية، فإذا جاءت مصوغة في قالب سؤال، كانت دعوة إلى المشاركة في صياغة الجواب وتوظيف القدرة الذهنية واستحضار المعلومة السابقة.

ولم يقل: «ألم نخلق الأرض»، وإنما عبَّر بـ«الجعل»؛ لأن الله خلقها ولم تكن مهادًا، ثم جعلها مهادًا بعد ذلك، فالمهد والبسط جاء متأخِّرًا.

ويعزِّز هذا: قوله تعالى في «سورة النازعات»: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾﴾ أي: بعد خلقها دُحِيَت، وبُسِطَت، ومُهِّدت، وجُعِلَت قابلة للحياة.

وظاهر السياق أن الأرض خُلِقَت قبل السماء؛ لأنه لما قال: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾﴾، والليل والضُّحى

يكون في الأرض؟! ففيها إشارة إلى أن خلق الأرض كان سابقًا.

وهكذا هنا، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾ أي: خُلِقَت أولًا، وكانت غير ممهَّدة، ثم بعد ذكر خلق السماء عاد السياق إلى الأرض؛ ليبيِّن جعلها مهادًا(١).

الأرض مهد للإنسان، وهي في مقام الأم الرَّؤوم، كما قال الشَّابيُّ(٢):

وقالتْ ليَ الأرضُ لمَّا سَألْتُ: أَيَا أمُّ هل تكرهينَ البَشَرْ؟!
أُباركُ في النَّاس أهلَ الطُّموح ومَن يستلذُّ ركوبَ الخَطَرْ
ومَن يتهيَّبْ صعودَ الجبال يَعِشْ أبدَ الدَّهرِ بين الحُفَرْ

وفي الآية إشعار بالبعث؛ لأن هذه الأرض التي هي مهاد لهم وهم أحياء، هي مهاد لهم وهم أموات؛ حيث يُدفَنون فيها، ثم يُبعَثون منها، ولهذا سمَّاها الله تعالى مستودَعًا، تُودَعُ أجسادُهم وعظامُهم فيها، ثم تؤدِّي ما استُودِعَت.

فهذه إشارة تمهيدية عابرة تهيِّئ العقل لقبول ما بعدها، وهذا من لطيف العلم، كما يقول بعض أهل العلم في تحريم الخمر: إن قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، إيماء غير مباشر إلى منع الخمر؛ لأنه فرَّق بين السَّكَر والرزق الحسن، فجعل السَّكَر شيئًا مغايرًا للرزق الحسن(٣).

فإنَّ جَعْل الأرض مهادًا مشعرٌ بخروجهم من المهد إلى البعث.

جعل الله الأرض مهادًا بالعيش فيها، والمشي عليها، والبناء، وجعلها مستعدة لتحمل تكاليف وجود البشر، كما ترى في رصف الطرقات وحفر الأنفاق والبناء الشاهق وأنواع الاستخدامات التي سخَّر الله الأرض لها.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾: الجبال من الأرض، وإنما خصَّها؛ لأن لها مهمة أن تكون أوتادًا للأرض، وهذه الآية الوحيدة التي وصف الله تعالى فيها الجبال بالأوتاد، ومن

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة النازعات».

(٢) ينظر: «ديوان أبي القاسم الشابي» (ص٩١).

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٢/ ١٤١)، و«الدر المنثور» (٥/ ٤٦٧)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١/ ١٥١- ١٥٢)، و«التفسير المنير» للزحيلي (٢/ ٩٢)، و«التفسير الواضح» (٢/ ٣٢١).

معاني كونها أوتادًا: أنها تثبِّت الأرض أن تميد وتضطرب، فهي تحفظ توازنها[1].

ومن إقحام المعاني الغريبة: الاستدلال بالآية على أن الأرض ثابتة لا تدور، والله تعالى قال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وسواء كان هذا في الآخرة، كما يدل عليه السياق[2]، أو في الدنيا، كما يدل عليه اللحاق ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، فهو يدل على أن الحواس قد يقع لها انخداع وترى الأشياء على غير حقيقتها، فالاستدلال بظواهر الحس على الحقائق العلمية مضلِّل.

* ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾﴾:

اختلف السياق هنا من الاستفهام إلى الخبر، وهو مقصود في تغيير رتابة السؤال؛ لأنه مع الطول يُؤْلَف فيحتاج إلى تنويع، كما في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ١- ٢]، ولم يقل: «ألم نضع»؟

وفي الآية إشارة إلى جواب السؤال، **وكأن المعنى**: قد جعلنا الأرض مهادًا، والجبال أوتادًا؛ ولذلك عطف سبحانه وقال: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: أصنافًا وأنواعًا وأشباهًا، فهناك الذكر والأنثى، وهذا سرٌّ من أسرار الألوهية؛ لأن الزوجين مختلفان، فالذكر غير الأنثى، ومع ذلك فخَلْقُهما في غاية الحكمة والرحمة والإبداع؛ وما كان الرجل ليشعر بسعادة الحياة وهنائها لولا المرأة، ولا المرأة تشعر بكمال سعادة الحياة لولا الرجل، فجعل تعالى الأنثى تحنُّ للذكر، والذكر يحنُّ للأنثى، كما قال: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

ولا يصح حصر الأزواج من الخلق في جنس الرجال والنساء، بل يشمل أجناسًا كثيرة من المخلوقات، ولذلك يقول تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٩)، و«الكشاف» (٢/ ٥٩٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٢)، وما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٤/ ١١٧)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٢٧٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (٧/ ١٨٦)، و«روح المعاني» (٨/ ٢٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٠/ ٥٠)، و«أضواء البيان» (٧/ ٥١٠).

[الذاريات: ٤٩]، أي: في الألوان، وفي الأعداد، وفي الأحوال(١).

ومن ذلك: الغنى والفقر، ويقابله: الشكر والإحسان للغني، والصبر والرضا للفقير.. والصحيح والمريض.. والقوي والضعيف.. والمأمور والأمير.. والعالم والجاهل.. والذَّكي والبَلِيد...

وهذا التنويع موجِب للشكر لمَن فضَّله الله على غيره، ومقتضٍ للصبر؛ فالإنسان إذا ابتُلِي بمصيبة، أو آفة، أو عاهة، أو فقر، أو مرض؛ عليه أن يصبر ويؤدِّي عبودية ما هو فيه.

وهو مدعاة للإحسان: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، إذ جعل الله تعالى بين العباد التعاون؛ لأن التعاون بين الضدَّين يُوجِد حالة من الانسجام في الحياة، تستقيم الحياة بها.

وهو مَدْرَجٌ إلى التكامل، فهذا يبني، وهذا يصنع، وهذا يزرع، وهذا يتعلَّم، وهذا يفكِّر، وهذا يكتب، وهذا يقرأ، فمن خلال مجموع هذه الأعمال يوجد تكامل رائع في الحياة، وهو من أسرار الصنعة الإلهية.

والتعبير بصيغة الماضي إشارة إلى تقرير المسألة وبدهيتها ووضوحها للمخاطبين؛ لأن منهم مَن لا يتأمل السماء والأرض والجبال، لكن الزوجية قضية ضرورية يعايشونها في ذاتهم ويرونها فيمَن حولهم، فهي مما لا يحتاج إلى استدلال، بل هي نفسها دليل وحجة.

* ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ⁽٩⁾﴾:

أضاف النوم إلى الناس؛ لأنه لا يغني فيه أحد عن أحد، فكل إنسان يحتاجه، ولو أن في الناس مَن لا ينام مطلقًا، لشعر بالحرمان والنقص والعَطَب والخلل؛ فالنوم ضروري لا غنى عنه، ولا حياة لمَن حُرِمه.

وقد ذكر الأطباء مدة معينة إذا عاشها الإنسان دون نوم فإنه يصاب بالإجهاد

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٤٧)، (٢٤/ ٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٧٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٧١)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٧).

ثم الهلوسة ثم يموت؛ إذ لا بد لهذا الجسم أن يأخذ حقَّه من الراحة والاسترخاء، وقد أشار إلى هذا المعنى ابن حزم في «طوق الحمامة»[(١)].

لم يقل الله: «ليلكم»؛ لأنه سيأتي في الآية التي بعدها، ولأن الليل ليس خاصًّا بالإنسان، بل المخلوقات على الأرض يتلبَّسها الليل، حتى إن إحدى الشركات في اليابان وضعت إعلانًا مضيئًا في وسط مزرعة، فاكتشف المُزارع أن زرعه تأثر بهذه الإضاءة الليلية، فرفع عليهم دعوى يطالب فيها بالتعويض عما لحق زرعه، ودخل النزاع في مرحلة من البحوث العلمية، وكانت النتيجة العجيبة أن هذا الإعلان المضيئ قد أقلق راحة النبات؛ لأنه يؤرِّقه بالليل، وهي فترة راحته، وتبيَّن أنه حتى النباتات تحتاج إلى فترة إظلام معينة، وأن توزيع النبات على ظهر الأرض ليس تابعًا للرطوبة والجفاف، والحرارة والبرودة فحسب، ولكن تابع كذلك لطول الليل والنهار، أما النوم فهو للأرواح[(٢)].

يقول أهل اللغة: السُّبات هو: القطْعُ[(٣)]، أي: أن النوم يقطع حياة الإنسان الرتيبة؛ لأن الإنسان في النهار يعمل ويكدح، وربما يصاب بأمراض جراء ضغوط العمل والحياة، وقد ينام المرء على تعب وعناء ويصحو على سكينة وراحة وهدوء وسعادة.

ومن معاني السُّبات: أن النوم يأخذك بالقهر والقوة، حتى الجبابرة والسلاطين يأخذهم النوم أخذًا، ثم يرمي بهم في مهاجعهم، حيث النَّفَس يتردد، بلا حسٍّ ولا إدراك، ولا يسمع أحدهم السؤال، ولا يردُّ الجواب، ولا يعي ما حوله، وهذه أعجوبة، **أما كيف يتم النوم؟** فهو سرٌّ من الأسرار الإلهية.

والنوم نفسه يخلُد فيه الإنسان إلى عالم آخر مستقلٍّ، فيه أحلام ورُؤى، وأحوال غريبة؛ فالنائم يسافر ويطير، ويكتب ويمضي عقودًا، ويهادن ويحارب، ويرى الموتى أحياء، والأشياء على غير مألوفها.

---

(١) ينظر: «طوق الحمامة» (ص٣٠٧).

(٢) ينظر: «دراسات قرآنية» للأستاذ محمد قطب (ص١٥٩).

(٣) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣٩٢)، و«القاموس المحيط» (١/ ١٩٥)، و«لسان العرب» (٢/ ٣٦)، و«تاج العروس» (١/ ١٠٩٤) «س ب ت».

وقد جعل اللهُ تعالى النوم أَمَنَةً، كما قال: ﴿ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ ﴾ [الأنفال: ١١]، حتى كان السيف يسقط من يد الصحابي مرارًا من شدة النُّعاس، ثم يصحو، فإذا به قد استعاد قوته ونشاطه[١]، فالنوم يقطع عن الإنسان التعب والإجهاد والإعياء، ويعيد له قوته وحيويته، وكأنه يضخ فيه طاقة روحية جديدة.

والعلماء يسمون النوم: الوفاة الصغرى. أخذًا من قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢].

وقد جعل الله تعالى النائم قابلًا للاستيقاظ من ذاته أو من غيره، بخلاف الحالات الاستثنائية، كما في قصة أصحاب الكهف: ﴿ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ﴾ [الكهف: ١١].

فمن معنى جعل النوم سُباتًا، أنه يقبل القطع، ويكون بقدر حاجة الإنسان.

والنوم ضرورة من ضرورات صحة البدن، ولا يزال العلماء يؤكِّدون أن الإنسان يدفع ثمن قلة النوم أو اضطرابه من صحته وحياته؛ بسبب الإجهاد، وضعف التركيز، وهَرَم الذاكرة والنسيان، والتأثير في الاستقرار العاطفي والنفسي، فيكون نقصه سببًا لسرعة الانفعال والغضب، كما يؤثِّر على خلايا المخ، فعلى الإنسان أن يأخذ القدر الكافي من النوم، وهو يختلف من شخص لآخر، ولكن غالب الناس يحتاجون ما بين ستٍّ إلى ثمانِ ساعات، من أجل المحافظة على حيويتهم وقوتهم ونشاطهم، وتجنب التعرض للأزمات النفسية أو القلبية، وإذا قسمها الإنسان بين الليل والقيلولة كان أنفع، وهو ما كان يفعله النبي ﷺ.

ونوم الليل أفضل من نوم النهار، وبعض العلماء يقولون: نوم ساعة واحدة في الليل أفضل من ساعتين في النهار؛ لأن الليل مناسب بهدوئه وصفائه للاسترخاء،

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٠٦٨، ٤٥٦٢)، و«صحيح مسلم» (١٨١١).
وينظر: «تفسير الطبري» (٦/ ١٦١- ١٦٣)، و«زاد المسير» (١/ ٣٣٧)، و«تفسير القرطبي» (٤/ ٢٤٢)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٢)، و«التحرير والتنوير» (٤/ ١٣٣).

وأخذ قسط من الراحة، واسترخاء ساعة في الليل يعادل نوم نصف ساعة حتى لو لم يستطع أن ينام!

* ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ١٠﴾:

فهو لباسٌ للأرض، أشبه ما يكون بالثوب أو الجلباب الذي تلبسه الأرض.

وهو لباس للإنسان ذاته، يمنحه قَدْرًا من الهدوء والسكون، وأكثر الناس لا يجدون الراحة إلا في الليل، ففيه من لحظات الأنس، والسمر، والجلسات الممتعة ما ليس في النهار.

وصف الله الليل بالسَّكَن ووصف العلاقة الزوجية بالسَّكَن: ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ [الروم: ٢١]. والمرأة أشبه بالليل، سترًا وروحانية وعاطفة، والرجل أشبه بالنهار، ظهورًا وتجليًا ودأبًا واحتمالًا، وفي الحياة تناسق رائع بين مهمات الرجل ومهمات المرأة، وطبيعة كل منهما، فالزوجية تتجلَّى في الليل والنهار، وفي السماء والأرض، كما تتجلَّى في الذكر والأنثى؛ ولذا أقسم الله بذلك كما في «سورة الليل».

والليل غالبًا ملتقى الحياة الزوجية ومستراحها بعد الفراق والعناء والسَّبْح الطويل مع الناس.

ذكر القرطبي في «تفسيره» أن بعض المغفَّلين قال: ما دام الليل لباسًا، فللإنسان أن يصلِّي فيه وهو عُريان؛ لأن الليل بحدِّ ذاته يغني عن اللباس[1].

وهذا من أقوال أهل الغفلة، فكون الليل لباسًا فيه معانٍ متعدِّدة، لكنه لا يغني عن اللباس الحسِّي الذي امتنَّ الله به على الناس، كما قال سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشًاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقد جاء عن النبي ﷺ: «**اللهُ أحقُّ أن يُستحيا منه**»[2].

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٠٣٤، ٢٠٠٤٠)، والبخاري (١/ ٦٤) معلقًا، وأبو داود (٤٠١٧)، والترمذي (٢٧٦٩)، وابن ماجه (١٩٢٠)، والحاكم (٤/ ١٧٩) من حديث بَهْز بن حَكِيم، عن أبيه، عن جده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والناس ينقطعون في الليل غالبًا عن الخروج، ويأوون إلى بيوتهم أو حقولهم، ويجتمع شملهم على طعامهم وشرابهم ونومهم، فتكون المساكن كاللِّباس لهم.

وبعض الناس عكسوا الحال، فجعلوا الليلَ نهارًا، والنهارَ ليلًا، على أن غالب الأمم يهجعون أول الليل إلى مضاجعهم ويأوون إلى بيوتهم، ويقومون مبكرين إلى أعمالهم ومصالحهم.

حين يشرق الصباح يصحو الكون ويتهيَّأ ليوم جديد، فلتكن روحك متطلِّعة لهذا الصباح الجميل، قانعة راضية متفائلة بعطاء الله الكريم، داعية بالخير للعباد.

* ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾:

كرَّر «الجعل»، ولم يقل: «والنهار معاشًا»؛ لأن الآيات قصيرة، ولا يلائم أن تقتصر على مفردتين.

وفيه بيان أن الاستفهام في ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾ تقريري للإثبات؛ ولذا عقَّب عليه بفعل ماضٍ يدل على حصول الفعل، وعلى الفاعل وهو الله تعالى.

وفي الآية تكرار التذكير بالنعمة واستحضارها؛ لأن الإلف يُنسي النعم، فهذه الشمس التي تشرق كل يوم ثم تغيب، لا يدرك الناس قيمتها؛ لاعتيادهم عليها، وكذلك مَن يعيشون في المناطق الخضراء الممطرة، لا يلفت نظرهم ما فيها من الجمال الأخَّاذ مما يلفت نظر غيرهم، وكذلك أهل الصحراء والرمال أو السواحل والبحار..

﴿وَجَعَلْنَا﴾ فيه تأكيد الردِّ على مَن لا يؤمنون بالصانع سبحانه من الدهريين والطبائعيين، كالمانوية الذين يجعلون آلهة للنور وآلهة للظلام... فالآيات تدحض هذه المقولة، وتبين أن الفاعل هو الله وحده لا شريك له، وأنه خلق النور والظلام، كما قال المتنبِّي(١):

وكم لظلامِ الليلِ عندك من يدٍ تخبِّر أن المانَوِيَّةَ تكذِبُ

وأقرب ما يكون من معنى كلمة «المعاش»: أنه ظرف لطلب العيش، والتصرف

(١) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص٤٦٦)، و«شرحه» المنسوب إلى أبي البقاء العكبري (١/ ١٧٨).

في شؤون الرزق[1]، وهذا ظاهر في حال أكثر الأمم والشعوب.

* ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾:

البناء يدل على القوة: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، **والأيد** هنا: القوة[2]، فالله تعالى هو الذي بنى الكون كلَّه، ومن ذلك السماء ﴿فَوْقَكُمْ﴾ شيء ترونه وتشاهدونه في عُلوِّه وشموخه، والبناء كلما ارتفع وعلا فإنه يدل على قدرة الصانع، وفي القديم كان الناس يتفاخرون بالمباني الشامخة العظيمة، ولا زالوا يتفاخرون بناطحات السحاب، والمباني الضخمة، ولذلك جاء السياق يمتنُّ عليهم، ويذكِّرهم بالقدرة الإلهية في بناء السماء التي لا يتصوَّرون سعتها وأبعادها، والإنسان يرى النجوم حوله تلمع، لكنه لا يدري أنها ذرات في مجرات تسبح في فضاء واسع لا يحيط به إلا الله.

وهذا ليس بحديث خرافة وتَخَرُّص، بل هو صنع الله العظيم، والمتخصِّصون في علم الفلك يشاهدون من خلال المكبِّرات في هذه القبةَ الزرقاءَ ونجومها وشموسها وأقمارها ومَجَرَّاتها أشياء هائلة تُذهِل العقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]، ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة: ٧٥- ٧٦].

والمراد: السماوات السبع، وصَفَها بالشدَّة؛ لكونها قويةً مُحْكَمةً مُحَصَّنةً، بحيث لا تستطيع الشياطين ولا البشر أن يصلوا إليها؛ فإن كل إمكانيَّات البشر وقدراتهم وحديثهم هو عما دون السماء الأولى، وإلا فالسماوات التي بناها الله تعالى فوق ذلك، لا يصل إليها علم البشر ولم يحيطوا بها علمًا.

وعامة البشر يؤمنون بأن فوقهم سبعَ سماواتٍ، وهذا مألوفٌ وموروث ثقافي عند معظم الشعوب، وقد جاء في القرآن: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٩)، و«الكشاف» (٤/ ٦٨٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨٨).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٢١)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٥٤٥)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٩٧) «أ ي د»، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤١١).

مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ [نوح: ١٥].

والآية وما شاكلها دلالة على أن فوقنا سبع سماوات، وأنها طِباق- أي: بعضها فوق بعض- وهذا هو المقصود في الآية، وهو الذي عليه جمهور المفسرين[١].

وقال الشيخ الطاهر ابن عاشور: «يجوز أن يُراد بالسبع: الكواكب السبعة المشهورة بين الناس يومئذ، وهي: زُحَل والمشترَى والمريخ والشمس والزُّهَرة وعُطارد والقمر».

وقال: «وهذا المحمل هو الأظهر؛ لأن العبرة بها أظفر؛ لأن المخاطَبين لا يرون السماوات السبع، ويرون هذه السيَّارات ويعهدونها دون غيرها من السيَّارات التي اكتشفها علماء الفلك من بعد»[٢].

والأقرب هو ما ذهب إليه الجمهور أن المقصود سبع سماوات، كما في مواضع أخرى، وكون الناس لا يعرفونها بالرؤية؛ فإن الله تعالى يعرِّفهم بها، ويحتج عليهم بالقدر المعروف والمشهور منها.

والقرآن الكريم حجة على الناس في كل زمان ومكان، وفي العصور السابقة لم يكن عندهم إلمام ومعرفة بهذه المَجرَّات الهائلة، والمدارات الفلكية المُذهِلة، وهذا البعد الذي تدور منه الرؤوس، وكلما تقدَّم العلم، زاد فَهم الناس وتعمَّق لبعض الألفاظ ودلالاتها.

وأمام البشر فرص ضخمة لمزيد من الكشوف الفلكية والاستدلال على وجود العوالم العليا، وها هم علماء الفلك قاموا أخيرًا بطرد الكوكب (بُلوتو) من المجموعة الشمسية، ليصبح عدد كواكب المجموعة الشمسية ثمانية.

* ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾:

ذكر الشمس دليل على أن المقصود السماوات السبع وليس الكواكب؛ لأن

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١١٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٣١٤)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٥٦).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣).

الشمس هي أحد النجوم السبعة، **فالأقرب** أنه بعدما ذكر السماء ذكر بعض ما في السماء، وهي الشمس.

ولم يذكر اسم الشمس اكتفاءً بما هو معلوم، وسمَّاها: ﴿سِرَاجًا﴾؛ لأنها تضيء الكون، فهي مصباح ضخم هائل أكبر من الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة، كما يقول الفلكيون، ومع ذلك يراها الرائي بسبب بُعدها بهذا الحجم الصغير، وهي معلقة في الفضاء، لا يمسكها إلا الله سبحانه بسننه ونواميسه التي تجري في سائر الأفلاك.

والوهَّاج: المتوقِّد، ففي الشمس إنعام آخر بالإنضاج والحرارة، والحرارة هي إحدى النعم العظيمة في الكون، والتي تسهم في حفظ الحياة والإنسان والنبات وتحقيق البيئة المتوازنة(١).

* ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾:

هذا له علاقة بالشمس؛ لأن الشمس هي أحد أسباب تبخُّر ماء البحر؛ ليكون مطرًا وغيثًا.

وفي قوله: ﴿وَجَعَلْنَا﴾.. ﴿وَأَنزَلْنَا﴾.. ﴿وَبَنَيْنَا﴾ صياغات تشعر بتمام القدرة وكمال التصريف الإلهي وراء كل شيء، فهذه الأشياء العادية التي يمرُّ بها الناس وهم عنها معرضون، ينبغي أن ينظروا فيها بروح أكثر حيوية، وأكثر إيمانًا، وأكثر استحضارًا لقدرة الخالق المبدِع الرحيم الكريم سبحانه.

والإنزال إشعار بأن كل قطرة تنزل من السماء هي بقَدَر: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، وهي رحمة وحكمة، وكل شيء بحسبان؛ ولذا يقول العلماء: إن كمية المطر النازل إلى الأرض هو بقدر كفاية الناس، فهو موزون ومخزون، ولكن العبث البشري يؤثِّر على المطر كما يؤثر على البحر وعلى اليابسة وعلى البيئة كلها،

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٥١)، و«دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (٢/ ٦٨٤)، و«الكشاف» (٤/ ٦١٨)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٠٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٨٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٨٣).

وهو جزء من الفساد في الأرض الذي نهى عنه القرآن وشنَّع على مرتكبيه.

واختُلِف في تفسير ﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ على أقوال[1]:

هل هي: الرياح، أم: السماء، أم: السُّحب؟ **وهذا قول الأكثرين.**

وفي الآية تشبيه بليغ؛ لأن «المُعْصِر» عند العرب هي الجارية قُبَيْل بلوغها، أي: آن لها أن تحيض ولم تحض بعد، فيقال: هذه جارية مُعْصِر[2]، شبَّه السَّحاب هنا بالجواري، فهو يخلع على السحاب روح الحياة، وما لها لا تكون حية، ومنها ينزل الغيث الذي يُحيي الله به الأرض بعد موتها، والسُّحب ورد وصفها بالجارية في موضع آخر من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ [الذاريات: ٣].

وصف المطر بأنه ثجَّاج، أي: يُصَبُّ صبًّا بدفق وقوة[3]، وفيه دليل على الحكمة الإلهية في تصريف الكون، وتحريكه، ولذلك تُسمَّى الأرض بالكوكب الأزرق، لأن أكثر من (٧١٪) من مساحتها ماء.

وهذا الماء يصعد من البحر إلى السماء، ثم يعود إلى الأرض، ويقال: إن ما ينزل من المطر كل سنة يكاد أن يكون متساويًا، ويُروى حديث: «**ما عامٌ بأمطرَ من عامٍ، ولكِنَّ اللهَ يصرِّفُه حيث يشاءُ**»[4]. فهذه حكمته سبحانه، أنه يُنزِلُ من هذه

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١١- ١٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٨٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١١٩- ١٢٠)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٠٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ١٩٣- ١٩٦).

(٢) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١٢١)، و«الكشاف» (٤/ ٦٨٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٧٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٨٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٥)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٧٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٦).

(٤) أخرجه العقيلي (٣/ ٢٢٨)، وابن حبان في «الثقات» (٨/ ٤٦٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٢٠٨)، وابن مردويه- كما في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٤٦٤)- والبيهقي (٣/ ٣٦٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، وقال الذهبي في «الميزان» (٣/ ١٢٦): «منكر... غريب جدًّا».

وأخرجه موقوفًا: الفسوي (٣/ ٣٧٧)، وابن أبي الدنيا في «المطر والرعد والبرق» (٧٦)، وابن وضَّاح في «البدع» (٧٦/ ٢٢٩)، والطبري (١٤/ ٤٠)، (١٧/ ٤٦٩)، والعقيلي (٣/ ٢٢٨)، وابن أبي زمنين في «أصول السنة» (١٠)، وأبو عمرو الداني في «الفتن» (٢١٣، ٢١٤)، والبيهقي (٣/ ٣٦٣).

ورجَّح الموقوف غير واحد. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٤١٣١، ٤٤٦٠).

السماء الماء الثجَّاج الذي يُصَبُّ بقوة.

وفيه معنى الكرم، والعطاء الذي يُصَبُّ على العباد صبًّا، ومع أنه محسوب، وكل قطرة بإرادة الله، إلا أنه عطاء جزيل، وهذا أقوى ما يكون حجة على الناس، فهم يرون الأرض يابسة، فإذا نزل عليها المطر ﴿ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج: ٥]، والعرب خاصة يعلمون هذا؛ لأن حياتهم تقوم غالبًا على الرعي والمطر والغيث، فيمتنُّ الله تعالى به عليهم.

* ﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ١٦﴾:

﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ﴾: عبَّر بالفعل المضارع؛ إشارة إلى الحركة التدريجية في النبات، فالنبات لا يأتي دفعة واحدة، بل يتكون شيئًا فشيئًا، لذا قال: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا﴾ [الأنعام: ٩٩].

والحَبُّ هو: القمح والحنطة والشَّعير(١)، ونحوه مما يأكله الناس، والغالب أن الحبَّ يكون أقواتًا للناس، مع أن الحيوان يستفيد منه أيضًا، وبدأ به؛ لأنه من الضروريات التي لا غنى للإنسان عنها، وكل شعب في الأرض تتكون وجبته الرئيسية من الحب.

والمقصود بالنبات ما يكون أخضر، فيشمل طعام الإنسان من الخضراوات والبقول، ويشمل طعام الحيوان من الأعلاف وغيرها.

ثم ذكر «الجنَّات»، وهي الأشياء التحسينية التجميلية للحياة، وتدخل فيها الفواكه، **والجنة** هي البستان الذي تكثر فيه الأشجار، ولهذا وصفها بقوله: ﴿أَلۡفَافًا﴾ أي: ملتفٌّ بعضها فوق بعض(٢).

حينما يرى الإنسان مظاهر الإبداع في خلق الكون يجد عجبًا، ولذلك فإن الزُّرَّاع أكثر تديُّنًا وصلاحًا واستعدادًا لقبول الحق والفطرة ممن يتعاملون مع

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٦)، و«الهداية الى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٩٩١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٤)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩﴾.

الآلة؛ لأن الذي يتعامل مع الأرض حرثًا وزرعًا، ويراقب الصنعة الإلهية بشكل مباشر، يرى آثار هذه الصنعة والإبداع، فيقوى إيمانه ويزيد تواضعه، في حين أن الذي يتعامل مع الآلة يتعامل مع شيء من صنع الإنسان؛ فيغلب عليه النظر إلى إنجاز الإنسان وإبداعه ويذهل أن مبدِع الإنسان هو الله جل وعز، فهو خالق عقله وقدرته وإمكانيَّاته، وهو خالق الأمم والحضارات والأكوان، ومسخِّر الآلة والمادة وواضع نواميسها وقوانينها.

وفي الآية إشارة إلى ملحظ الجمال، وهو مقصود في صنع الله تعالى، ففي السماء تلحظ القوة والشدة، والبعد والارتفاع، كما تلحظ الجمال في النجوم المتلألئة، وكأنها تتناجى في هذا الليل المظلم، ولو نظر الإنسان إليها عبر المكبِّر، أو في الصور الوثائقية أو العروض الفضائية؛ أو التقنيات ثلاثية الأبعاد؛ لرأى شيئًا يذهل ويدهش.

وهذا كله مما امتنَّ الله به على عباده في هذه الدار، وسخَّره لهم، ورزقهم إياه، وجعل به قوام الحياة إلى أجل مسمًّى، وعلى المرء أن يحسن الانتفاع به، ولا ينشغل به عما هو أهم وأعظم.

* ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ١٧﴾:

وعادةً ما يعقد الله تعالى المقارنة بين إحياء الأرض بالنبات، وبين إحياء الإنسان بالبعث، كما في سور: ﴿قٓۚ﴾، والأنعام، ويونس، والحج.

وفي هذا السياق ذكر المطر، وأنه يحيي الأرض بعد موتها، ويجعل منها جنات ألفافًا؛ فناسب أن يبين أنها جنات عابرة تذبل وتموت، وعلى الإنسان أن يستعد لجنات الآخرة، ولذا ذكَّرهم بالبعث وخروجهم من قبورهم.

لم سمَّاه: يوم الفصل؟

١- لأنه حقٌّ لا ريب فيه، ومَن كذَّب به فهو في ضلال بعيد، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ [الطارق: ١٣- ١٤]، أي: لقولٌ حقٌّ، وليس بالكذب والهزل، فهو اعتقاد يقيني قطعي لا تردد فيه من جهة النقل ولا ريب فيه

من جهة العقل.

٢- لأنه يَفْصِل بين الناس فيما كذَّبوا به، وهو الذي ينهي جدلهم ونزاعهم، ويفصل القضية بالحق الذي يرونه بأعينهم، وينتقل من كونه خبرَ وحيٍ إلى كونه شهادةَ عينٍ.

٣- لأن الله تعالى يَفْصِل فيه بين العباد في مظالمهم وحقوقهم، ويقتصُّ لبعضهم من بعض، والعدل المطلق لا يُرى إلا إذا وُصلت فصول الحياة بعضها ببعض، والحياة الدنيا ليست سوى الفصل الأول فحسب، وفي الآخرة الفصل الأكبر والأخير والدائم[١].

ومن الطريف أن الله سماه هنا: فصلًا، بل هو الفصل، والألف واللام قد تدخل على الاسم لتدل على الاستيعاب والأهمية الجوهرية، وكأنه لا «فصل» إلا هو.

وحينما تنظر للدنيا متصلة بالآخرة، فسوف ترى العدل المطلق للحق سبحانه، فلن يهمل الظالمين، ويغفل عنهم، ويترك المظلومين بلا نصرة، فهناك في عَرَصات[٢] القيامة تتكامل فصول العدل، فربما رأيتَ الظالم يموت بعد أن أسرف في طغيانه وتعديه وتمتَّع متاعًا واسعًا دون أن يناله شيء من عقوبة البغي في الدنيا، وربما رأيت آخر مبتلى بالقهر والحرمان وتسلط الظلمة عليه فيموت ولم يقتص ممن ظلمه، فهل هذا مما يناقض العدل الإلهي؟!

كلا! لأن فصول القصة لم تنتهِ بعدُ، فثمة جنة ونار وحساب وعقاب، فيأتي يوم الفصل لتُسْتَكْمَل فيه الأمور، ويُقتصَّ لبعض الناس من بعض، وتكتمل الحكمة الربانية التي لا يراها الناس أحيانًا في هذه الدنيا.

وربما سُمِّي: فصلًا؛ لأن الأمور تُحسم فيه، وثَمَّ نهايتان وطريقان، هما الجنة

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٩/ ٢٠٩)، (١٠/ ٣٧٩، ٣٩٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٢٧٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٢، ٢٥٦)، و«تفسير الرازي» (٢٧/ ٦٦٣)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ١٤٧)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ١٠٦).

(٢) مفردها: عَرْصَة، وهي كل موضع واسع لا بناء فيه.

والنار، أما في الدنيا فثَمَّ آلاف الطرق والمذاهب والأفكار والنظريات والأعمال والخيارات.

والميقات له عدة معانٍ[1]:

١- أن له وقتًا محدودًا، لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]، وقد اختصَّ الله بعلمه، فلم يبلِّغ به مَلَكًا مقرَّبًا، ولا نبيًّا مرسَلًا، فهذا من العلم الذي لا يحيط به إلا الله، ومَن ادَّعى أنه يعلم ميقات يوم الفصل فقد كذب.

وكل الحكايات والأقاويل التي تُنشر في الصحف والأفلام والمواقع، والرُّؤى والتوقعات والحسابات بقيام الساعة ونهاية العالم باطلة: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ [طه: ١٥]، ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧].

٢- أنه اليوم الموعود الذي واعد الله فيه عباده بالفصل بينهم ومحاكمتهم.

وإذا كان يوم الفصل ميقاتًا، فهذا يعني أنه لا جدوى من استعجاله؛ لأنه مؤقَّت بوقت معلوم عند رب العالمين، لا يتقدَّم ولا يتأخَّر لرغبة أحد: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: ١]، ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾ [الشورى: ١٨].

ومن لوازم كونه ميقاتًا، أنه حقٌّ فلا تكذِّبوه؛ لأن الله تعالى أخبر به، وبيَّن أن له وقتًا مضروبًا عنده سبحانه.

وفيه تصبير للمكلومين والمعذَّبين في الدنيا والمقهورين المستبطئين؛ لأن من عادة الإنسان إذا علم أن أمامه موعدًا محدَّدًا، كان أقرب إلى الاطمئنان والسَّكينة.

* ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ١٨﴾:

شرع في ذكر وقائع ذلك اليوم، والإنسان هو المقصود الأول من خلق الكون والحياة؛ ولذا بدأ السياق في الحديث عنه.

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٨٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١٢٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ١٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٤)، والمصادر السابقة.

والحساب والجزاء والسؤال هو لك شخصيًّا، فلا تحسب للآخرين حسابًا، ففي يوم القيامة يهتمُّ كلٌّ بنفسه، حتى الرسل والأنبياء يقول الواحد منهم: «**نفسي**.. **نفسي**». وينسى أهله وقرابته، ويفر من أمه وأبيه وصاحبته وبنيه[1].

والنفخ في الصُّور هو للحياة، **والصُّور**: بوق، أو قرن يُنْفَخ فيه[2]، لكن هيئته وشكله وطوله وعرضه وصفته مما لم نُحِطْ بعلمه، فنحن نؤمن بأن ثَمَّ صُورًا، وأنه يُنفخ فيه، وتشخيص صفة الصُّور أو طريقة النفخ، هي من الغيب الذي لم نحط به علمًا، ولا طائل من البحث وراءها، ونتيجة لذلك تأتي الصيحة الصاخَّة الطامَّة التي يُبْعَث الناس بها من قبورهم.

ولاحظ تسارع السياق: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، حيث عبَّر بالحرف «فـ»، فبمجرد ما يُنفخ فيه يحشر الناس إلى ربهم أفواجًا، أي: جماعات[3]، كل أمة تأتي مع نبيِّها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]، فكل أمة تُدْعَى إلى كتابها، وتُدْعَى مع نبيِّها، المؤمنون مع المؤمنين، والكافرون مع الكافرين؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]، أي: قُرِنت مع أشباهها[4]، فأهل الإيمان مراتب، وأهل الكفر والنفاق مراتب، ويوم القيامة طويل يقع فيه اختلاط الناس حينًا وتمايزهم شيئًا فشيئًا، حسبما تدل عليه النصوص المختلفة الواردة.

* ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾:

هذا مما يقع بعد انبعاث الناس ومجيئهم أفواجًا، **والمعنى**: شُقِّقت ومُزِّقت،

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة المدثر»: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾، وما سيأتي في «سورة عبس»: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾.

(٢) ينظر: «مختار الصحاح» (ص٣٧٥)، و«النهاية» (٣/ ١٢٢)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٥٦٦)، و«تاج العروس» (١/ ٣٠٨١).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٨٧)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٧٥)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٤٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٤١)، وما سيأتي في «سورة النصر»: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾.

(٤) ينظر ما سيأتي في «سورة التكوير».

لتنزل منها الملائكة إلى الأرض للمهمَّات التي انتُدِبوا إليها[1].

والسَّماء من مقاصدها أنها سقف للأرض، إلا أنها ليست مقصورة على هذه المنفعة، فهي عالم آخر وبناء مستقل، ولهذا عبَّر بالبناء، وكما عبَّر عنها في آية أخرى بكونها: ﴿سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، ولم يقل: «سقفًا حافظًا»، أي: محفوظًا عما دونه[2]، فقصارى ما يستطيعه الإنسان هو أن يلحظوا هذه السماء على هيئة السَّقف، وأما ما وراءها فهو محفوظ لا يستطيع البشر أن يلاحظوه إلا بإذن ربهم.

* ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠)﴾، وقال في «سورة التكوير»: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣)﴾:

وهذه إحدى أحوال الجبال؛ أن يأذن الله لها أن تسير سيرًا سريعًا، حتى إنها تمرُّ مرَّ السحاب، وتُرى مثل السَّراب، وقد ورد عن الجبال سبع صفات في القرآن الكريم، هذه أحدها.

وتكون مرةً كالعِهْن، وكالهباء وكالسَّحاب، وتزول كما في قوله: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦- ١٠٧].

وكأن هذا يقع بالتدريج خلال هذه السنين المتطاولة التي يشملها اسم «يوم الفصل»، وهذا أحسن من النظر إلى تلك الأحوال باعتبارها مترادفة، فالقول باستقلال كل لفظ بمعنى خاص أولى من حمل بعضها على بعض، وأمكن في الإفادة.

* ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١)﴾:

حين تقرأ هذه الآية المؤكَّدة بـ﴿إِنَّ﴾ تشعر أن ما سبقها من علامات وتغيرات

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٧٣)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٢٦٣)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (١/ ١٢٧)، و«تفسير الرازي» (٢٢/ ١٣٩)، و«تفسير القرطبي» (١١/ ٢٨٥)، و«فتح القدير» (٣/ ٤٧٩)، و«روح المعاني» (٩/ ٣٧).

لم يكن إلا تمهيدًا لهذه الحقيقة المرعبة المخيفة.

وإذا كان تلك الآيات الممهِّدة تثير الفزع من النفخ في الصُّور، ومجيء الأمم كلها جماعات، وتشقُّق السماء، وتسيير الأرض، فكيف حين تُرى النار وهي تترصَّد وتتربَّص بمَن وُعدت بهم.

والمِرصاد هو الذي يقف في الطريق يترصَّد[1]، ولهذا قال في «سورة الفجر»: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ١٤﴾، فلو أن إنسانًا يمشي في طريق وهو يعرف أن أحدًا ينتظر مروره ليوقع به، كيف يكون حاله؟ سوف يحذر ويتوقَّى كلَّ ما يريب، وهذا السياق إنما يقال؛ لأن المقام مقام وعيد للمكذِّبين والمتسائلين باستخفاف عن ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾، وإلا فالأصل في صفات الرب تعالى الرحمة واللُّطف والبِرّ والجُود والكرم والعفو والصفح، ولا يقع في أسمائه الحسنى إلا كل جميل، كما هو مقرَّر معلوم مبسوط في بابه[2].

وكونها مرصادًا يدل على أن الناس كلهم سوف يمرُّون عليها: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، وذلك أن الصراط منصوب على متن جهنم، فالناس يمرُّون عليه جميعُهم؛ المؤمنون والأنبياء والمرسلون، وسائر البشر، لكن منهم مَن يمرُّ كلمح البصر، ومنهم دون ذلك، ومنهم مَن يمشي ويعثر، ومنهم مَن يسقط ويهوي[3].

وبدأ بذكر جهنم؛ لأنها في الطريق إلى الجنة، مع كون السياق تهديدًا للمكذِّبين.

* ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ٢٢﴾:

تخصيص بعد عموم، وهذا اللفظ يُطلَق على الكفار، الذين كفروا بالله، وجحدوا آياته، وعَصَوْا رسله، واتَّبعوا أمرَ كل جبار عنيد، واسترسلوا وراء

---

(١) ينظر: «فتح الباري» (٨/ ٧٠٢).

(٢) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف.

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٧٤٣٩)، و«صحيح مسلم» (١٨٣) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المغريات والشهوات واللذَّات، فيتوعَّدهم بأن جهنم أُعدت لهم.

والتعبير بـ«الطغيان»؛ إشارة إلى سبب التعذيب، وهو الاستكبار والتعاظم الذي يحول دون قبول الحق، ويكون سببًا في العدوان على الخلق وازدرائهم، ولذا قال ﷺ: «**لا يدخلُ الجنةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذرَّة من كِبر**». قال رجلٌ: إن الرجلَ يحبُّ أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة؟ قال: «**إن اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ، الكِبرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناس**»(١).

وفي موضع آخر قال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]. وناسب مقابلة الكبر بالإهانة والتعذيب.

والمآب هو: المرجع(٢)، فمرجعهم ومصيرهم إليها، كما قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨]، والعادة أن الإنسان ربما يتعب في سفر، ثم يؤوب إلى بيته وأسرته، فيجد الراحة والأنس، ويزول عنه العناء والتعب، فكيف إذا كان مردُّ الإنسان هو العذاب، ولعل هذا من معاني قوله سبحانه: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾**﴾ [القارعة: ٨- ٩].

والمؤمنون الذين يعصون الله تعالى، ما شأنهم؟ يغفر الله تعالى لمَن يشاء منهم، ويعذِّب مَن يشاء، ورحمته سبقت غضبه، ولكننا نعلم بمقتضى النصوص الشرعية المتوافرة أن من المسلمين مَن يُعذَّب، ثم يخرج من النار برحمة أرحم الراحمين، أو بشفاعة المرسلين، أو بغير ذلك من الأسباب التي أذن بها رب العالمين(٣).

* ﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾:

﴿لَّابِثِينَ﴾ أي: ماكثين(٤)، و﴿أَحْقَابًا﴾ جمع: حُقُب(٥)، **والحِقْبة**: سبعون سنة،

---

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٩٧)، و«تاج العروس» (٢/ ٣٣) «أ و ب».

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٨٠٦، ٤٥٨١، ٤٧١٨، ٧٥٠٩)، و«صحيح مسلم» (١٨٢، ١٨٣).

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٣٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ١٠٥)، والمصادر الآتية.

(٥) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٢٤٨)، و«مختار الصحاح» (ص٧٧)، و«لسان العرب» (١/ ٣٢٦)، و«تاج العروس» (٢/ ٢٠١) «ح ق ب».

وقال آخرون: سبعون ألف سنة، وقيل غير ذلك.

وفي الآية لم يحدِّد مدَّتها، ومن هنا قال جمهور المفسرين: إن المقصود بالأحقاب: الدُّهور التي لا نهاية لها(١).

وقال آخرون: إن السياق دليل على أنهم يمكثون فيها مددًا طويلة، ولكن لها أمد تنتهي إليه.

ولذلك اختلف أهل السنة: أتفنى النار أم لا؟

أما الجنة: فلا خلاف في بقائها أبد الآبدين، وهذا محل إجماع أهل الإسلام(٢).

وأما النار: فقد ذكر شارح «الطحاوية» عند قول الإمام الطحاوي: «والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان». قولين لأهل السنة:

الأول: أن النار باقية، وأصحابها من الكفار والمشركين باقون فيها أبدًا، وأما الموحِّدون فيخرجون منها، وهذا مذهب الأكثرين.

الثاني: أنه يخرج منها أهل الإيمان، ثم تبقى فترة ثم يأذن الله تعالى بزوالها وفنائها.

واستدلوا على ذلك بهذه الآية الكريمة؛ لأن التحديد بالأحقاب دليل على التوقيت، كما استدلوا بقوله تعالى في «سورة هود»: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾.

وقالوا: إن الخلود من معانيه: المكث الطويل، وهو معروف في اللغة، **والمعنى:** خالدين فيها ما دامت موجودة.

وابن القيم في بعض كتبه يميل إلى هذا القول، وذُكِر عن عمر بن الخطاب، وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والحسن البصري، وجماعة من السلف، ويُنسب إلى ابن

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٨٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٦١)، و«الكشاف» (٤/ ٦٨٨- ٦٨٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٧٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٦)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٦).

(٢) ينظر: «مراتب الإجماع» (ص١٧٣).

تيمية، وذكر الشيخ رشيد رضا هذا القول، وأطال فيه النفس مقرِّرًا مؤيِّدًا(١).

فهو قول ضمن أقوال أهل السنة، وليس منكرًا يُوصم صاحبه بالتضليل أو التكفير أو التبديع، أو يُدعى إلى الملاعنة أو المباهلة، كما يقع من بعضهم بسبب التعصب والاستغراب.

* ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾:

البرد هو: البرودة، وذلك أنهم في حر شديد ونار، فهم يتمنَّون البرودة فلا يذوقونها، لأن الإنسان إذا شعر بشدة الحرارة تمنَّى البرودة، وإذا شعر بشدة البرودة تمنَّى الحرارة واللَّهب، وفي الحديث مرفوعًا عن خَوْلة بنت قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**ابنُ آدمَ إن أصابه البردُ قال: حَسِّ**(٢)**. وإن أصابه الحرُّ قال: حَسِّ**»(٣).

ومن الطريف أن أعرابيًّا اشتد عليه البرد حتى كاد يهلك، ثم وجد نارًا يستدفئ بها، فقال: اللهمَّ اكتبها لي ولوالدي!

ومن معاني البرد: النوم(٤)، قال الشاعر(٥):

فإن شئتِ حرَّمتُ النِّساءَ سواكمُ وإن شئتِ لم أَطْعَمْ نُقاخًا ولا بَرْدا

---

(١) ينظر: «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (١/ ٢٨٥)، و«الرد على مَن قال بفناء الجنة والنار» لابن تيمية، و«حادي الأرواح» (ص٢٤٨)، و«شفاء العليل» (ص٢٦٤)، و«مختصر الصواعق المرسلة» (ص٢٦٣)، و«رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار» للصنعاني، و«تفسير المنار» (٨/ ٥٩)، وما تقدم في «سورة الرحمن»: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾، و«سورة الحديد»: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ [الحديد:٢١].

(٢) بفتح الحاء وكسر السين المشدَّدة: كلمة يقولها الإنسان إذا أصابه ما مضَّه وأحرقه غفلةً، كالجمرة. ينظر: «حاشية السندي على مسند أحمد» (١٥/ ١٠٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢٧٣١٦)، وابن حبان (٢٨٩٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٢٣١) (٥٨٩). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٧٨).

(٤) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٨٧)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١٣١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٧)، والمصادر الآتية.

(٥) ينظر: «الحيوان» للجاحظ (٥/ ١٦)، و«الفاخر» للمفضَّل بن سلمة (ص١٧)، و«الصحاح» (١/ ٤٥٦)، و«لسان العرب» (٢/ ٣٢٠) منسوبًا إلى عبد الله بن عمرو بن عثمان العَرْجي.

والنُّقَاخ هو: الماء، **والبَرْد**: النوم، وهو قول مجاهد وبعض السلف[1]، وهو معروف في اللغة[2]؛ وذلك لأن الإنسان في النوم أبرد منه في اليقظة، وكذا إذا مات برد جسمه.

فلا برودة تخفِّف عنهم من لهب النار، ولا يذوقون الماء البارد، ولا يذوقون النوم الذي يخفف عنهم، أو يُنسيهم، أو يعطي أجسادهم بعض البرد.

* نفى البَرْد، ثم نفى الشراب؛ لأن عادة المرء أن يحب الشراب باردًا، فإذا نفى البرد لم يكن إلى البرودة إليهم من سبيل بوجه من الوجوه، ثم عقَّب بنفي الشراب كله بارده وغير بارده، إلا ما استثناه في الآية بعدها: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾:

الحَمِيم: الماء الحار، ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، فإذا غلي الماء سُمِّي: حَمِيمًا[3].

ومنه: الحمَّام؛ لأنهم كانوا يتطهَّرون ويتنظَّفون بالماء الحارِّ.

ومنه: الحمَّى أيضًا، فهم يشربون الماء الحميم الحارَّ المغلي، الذي يُقطِّع أمعاءهم ويُمزِّق أجوافهم[4].

والغَسَّاق: **قيل**: هو: الشراب المنتن.

وقيل: البارد شديد البرودة، الذي يعذِّبهم ببرودته[5].

ولا مانع من اجتماع الأمرين، فيكون الغسَّاق شرابًا باردًا منتنًا يشربونه،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٧٣)، و«الكشاف» (٤/ ٦٨٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٨٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٤٢)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «مختار الصحاح» (ص٧٣)، و«تاج العروس» (٧/ ٣٦١) «ن ق خ».

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٨٧)، و«الكشاف» (٣/ ١٥٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٢٧)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «الصحاح» (٥/ ١٨٣)، و«تاج العروس» (٣٢/ ١١).

(٥) ينظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٥١)، و«تفسير الماتريدي» (٨/ ٦٤١)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٨٤)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٨٧)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٧).

وينظر أيضًا: «معجم ديوان الأدب» (١/ ٣٢٩)، و«تاج العروس» (٢٦/ ٢٥٢) «غ س ق».

عقوبة على ما كانوا يتلذَّذون به في الدنيا مما حرَّم الله تعالى من ألوان المطاعم والمشارب والشهوات.

* ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾:

فهو جزاء عادل، موافق لنوع العمل، وليس فيه زيادة في العقوبة، بل هو مكافئ للإجرام، وفي جزاء المؤمنين قال: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾؛ فهو فضل من الله تعالى، وليس مقابلًا لأعمالهم، بل هو فوقها.

ولهذا لا أحد يدخل النار وهو يقول: أنا مظلوم. ولا أحد يُعاقَب وهو يقول: لا أستحق هذا، كما قال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠- ١١].

وهذا من كمال العدل الإلهي، حتى إن الجوارح تشهد على الإنسان والملائكة، والديوان المسطور الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

* ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾:

هذا بيان لكمال الحجة عليهم، وعظم الذنب الذي اقترفوه، وأنه لا ذنب أعظم من الحَوْبِ الذي وقعوا فيه، وهو جحود الخالق والكفر به وتكذيب أنبيائه ورسله، وهم كانوا في الدنيا لا ينتظرون البعث وما بعده، وجمع بين الفعل الماضي والمضارع، أي: لم يكونوا يرجون حسابًا، وما من حجة أقيمت عليهم في إثبات الجزاء والنشور إلا قابلوها بالاستكبار والرفض، ولذا أعرضوا عنه ولم يضعوه في اعتبارهم ولم يدرجوه في حسابهم، وكانت غايتهم الحياة الدنيا، وبهذا اختل ميزانهم.

وعبَّر بـ«الرجاء»، وهو يُطلَق على ما يحب الإنسان، أي: لم يكونوا يرجون الجنة والرضوان، ولهذا لم يكونوا يفعلون الطاعات؛ لأن الذي يرجو لا بد وأن يفعل الطاعة، وفي ذلك إشارة إلى أن أصل كفرهم ترك الطاعة والإيمان، وهو أعظم من الوقوع في المعصية.

* ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾:

ذكر تكذيبهم بصيغة الماضي؛ للإشارة إلى أنه كان حاسمًا جازمًا صريحًا،

وكان سريعًا لم يسبقه بحث ولا تأمل ولا تفكير.

والآيات جمع: آية، **وهي نوعان:**

١- الآيات الكونية الدالة على الله، وهذا من جنس ما ذكره في صدر السورة من الأرض والجبال والليل والنهار، وكثير من المشركين زمن النبي ﷺ كانوا يقرُّون بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، فتكذيبهم بها عدم تحققها في نفوسهم وعدم الالتزام بمقتضى ما يقولون بألسنتهم من الإيمان المجرد بالإله الخالق.

٢- الآيات الشرعية، فكذَّبوا بوحي الله، ومن ذلك: التكذيب بالقرآن، والعربيُّ إذا قرأ القرآن عَرَفَ بعربيته إعجازَه وبلاغته وفصاحته.

فهؤلاء كذَّبوا بالآيات كلها، عقليها ونقليها، مسطورها ومشهودها، ولذا استوعب تكذيبهم الآيات كلها، ولهذا قال: ﴿كِذَّابًا﴾ أي: تكذيبًا، فهو مصدر، ولكنه أبلغ من «تكذيبًا»، أي: كذَّبوا مرة بعد أخرى، وكلما وُجِد في قلوبهم شيء من الميل أو التصديق قاوموه ودافعوه[1].

و﴿كِذَّابًا﴾ قُرئت بالتخفيف والتشديد، كما سيأتي في قوله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾﴾.

وهذا التكذيب بآيات الله جعلهم لا يؤمنون بيوم الحساب، ولا يعملون له، ولا يرتدعون عن المعاصي.

* ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾﴾:

التقدير: وأحصينا كلَّ شيء. فـ«كل»: مفعول به، وفي «سورة يس»: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾، أي: في كتاب حافظ، وهو: اللَّوح المحفوظ[2].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٦٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٥)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٤٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٥٤٢)، و«تفسير الماتريدي» (٨/ ٥٠٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٩)، و«زاد المسير» (٣/ ٥١٩).

و«**كل**» من ألفاظ العموم؛ كما قال: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣]، كل صغير أو كبير من الأفعال والأقوال والخواطر التي في القلب والنيات والمقاصد مُحصًى عند الله ومسطور.

ولذا يقول المجرمون: ﴿يَوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ويدل لفظ: «كل» على استيعاب ما عملوا وما لم يعملوا، فهو مكتوب.

أي: كل ما تركوا مما هو واجب عليهم أن يعملوه، وما همُّوا به ثم أعرضوا عنه، أو عجزوا عن فعله، فيُكتب لهم ما تركوه لله، ويُكتب عليهم ما تركوه عجزًا.

والكتابة هي: الحفظ والضبط والتسجيل الدقيق.

وهي وثيقة يُبنى عليها الحساب والثواب والعقاب، كما يُبنى عليها الترك لما لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وهو عموم لا يدع مجالًا للتوقع بأن ثَمَّةَ شيئًا فات ذلك الإحصاء الدقيق(١).

واختلف العلماء فيما يكتبه المَلَك(٢)؟

فقال الحسن وقتادة ومجاهد: «يكتب كل شيء».

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- في إحدى الروايتين عنه- وعكرمة: «يكتب ما فيه ثواب وعقاب».

وظاهر الآية الأول، ويؤيِّده قوله تعالى في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

وقيل: يكتب عليه كل ما يتكلم به، فإذا كان آخر النهار مُحي عنه ما كان مباحًا، مما لا يتعلق به أجر ولا وزر، والله أعلم.

والإحصاء يدل على الضبط الدقيق، فهو مُحْصًى معروف؛ لأن الله تعالى

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٢٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢١٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤١).

(٢) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١١/ ٧٠٣٩)، و«الكشاف» (٤/ ٣٨٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٠)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٨).

عليم بكل شيء، ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

والضمير يعود إلى الله سبحانه، فهو يعلمه، وأيضًا بواسطة ملائكته الكتبة الحافظين، الذين قال الله عنهم: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢].

وغالب ما تأتي النون فيما يكون للملائكة تكليف فيه، كالموت والعلم والمعية والنصر.

وهذا الإحصاء ليس علمًا فحسب، بل هو مكتوب أيضًا؛ لأن عند الله كتابًا لكل إنسان يخصه، ويُزاد فيه يومًا بعد يوم، ويُكْتَب فيه الخير والشر، كما قال سبحانه: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]، وهو الكتاب الذي يقول تعالى عنه: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩]، يرون الكتاب من بعيد، قبل أن يأخذوه، فهم منه مشفقون.

وقوله: ﴿كِتَابًا﴾ أي: مكتوبًا أو كتابةً[1]، ولا يمنع أن يكون مدونًا بأعلى صيغ التوثيق التي لا تدع لقائل مقالة، ولهذا قال في آخر السورة: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾.

وإذا كان البشر بإمكانيَّاتهم القليلة استطاعوا أن يوثِّقوا ويضبطوا حركات الإنسان وأعماله من خلال وسائل التقنية والكاميرات الدقيقة المبثوثة في كل مكان، فتُصوَّر الحركات والسكنات وتُسجَّل الأصوات وهي في غاية الخفاء والضآلة، فكيف بقدرة الخالق العظيم جل وتعالى التي لا تُعَدُّ ولا تُحَدُّ؟!

فثَمَّ شريط شاهد على ما يعمله الإنسان يعرض عليه يوم القيامة.

* ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾:

ذوقوا بدايات العذاب، فما تجدونه ما هو إلا عينة لما هو أشد؛ ولهذا قال في

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٩٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٢٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٣٨٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٤٣).

آية أخرى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥٦]؛ أي: البداية التي تُقدَّم للضيف.

وهذا دليل على أن العذاب يزيد، أي: سوف نزيدكم عذابًا؛ لأن العذاب الجديد يضاف إلى العذاب الأول، فالعذاب الأول نال من الإنسان، من جلده ومن نفسه، فإذا جاء العذاب الجديد كان مضافًا إلى الأول، فهو عذاب بعد عذاب، وقد يكون العذاب الثاني أشد من العذاب الأول.

وهذا أقوى مما لو قال: «فسوف نزيدكم عذابًا»؛ لأن فيه نفيًا وإثباتًا، فهو نفى أن يزيدهم شيئًا آخر؛ أي: لن نزيدكم رحمةً وعفوًا ومغفرةً ونعيمًا، وإنما نزيدكم عذابًا فحسب.

* وبينما القوم يتألَّمون بالمعاناة والعذاب الذي هو جزاء لأعمالهم، تنتقل السورة إلى الفريق الآخر وما له من النعيم: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾:

بدأ بـ﴿إِنَّ﴾ المؤكِّدة؛ إشارة إلى عظمة هذه الحقيقة، **والمتَّقِي** هو: مَن اتَّقى الكفر بالإيمان، فلكل مؤمن قدر من التقوى يزيد بقدر ما عنده من توقِّي الذنوب؛ ولهذا يقول سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، فكل مؤمن له حظٌّ من هداية القرآن؛ لأن أول مراتب التقوى هي الإسلام[١].

وقد سُئل أحد السلف عن التقوى؟ فقال: هل أخذتَ طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فكيف صنعتَ؟ قال: إذا رأيتُ الشوكَ عدلتُ عنه أو جاوزتُه أو قصُرتُ عنه. قال: ذاك التقوى[٢].

والذي يمشي في حقل ألغام، يحذر أن يضع قدمه إلا في مكان آمن، فهكذا المتقي لا يضع رجله أو يده أو عمله إلا حيث يعلم أنه لا حرج عليه، والتقوى لا تعني العصمة، وكان ابن المعتز يقول[٣]:

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ٧٨٠).

(٢) تقدم تخريجه في «سورة المرسلات»: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾.

(٣) تقدم تخريجه في «سورة الحديد»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

خلِّ الذنوبَ صغيرَها وكبيرَها ذاك التُّقَى
واصنع كماشٍ فوق أر ضِ الشوكِ يحذرُ ما يَرَى
لا تحقرنَ صغيرةً إن الجبالَ من الحَصَى

قال سبحانه: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣- ١٣٥].

فالمتقي عنده أوبة كلما وقعت منه زلة، والمؤمن يخطئ ويتوب ويستغفر.

فهؤلاء المتقون علموا أن كل شيء سيُحصَى عليهم، فتركوا ما لا يُرضي الله قَدْرَ استطاعتهم، وكانوا يرجون الحساب ويخافون العذاب، وبهذا تميزوا عن الطائفة الأولى.

والمفاز: النجاة[١]، وكفى بها فوزًا؛ لأنه لـمَّا ذكر وعيد المشركين ذكر نجاة المتقين، ولذلك كان الأنبياء في ذلك الموقف يطلبون السلامة، ويقولون: «**اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ**»[٢].

* ولكن الله تعالى بفضله وكرمه وعَدَهَم بما هو أعظم من ذلك وخير: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾:

والحدائق جمع: حديقة، وهي البساتين ذات الأشجار العظيمة[٣]، سُمِّيت «الجنة» بذلك؛ لما فيها من الأشجار الملتفَّة، التي تجن وتغطي ما دونها، والقارئ عند ذكر الحدائق أو الأعناب يتبادر إلى ذهنه الصور التي يعرفها ويتذوَّقها مما في

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٣٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٨٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١٣٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٨)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٩٧)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١٣٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٠٢)، والمصادر السابقة.

الدنيا، و«ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماءُ»، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(١)، وقال سبحانه: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]، وقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة: ١٧]، وفي الحديث الصحيح أن الجنة: «**فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ**»(٢).

ولم يقل: ﴿وَعِنَبًا﴾، كما في «سورة عبس»: ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا ٢٨﴾، بل قال: ﴿وَأَعْنَٰبًا﴾، إشارة إلى كثرتها وتنوُّعها، فهي ضروب وألوان وأشكال، وذلك لأن آية «سورة عبس» امتنان على أهل الدنيا، فذكر العنب مفردًا، أما في الجنة، فجاء بصيغة الجمع؛ إشارة إلى كثرتها وتنوعها.

والكواعب جمع: كاعب، وهي الفتاة التي تفلَّك أو تكعَّب ثديها(٣)، أصبح مثل كعب الإنسان في استدارته ونضجه وتصلُّبِه، فالله تعالى ذكر المرأة كأجمل وأكمل ما تكون في مرحلة بلوغها وفتوَّتها وعنفوان شبابها(٤).

وأعمار أهل الجنة هي ثلاث وثلاثون سنة(٥)، وهي مرحلة اكتمال الشباب.

والأتراب جمع: تِرْب، أي: المتشابهات في السن، فسِنُّهن واحد(٦).

فعند ما تكون نساء الجنة كواعب جميلات، وأترابًا في سِنٍّ واحد، فهذا يعني أن الحب والمودة لهن في درجة واحدة، فلا توجد واحدة منهن تظن أن غيرها تُحَبُّ أكثر منها أو أنها أجمل منها، بل كلهن في جمال واحد، وسن واحد، والميل

---

(١) تقدم تخريجه في «سورة الملك»: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ٨﴾.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٢٤٤، ٤٧٨٠)، و«صحيح مسلم» (٢٨٢٤، ٢٨٢٥).

(٣) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٥١٠)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٧١٣) «ك ع ب»، و«الكليات» للكَفَوي (ص٧٧٦).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ١١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٨)، و«تفسير ابن رجب» (٢/ ٣٠٢).

(٥) كما في حديث أبي هريرة ومعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. أخرجه أحمد (٧٩٣٣، ٨٥٢٤)، والترمذي (٢٥٤٥).

(٦) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٣٨)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٥٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢١١)، وينظر: «المزهر» (١/ ٣٤٢).

وينظر أيضًا: «لسان العرب» (١/ ٢٣١)، و«تاج العروس» (٢/ ٦٨) «ت ر ب».

لهن واحد، وهنَّ أتراب فيما بينهن، وعادة النساء عند ما يكون سِنُّهن واحدًا أن يكون بينهن الأُنْس، وهذا متعة للنساء المتقيات بكونهن الكواعب الموصوفات بالجمال والحسن والنعيم، لأنه قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ يشمل الذكور والإناث.

وقد يكون قوله: ﴿أَتْرَابًا﴾ أي: مع أزواجهن[1]، وهذا مُلاحَظ أن سِنَّ الرجل وسِنَّ المرأة واحد في الجنة، وهذا أدعى لكمال المتعة وحسن المعاشرة في الجنة.

والبعض يتعجَّب: لماذا يذكر الله سبحانه في القرآن مثل هذه المتعة؟

وهذا من المغالطة؛ لأن من أعظم ما يُفتَن به الإنسان في الدنيا التعلق بالجنس الآخر، وحتى مَن يستشكل هذا يعرف حقيقة نفسه وكيف يعاني من ضغط الميل النفسي والجسدي، إن كان تقيًّا يعاني من مدافعة الشهوة، وإن كان فاجرًا يعاني من ملاحقة صنوف الإشباع وتبعاته المرهقة، وهو مما جبل الله عليه البشر، وهو من أعظم ألوان النعيم والمتعة في الدنيا والآخرة، وقد جمع الله تعالى لهم أنواع النعيم بالمجالس والبيوت وبالمطاعم والمشارب وبالمناكح والمَلَذَّات.

فإن قيل: فماذا للنساء؟

فأقول: لهن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ [الواقعة: ٣٥- ٣٧]. وهن شريكات في سائر النعيم المفصَّل، بما في ذلك رؤية الله تعالى وسماع كلامه، وسائر المتع والمباهج المعنوية والحسية المسوقة في الكتاب العزيز.

وقد يقول قائل: لماذا للرجل أكثر من امرأة في الجنة؟

فأقول: هذا من حكمة الله، أن المرأة عادة أحادية العاطفة، إذا أحبَّت شخصًا فلا ترى في الدنيا إلا هو، ولهذا لو تزوَّج عليها وَجَدَتْ في قلبها ألمًا عظيمًا وإن صبرت، ولا تجد في نفسها ما يجده الرجل من التطلع وإمكانية وجود الحب لأكثر من امرأة، فإن مسارات العاطفة عنده قابلة للتعدد.

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٥)، والمصادر السابقة.

وكثير من الرجال يحب امرأته ويقصر نفسه عليها، وهذا حسن، وهو أدعى للألفة، وأبعد عن المشكلات، وأجدر أن ينشأ الأولاد في جو من الأنس والصفاء، لكن المقصود أن طبيعة الرجل العاطفية تختلف عن المرأة؛ ولهذا وصفهن الله بقوله: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: ٥٦].

فالمرأة قاصرة الطرف على زوجها لا ترى إلا حسنه وجماله، ولا تستمتع إلا به ومعه، ولا تطمح في نظرها إلى سواه[١].

﴿وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا﴾: وهذا نعيم آخر مع السَّمَر، والمجالس الجميلة، والخضرة، والمآكل والمشارب، والزوجات الحسان الجميلات، **والكأس** لا يُذكَر في القرآن إلا ويُراد به الخمر، وهذا معروف في لغة العرب، فإذا قال: شربت كأسًا، ولم يميِّز، فهو يعني الخمر[٢].

والدِّهاق لها معانٍ، منها: الملأى المتتابعة عند أكثر المفسرين[٣]، وملء الكأس يُعَدُّ من كرم الساقي.

وقيل: الصافية، كما يقول الصاحب بن عَبَّاد[٤]:

رقَّ الزجاجُ ورَقَّتِ الخمرُ ... فتشابها فتشاكلَ الأمرُ
فكأنما خمرٌ ولا قدحٌ ... وكأنما قدحٌ ولا خمرُ

ويقول محمد إقبال[٥]:

كمثلِ الكأسِ تُبْصِرُها دِهاقًا ... وليس لأجلِها صُنِعَ الشرابُ

فاجتمع صفاء الخمر وصفاء الكأس، فهذا من أجود وأحسن ما يكون، وعادة ما

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٥٦٨)، و«تفسير الطبري» (١٩/ ٥٣٨).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢١٧)، و«إعراب القرآن» لِقوام السُّنَّة (ص٣٩٩).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٨٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١٣٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٨).

(٤) ينظر: «خاص الخاص» (ص١٦١)، و«يتيمة الدهر» (٣/ ٣٠٤)، و«وفيات الأعيان» (١/ ٢٣٠).

(٥) ينظر: «ديوان محمد إقبال» (١/ ١٠٦).

يمدح العرب الخمر المعتقة القديمة، التي أُتقِن صنعها، فالله تعالى يذكر للمؤمنين هذه الخمر التي هي ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [الصافات: ٤٦]، فيجتمع لهم كل ألوان اللَّذَّة في الجنة(١).

* وجرت العادة أن مثل هذه المجالس في الحدائق تشتمل على صنوفٍ من النعيم، والنساء الجميلات، والمآكل والمشارب والمطاعم، والأصوات الجميلة بالغناء وغيره، ولما كانت هذه المجالس لا تخلو غالبًا من غوائل السكر بالخمر؛ من التشاتم والسباب والبطش والاعتداء، عقَّب بما يميِّز مجالس الخمر في الجنان عن مجالسها في الدنيا، فقال سبحانه: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾:

فعند ما يشربون لا تذهب عقولهم، كأهل الدنيا، بل يتمتعون بالخمر دون أن يفقدوا لذَّاتهم وكمالاتهم النفسية: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]، فلا تغتال عقولَهم، ولا تذهب بألبابهم، فيدوم لهم نعيم المعرفة والرضا بالله والفرح برحمته والرجاء في مزيد فضله، مع نعيم الشرب والسماع ولذة العين والنظر.

واللَّغو هو: الكلام الزائد الذي لا فائدة فيه، وهو الكلام البذيء الفاحش(٢).

و﴿كِذَّٰبًا﴾ قُرئت بالتخفيف والتشديد، كقوله في الآية السابقة: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾(٣). وتعني: شدة التكذيب والتكاذب والقول السوء(٤).

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٠٣)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ٤٧)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٣/ ٥٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ١٣).

(٢) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٢٩٦)، و«تفسير الطبري» (٤/ ٣٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٢٩٩)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٧٤٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٠٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٨٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٤٥).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٥، ٤٢)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٦٩)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢١٩)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٧)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٢٦٩- ٢٧٠).

(٤) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٦١)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٦٩)، و«حجة القراءات» (١/ ٧٤٦).

وفي هذه الآية تلميح إلى ما كانوا عليه في الدنيا، وأن من أعظم صفاتهم حفظَ اللسان، فهم يتكلمون بالكلام النافع المفيد، كأن يكون ذكرًا لله، أو علمًا نافعًا، أو إحسانًا إلى عباد الله، أو تسلية مؤمن، أو تطييب خاطر، أو دفاعًا عن حق، أو ردَّ خطأ، فليسوا من أهل اللغو الذين يكثُرُ فيهم الهرج والمرج والقيل والقال، وليسوا من أهل الكلام الباطل الذين يتزيَّنون بالأباطيل والألاعيب والأكاذيب، ولهذا جُوزوا في الجنة بذلك، و**الجزاء من جنس العمل**.

وأهل الدنيا يقع التكاذب بينهم، ويكذِّب بعضُهم بعضًا، فيقول هذا لهذا: كذبت. أو يكذِّب بعضهم على بعض، وإذا سكروا كبُر هذا فيهم، وهذا كله ليس في الجنة، وفيه إشارة إلى أن ضبط اللسان من أعظم الأسباب التي يتخذها العبد إلى ربه سبيلًا لنيل مرضاته.

* ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾:

بخلاف أولئك الذين قال فيهم: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾، وهذا دليل على أن هذا من الله تعالى للمؤمنين فضل، ومنه سبحانه بالنسبة للكافرين عدل، وهو ﴿جَزَآءً﴾ أي: أن ثَمَّةَ عملًا لهم في الدنيا فجُوزوا عليه بالجنان، وهو مصداق لقوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]؛ أي: بسبب عملكم في الدنيا(١).

وليس المعنى أنهم لم يجازوا إلا بأعمالهم، بل أعمالهم سبب لنيل الرحمة، والرحمة لا حد لها، فجُوزوا بالحسنة عشرًا، وثماني عشرة، وعشرين، وخمسًا وعشرين، وسبعًا وعشرين، وخمسين، وسبعمائة، وأضعافًا كثيرة، لا يقدر قدرها إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

وبيَّن مصدر الجزاء، فهو من عند الله الرب الكريم.

وفيه دليل على الفضل والعطاء، ولهذا قال: ﴿عَطَآءً﴾، فليس هو محض جزاء فحسب، ولو جُوزوا بأعمالهم ما وصلوا إلى هذا، وربما استنفدت أعمالهم النعم التي أُعطوها في الدنيا، ولكنه عطاء وجود من الله تعالى.

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٢/ ١٠٦)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٤١٦)، و«فتح القدير» (٣/ ١٩٢)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (٧/ ٢٣٧).

ومن معاني ربوبيته سبحانه: رحمته بخلقه ومجازاته لهم؛ ولهذا لم يذكر هذا بالنسبة للكافرين؛ لأن المقام مقام توبيخ وتقريع وتخويف.

وجاء في مواضع أنهم أُعطوا بغير حساب، كما قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

فيقول أهل اللغة: إن ﴿حِسَابًا﴾ هنا ليس معناه: أنهم حُوسبوا على أعمالهم وجُوزوا عليها، وإنما: ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ أي: عطاءً كبيرًا بغير عَدٍّ ولا إحصاء[1]، فيُعطى ثم يُعطى ثم يُعطى، حتى يقول: «حَسْبِي.. حَسْبِي..». أي: يكفي، فيُعطى حتى تنقطع مسألته، كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فلما رأى أن ليس لهم حاجةٌ تُركوا**»[2].

وأهل الجنة كلما تطلَّعت نفوسهم لشيء تحقَّق لهم بفضل الله تعالى عليهم، فلهم كل ما تمنّوا، لا مثنوية ولا رجعة: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ [ق: ٣٥]، أي كل ما يريدون، قصورًا أو أفلاكًا.. أو كواكب، أهلًا.. مالًا.. ولدًا.. كل ما يخطر على البال، وما لا يخطر عليه أيضًا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، أي: ما لم يشاؤوا ولم يخطر ببالهم[3].

أن ينعَّم المرء في الدنيا مائة سنة بصحة وهناء وعيش رغيد ومال وفير وزوجة حنون وذرية صالحة، يشعر بالسعادة في مأكله ومشربه ونومه وحديثه وسفره وإقامته، ويستمتع بلحظاتها، فهذا عطاء لا يقاومه شكر، ولا يقدَّر بثمن، فكيف بنعيم الجنة السرمدي؟!

وكيف لا يكون العطاء بهذا القدر وهذا الفضل والرحمة، وهو عطاء رب

---

(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٥١٠)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٢٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٨٧).

(٣) وفي الحديث أن الله تعالى يقول: «**أعددتُ لعبادي الصالحينَ ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَر**». أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وينظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٠٥)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٤٦)، و«الكشاف» (٤/ ٣٩٠)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٤٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣٢١).

السماوات والأرض، فهو مالك كل شيء، والقادر على كل شيء، وعطاؤه كلام، وأمره كلام، وعقابه كلام: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، هذا معنى كون عطائه كلامًا، ومَنْعِه كلامًا، فهو يخلق لهم بكلامه ما يتنعَّمون به.

* ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ۝٣٧﴾:

قرأ عاصم، وابن عامر، وغيرهما: ﴿رَّبِّ﴾ بكسر الباء؛ لأنها بدل من قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ في الآية السابقة، وقرأها الجمهور بالضم: ﴿رَّبُّ﴾[1] على أنها ابتداء[2].

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: خالقها ومدبِّرها[3]، وهي مسخَّرة بأمره تسخيرًا جبريًّا، لا حيلة لها فيه ولا ثواب.

﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ أي: ما فيهما من إنس وجن، وخلق وبشر، وملائكة، ونجوم.. وغيرها.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِۖ﴾: اختار هذه الصفة؛ لأنها مناسبة ولائقة بمقام الرحمة بالمؤمنين وجزائهم[4].

وفي هذا الاختيار توبيخ للكافرين؛ فإذا كانوا هلكوا وعُوقبوا- والذي عاقبهم هو الرحمن- فمعناه أنه لم تُجْدِ فيهم طرائق الخير وأسبابه وأبوابه وتمحَّضوا للشر والكفر والعدوان، فلا يهلك على الله تعالى إلا هالك.

﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ أي: في ذلك الموقف، لا يستطيع الناس مخاطبة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن المقام مقام هيبة وجلال ترتعد منه الفرائص ويخافه الناس حتى الأنبياء والملائكة.

---

(١) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٦٩)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢١٩)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٧)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٢٧٣).

(٢) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٦٢)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٧٠)، و«حجة القراءات» (ص٧٤٧).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٥٠).

(٤) ينظر ما تقدم في «سورة الفاتحة».

* ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾:

صار الوصف للمشهد كله، فالخلق قيام لرب العالمين، إنسهم وجنهم وملائكتهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، ويشي هذا برهبة الموقف وعظم شأنه وهول مشهده.

وفي الرُّوح أقوال(١):

١- أنه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما في قوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [القدر: ٤].

٢- المقصود كل ذي روح من الإنس والجن.

٣- أن يكون خَلْقًا من خلق الله عَزَّ وَجَلَّ، الله أعلم به.

والأقرب هو العموم، فيدخل جبريل والملائكة وغيرهم، ويكون المقصود بالروح هنا: المخلوقات ذوات الروح مما نعلم وما لا نعلم، فهي تقوم أيضًا، وهذا أنسب للسياق؛ لأن المقصود أصلًا بالبعث والمحاسبة هم أولئك المخلوقون العقلاء المكلفون، والله أعلم.

وبذا يكون ذكر الروح تأسيسًا وليس تأكيدًا أو ذكرًا خاصًّا.

وكل ذي روح يقوم، والملائكة يقومون صفوفًا بعضهم خلف بعض.

﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾: يفيد أن في ذلك المشهد الرهيب صمتًا مُطْبِقًا، بخلاف عادة الناس فإنهم إذا احتشدوا في منتدياتهم ومجالسهم وساحاتهم تسمع منهم الضجيج والصياح، لكن في ذلك الموقف: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وكما في قوله: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [طه: ١٠٣].

وقوله: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ لها ثلاثة معانٍ(٢):

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٩٠)، و«الكشاف» (٤/ ٦٩١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٨٦)، وما سيأتي في «سورة القدر».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٩).

١- لا يتكلمون إلا همسًا فيما بينهم.

٢- لا يتكلمون مطلقًا، وذلك في بعض مواقف القيامة، فهم حينًا يتهامسون، وحينًا يتوقفون حتى عن الهمس.

٣- أنهم لا يخاطبون الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يتكلمون إليه.

﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ وهم الرسل وغيرهم من الشافعين.

وقد اشترط تعالى الرضا والإذن، فقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]، وهو سبحانه يعلم أن هؤلاء الذين أذن لهم بالكلام لا يقولون إلا صوابًا، مثل شفاعة سيدنا محمد ﷺ في فصل القضاء بين الناس، والشفاعة في بعض المؤمنين أن لا يدخلوا النار، والشفاعة في بعض مَن دخل النار أن يخرجوا منها، والشفاعة في بعض أهل النار أن يُخَفَّف عنهم من عذابها، والشفاعة في بعض أهل الجنة أن تُرْفَع درجاتهم ومنازلهم فيها.. إلى غير ذلك مما هو خير وثواب يحبه الله عَزَّوَجَلَّ.

* ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾:

إشارة إلى عظمة ذلك اليوم، الذي هو الحق، خلافًا لمن كذَّب به، فهو حق لا مرية فيه، يبيِّن صدق ما جاء به المرسلون.

واليوم الحق خلافًا لأيام الدنيا، فهي لعب ولهو، وأشبه ما تكون بالباطل، لقصرها وسرعة تصرُّمها ونسيان أفراحها وأتراحها، وتحولها من صفة إلى أخرى.

اليوم الحق الذي يُفْصَل فيه بين الناس، ويُقْتَصُّ لبعضهم من بعض، حتى في أصغر الأمور وأحقرها.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾: فيه إشارة إلى أن سلوك الطريق الصحيح مرهون بإرادة الإنسان ومشيئته، فلا وجه لأن يحتجَّ أحد بقَدَر الله على المعاصي، فإنه ما عصى اللهَ أحدٌ، ولا ترك طاعة إلا وهو يعمل ما تملي عليه نفسه، وتحفِّزه إليه رغبته وشهوته وميله، فهو يجد ضرورة في نفسه أنه يُقْدم على الأشياء التي

يحبها ويترك الأشياء التي يكرهها.

وهذا هو الأمر الذي يُحاسَب عليه في الآخرة، وهو لا يدري ما المقدور إلا بعد أن يفعل ما فعل، والقدر ليس قسرًا للمكلَّف على ما لا يحب، بل هو إذن الله للعبد أن يفعل أو لا يفعل، ولو شاء الله لقسر الناس على ما يريد ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام: ١٠٧]. ولكنه لم يفعل، بل تركهم وإرادتهم الحسية الضرورية في عمل الآخرة كما هي في عمل الدنيا سواءً بسواء.

و﴿ٱتَّخَذَ﴾ أقوى من «أخذ»؛ وهو دليل على الاستمرار، وعلى أن الإنسان كدح حتى شقَّ له طريقًا إلى ربه، والعادة أن «الاتخاذ» في اللغة يُستعمل في الأمر المعتاد المتكرر، كاستعمال الآنية والملابس والفرش والمواضع والبساتين ونحوها، فكأن المعنى هنا أنه كرر العبودية بصيغها المتعددة حتى صارت سَجِيَّة وطبعًا، ومع تراكمها الزمني سهلت عليه، وذل لها قلبه ولسانه وجوارحه، وذهبت عنه مع الزمن وتقادم الأيام دواعي الشهوات ونوازعها، ومواضع الشبهات والتباساتها، فآمن عقله وقلبه وجوارحه، والله يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم.

والمآب هو: الطريق والمرجع والمنهج الذي يسلكه(١).

* ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾:

آية خاتمة جامعة لأول الحديث وآخره، يتكلم تعالى بضمير المعظِّم لنفسه، المعظَّم من عباده: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ﴾، **والإنذار** هو: التعليم على سبيل التحذير والتخويف(٢)، وهو واضح في هذه السورة، بذكر النار وعذابها وهول الموقف، وقدَّمه لتقدمه في السياق ولطبيعة الحال التي نزلت فيها السورة؛ حيث كان النبي

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٩٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١٤٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣١٠).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٠٢)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٨٠١٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢/ ٩٥)، (١٥/ ٩٠)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٨٨)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٢٦).

ﷺ يواجه التكذيب والعناد بمكة.

وكيف يكون هذا العذاب قريبًا[1]؟

١- يجوز أن يكون المعنى أن يوم القيامة أجل معدود، وميقات معلوم، إلا أنه قريب بالقياس إلى سرعة أيام الدنيا: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١].

٢- أو يكون قريبًا باعتبار أن المقصود عذاب الدنيا؛ لأن الله أنذرهم عذاب الدنيا والآخرة، كما وقع لهم في بدر وفتح مكة، وهذه كانت للمخاطبين أنفسهم وليس لجنسهم، كما قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

٣- ومن معاني كونه قريبًا: أنه مرهون بالموت، فإن الإنسان إذا مات قامت قيامته.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾ بعينه ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، **والمقصود**: ما عمل، وما سمعت أذنه، وما مشت إليه قدمه، وما فاه به لسانه، وهو جارٍ على لغة العرب في التعبير باليدين، **والمقصود**: الجوارح.

وقوله هنا: ﴿يَنظُرُ﴾ يعزِّز أن المرء يوم القيامة يرى صورته وهو يعمل أو يقول، وهي مسجلة كما وقعت، تُرى وتُسمع وتُدْرك بما لا يدرك في الدنيا.

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ إشارة إلى أن أصل الوعيد للكافرين، وأن المؤمن بمنجاة من ذلك كله، وإن عُذِّب في ذنب ما إلا أن مَرَدَّه بإذن الله إلى رحمة الله ورضوانه، ولهذا قال هنا: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾، واستخدام حرف ليت يدل على بُعْد هذا الأمر، وأنه صار مجرد أمنية!

وقد يجوز أن يكون المعنى: أنه يتمنى ذلك إذا رأى الحيوانات والوحوش قد استحالت ترابًا، حين يقال لها: «**كوني ترابًا**». فتكون ترابًا، بعدما يُقتَصُّ لبعضها

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٩١)، و«تفسير القشيري» (٣/ ٦٨٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٢٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٨٨)، والمصادر السابقة.

من بعض- كما قاله بعض السلف[1]- فيتمنى مصير الحيوانات وهو تحوُّلها إلى تراب، ويحتمل تمنِّى أنه لم يُخلق؛ لأنه مخلوق أصلًا من التراب، أو لم يبعث بعدما هلك، كما قال: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٧].

وكلا المعنيين قريب[2]، والله أعلم.

❍ ❍ ❍

(١) ينظر: «العظمة» (٣/ ٨٢١)، و«المستدرك» (٢/ ٣١٦)، (٤/ ٥٧٥)، و«البعث والنشور» للبيهقي (ص٣٣٦)، و«السلسلة الصحيحة» (١٩٦٦).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٩١)، و«الكشاف» (٤/ ٦٩٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٢٧)، والمصادر السابقة.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

❊ **تسمية السورة:**

اسمها المشهور: «**سورة النازعات**»، أو «**سورة** ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾»[1].

ويسمِّيها البعض بأسماء باعتبار ألفاظٍ لم تَرِد إلَّا فيها، كـ: «**سورة الساهرة**»، و«**سورة الطامَّة**»[2].

❊ **عدد آياتها:** ست وأربعون آية عند أهل الكوفة، وخمس وأربعون عند الجمهور[3].

❊ **وهي مكية** بإجماع المفسِّرين، كما ذكر ابن عطية، والقرطبي، وابن الجوزي، والقاسمي، وابن عاشور، وغيرهم[4].

❊ ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١﴾:

هذا قَسَمٌ من الله بـ«النازعات»، **وقد اختلف المفسرون في تحديد معناها على**

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٠١)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٨٧)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٦٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩).

(٢) ينظر: «جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٤٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩).

(٣) وقد اختلفوا في قوله: ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٣﴾، وقوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٣٦٣)، و«الكشاف» (٤/ ٦٩٢)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣١٩)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٠).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٠)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٤٧)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٩٥)، والمصادر السابقة.

أقوال:

هل هي الملائكة؟ **أم** سكرات الموت؟ **أم** هي الوحوش؟ **أم** هي النجوم؟ إلى غير ذلك من الأقوال المبثوثة في كتب التفسير.

والمختار أن «النازعات» وما عُطِف عليها من المُقْسَم به في هذه السورة ترجع إلى شيء واحد، ولعلها «الملائكة»، كما هو قول ابن عباس وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وجماعة من السلف وأئمة التفسير[1].

أقسم تعالى بها على أحوال متعدِّدة، فأول ما أقسم به: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ أي: الملائكة تنزع أرواح الكفار بقوة وشدة.

وقوله: ﴿غَرْقًا﴾ أي: أنها تستغرق في النزع مثل صاحب القوس، فالملائكة تنزع أرواح الكفار من كل أطرافهم؛ فإن روح الكافر تتفرَّق في جسده، فيجمعها الملائكة وينتزعونها نزعًا شديدًا كما يُنتزَع السَّفُّود من الصوف المبلول، ولذلك يُقال لحالة الموت: حالة النـزع.

* ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢﴾:

الناشطات هي: الملائكة حينما تنشط أرواح المؤمنين فتقبضها برفق ورحمة ولين، فتسيل روح المؤمن كما تسيل القطرة مِن فم السقاء، وكما قال النبيُّ ﷺ: «**المؤمنُ يموتُ بعَرَقِ الجبين**»[2]؛ لأن الملائكة تنزع روحه برفق وتبشِّره: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

* ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣﴾:

هي الملائكة تَسْبَح بين السماء والأرض، فتصعد بأرواح المؤمنين، أو تنزل لقبض مَن حانت منيَّته من العباد، أو تنزل بالوحي، أو تنزل بأمر الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٠٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٢٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١)، والمصادر السابقة.

(٢) أخرجه الطيالسي (٨٤٦)، وأحمد (٢٢٩٦٤)، والترمذي (٩٨٢)، وابن ماجه (١٤٥٢)، والنسائي (٤/ ٦)، والحاكم (١/ ٣٦١) من حديث بُريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد ذكر الله أن للملائكة أجنحةً، كما في قوله: ﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ [فاطر: ١].

* ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤﴾:

من هنا اختلف السياق وانتقل من كونه قَسَمًا إلى كونه **عطفًا**، فالسابقات هنا تابعة للسابحات، وهي الملائكة تَسْبح بين السماء والأرض، والسَّبْح يدل على السرعة، مما ناسب أن يعطف على ذلك السَّبْقِ في قوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾، فالملائكة سَبقت بني آدم بالإيمان: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وسَبَقت بالوحي إلى الأنبياء، وسَبَقت بأرواح المؤمنين إلى الجنة، وتسبق بتنفيذ ما أُمرت به.

* ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥﴾:

عامة المفسرون على أن المقصود بالمدبِّرات: الملائكة[1]؛ فهي تدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض بإذن ربها؛ **فمنهم** مَن يكون مُوكَلًا بالقَطْر، **ومنهم** مَن يكون مُوكَلًا بالوحي، **ومنهم** مَن يكون مُوكلًا بقبض الأرواح، **ومنهم** مَن يكون مُوكلًا بالحفظ، **ومنهم** مَن يكون مُوكلًا بالأخذ والعقاب.. إلخ.

وفي قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾.. ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ﴾.. ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ﴾ تسلسل طبيعي في بيان شيء من وظائف الملائكة، فهي تَسْبَح بين السماء والأرض وتسبق؛ لأنها من أمر الله، وتدبِّر ما كُلِّفت به، وهذا أحد أسباب اختيار هذا القول، وهو أن المقصود بالقَسَم كله: الملائكة، **للأسباب الآتية**:

١- عامة المفسرين على أن المقصود بقوله تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾: الملائكة، فكذلك ما قبله؛ لأن حمل قسم على معنى وحمل الآخر على معنى مختلف، لا يخلو من بُعد وتكلُّف.

٢- أن السورة كلها تتعلق بالدار الآخرة والبعث والجزاء والنشور، وأول

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٩٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣١٣).

مراحل الدار الآخرة هو الموت، فكان مناسبًا أن يكون القسم مبدوءًا بـ«النازعات» ثم «الناشطات» إشارة إلى بداية مرحلة الدار الآخرة، وإنما فَصَل الله تعالى في أول السورة بين «النازعات» و«الناشطات» للفرق بين حالة قبض أرواح المؤمنين وحالة قبض أرواح الكافرين، وأنهما مختلفتان لا تستويان، وكأن في ذلك إشارة إلى أنه من بداية انتقالهم من الدار الدنيا إلى الدار الأخرى يبدأ الفرق يتضح ويظهر جليًّا، فهؤلاء تُنْزَع أرواحُهم بقوة وشدة، وأولئك تُنْزَع أرواحهم برفق ولين، وتُنشط نشطًا.

* ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧﴾:

وهنا لا نجد جواب القَسَم في السياق، ولا في اللفظ، لكنه متضمّن في المعنى، وهو يتعلق بالراجفة والرادفة والبعث، فيكون معنى القسم: لتُبْعَثُنَّ أيها الناس، إذ البعث واقع لا محالة.

وهذا القَسَم فيه قوة؛ لأن الله تعالى لا يُقْسم إلا بعظيم ينبغي أن تلتفت إليه الأنظار، وعند ما يكون القسم بأشياء جديدة يسمعها لأول وهلةٍ، فإن هذا يهزُّ الإنسان هزًّا، خاصة إن كان ممن لديهم ذائقة عربية صافية، فيلتفت لهذا القَسَم ويصغي، باحثًا عن الموضوع، لكنه يفاجأ بأن السياق تجاوز موضوع المقسم عليه، وترك التصريح بجواب القسم، وانتقل بالإضراب إلى موضوع آخر، فقال: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾، فهذا يُحدِث في القلب تطلُّعًا إلى البحث، ويأتي الجواب أن المُقْسَم به محذوف معروف، وتقديره هو البعث وعودة الأرواح إلى أجسادها، كما دلت عليه الأقسام ذاتها.

وهذا يدل على عظمة موضوع البعث، وأنه من أركان الإيمان، وهو الفارق بين الإيمان والكفر، فإن الإنسان إذا آمن بالبعث اعتدل الميزان عنده، وسعى لإصلاح آخرته، كما يسعى لإصلاح دنياه.

والراجفة هي: النفخة الأولى، وهي الظرف الذي يقع فيه البعث، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]، فهي صوت مُزَلزِل

مُجلجِل قوي، الله تعالى أعلم بكُنْهِه، من أثره تحصل زلزلة الأرض، وموت الكائنات، وتغيُّر نظام الحياة المألوف.

والرَّادفة هي: صيحة أخرى، وبينهما ما شاء الله تعالى من السنين، وفيها إِحياء الناس بعد موتهم، وإعادة الأرواح إلى الأجساد، وقيام الناس لرب العالمين(١).

* وهذه الحقيقة جديرة أن تغيِّر من حياة المرء الذي يؤمن بها، وتضيف بُعدًا جديدًا لحساباته ومقاييسه، وتؤثِّر في مواقفه وخياراته، ولهذا قال سبحانه: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾﴾ أي: يوم البعث، وجاءت القلوب هنا مُنكَّرة؛ إشارة إلى عدم الاستغراق، أي: ليست كل القلوب كذلك، وإنما ثمة قلوب واجفة وهي قلوب الكافرين، والتعبير بالجمع يدل على كثرتها.

والواجفة هي: الخائفة القلقة(٢)، كما وصفها بقوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

* ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾:

قال: ﴿أَبْصَارُهَا﴾، ولم يقل: «أبصارهم»، أي: أبصار تلك القلوب.

وفيه معنى لطيف؛ وهو أن السمع والجوارح مرتبطة بالقلب، فبمجرد ما ترى الإنسان تعرف كثيرًا مما يخفي قلبه، كما يقول الشاعر(٣):

والعينُ تعرفُ من عَيْنَيْ محدِّثِها ... إن كان من حزبِها أو مِن أعاديها

وكما تقول لإنسان: إني أقرأ في عينيك أنك خائف أو متردِّد.

وكثيرًا ما يمكن معرفة الصفات الأساسية عبر قراءة الملامح الأولى للإنسان، حين نشاهده لأول وهلة.

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٧٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩٣- ٣٩٤)، و«الكشاف» (٤/ ٦٩٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٣٤)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٨٢)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٨٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٥، ٦٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١٧٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٦)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «غرر الخصائص الواضحة» (ص٥٨)، و«فاكهة الخلفاء» (ص٢٦١).

ومشهد الأبصار الخاشعة مناسب لمشهد القلوب الواجفة، فما دامت هذه القلوب واجفة قلقة خائفة مرعوبة، فإن هذا يظهر في الأبصار جليًّا، وثَمَّ فرق بين إنسان ثابت البصر قويه، وآخر زائغ العين، قلق لا يستقرُّ على حال، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الشورى: ٤٥].

ولم يقل: «ذليلة»، وإن كان المعنى مقاربًا، لكنه عبَّر بـ﴿خَٰشِعَةٌ﴾؛ لأن هؤلاء كانوا في الدنيا يُطْلَب منهم الخشوع لله، فيُعْرِضون ويستكبرون: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، وربما كان لهم صولجان وسلطان وبأس وقوة، وكانت تخشع منهم النفوس وتخشاهم، فيوم القيامة يصوِّرهم الله تعالى بهذا المشهد المَهِين، وهو أن قلوبهم واجفة، وأبصارهم خاشعة منكسرة، نقيض ما كانوا يظهرون عليه من القوة والبطش في الدنيا، وفي حال مثل التي كانوا يذيقونها الناس من التخويف والإرعاب!

* ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾﴾:

وهذا المقال يقولونه- والله أعلم- في الدنيا، فبعد أن صوَّر لنا الله هذه اللمحة السريعة والصورة العابرة عنهم وهم في موقف القيامة، أراد أن يقارن ذلك بما كانوا عليه في الدنيا، حينما كانوا ينكرون ويجحدون.

والتعبير بالفعل المضارع يدل على التكرار، فهم كثيرًا ما يجادلون في شأن البعث والنشور، فكلما دُعوا إلى التوحيد والإيمان بالبعث استكبروا، وقالوا: هل سوف نُرَدُّ إلى الحافرة؟

والحافرة هي: الحالة الأولى، كما تقول العرب: رجع فلان إلى حافرته. يعني: إلى ما كان عليه في حالته الأولى. فلو أن إنسانًا كان على فساد، ثم صلح، ثم رجع إلى ما كان عليه، فإنك تقول: فلان رجع إلى حافرته، أي: إلى حالته الأولى.

أو هي الأرض، تُسمَّى: الحافرة؛ لأنها تُحفَر بأقدام الخلق في مشيهم وركضهم وسعيهم، وفي ذلك إشارة إلى العمل والدأب في الدنيا، فهم يقولون:

هل سوف نعاد إلى الأرض مرة أخرى؟[1].

* ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ١١﴾:

هذا يؤكِّد أن مساق كلامهم في الدنيا؛ لأنهم لو كانوا في الآخرة لما قالوا ذلك؛ لأنهم قد كانوا عظامًا نَخِرة ثم بُعِثوا، وهم يتساءلون عن المستقبل بعد الموت، وهم يؤمنون بالموت، إذْ لا أحد إلا وهو يؤمن بالموت، أي: إذا بَلِيَت أجسادُهم، ولم يبقَ إلا العظام المتآكلة، وحتى العظام تَبْلَى، ولكنهم يتحدَّثون عما يشاهدون من آثار الموتى، فهم بقولهم هذا يستبعدون البعث، وينسون أن الروح مما لم يشهدوا ولم يقفوا له على فناء!

فإذا بلي الجسد بقيت الروح، ثم تعود مرة أخرى بإذن ربها.

* ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ١٢﴾:

ظاهر هذا القول الاستهزاء والسخرية.

وهنا نلحظ أنه تعالى عبَّر في هذه الآية بـ﴿قَالُوا۟﴾، ولم يعبِّر بـ«يقولون»؛ لأن قولهم هذا ليس من الحجج التي يكرِّرونها، ولكنها كلمة خرجت في حالة استبعاد للأمر، أو تضاحك بعضهم مع بعض.

* ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ١٣﴾ فالأمر يسير، ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤﴾ أي: لا يحتاج الأمر إلى معالجة وجهد؛ لأن أمره ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فإعادة خلقهم في الآخرة لا يحتاج إلى ما كانت عليه نشأتهم أول مرة بأن يكون أحدهم نطفة ثم علقة ثم مضغة، ويظلَّ تسعة أشهر في بطن أمه، ثم يولد... إلخ، فهاهم على ظهر الأرض أحياءً بعدما كانوا في بطنها أمواتًا.

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ١٩٥)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٢٤٤)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٠٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٦).

وينظر أيضًا: «الزاهر في معاني كلمات الناس» (١/ ٣٦٠)، و«أساس البلاغة» (١/ ١٩٩)، و«الجمهرة» (١/ ٥٩٣)، و«تاج العروس» (١١/ ٦٤، ٦٨، ٦٩) «ح ف ر».

والساهرة على قول الجمهور: الأرض. **وبعضهم يقول**: هي: أرض الشام. **والصواب**: أنها الأرض كلها[1].

واختيرت هذه المفردة دون غيرها؛ لأن الأرض التي سيُبْعَثون عليها غير أرض الدنيا، في تضاريسها وطبيعتها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فمعنى كونها «ساهرة» أي: ممتدة ليس فيها جبال ولا مرتفعات ولا منخفضات، كما قال تعالى: ﴿يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥- ١٠٧]، أي: يمشي فيها السَّراب، فيرى الناس الأرض كالسَّراب؛ لامتدادها واتساعها.

❁ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥﴾:

خطاب للنبي ﷺ، وقد أتاه هذا الحديث مرارًا، وقصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هي أكثر قصص القرآن، حتى قال بعض المفسرين[2]: كاد القرآن أن يكون كله حديثًا عن بني إسرائيل؛ لشدة الشبه بين دعوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوة سيدنا محمد ﷺ، وللمعركة التي علم الله أنها سوف تكون في آخر الزمن بين الأمة المسلمة وبين الصهاينة ومَن وراءهم.

والمعنى: قد أتاك[3]، فهو سؤال للتقرير، وفيه تذكير بالقصة، وقد سمَّاه الله تعالى حديثًا، إشارة إلى أنه خبر حقيقي.

واختار الله تعالى قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تسليةً للنبي ﷺ؛ لأنه كان يعايش أهل الكفر في مكة، فهي دعوة لاقتباس العبرة والدرس.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٧٣).

(٢) ينظر: «تفسير ابن عرفة» (١/ ٣١٣)، و«في ظلال القرآن» (١/ ٦٦، ٢٦١)، (٣/ ١٣٢٨)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٠/ ١١٢).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٠٨)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ٣٩٥)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٣٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٥)، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ٢٤﴾، وما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ١٧﴾، وأول «سورة الغاشية».

وهو تلويح وتلميح للمشركين بمكة أن سيصيبهم مثل ما أصاب الذين من قبلهم إن لم يعتبروا.

* ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾:

ذُكِرَت قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مختصرة، والاختصار يتطلَّب ذِكْرَ الأمر المهمِّ في السياق، وهذا من أسرار التكرار في القرآن، فإن القصة تُكرَّر، وفي كل موضع يُذْكَر ما يناسب السياق، فهنا بدأ من وقت نداء الله لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهذا يشبه ما في «سورة طه»: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾، وقال: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

ولك أن تتصور إنسانًا يتيه في الصحراء، ثم يجد النار، فيذهب إليها كي يظفر بقبس يهتدي به في الطريق هو وزوجته، فيفاجأ أن الله تعالى يمنحه قَبَسًا يهديه، ويهدي به مَن شاء من عباده إلى خيري الدنيا والآخرة، ثم يخاطبه ربه مباشرة.

ووقع التكليم مرة أخرى، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، ولتكرار التكليم سُمِّي موسى بـ«الكليم».

و﴿طُوًى﴾ اسم الوادي على القول الصحيح، وقيل غير ذلك(١)، وهذا الوادي يوجد في سَيْناء، قريبًا من مصر، أي: بين مصر وفلسطين، وهو بقرب جبل الطُّور.

وقد وصفه تعالى بأنه «مقدَّس»، أي: مطهَّر، ولذلك اختاره محلًّا للنداء.

* ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

﴿فِرْعَوْنَ﴾ واحد الفراعنة، وهي أمة حكمت مصر أزمنة متطاولة، ويقال: إن

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٠٣)، و«تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٦٧)، (٣/ ٣٨٨)، و«تفسير الطبري» (١٦/ ٢٨)، (٢٤/ ٧٩)، و«تفسير الرازي» (٢٢/ ١٩)، (٣١/ ٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١١/ ١٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٧٥).

«إخناتون» هو أول مَن تَسمَّى بفرعون، والملك الذي خاطبه موسى ودعاه يُسمَّى فرعون أيضًا.

وفي القرآن ما يدل على أن الفراعنة ليسوا وحدهم الذين حكموا مصر قديمًا، كما في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث سمَّى الله تعالى حاكم مصر بـ﴿ٱلْمَلِكُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ [يوسف: ٥٤]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦]، ولم يكن يُسمَّى بـ«الفرعون».

واختلف المؤرِّخون وعلماء الآثار في تحديد اسم ﴿فِرْعَوْنَ﴾ الذي أُرْسِل له موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والكثيرون منهم يقولون: إنه: رمسيس الثاني.

وموريس بوكاي في كتابه: «القرآن والتوراة والإنجيل في العلم الحديث» رجَّح أن فرعون المرسَل إليه موسى هو: ابن رمسيس الثاني(١).

ويقال: إن جثة فرعون الذي أُرسل إليه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هي الموجودة اليوم في المتحف المصري في القاهرة، وهي محنَّطة بطريقة تحفظ الجثة تمامًا، حتى إنك ترى الأظفار والشعر والجسد كاملًا غير منقوص، ويقول بعضهم: إن هذه الجثة فيها كسور في العظام من غير أن يكون فيها جروح في الجلد، مما يدل على أن الكسر كان بسبب ضغط الماء، وقد ذكر الله سبحانه في ذلك آية معجزة، فقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢]، فبعدما أغرقه البحر، وأماته الله تعالى، قذفه البحر إلى الشاطئ، فأخذه أتباعه من بعده وحنَّطوه، وبقي بأمر الله؛ ليكون لمَن خلفه آية، وهذا احتمال لا يمكن الجزم به.

وكلمة ﴿فِرْعَوْنَ﴾ كلمة مركَّبة من لفظين: «فر»، ومعناه: القصر، أو المبنى الفخم. و«عون»، ومعناه: العظيم، فيكون معنى «فرعون»: عظيم القصر، وهو مكان سكن فرعون.

---

(١) ينظر: «قصة الحضارة» (٢/ ١٨١)، و«أوضح التفاسير» (ص٤٦٨)، و«التفسير الوسيط» لطنطاوي (٥/ ٣٤٢)، (٧/ ٢٦٧)، (١٠/ ٣٧٤)، (١٢/ ٢٧٨)، و«التفسير الوسيط» (١/ ٩٨)، (٤/ ١٣٦- مجمع البحوث الإسلامية)، وما تقدم في «سورة التحريم»: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ...﴾ [التحريم: ١١].

وقد وصف تعالى فرعون في هذه الآية بالطغيان، وهو مجاوزة الحد بأمرين[1]:

١- عصيان الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الطغيان تمرُّد على الله تعالى وكفرٌ به، ويكفي من كفره ادعاء الألوهية.

٢- استعباد الناس.

فهو تمرُّد على الله، وظلم لعباد الله.

❊ ومع أن فرعون قد طغى، إلا أن الله علَّم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الأدب في الدعوة، فقال: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾:

وجملة: ﴿هَل لَّكَ﴾ أسلوب من أساليب التلطُّف والتأدُّب.

وقال تعالى لموسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، ولكن في هذه الآية تحديدًا ذكر تعالى أنه رتَّب لموسى هذا القول اللَّين، فأمره أن يقول لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾، أن تكون زاكيًا طاهرًا، فعرض عليه الأمر الأول الذي هو في مصلحته، وفيه زكاة قلبه وطهارته بالمعاني الفاضلة، وفي عقله وفي ضميره، وفي وجدانه وحياته.

❊ ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾:

ولم يذكر اسم الله تعالى هنا، وإنما قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، يعني: إلى خالقك وموجدك؛ لأن الفطرة تهدي إلى الله، وتدلُّ على الخالق الموجِد المبدِع سبحانه؛ ولأن الفراعنة كانوا يعتقدون أنهم من نسل الآلهة.

وهكذا كان فرعون هذا يزعم أنه ابن للإله، ولهذا خاطبه موسى بهذا الخطاب، فقال: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ يعني: الذي خلقك ورزقك وسوَّاك وعدلك.

وقول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ نقض لمفهوم الربوبية المزيَّف الذي كان ينتحله الفرعون وحاشيته، وتأسيس لمفهوم جديد يقوم على التوحيد والعبودية والفصل الحاسم بين الخالق المعبود وبين المخلوق الخاشع المتذلِّل.

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (١/ ٩٠)، و«زاد المسير» (١/ ٢٣١)، و«تفسير الرازي» (٢/ ٣١١)، و«تفسير القرطبي» (١/ ٢٠٩)، و«فتح القدير» (١/ ٥٣).

وقوله: ﴿فَتَخۡشَىٰ﴾ دليل على أن العلم الحقيقي ثمرته الخشية، ولا خير في علم لا يُورث الخشية.

* وطَوَى الله تعالى كثيرًا من القصة، فقال: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝٢٠﴾، أي: العصا أو اليد التي فيها العبرة، وقصتها معلومة وردت مفصَّلة في مواضع من القرآن.

* ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١﴾:

إشارة إلى سرعة التكذيب، وفيه دلالة على مبلغ الكِبْر في نفس فرعون، مع أنه مستيقن بصدق موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل: ١٤] والطغيان يفضي بصاحبه إلى رد الحق والاستكبار عنه.

والعصيان: نتيجة طبيعية مرتَقبة للتكذيب برسالات الله.

* ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣﴾:

الإدبار إعراض، وكأنه انشغل بحرب الدعوة عن التفكير فيها وتأملها.

والتعبير بـ﴿يَسۡعَىٰ﴾ إشارة إلى بذل غاية الوسع في التخطيط والكيد وللقضاء على الدعوة التي تهدِّد سلطانه وملكه، وإلى الاستعجال والسرعة نتيجة الشعور بالخطر، ولهذا قال: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾، يعني: حشر السَّحَرة، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١١]، فحشرهم من كل الأنحاء في اجتماع عامٍّ، وجمع الناس وناداهم وصاح فيهم بدعوى الإلهية.

* ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٤﴾:

وقد ذكر بعض المفسرين أن معنى هذا القول: أنا سيِّدكم.. أنا حاكمكم.. أنا الذي تجب عليكم طاعتي، وقد أشار الرازي إلى شيء من هذا المعنى(١).

والأرجح أنها على ظاهرها، ولا يعني بالضرورة ادِّعاء أنه مبدع الكون

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٤/ ٣٤١).

وخالقه، لكن كان يعتقد أن له نسبًا إلى الآلهة.

ومثل هذا الاعتقاد كان منتشِرًا في الأمم الوثنية، كاليونان والرومان وغيرهم؛ ولهذا لما اعتنق قُسطنطين النصرانية حرَّفها وخلط فيها بين الألوهية وبين البشرية، فاعتقدوا أن في بعض البشر شيئًا من خصائص الألوهية.

يقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إن فرعون كان منذ أربعين سنة يقول لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]»[١].

ولكي يظهر للناس صدقه، فإنه خاطب هامان بقوله: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨﴾.

والتعبير بالظن كان كلامًا خاصًّا، وإلا فهو يعلن للناس تكذيبه بتصريح مشبَّع باليقين.

* وعند نشوة الطغيان والتكبر كان أمره أقرب ما يكون إلى الزوال، وهذه سنة الله تعالى في الظالمين: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥﴾:

الفاء تدل على التعقيب، أي: أنزل عليه عقابًا مُنـكِّلًا يعتبر به المعتبرون، و﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ هي: الدار الآخرة، وقدَّمها؛ لأن عقابها أطول وأشد، ﴿وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ هي: الدنيا؛ لأن عقابها مهما طال فهو يسير، ففرعون غرق في الماء، وكان هذا عقابه وعقاب مَن معه، وهذا اختيار ابن كثير وجماعة.

أما الطبري فيرى أن المقصود بـ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: الكلمة الآخرة، وهي قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، ﴿وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾: قوله: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وهذا له وجه، **وأولى منه** ما قاله مجاهد: إن المقصود بقوله: ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ أي: أخذه الله عقوبة الأول والآخر من أعماله[٢].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٤٣٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣١٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٨٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٩٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١٩٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٤٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣١٥).

وهذا معروف في أساليب العرب، فيقولون على سبيل التهديد والوعيد: يا فلان، إذا عاقبتك فسوف أعاقبك عقوبة الآخرة والأولى من أعمالك، يعني: على كل عمل عملته وأسلفته من الأخطاء والذنوب.

* ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٢٦﴾:

في نهاية حال فرعون عبرة لقريش إن كانوا يعتبرون ويخشون مثل هذا المصير أن يحلَّ بهم، وهو كان أقوى منهم، وهم يعلمون مصيره، وقد كان في قريش مَن سُمِّي بفرعون هذه الأمة، فكان من وعيد الله وتهديده إياه أن قال في شأنه: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: ١٥].

ومن العبر العظيمة التي تضمَّنتها القصة:

١- أهمية الاعتبار بالحوادث؛ فإن التاريخ يعيد نفسه، والحاضر هو نمط الماضي، والمستقبل نمط الحاضر، والتاريخ يخلو غالبًا من القفزات والمفاجآت، فهو يمضي وفق سُنَّة وناموس، فمَن عرف هذا الناموس من خلال استقراء أحداث الماضي استطاع أن يوظِّفه بإصلاح الحاضر وبناء المستقبل.

ولهذا يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، فأثنى الله تعالى على مَن يعتبرون ويفيدون من مثل هذه العبر والآيات، وكما قال الشاعر:

فمَن وعَى التاريخَ في صَدْرِه أضافَ أعمارًا إلى عُمْرِه

وقال آخر:

اقرؤوا التاريخَ إذ فيهِ العِبَرْ ضلَّ قومٌ ليس يدرونَ الخبرْ

وما أكثر الذين يقرؤون كتب التاريخ قراءة التسلية وحب الاطلاع، دون قراءة الاعتبار والاتعاظ الكاشفة للنواميس والسنن الإلهية، أو أن يقيسوا أنفسهم عليها، كأفراد أو جماعات أو دول.

٢- مع طغيان فرعون أمر موسى باللِّين!

وفي هذا السياق قصة شهيرة، وهي أن رجلًا قال لهارون الرَّشيد: يا أميرَ

المؤمنين، إني أريدُ أن أعظك بعظة فيها بعض الغلظة، فاحتملها. فقال: كلا؛ إن الله أمر مَن هو خيرٌ منك بإلانة القول لمَن هو شرٌّ مني؛ قال لنبيِّه موسى إذ أرسله إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[1] [طه: ٤٤].

ومن الحقائق المؤسفة أن في خطاباتنا الدعوية شيئًا من القسوة والتعنيف، خاصة للبسطاء والضعفاء، وعامة الناس فضلًا عن خاصتهم، وثَمَّ خلط بين مفهوم القوة في الحق وبين القسوة، كالصلف والاندفاع، والتهجم على المخالف أو التسرع في تصنيفه والحكم عليه، وهذا ليس من القوة في شيء، كما أن الهدوء واللِّين ليس ضعفًا، و«**الشَّديدُ الذي يملكُ نفسَه عند الغضب**»[2].

فالهدوء في لغة الخطاب، والتدرج، والبحث عن الأساليب التي تكون مدعاة للقبول أمر مطلوب، وهو من أسباب الاستجابة، كما يقول سُليمان التَّيْمِيُّ: «ما أغضبتَ أحدًا فقَبِلَ منك»[3].

ويقول سبحانه عن نبيه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ينبغي للداعية أن يستخدم اللِّين في دعوته.. والابتسامة.. والكلمة الطيبة.. وتحمُّل ما يصدر من الناس من الانفعال أو ردود الأفعال.. والتدرُّج، بحيث يهيِّئ نفسه أن الفرد أو المجتمع لا يحتمل الاستجابة جملة واحدة، فيحتاج إلى التدرُّج والترقِّي، دون مساسٍ بكرامته، أو تبكيت أو تقريع، بل تحفيز على قبول النصح مع

---

(١) ينظر: «العقد الفريد» (٣/ ١١٠)، و«مرآة الجنان» (٢/ ٥٥).

ونحوها مع المأمون وغيره: ينظر: «العفو والاعتذار» للرقام البصري (٢/ ٥٧٩)، و«العقد الفريد» (١/ ٥٤)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» (٦/ ٥٤)، و«مرآة الجنان» (٢/ ٥٥)، (٤/ ١٣٥)، و«نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة» (ص٩).

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٦١١٤)، و«صحيح مسلم» (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «التبصرة» لابن الجوزي (٢/ ٣٠٥)، و«اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» لابن رجب (ص٨٤).

الحفاظ على إنسانية الفرد وكرامته ومكانته.

وقد كان أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلًا حديث عهد بإسلام، ومع ذلك فإن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من باب الحفاظ على شخصيته، وأن يشعر أن الدين لم يرزأه شيئًا[1] قال يوم الفتح: «**مَن دخلَ دارَ أبي سفيانَ فهو آمنٌ**»[2]. والناس ليسوا بحاجة إلى الخروج لدار أبي سفيان؛ لأن مَن دخل داره فهو آمن، لكن من باب تشجيعه على تغيير موقفه التاريخي الرافض للإسلام.

فإياك أن تظن أن دعوة إنسان تستوجب إذلاله وتحقيره وتجريده من كرامته، ولا بد من بيان أن حقيقة التوبة والإنابة إلى الله لا تستدعي أن يفضح الإنسان نفسه أمام الخلائق، ولا أن يفتح لهم صفحات الماضي؛ ليظهر لهم توبته من كل خطيئة، بل يكفيه أن يجعل الأمر بينه وبين ربه.

يقول الشاعر[3]:

ولـو أنَّ فـرعـونَ لـمَّـا طغى ... وقـال على الله إفـكًـا وزورا

أنــابَ إلـى الله مستغفـرًا ... لما وجـدَ اللهَ إلا غـفـورا

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، فرحمة الله تعالى واسعة، والداعي يُعتَبر دليلًا أو دلَّالًا يدلُّ الناس على الطريق، وليس مُقَنِّطًا من رحمة الله، أو مُنَفِّرًا عن الصراط المستقيم.

٣- أشار الغزالي وابن القيم وغيرهما إلى أن النفس البشرية غالبًا ما تتشرَّب من منـزع الفرعونية إن لم يعالجها صاحبها[4].

---

(١) أي: لم ينقصه شيئًا.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٨٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «المنتخب من معجم شيوخ السمعاني» (ص٨٨١) منسوبًا إلى أبي بكر محمد بن يحيى الصُّولي.

(٤) ينظر: «إحياء علوم الدين» (٤/ ٧٠)، و«الفوائد» لابن القيم (ص٧٤)، و«مدارج السالكين» (١/ ٢٢٤).

إن مداخل التفرعن والأنانية والطغيان عند الإنسان تحتاج إلى تتبعها بالمناقيش، ولو أن الإنسان جاهد نفسه زمنًا طويلًا وذلَّلها وجرَّدها من بعض أنانيتها ثم غفل عنها قليلًا، لوجد في نفسه ركامًا من التعاظم والطغيان، وقد يقع بعض ذلك تحت ستار التدين والزهد والاحتساب.

وكثير من ألوان الطغيان والكبر قد تبدو لصاحبها خفيفة وهي لطيفة المدخل، وتتسلَّل إلى النفوس كما يتسلَّل الهواء، وكما يتسلَّل النوم إلى عين المُجْهَد، حتى تتمكَّن من القلب، فيصبح الإنسان مُعْجَبًا بنفسه متكبِّرًا متعاظِمًا، فمرة يتعاظم بعلمه، كما قال تعالى: ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣]، ومرة يتعاظم بماله، كما قال تعالى عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]، ومرة بجاهه ومنصبه أو بنسبه أو بجماله أو بمنطقه، أو بشخصيته أو بصلاحه.

وكثرة مسارب العُجب[١] والغرور والكِبْر إلى النفس تتطلَّب من صاحبها مراجعة دقيقة ومعالجة دائمة لنفسه[٢].

٤- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾؛ إشارة إلى سُنَّة الله سبحانه في الطغاة- من أمثال فرعون- فإنهم هم العائق الأكبر في وجه الأنبياء والمصلحين، ومن الملاحَظ أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يُبعَث إلى فرعون وهامان وقارون فحسب، بل بُعِثَ إلى بني إسرائيل كذلك، وإنما خصَّهم الله تعالى بالذكر، كما في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾ [غافر: ٢٣- ٢٤]؛ لأن هؤلاء الطغاة صادروا حقوق الناس، وصادروا الأرض فجعلوها ملكهم، وصادروا المال فحازوه لهم، وصادروا حرية البشر فجعلوهم عبيدًا لهم، بل صادروا حتى عقولهم.

والمتأمِّل في حياة الناس اليوم يجد بعض ذلك في وسائل الإعلام، فكثير منها تُمارِس وصاية ومصادرة لعقول الناس، وتستخفُّ وتستهين بها، وإن كانوا

(١) المراد: مداخله.

(٢) ينظر: «أنا وأخواتها» للمؤلِّف.

يتظاهرون بالواقعية والموضوعية والحياد، ولهذا جعل الله تعالى مقارعة الطغيان ومقاومته سرًّا في ابتلاء المؤمنين.

٥- أهلك الله تعالى فرعون بالغرق، ولكن ظلَّ الحكم في مصر للفراعنة من بعده، وامتد الحكم الفرعوني لمصر طويلًا، حتى قيل: إنه تعاقب على الحكم عشرون أسرة فرعونية.

وسنة الله لا تحابي أحدًا، ولا تسير وفق هوى الناس، وإنما هي حكم ونواميس يجب أن يفقهها الإنسان ويفهمها.

ولا شك- مع ذلك- أن هلاك فرعون، ونجاة بني إسرائيل من بطشه مدعاة للسرور والفرح، ولذا لما قدم النبيُّ ﷺ المدينةَ وجد اليهود يصومون عاشوراء، فقال لهم: «**ما هذا اليومُ الذي تصومونه؟**». فقالوا: هذا يومٌ عظيمٌ أنجى اللهُ فيه موسى وقومَه، وغرَّق فيه فرعونَ وملأَه، فصامه موسى شكرًا، فنحن نصومه. فقال رسولُ الله ﷺ: «**فنحن أحقُّ وأولى بموسى منكم**». فصامه رسولُ الله ﷺ، وأمر بصيامه[(١)]، فنحن نصومه لله تعالى شكرًا.

فمِن حقِّنا أن نفرح بهلاك الطاغية، ولو كان هذا شيئًا جزئيًّا.

وبعض الناس محرومون من هذه المشاعر؛ لأنهم لا يعبؤون بالمكاسب الجزئية، ونحن نقول: أعطِ نفسَك فرصةً أن تفرح بما تحقَّق من الخير، واندفع من الشر، وأحسِن الظن، أما أن يظلَّ الإنسان لا يفرح إلا بتحقُّق الخير من جميع الوجوه، وزوال الشر من جميع الوجوه، ففي هذا شيء من الخيالات البعيدة التي لا يسندها الواقع.

* ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾:

عَطْفُ هذه الآية على ما سبق فيه مناسبة ظاهرة، وهي أن فرعون لما تعاظم في نفسه، وادَّعى الربوبية جاءت الآية مبيِّنة لجانب من عجز الإنسان مهما طغى

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٠٤، ٣٩٤٣، ٤٧٣٧)، ومسلم (١١٣٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وأخرجه البخاري (٢٠٠٥)، ومسلم (١١٣١) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نحوه.

وتجبَّر.

وجواب هذا السؤال معروف، فمَن ذا الذي يستطيع أن يقرن نفسه بخلق السماوات والأرض؟!

فلو تأملت آثار الأمم الماضية من الفراعنة واليونان والرومان والإغريقيين والآشوريين وغيرهم، لوجدت شيئًا مدهشًا وعظيمًا، لكن ما نسبة هذا الذي رأيت إلى ما تشاهده في ملكوت السماوات والأرض؟! وقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ أي: أقوَّتُكم أشدُّ وأجسامكم أمتن وأقوى أم السماء؟

والسماء تُطلَق على كل ما علا وارتفع[1]، **وقد يكون المقصود**: هذه القبة التي فوقنا، فيكون في هذا إشارة إلى مَجرَّاتها ونجومها وأقمارها وشموسها وأفلاكها الضخمة الهائلة.

والإنسان عاجز عن أن يحيط بأبعادها، فضلًا عن أن يقيس نفسه بها، ولهذا عبَّر بالبناء، أي: القوة والإحكام، فإذا كان هؤلاء البشر يبنون هياكل ومعابد، وقبورًا وأهرامات، فالله تعالى قد بنى هذه السماء العظيمة.

* ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾:

والسَّمْك: السقف[2]، فالله تعالى جعلها مستوية، ليس فيها شقوق، كما قال سبحانه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

يقول ابن تيمية: «إن في هذا دليلًا على كُرَوِيَّة الأرض والسماء؛ لأن عدم التفاوت والتسوية إنما يكون في الجِرْم المدوَّر الذي يستوي، بخلاف ما إذا كان مربَّعًا أو مستطيلًا أو مسطَّحًا أو ما أشبه ذلك، فإنه لا يُوصَف بأنه مستوٍ؛ لأن فيه

---

(١) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٢٧) «س م ا»، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾﴾، وما سيأتي في «سورة الشمس»: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤١١)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٤٢٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠٣)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٥٠).

وينظر أيضًا: «العين» (٥/ ٣١٨)، و«تهذيب اللغة» (١٠/ ٥٠)، و«لسان العرب» (١٠/ ٤٤٤)، و«تاج العروس» (٢٧/ ٢١٠) «س م ك».

أشياء تختلف عن غيرها، وفيه زوايا وأطراف وغير ذلك»[١].

❋ ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي: أظلمه، فجعله شديد الظلمة، **والليل** هنا هو الليل الذي يراه الناس على الأرض، ولكن مصدر الظلمة والنور الشمس التي هي في السماء، ولذا قال: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾، **والضُّحى** هو نور طارئ؛ بسبب الشمس، والظلمة سببها غياب الشمس، أي: عدم وجود مصدر للنور، ولو لم يوجد مصدر للنور لكان الكون مظلمًا[٢].

❋ ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: بعد خلق السماء، **وقد اختلف العلماء في أيِّهما خلق أولا؛ السماء أم الأرض؟**

فذهب جمع إلى أن السماء خُلِقت أولًا؛ استدلالًا بهذه الآية.

وذهب آخرون- **وهو الأرجح**- إلى أن الأرض خُلِقت أولًا، ثم خُلِقت السماء، ثم دُحِيَت الأرض بعد خلق السماء، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ٩- ١١].

وهذه الآيات تدل على أن الأرض خُلِقَت أولًا في يومين، ثم بارك فيها وقدَّر فيها أقواتها، ثم استوى إلى السماء، وهذا مذهب ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[٣]، مع أن الآيات تحتمل، والسياق لم يأت ليقرِّر مسألة فلكية ويقطع بها، بل ليوجِّه نظر الإنسان للتأمل والاعتبار والتواضع والشكر.

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٥٠)، (٦/ ٥٦٥)، وما تقدم في «سورة نوح»: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾، وما سيأتي في «سورة الشمس»: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٨٩، ٩١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١٩٣- ١٩٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٤٦٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ١٧٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦- ٤٧)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٣٨٤).

والدَّحْو هو: البسط والتهيئة(1)، أي: جعلها مدحوَّة مهيَّأة مُعَبَّدة مذلَّلة؛ ليعيش الناس عليها، ويمشوا ويركبوا ويبنوا ويزرعوا... فلو أن الأرض كانت صخرية لمات الناس جوعًا وعطشًا، ولو كانت مضطربة تميل؛ لما أمكن أن يبنوا عليها.

وقد جعل الله قشرتها صالحة للسُّكنى، وصالحة للنبات، وأودع في باطنها خيرات مكنوزة من الماء وغيره، وجعلها كرة معلقة في الفضاء، والذي يمسكها هو الله سبحانه، كما قال: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

* **ومن معاني «الدَّحْو»**: أن يُضمن باطن الأرض الخيرات الكثيرة، ولهذا قال: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾، وغالب ما يحتاجه الإنسان هو: الماء والمرعى- أي: الطعام والشراب- ولهذا نجد في سياق نعيم أهل الجنة ذِكْر هاتين النعمتين، وما أكثر ما نقرأ في القرآن قوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ففي قوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ إشارة إلى نعمة الزرع والرزق، وفي قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ إشارة إلى نعمة الماء.

* ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾:

وهذا معدود من دحو الأرض وضبطها، أي: جعل الجبال لها أوتادًا تثبتها، فالجبل بالنسبة للأرض كالوتد بالنسبة للخيمة، فهي تجعل حركتها منتظمة غير قلقة، حتى إن الإنسان لا يحس بها.

فكل جبل مغروس متجذِّر في باطن الأرض؛ ليحفظ توازنها(2)، فلا تميل ولا

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٩٤)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٢٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ١٩٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٥٣)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٠٨)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٤٦).

(2) ينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾.

تضطرب، إضافة إلى كونها مصدرًا من مصادر الرزق، حيث تشتمل على المعادن وغيرها مما ينتفع الناس به.

* ﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٣﴾:

هذه الآية تكررت مرتين، مرة هنا، ومرة في «سورة عبس»، لكن هنا لها سياق، وهناك لها سياق آخر، ففي «سورة عبس» ذكرها الله تعالى بعد آيات في تعداد مفردات من الرزق في قوله: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾، بخلاف السياق هنا فلم يكن تعدادًا لمفردات الرزق، وإنما هو لفت الأنظار إلى سنن الله تعالى في الكون والحياة، وكأنه إشارة إلى أن هذه الأرزاق لو لم يكن معها سنن إلهية تحفظها لما انتفع بها الإنسان.

أو أنها محصِّلة سننٍ إلهية لطيفة كان من جرَّائها بقاء الرزق وتنوعه وتجدده بقدر حاجة البشر.

* ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٣٤﴾:

﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾: الشيء العظيم الذي يعمُّ ويغطِّي[1]، وهي شيء مرعب مفزع لا أعظم ولا أهول منه.

تجد هذا المعنى في إيقاع الكلمة ووزنها، كما هو ظاهر، **والمقصود**: القيامة، كما قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا[2].

والتعبير بهذا الوصف أبلغ مما لو قال: «فإذا جاءت القيامة»؛ لأنه جاء بوصف جديد مضافًا إلى الحقيقة نفسها، وهي أن القيامة مرعبة مفزعة.

* ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ٣٥﴾:

والتذكر يكون بعد انقطاع بذهول أو نسيان أو موت، ويكون عند رؤية القيامة والبعث، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠٦)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٦٢٢)، (١٢/ ٢٠٥)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٣٥).

وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس: ٥٢].

وفي موضع آخر يتذكر ما سعى حين يُعرَض عليه الحساب ويُناقَش؛ فإذا جحد شيئًا شهد عليه سمعه وبصره ويداه ورجلاه بما كان يكسب[١]، ويجدها في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، فيتذكر ما سعى حين شهادة الجوارح عليه، وحين الحساب، وحين يؤتى الكتاب.

وهذا التذكر هو للإنسان مطلقًا، على أن من الناس مَن يتذكر ما يزيد سروره وسعادته؛ لأنه تذكر أشياء محمودة يحبها الله ويرضاها، ومنهم مَن يتذكر ما يؤلمه ويخيفه من الجرائم والجرائر.

وقد ذكر النبي ﷺ قصة ذلك الرجل الذي تاب؛ فيقرِّره الله تعالى بذنوبه الصغار، ويترك عنه الكبار، وهو يقرُّ بها، ولا يستطيع أن ينكر منها شيئًا، حتى إذا بشَّره الله بأنه قد أبدلها له حسنات؛ لأنه تاب إلى الله منها، فيقول: ربِّ، قد عملتُ أشياء لا أراها هاهنا. ثم ضحك ﷺ حتى بدت نواجذه[٢].

* ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾:

والمقصود هنا: الكافر[٣]، كما قال تعالى: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف: ٥٣]، وكما أن الكفار يرون النار، فإنها تراهم، قال تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ [الفرقان: ١٢]، وكذلك المؤمنون يرون النار، لكنها ليست رؤية الفزع والخوف والرُّعب، بل رؤية الطُّمأنينة في أن الله تعالى نجَّاهم منها، ولم يجعلهم يعملون عمل أهلها.

* ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾:

مثل فرعون ﴿ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾، وفيه تعريض بالطُّغاة في مكة الذين كانوا

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور: ٢٤]، وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [فصلت: ٢٠].

(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (١٩٠).

(٣) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ١٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٠١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٥٩).

يحاربون دعوة النبي ﷺ.

* ﴿وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨﴾:

أي: استحبَّها على الآخرة، وقدَّم شهواته على مرضاة الله، كما قال تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦- ١٧]، وهذا سرُّ الطُّغيان؛ فإن الإنسان يتعلق بالدنيا وزينتها وزخرفها ومتاعها، ويُؤثِر المشهود على الموعود، ويُؤثِر الفاني على الباقي[١]!

* ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٣٩﴾:

أي: مردُّه ومصيره ومنتهاه إليها.

* ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١﴾:

﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ وهي إشارة إلى مشروعية أن يُعبد الله ويُتقرَّب إليه خوفًا من النار، كما يُتقرَّب إليه حبًّا له سبحانه، والإنسان لا يعبد الله بالحب وحده، ولا بالخوف وحده، بل يعبده بالحب والرجاء والخوف، وآيات القرآن تشهد لهذا، وتدل على مشروعية أن يفعل المرء الطاعة، ويحذر المعصية؛ خوفًا من الوعيد، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤].

وخوف مقام الله، إما أن يكون المقصود الخوف منه سبحانه، ومَن همَّ بالمعصية فاستحضر عظمة الله ومشاهدته ورقابته، فتركها؛ خوفًا من الله، كتبت له حسنة كاملة، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**قالت الملائكةُ: ربِّ، ذاك عبدُك يريدُ أن يعملَ سيئةً- وهو أبصرُ به- فقال: ارْقُبُوه، فإن عملها، فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها، فاكتبوها له حسنةً؛ إنما تركها من جَرَّايَ**[٢]»[٣].

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الأعلى».

(٢) قال النووي في «شرح صحيح مسلم» (٢/ ١٤٨): «بالمدِّ- يعني: جرائي- والقصر، لغتان، معناه: من أَجْلي».

(٣) أخرجه البخاري (٤٢)، ومسلم (١٢٩).

فعلامة الخوف من الله أن يترك المعصية حيث لا يراه إلا الله، ولا يجوز أن يكون الله تعالى أهون الناظرين إليك.

وإما أن يكون المقصود الخوف من مقام الله تعالى يوم الحساب، فإنك ستُوقَف بين يديه، وسيسألك ويحاسبك، فما هو جوابك؟ وما هو قولك؟

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ إشارة إلى وجود الهوى في النفس، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن اللهَ كتبَ على ابنِ آدمَ حظَّه مِن الزنا، أدركَ ذلك لا محالةَ، فزنا العينين النظرُ، وزنا اللسانِ المنطقُ، والنفسُ تتمنَّى وتشتهي، والفرجُ يصدِّقُ ذلك أو يكذِّبُه**»(١). وليس النهي في أن يقع الهوى في نفس الإنسان؛ فإن كل إنسان سَوِيٍّ يقع عنده الهوى، ولكن المشروع أن ينهى نفسه عن الهوى، وعن الاسترسال معه، والعمل بمقتضاه.

وفي ذلك إشارة للفضلاء من أصحاب محمد ﷺ الذين خافوا مقام ربهم سبحانه، وآثروا ما عنده على شهواتهم وتحمَّلوا الأذى في سبيله: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، وشتان ما بين المصيرين؛ فالمؤمنون مصيرهم إلى جنة عرضها السماوات، والأرض خالدين فيها أبدًا، لا يبلى شبابهم، ولا يزول نعيمهم، وأولئك في نار تلظَّى، يتمنى أحدهم راحة يوم فلا يجدها، أو نومًا فلا يجده، أو تخفيفًا فلا يظفر به.

* ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾:

بعد ما أُخبروا عن المصيرَيْن إذا بهم يسألون عن الساعة: متى رُسُوُّها؟ والرُّسُوُّ عادة ما يكون للأشياء الكبيرة، مثل قوله: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾، وهكذا السفينة يقال عنها: ترسو، ولا يقال: رسا القارب؛ لصغره.

والسائلون هم كفار مكة، كانوا يسألون عن الساعة، ويقولون: متى هي؟ وهو سؤال استعجال وتكذيب وسخرية.

أما اليهود والنصارى فكانوا يسألون النبيَّ ﷺ عن الساعة، لكن سؤالهم

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧).

سؤال تعجيز[١].

وكذلك بعض المسلمين كانوا يسألون النبيَّ ﷺ، ولكن على جهة الاستعداد، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رجلًا من أهل البادية أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، متى الساعةُ؟ قال: «**ما أعددتَ لها؟**». قال: حبَّ الله ورسوله. قال: «**أنت مع مَن أحببتَ**»[٢].

أناسٌ يتساءلون اليوم عن وقت قيام الساعة، ويحاولون أن يحدِّدوا موعدها من خلال علم النجوم والسِّحر والكَهانة والحسابات الفلكية، أو يحاولون الوصول إلى تحديد نهاية لهذا الكون.

وبعضهم يحاول ذلك باعتماد الرُّؤى والأحلام والظُّنون، ووُجِد مَن يحاول ذلك بتأويل النصوص القرآنية[٣].

* والقرآن يحسم ذلك كله بما لا مجال معه للتردد أو التأويل: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: ليس هذا إليك، وليس لك علم به، فلا تلتفت إليهم، ولا تُجِبْهم؛ لأن هذا من علم الله عَزَّوَجَلَّ[٤]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥].

* ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: منتهى علمها، وهذا معنًى واضح ومناسب للسياق، أي: أن الذي يعلم متى تقوم الساعة هو الله وحده.

أو أنَّ أمْرَ الساعة إلى الله، فهو الذي يقيمها، وهو الذي يقدِّرها متى شاء، فهي

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٩٩)، و«تفسير الماوردي» (٢/ ٢٨٤)، (٦/ ١٩٩)، و«تفسير النسفي» (١/ ٦٢٢)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٥١٨)، و«فتح القدير» (٢/ ٣١١)، و«مباحث في علوم القرآن» لمنَّاع القطَّان (ص١١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٧١)، ومسلم (٢٦٣٩).

(٣) ينظر ما تقدم في «سورة القيامة»: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾.

(٤) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٩٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٠٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠٩).

من أمره ومنه وإليه[1].

وليست مهمتك أن تخبر الناس متى الساعة، ولا أن تجيب عن سؤالهم عنها، وإنما شأنك أن تحدِّثَهم عن أشراطها، وتَحُثَّهم على الإيمان بها والاستعداد لها، كما في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**قال: فأخبِرْني عن الساعةِ؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلمَ من السائلِ. قال: فأخبِرْني عن أمارتِها؟**...»[2]. يعني: علاماتها الصغرى والوسطى والكبرى.

* ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾:

قرأ الجمهور: ﴿مُنذِرُ﴾، وقُرِئت: ﴿مُنذِرٌ﴾ بالتنوين[3]، أي: مَن يخشى الساعة فيؤمن بها ويستعد لها، ولا يتخذ الكلام في الساعة لهوًا وعبثًا.

* ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾:

العشيَّة: ما بين زوال الشمس إلى غروبها، **والضُّحى**: من طلوع الشمس إلى وقت الزوال، أي: كأن مقامهم في الدنيا كوقت العَشِيِّ أو الضُّحى في قصره، وسرعة تقضِّيه.

وذكر الله عنهم في آيات أخرى أنهم يقولون: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [المؤمنون: ١١٣]. ومرة: عشرة أيام، ومرة: ساعة من نهار، كما في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٣- ١٠٤].

وإنما اختلفت إجاباتهم؛ تبعًا لاختلاف ما لبثوا وعمّروا في الحياة الدنيا،

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٠٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٢٠٣)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٥٣)، و«الكشاف» (٤/ ٦٩٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم (٩، ١٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه مسلم (٨) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٧١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٥)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٨)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٢٩٦).

فمنهم مَن قال: لبثنا عشرة أيام. وأعقلهم وأكثرهم خبرة ومعرفة قال: لبثنا يومًا. وبعضهم قال: إنما هو بعض يوم. وبعضهم قال: إنما هي عشية أو ضحاها.

أو يكون ذلك لاختلاف تقديراتهم وحساباتهم وظنونهم، والله أعلم.

❍ ❍ ❍

سُورَةُ عَبَسَ

*** تسمية السورة:**

اسمها الشهير في كتب التفسير والحديث: «**سورة** ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾»، أو: «**سورة** ﴿عَبَسَ﴾»(١).

ولم يذكرها السيوطي في «الإتقان» ضمن السور التي لها أكثر من اسم(٢).

غير أنك تجد في المصادر أسماء أخرى للسورة مُقْتَبَسة من بعض مدلولاتها ومضامينها، وقد سُمِّيت: «**سورة ابن أم مكتوم**»؛ بالنظر إلى سبب النزول، و«**سورة الأعمى**»، و«**سورة الصاخَّة**»، وذكر العيني لها اسم: «**سورة السَّفَرة**»(٣).

*** عدد آياتها:** أربعون آية، **وقيل**: إحدى وأربعون، **وقيل**: اثنتان وأربعون(٤).

*** نزلت بمكة** اتفاقًا، ويظهر أنها من أوائل السور المكية؛ لأن عبد الله ابن أم

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٠٥)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٥٨٧)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٢٨٩)، و«سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٣٢٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٠٢)، و«المستدرك» (٢/ ٥١٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١).

(٢) ينظر: «الإتقان» (١/ ١٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٨٧)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٦٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٤١)، و«عمدة القاري» (١٩/ ٢٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١).

(٤) وقد اختلفوا في ثلاث آيات: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤﴾، ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ٣٢﴾، ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦٤)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٠)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٤١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١).

مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من السابقين إلى الإسلام[1].

* **سبب نزولها:** أن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان مشغولًا بدعوة الأكابر من قريش، كعُتْبة وشَيْبة ابني رَبِيعة، فجاءه ابن أم مكتوم، وهو أعمى، فكان ينادي النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقول: يا رسولَ الله، علِّمني مما علَّمك الله. فكأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجد في نفسه عليه، فأعرض عنه؛ لأنه مشغول بهؤلاء القوم الذين كان يرجو إسلامهم، وذلك موقف عابر وخاطر طائر، لم يكن له استقرار ولا ثبات.

وهي تربية ربانية تأخذ بالألباب، أن يحدث هذا بسبب موازنة وترجيح نبوي بين المصالح المتعارضة، فينزل عليه الوحي الذي اعتاد أن يكون له مسلِّيًا معزِّيًا مصبِّرًا، فإذا به يحمل عتابًا على عبوسه وتولِّيه عن هذا الأعمى، وهو مشهد مليء بالدروس في الدعوة.. والصبر.. والتواضع.. وفي حساب المصالح والمفاسد.

وعبد الله ابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اسمه: عمرو، أو: عبد الله، وعمرو أشهر، وأمه: عاتكة، واشتُهِر بهذا اللقب، وهو قريب لخديجة زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن المسلمين الأوائل.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَله إلى ما عنده من الدين والسابقة، حيث إنه كان من أول المهاجرين- بعد مصعب بن عُمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- إلى المدينة، ولما جاء سأله أهلُ المدينة: ما فعلَ أصحابُك الذين من بعدك؟ قال: هم أولاء على أثري، سيأتون من بعدي.

وقيل: إنه استُشهِد في معركة القادسية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].

* ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾:

أي: كَلَحَ وقطَّب وتجهَّم وجهه[3]، **والمقصود:** النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قطعًا من دون شك،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٠٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «الاستيعاب» (٣/ ١١٩٩)، و«تهذيب الكمال» (٢٢/ ٢٧)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٦٤- ٣٦٥)، و«الإصابة» (٧/ ٣٣٢).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٠٢)، و«غريب القرآن» للسجستاني (ص٣٤٠).

وأعرض ببدنه، فالعُبوس يكون بالوجه، والتولِّي يكون بالبدن(١).

عاتب اللهُ عَزَّوَجَلَّ رسولَه ﷺ على لمحة العُبوس التي ظهرت في تقاسيم الوجه، ولم يقع منه ﷺ غير هذين الأمرين؛ العُبوس والتولِّي عن الأعمى؛ ذلك لأن مقام النبوة عظيم، لا ينبغي أن يكون فيه مثل هذا.

وفيه دليل على التفات الإسلام منذ أيامه الأولى إلى الفقراء والضعفاء والمساكين، ولهذا لما سأل هِرَقل أبا سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أشرافُ الناسِ يتَّبعونه أم ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم»(٢).

وقد وقع للإمام الرازي- صاحب «التفسير الكبير»- زلة في تفسير هذه السورة، فذكر أن ما فعله ابن أم مكتوم كان معصية؛ لأنه أتى النبيَّ ﷺ يسأله وهو مشغولٌ بدعوة كبراء قريش، وإن ما فعله النبيُّ ﷺ كان سائغًا أن يفعله.

ثم حاول بهذا أن ينفك من الإشكال، فذكر أن الله تعالى عاتب النبيَّ ﷺ، إما لأنه التفت لهؤلاء بحكم القرابة، أو أنه أعرض عن ابن أم مكتوم بحكم العمى(٣).

وهذا تأويل رديء، وافتعال لإشكال لا معنى ولا وجود له في الآيات، فإن العتاب واضح مصدره وسببه.

والأقرب أن أساس العتاب للرسول ﷺ هو زيادة الحرص منه ﷺ على هداية هؤلاء القوم الذي حمله على الإعراض عن الأعمى والعُبوس في وجهه.

والإنسان كلما علا قَدْره، وزادت منزلته كان العتب عليه يَرِد في أصغر الصغائر؛ لأنه محل الكمال والجلال.

وكان دافعه ﷺ الحرص على هداية القوم، وتوقُّع الخير الكثير من وراء

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٤٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٥٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٦٢)، والمصادر السابقة.

(٢) أخرجه البخاري (٧، ٢٩٤٠، ٢٩٤١، ٤٥٥٣)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس، عن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ٥٢- ٥٣)، وينظر أيضًا: «نكث الهميان في نكت العميان» (ص٢٠)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ١٥٣).

إسلامهم، وعادة ما يترتب على مثل هذا أن يكون الداعية منهمكًا منشغلًا، فربما أرجأ أمر الأَتْباع الموثوقين أو وَكَلَهم إلى ما عندهم من الإيمان.

والإنسان إذا أفرط في الانشغال، أو تكاثفت عليه الأعمال وملأت خاطره؛ فإنه لا يكون مع زوجته وأهله ومَن حوله على حال الانسجام والرضا والطواعية، وربما علاه شيءٌ من التوتر والانفعال.

وفي هذا تأكيد على القاعدة الشرعية المعروفة، وهي أن المصلحة المُحَقَّقة لا تُتْرَك لمصلحة متوقَّعة، والأمور المؤكَّدة لا تُترَك لما هو أقل تأكيدًا منها، والمصلحة العظمى لا تُترَك للمصلحة الصغرى.

ويتحصَّل من هذا الموقف دروس عديدة وفوائد كثيرة:

١- العناية بالمقبِل أكثر من المُعرِض؛ لأن له سابقة ومبادرة، والإعراض عنه ربما يفضي إلى صدوده أو انتكاسه.

٢- دعوة المسلمين مقدَّمة على دعوة الكفار.

صحيح أننا مؤتمَنون أن ندعو الناس كلهم إلى الإسلام، ونقيم الحجة عليهم، ولكن الذي يظهر أن دعوة المسلمين إلى التمسك بدينهم أولى وأهمُّ، وهذا لا يعني التقليل من أهمية وجود مَن يتخصَّصون في دعوة الكفار، وإقامة الحجة عليهم.

٣- دعوة المهتدين وتعليمهم في الجملة أولى من دعوة المنحرفين الضالِّين البعيدين، وهذا لا يعني التقصير في دعوة المفرِّطين، فيجب أن يكون في المسلمين مَن يتخصَّص بدعوة أسرى الشهوات والشبهات.

ربما تكون هذه المقارنات موهمة، أو تستخدم في غير سياقها، وإنما أردت التفضيل في حال وجود شخص واحد متردِّد بين هذا وهذا، ولا يمكنه التوفيق بينها، لا وقته ولا جهده يسمح بذلك، فلا بد له من اختيار أحد الطريقين، فالأفضل له كقاعدة عامة دعوة المسلمين، ودعوة المقبلين بصفة أخص.

٤- الواقعية في أمر الدعوة؛ وتحديد الأهداف ووضوحها وكونها ممكنة

التحقيق، فمن الشباب مَن يفكر في واقع الأمة ومشكلاتها، ويغرق في هذا إلى درجة تعميه عن الأعمال المستطاعة التي تخفِّف المعاناة ولو جزئيًّا.

عليك أن تفكِّر في الأشياء المقدورة، وبدلًا من أن تقول: متى يتغير واقع الأمة. قل: ماذا عليَّ أن أعمل؟ كيف أستطيع أن أستثمر طاقاتي ومواهبي؟ يمكنك أن تتعلَّم أو تُعلِّم أن تكون خطيبًا ناجحًا، أو كاتبًا، أو شاعرًا، أو أديبًا، أو داعيةً، أو إداريًّا، أو أستاذًا أو مُبدِعًا...

❁ ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾:

هذا شروع في بيان السبب المباشر، وإلا لم يكن النبي ﷺ عبس بسبب الأعمى فحسب، فهو صاحبه وحبيبه، وله سابقته وإسلامه، ووَصَفَ تعالى الرجلَ القادم بالأعمى، ولم يذكر اسمه، بل ذكر عاهة مكروهة عند بعض الناس.

لماذا **وصف الله عبد الله ابن أم مكتوم** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **بالأعمى، وليس بوصفٍ آخر؟**

كان هذا لبيان عذر الرجل، وأنه لم يكن يرى المشهد، ولم يلحظ انهماك النبي ﷺ في دعوة أولئك الملأ، وهو عتاب للنبي ﷺ، وكأنه يقول: الرجل معذور بالعمى؛ والعمى سبب للتخفيف فيما هو فوق ذلك.

ربما يظن ظان أن الإسلام وهو في بداية ظهوره لن يفيد من رجل أعمى كإفادته من البصير القوي كامل الحواس، ولذا جاء العتاب مُعْلَنًا يُتلى في آيات محكمات إلى يوم القيامة، ولو أراد الله لجعله عتابًا يُسِرُّ به جبريل إلى النبي ﷺ من غير أن يعلم بذلك أحدٌ، ولكنه أراد أن يكون درسًا للأمة كلها: أن الإيمان والتقوى إذا أشرقت في قلب فقد تحقق بذلك المقصود الأعظم من الرسالة، أيًّا كان هذا القلب، وأن المصالح العاجلة يجب أن تتأخر في هذا المقام: ﴿وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وفي هذه الآيات دلالة على ربانية القرآن، وأنه وحي الله، فالعتاب لم يأتِ من أحد من البشر، بل من رب العالمين، والمسلم متعبَّد بحفظ هذه الآيات وتلاوتها وتعليمها للناس، كما هو متعبَّد بأن يحفظ ويتلو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وكلا الأمرين لا يخلو من مدخل يتسلَّل منه الخصوم ليقولوا مرة: إنه يمدح نفسه ويزكِّيها. ويقولوا أخرى: انظروا إلى كراهيته لموقف رجل من أصحابه وتبرمه منه ومن عاهته. أو يقولوا: ودَّعه ربه وقَلَاه وعاتبه.

وهنا النبوة والصدق في التبليغ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، يعني: لو كتمت آيةً أو لفظًا أو حرفًا لم تكن مبلِّغًا لرسالة الله عَزَّوَجَلَّ، تقول عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «لو كان محمدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كاتمًا شيئًا مما أُنْزِل عليه؛ لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]»(١).

وهذا عتاب أعظم وأبلغ في شأن زواجه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بزينب، وكشفٌ عن شيء كان يخفيه في نفسه، والله تعالى يقرِّر إبداءه وإعلاءه ليسمعه التابع الموافق والكافر واليهودي والمنافق.. خطاب الله العظيم لمصطفاه: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وهو شيء عظيم حقًّا، ولو أن أبًا عاتب ابنه، أو قائدًا عاتب متبوعه بمثل هذا، لكان حريصًا على تجاوز الموقف ونسيانه وكتمانه أو التشكيك فيه.. فكيف والخطاب من رب العالمين من فوق سبع سماوات، وفي ظروف وأحوال صعبة ومخاطر محدقة!

وجاء الخطاب في ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ بضمير الغائب، مع أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو المخاطَب به، وفي عتاب الله إياه في «سورة الأحزاب» جاء العتاب بخطاب مباشر: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وفي هذا أسرار لطيفة:

١- عدم مفاجأة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالخطاب والعتاب؛ لأن مخاطبة الغائب أولى من مخاطبته في البداية وجهًا لوجه، وعلى هذا فالبداية هذه أخفُّ وألطف مما لو قال

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٢٠)، ومسلم (١٧٧).

له: «عبستَ وتولَّيتَ». ففي العتاب تدرج وترقٍّ، بدأ بمخاطبة الغائب، ثم انتقل إلى خطاب الحاضر: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③﴾:

٢- هذا العُبوس والتولِّي أخفُّ من أن يُوصف بالذنب، وإنما هو خلاف الأولى، ومع ذلك عاتبه فيه ربه عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه ليس من مألوف أخلاق النبي الكريم ﷺ، فجاء الخطاب بصيغة الغائب للإشارة إلى أن ذلك الحدث كان استثناء بالقياس لأخلاقه ﷺ.

٣- التعبير بضمير الغَيبة يجعل المعنِيَّ به كأنه يراه واقعًا من غيره، وهذا أبلغ في تصوير المشهد وملاحظة ما فيه من مخالفة ما هو الأولى في حقه.

٤- أن الرجل الأعمى لم يلحظ ذلك؛ لأنه لا يرى، ولأنه لم يظهر من فعل النبي ﷺ شيء سوى ما حدث على سيماء وجهه الطاهر من أثر الضيق العابر.

٥- جاء الخطاب متَّسقًا مع فعل النبي ﷺ مع عبد الله ابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهو ﷺ قد أعرض، فقابل فعله شيء من الإعراض في المخاطبة المباشرة إلى خطاب الغَيبة، ولكنه لم يدُم طويلًا، ولذا جاء بعد هاتين الآيتين خطاب مباشر: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③﴾، فهو عتاب المحب لحبيبه، وهو دليل على عظمته، وقوة احتماله، ورباطة جأشه ﷺ.

كما أنه دليل على أهمية المراجعة والتصحيح، وأن قوة الإنسان وكماله ليست بالادِّعاء، ولا بالشهرة، ولا بالاسم، ولا بالنسب، وإنما هي بدأبه وصبره ومواصلته في تطلُّب الكمال وتدارك العثار.

❋ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③﴾:

يحتمل أن تكون الآية استفهامًا؛ يعني: ما يدريك لعل هذا الرجل الذي أعرضتَ عنه ولم تُجبْه، لعله يتزكَّى.

وقال سُفيان بن عُيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فلم يخبره به».

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر[1].

وفي الآية ثناء على عبد الله ابن أم مكتوم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، بأنه من المتزكِّين الأوائل، شهد له بذلك ربه جلَّ وعلا، والنبيُّ ﷺ عند ما أعرض عنه إعراضةً خفيفةً وهو منشغل بما يظن أنه أهم، ترتَّب عليه أن يُنزل الله شهادةً لابن أم مكتوم في وحي يُتلى أنه ﴿يَزَّكَّىٰ﴾، فهذه بركة نبينا ﷺ، كما قال في آخر عمره: «**اللهمَّ إني اتخذتُ عندك عهدًا لن تخلفنيه، فأيما مؤمن سببتُه أو جلدتُه، فاجعلْ ذلك كفارةً له يومَ القيامة**»[2].

فكان من بركة ذلك العُبوس أن تنزل تزكية الرجل من السماء، وأن يخلِّد الله ذكره والثناء عليه إلى يوم القيامة.

وفي الآية إشارة إلى أنه وإن كان أعمى البصر، فهو مُبصِر بقلبه، ولذلك سيتزكَّى ويَذَّكَّر.

* والفرق بين قوله: ﴿يَزَّكَّىٰ﴾، وقوله: ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤﴾: أن ﴿يَزَّكَّىٰ﴾ إشارة إلى الأعمال الصالحة من البر والمعروف والخير والصلاة والذكر والتقوى والإيمان وكل عمل صالح.

أما ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ﴾ فهي إشارة إلى الانزجار عن الذنوب والمعاصي، وهذان هما الركنان الأساسيان للرسالة: فعل الطاعة وترك المعصية، فعل المعروف وترك المنكر، **وقد أجمع العلماء على أن الرُّسل كلهم بُعِثوا بأمرين:**

١- تحصيل المصلحة.

٢- دفع المفسدة.

فكل ما أمر الله تعالى به فهي مصالح ينبغي تحصيلها، وكل ما نهى الله تعالى عنه فهي مفاسد ينبغي دفعها وإبعادها قَدْرَ المستطاع.

ولذلك انتفع الناس بهذا التعليم الرباني، فكان النبي ﷺ شديد القرب من

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٣﴾.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٦١)، ومسلم (٢٦٠١) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

أصحابه الضعفاء والفقراء، وكان يتلو: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ [الكهف: ٢٨].

وفعل هذا أصحابه من بعده، والأئمة والعلماء، حتى قيل: «إن الفقراء في مجلس سفيان الثوري كانوا كالملوك في تكريمهم واحترامهم، وتوقيرهم وتقديرهم، والإقبال عليهم»[١].

هذه هي النبوة، ليست مُلْكًا ولا سلطانًا، ولا فخرًا ولا رياءً، بل تواضعًا لله واهتمامًا بالناس وبضعفائهم، ولا يعني هذا قصد إهانة الأكابر، فليس هذا مطلوبًا، ولا هو من المروءة، بل يُعطى كلُّ ذي حقٍّ حقَه.

ولم يعاتب الله نبيَّه ﷺ على مجرد الإقبال عليهم ودعوتهم، وكان واجبًا عليه أن يدعو الأكابر كما يدعو المستضعفين، وإنما العتاب في الإعراض عن الضعفاء والفقراء.

❁ ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥﴾:

أي: عن الحق وقبوله[٢]، وهذا هو ما يُذمون به، لا أن يكونوا كبراء وسادةً وأغنياء في قومهم، فالغنى في ذاته ليس بمذموم، كما أن الفقر في ذاته ليس بممدوح.

❁ ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾:

أي: تَصْدُد، وأُبدلت الدال الثانية حرف علة، أي: تلتفت وتتوجَّه إليه وتدعوه[٣]، وحاشاه ﷺ أن يكون طامعًا في أموالهم أو جاههم، وإنما كان يطمع في إسلامهم؛ لأن بإسلامهم يسلم أتباعهم، وهو دليل على شدة حرص النبي ﷺ

---

(١) ينظر: «الجرح والتعديل» (١/ ٩٧)، و«المجالسة» للدينوري (٧/ ٧٧) (٢٩٥١)، و«حلية الأولياء» (٦/ ٣٦٥)، و«تاريخ الإسلام» (١٠/ ٢٣٠).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٢٠)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٦٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ١٤٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣١٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠٧)، والمصادر السابقة.

على هداية الناس حتى المعرِضين منهم.

* ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾:

أي: إذا قمت بالواجب وبلَّغْتَه الدعوة، ثم لم يقبل، فليس عليك من وزره شيء: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢]. ليس عليك تبعته بعد أن أقمت الحجة، وأديت واجب البلاغ[١].

* ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾:

وهذه شهادة أخرى لعبد الله ابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأنه يخشى الله، وهي من بركة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه.

* ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾:

وبأي شيء تلهَّى عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ يتلهَّى بدعوة الأكابر، فهو قد صدَّ عن دعوة إلى دعوة أخرى، ومع ذلك عاتبه ربه، فيتلقن الدرس صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه هي العظمة والنبوة، وبمثل هذا وغيره صار إمام المرسلين، فلا يُفتح باب الجنة لأحد قبله[٢]، وصارت أُمَّتُه خير الأمم، وأتباعه خير الأتباع، وأصحابه خير الأصحاب، وهديه خير الهدي، وسيرته أفضل السير، فيؤدِّب الله سبحانه نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا التأديب الرباني الواضح المُعْلَن على خاطر عابر لعل صاحب الشأن فيه وهو ابن أم مكتوم لم يعلم به إلا من الوحي!

* ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾:

﴿كَلَّا﴾ كلمة زجر وردع، يعني: لا تَعُدْ لمثل هذا[٣].

وهذا درس للعلماء والدعاة والأفراد والجماعات في استيعاب الناس

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٨٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٢١٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٧)، والمصادر السابقة.

(٢) كما في «مسند أحمد» (١٢٤٦٩)، و«صحيح مسلم» (١٩٦، ١٩٧)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٧٠)، وما تقدم في «سورة القلم»: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ٥٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١١٤- ١١٥).

والتواصل معهم، بعيدًا عن حسابات الغنى والفقر والذكاء والنبوغ أو الضعف، فدعوة الإيمان والتزكية والطهارة لا يجوز أن تكون مربوطة بمصالح فئوية أو حزبية أو مكاسب عاجلة، بل هي فوق ذلك.

ودرس في ضرورة قبول النقد والتصحيح والمراجعة، وأن لا يصرَّ الناس على تكرار تجارب فاشلة أو خاطئة، لمجرد أنها مألوفة أو متلقاة عن الشيوخ والقادة.

ودرس للحكام، فهذا سيدهم محمد ﷺ يتلقَّى من ربه العتاب والتأديب، ويعلنه على الناس، ولم ينقص هذا من قَدْرِه؛ بل زاده رفعة وعظمة، فلِمَ يظنون أن نقد فعل فعلوه أو قول نطقوه أو سياسة جروا عليها هو ازدراء لهم أو بخس لحقهم؟

ودرس لعامة الناس وخاصتهم في التوازن، وعدم الانخراط في قراءة المصالح المادية البحتة، فالجانب الإنساني والأخلاقي هو من أهم المصالح وأولاها بالاعتبار.

ودرس في قبول النقد والتدرب عليه وعدم التبرُّم منه، أو اعتقاد أن النقد يدمِّر الإنسان، بل الواقع يقول: أهميتك بقدر النقد الموجَّه إليك، فلا تقلق من النقد، والناس دائمًا يختلفون حول الأشياء المهمة والأشخاص المهمِّين والقضايا المهمَّة، أما مَن لا حضور لهم ولا تأثير، فهم يخطئون ويصيبون ويتنقلون ولا أحد يكترث لهم!

ولستَ بناجٍ من مَقَالــةِ طاعــنٍ ... ولو كنتَ في غـارٍ على جبلٍ وَعْـرِ
ومَن ذا الذي ينجو من الناسِ سالمًا ... ولو غاب عنهم بين خافِيَتَيْ نَسْرِ[1]

نَمْ قرير العين، وتأكَّد أن النقد جرعات تطعيم تقوِّي شخصيتك، وتشد أزرك، وامضِ بثقة وجرأة، ودَعِ الناس ينقدونك كيف شاؤوا، وعليك الاستماع له، والإفادة بما فيه من الحق، وإن وجدتَ شيئًا غير مقنع فارفضه ولا تبال به، ولا تقل:

---

(١) ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١١٤٠).
وخافِيَتَي النَّسْر: الريش الصغار التي في جناحه، واحدتُها: خافية.

هذا حاسد، أو حاقد، أو شانئ، أو مُعْرِض، أو مدفوع. فلا يصح في نهاية المطاف إلا الصحيح.

على أن النقدَ يجب أن يكونَ بأسلوبٍ عادلٍ صادقٍ راقٍ ليِّنٍ، يقول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، بل انظروا في أعمالكم كأنكم عبيد»(1).

يجب أن تكون متواضعًا بعيدًا عن التعالي، وعليك أن لا تجزم بصوابك فيما ليس فيه نص، ولو جزمت بصوابك فعليك أن تراعي الحكمة والموعظة الحسنة، والرفق واللين مع مَن تختلف معهم.

والضمير في قوله: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ ضمير المؤنث، وفي «سورة المدثر» جاء مذكرًا: ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾، والمعنى واحد.

ويحتمل أن يكون المراد به السورة كلها، أو الموعظة التي في هذا السياق، يعني: هذا الجزء من السورة الذي عُوتب به النبي ﷺ، ويحتمل أن يكون القرآن كله(2).

* ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ وهؤلاء الناس الذين أعرضوا ولم يقبلوا منك ليس عليك من حسابهم شيء، فالقرآن إنما هو تذكرة وعظة: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾. ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: 99]، فلا تحزن عليهم، ولا تقلق من إعراضهم، فقد أدَّيت ما عليك، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: 48]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: 21- 22].

* ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾﴾:

﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾؛ لأنها من الكريم سبحانه، وتنزَّل بها جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو مَلَك

(1) أخرجه مالك (2/ 986)، وابن المبارك في «الزهد» (135)، وابن أبي شيبة (31879، 34230)، وأحمد في «الزهد» (311)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (6/ 58، 328).

(2) ينظر: «زاد المسير» (3/ 561)، و«تفسير الرازي» (31/ 55)، و«تفسير القرطبي» (15/ 154)، (19/ 215)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 321)، و«التحرير والتنوير» (30/ 115).

كريم ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠- ٢١]، **على نبيٍّ كريم وهو محمد** ﷺ.

و﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ أذن الله بتطهيرها ورِفْعتها، وأن لا يمسّها إلا المطهَّرون، ومطهَّرة من الخطأ واللغو والباطل، وكل رجس معنوي.

* ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾:

يعني: هي محمولة بأيدي سَفَرة، **والسَّفَرَة** جمع: سافِر، وقد يكون من السِّفْر، وهو: الكتاب، والسافر هو: الكاتب، ومنها: السَّفِير الذي ينتقل بين فريقين للإصلاح.

قال وهب بن مُنَبِّه: «هم أصحاب محمد ﷺ»[١].

وقد وردت صفتهم في الإنجيل بـ«القدِّيسين».

وقال قتادة: «هم القرَّاء»[٢]، ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وقال أكثر أهل العلم- كما نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره-: هم الملائكة[٣].

وقد يشهد له حديث عائشة رضي الله عنها: «**الماهرُ بالقرآنِ مع السَّفَرةِ الكرامِ البَرَرةِ، والذي يقرأُ القرآنَ ويتتعتعُ فيه وهو عليه شاقٌّ له أجران**»[٤].

وفيه الثناء على أصحاب محمد ﷺ؛ لأنهم حملة القرآن وحُفَّاظه، والثناء على قُرَّاء القرآن عبر العصور؛ فهم فهموه وعملوا بما يقتضيه.

وهو توكيد لحفظ الله تعالى لكتابه بتسخير السَّفَرة الكرام البَرَرة المعنيين

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٢)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٤٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٠٩)، و«الكشاف» (٤/ ٧٠٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١٦).

(٣) ينظر: «مسند الدارمي» (٣٤١٢)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٦٤)، (٢٤/ ١٠٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٤٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١١٨- ١١٩).

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨).

بحفظه في السماء والأرض، خلافًا لأباطيل السَّحرة والمكذِّبين التي تطير بها الشياطين، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠- ٢١٢].

* ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾:

هذا- والله أعلم- حديث عن بعض أولئك المكذِّبين من عِلْيَة القوم الذين انشغل بهم ﷺ(١).

فإذا كان عُتْبة وشَيْبة ابنا رَبيعة، والأَخْنس بن شَرِيق، وغيرهم من المستكبرين قد رفضوا دعوة النبي ﷺ، وتصدَّى النبيُّ ﷺ لدعوتهم يوم جاءه ابن أم مكتوم، فالآيات تتضمن التوعُّد والدعاء عليهم، والدعاء من الله واجب؛ لأن بيده الأمر.

وهي إشارة إلى أن أولئك النفر ممن حقَّت عليهم كلمة العذاب، وأنهم لا يؤمنون.

والسياق يقرِّر أن مهمة الرسل هي تبليغ الدعوة وإقامة الحجة، وأنه لا عذر لمَن بلغته فتولَّى وكفر، ولذا حقَّ عليه قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾.

والصيغة صيغة دعاء، إلا أن حقيقتها توبيخ وزجر وتأنيب، فهذا الجاحد المعرض مستحق للموت ما دام ليس في قلبه إيمان ولا حياة، فالموت أجدر به.

* ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾:

تدرُّجٌ إلى المجادلة وإقامة الحجة.

وهؤلاء القوم المتحدَّث عنهم موصوفون بصفتين: الكفر، والكِبْر عن قبول الحق، فأقام عليهم الحجة فيما يتعلق بالكفر بالآيات، وأقام عليهم الحجة فيما يتعلق بالكبر بتذكيرهم بأصل الخلق الذي خُلقوا منه، فهذه الخلقة لا تهيِّئ الإنسان أن يتكبَّر أو يتعاظم.

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢٠٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٢٢١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٥٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠١)، والمصادر السابقة.

وكثير من المفسرين يرون أن المقصود شخص بعينه، مثل عُتبة، أو شيبة، أو الأَخْنس، أو عُتبة بن أبي لهب... وهذا احتمال، ولكن السياق عام في جنس الإنسان، كما يُشعر بذلك قوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾؛ ولهذا ذهب آخرون إلى أن المقصود بالإنسان هنا الجنس[1].

وهنا إيراد يحتاج إلى كشف، وهو أن المعهود في القرآن أن الله تعالى يرفع الإنسان ويكرِّمه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، **فما معنى أن يقول: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ﴾، وأن يشير إلى هوان أصله ومهانته؟**

والجواب: أننا إذا قلنا: إن المقصود: جنس الإنسان، فلا يعني ذلك الناس كلهم؛ لأن جنس الإنسان فيهم الأنبياء والعلماء والصلحاء والدعاة، وإنما الإشارة لما صار إليه غالب الناس: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

ولا يلزم أن يكون المراد بالكفر الجحود والكفر الأكبر، وإنما يشمل هذا، ويشمل ما دونه من الكبائر التي لا تُخرِج من الملة، ولذلك فسَّرها الرازي والسعدي وغيرهما بأن المقصود كفر النعمة، أي: جحودها[2]. وفيه تناسب مع السياق حيث عدَّد نعمه على الإنسان بعد هذه الآية.

وكأن المقصود جنس الإنسان الكافر، **وهذا المعنى محتمل وجيه.**

وقوله: ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾ أي: ما أشدَّ كفره وعناده[3]، كما تقول: ما أشد بياض هذا الشيء، أو: سواده.

ويكفي في شدة كفر الإنسان: إعراضه عن عبادة ربه سبحانه، مع أنه الذي أسبغ عليه نعمه وعرَّفه بآياته وصفاته وأظهر له عظمته وكبرياءه، ثم يذهب يعبد

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٠/ ٢١٩)، (٣١/ ٥٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٢/ ٧٥)، (٢٠/ ١٦٠)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢١/ ٤٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٢٠).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ٥٧)، و«تفسير السعدي» (ص٩١١).

(٣) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٤٢٣)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١٨).

صنمًا، أو حجرًا، أو بقرةً.. فلا شك أن هذا جدير بأن يوصف بشدة الكفر ويتعجب منه[(١)]!

فيا عجبًا كيف يُعْصَى الإلـ ـهُ أم كيف يجحدُه الجاحدُ؟
ولله في كـلِّ تحريكـةٍ وتسكينـةٍ أبـدًا شاهـدُ
وفـي كـلِّ شـيءٍ لـه آيـةٌ تـدلُّ على أنـه واحـــدُ[(٢)]

أو يكون قوله: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ استفهام، أي: ما الذي جعله يكفر؟ كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، وهذا مروي عن قتادة[(٣)].

والمؤمن يستشعر هنا الحلم الرباني؛ لأن الله تعالى وهو يُعجِّب من فعل الإنسان، ويبيِّن استحقاقه للقتل واللعن، يصبر عليه ويحلم، ولا يعاجله بالعقاب: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «**ما أحدٌ أصبرُ على أذًى يسمعُه من الله تعالى؛ إنهم يجعلون له ندًّا ويجعلون له ولدًا، وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم ويعطيهم**»[(٤)].

وفي الأثر: «إني والإنسُ والجنُّ في نبأٍ عظيمٍ! أخلقُ ويُعبَدُ غيري، وأرزقُ ويُشكَرُ غيري»[(٥)].

وفي الأثر أيضًا: «يا ابنَ آدمَ، خيري ينزلُ إليك، وشرُّك يصعدُ إليَّ!»[(٦)].

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٤٠/٤)، و«تفسير المراغي» (٣٠/ ٤٤)، و«تفسير السعدي» (ص٩١١).

(٢) تقدم تخريجه في «سورة الحديد»: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١﴾ منسوبًا إلى أبي العتاهية.

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١٨).

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٩٧٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥٦٣) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٢٣٧١).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٤٣)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٧٧)، (٤/ ٢٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥٨٩).

ولو كان الأمر في يد واحد من أحلم البشر وأصبرهم، لأباد كلَّ مَن يخالفه في الدين أو في الرأي أو المَشْرب، وعاجلهم بالأخذ، وكان الشاعر أبو القاسم الشَّابي يقول[1]:

أَيُّها الشَّعْبُ ليتني كنتُ حطَّابًا ... فأهوِي على الجذوعِ بفأسي
ليتني كنتُ كالسُّيولِ إذا سالتْ ... تَهُدُّ القبورَ رَمْسًا برَمْسِ
ليتني كنتُ كالرِّياحِ فأَطْوِي ... كلَّ مَا يخنقُ الزُّهُورَ بنحسي

* ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ١٨﴾:

هنا سؤال عن مادة الخلق، متجاوزًا السؤال عن الخالق والمخلوق، فذلك شيء معلوم مُسَلَّم به، فليس ثَمَّ أحد يقول: إنه غير مخلوق، حتى فرعون وهامان والنمرود وأبو جهل يعترفون بأنهم مخلوقون، والله تعالى ينقلهم من الأمر المعروف المتفق عليه إلى سؤال آخر، وهو: من أي شيء خُلقتم؟ كما في الآية الأخرى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥- ٣٦]، فهذه تُلامِس ضميرَ الإنسان وتحرِّكه: أنت مخلوق.. ومخلوق من ماذا؟[2].

هل ادَّعى أحدٌ أنه خالق يخلق كخلق الله؟

في قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع النمرود قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، هل كان النمرود يقصد أنه يحيي الموتى؟ كلا، وإنما يقصد أنه يأتي برجل مستحق للقتل فيعفو عنه، فذلك إحياؤه إياه، ويأتي بآخر لا يستحق القتل فيقتله[3]، وهو نوع من التلاعب بالألفاظ والعبارات.

(١) ينظر: «ديوان أبي القاسم الشابي» (ص١١٧).
(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الطور».
(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣/ ٣٣).

* أما الخالق الذي يُوجِد من عدم، ويحوِّل الجماد الهامد الرَّميم إلى حيٍّ متحرك، عاقل متكلِّم، واعٍ فاهم، فهو واحد لا شريك له، وهو الذي يخاطب الإنسان ويقول: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩)﴾، **والنطفة** هنا هي الشيء اليسير من ماء الرجل الذي خُلِق منه الإنسان(١)، فهل يتكبَّر وقد خُلِق من نطفة ضعيفة ليس لها قوام؟

والدفقة فيها الملايين من الحيوانات المنوية، والإنسان مخلوق من حيوان واحد من هذه الملايين، وهي مؤهَّلة من حيث الإمكان المجرَّد أن يُخلَق منها الملايين، لكن الله تعالى بحكمته يختار حيوانًا واحدًا منها، فيسبق غيره ويخترق البويضة ويتكوَّن منه الإنسان.

فلماذا يتكبَّر وهذه حقيقته؟! وكيف ينسى ربَّه، ويجحد فضله، وهو الذي رعاه منذ كان نطفة في رحم أمه حتى صار رجلًا بالغًا راشدًا؟

وفي السؤال تنشيط للعقل ولفت للأنظار، وهو أسلوب مجدٍ مع مَن كفرُهم كفرُ جهالةٍ لا كفر عناد وجحود.

﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾: الفاء للتعقيب، يعني: بعد الخلق جاء التقدير مباشرة.

وللتقدير ثلاثة معانٍ، كلها صحيحة(٢):

١- قدَّر أعضاءه، فجعل له عينين ولسانًا وشفتين، ولو اختلَّ فيه شيء من أعضائه لظهر فيه النقص والعجز والتشوه.

٢- قدَّر الأطوار التي يمرُّ بها؛ نطفة، ثم علقة، ثم مضغة مخلَّقة وغير مخلَّقة، ثم يكون إنسانًا سويًّا خلقًا آخر، ثم طفلًا، ثم فتى، ثم شابًّا، ثم كهلًا، ثم شيخًا، ثم

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٣٤)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٨٠٦٠)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ٥٨)، و«فتح القدير» (٤/ ٤٣٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١١١)، و«الكشاف» (٤/ ٧٠٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١٨)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٤٩٥)، و«تفسير السعدي» (ص٩١١).

هَرِمًا، وهي مراحل وتحولات في غاية الانسجام والانضباط، والحكمة والإبداع: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

٣- قدَّره في اعتدال قامته، وسلامة أعضائه في جماله، حيث جعله في أحسن تقويم، وميَّزه عن الحيوانات والوحوش وغيرها.

* ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠)﴾:

﴿ثُمَّ﴾ تفيد التراخي، والمعنى: ثم الله تعالى يسَّر السَّبيل، فالسَّبيل: مفعول به منصوب وهو الذي وقع عليه التيسير.

و﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ له معانٍ:

١- هو مَخْرَج الجنين من رحم الأم. وهذا مروي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وعكرمة وقتادة، ورجَّحه الطبري[1].

والمقصود أن الله تعالى يسَّر للإنسان السَّبيل للخروج من رحم الأم.

وهو معنى جيد، وفيه إشارة إلى صبر الأم على خروج الجنين، فإنها تعاني من حمله تسعة أشهر، ثم المعاناة الأشد في الولادة وآلام الطَّلْق التي تشبه الموت.

إن في خروج الإنسان من هذا المضيق وبهذه الطريقة آيةً وعبرةً يجب أن لا ينساها، كما يجب أَلَّا ينسى فضل الأم التي حملته وعانت، وقبله فضل الرب الذي يسَّر له السَّبيل.

٢- يَسَّر طريق الخير والشر، الهُدى والضلال، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، وهذا قول مجاهد، واختاره ابن كثير[2].

٣- يسَّر له معرفة المنافع والمضار، فإن الإنسان بطبعه حتى وإن كان طفلًا صغيرًا، يعرف شيئًا من مصالحه، يعرف كيف يرضع من لبن الأم، ثم كيف يتجنب

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١١٠- ١١٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٠٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٢٣)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٠٥)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٥٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٠/ ٤٠٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٤٦).

الأشياء الحارة، وكيف يتجنَّب المخاطر، وإذا عَقَلَ بدأ يفكِّر في مصالحه التجارية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها، فهذا من تيسير الله تعالى.

ولعل المعاني الثلاثة كلها مقصودة.

* ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ٢١﴾:

وهذا انتقال إلى مرحلة أخرى بعد مرحلة الجنين وبعد مرحلة الحياة الدنيا كما كان: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

والنص يؤكِّد أن الموت فعل مقصود، ليس مجرد بِلَى أو انتهاء.

ولم يقل: «فقبره»؛ لأن الذي يباشر دفنه في القبر هو إنسان مثله، وأما الله تعالى فهو يسخِّر ويهيِّئ له القبر، كما قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات: ٢٥- ٢٦].

وقد علَّم الله الإنسان كيف يحفر الأرض ويدفن فيها الموتى، كما في قصة ابني آدم: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١].

وجعل تعالى من طبيعة الأرض ما يسهِّل ذلك، حتى إن بعض البلاد الصخرية أو الجزر يكون وجود المقبرة فيها من أصعب الأمور.

فالله تعالى يُقبِر، بضم الياء، والإنسان يَقبُر، بفتحها، قال الأَعْشى[1]:

لو أَسْنَدَتْ مَيْتًا إلى صدرِها ... قام ولم يُنْقَلْ إلى قابرِ
حتى يقولَ الناسُ لمَّا رَأَوْا: ... يا عجبًا للميتِ الناشرِ

والقابر هو: الذي يتولَّى القبر.

دلَّت الآية على أن الله تعالى شرع للمسلمين أن يدفنوا موتاهم، فيجب أن يحفروا لهم القبور وأن يدفنوهم، وبعض الأمم الأخرى، كالفرس وبعض الهنود كانوا يحرقون الأموات، ثم يرمون رمادهم في الأنهار أو الصوامع، ومنهم مَن يترك الموتى لجوارح الطير والسباع، وهذا كان موجودًا عند العرب، لا سيما إذا ماتوا في

(١) ينظر: «ديوان الأعشى» (ص١٣٩- ١٤١).

المعارك؛ لأنهم يفتخرون بذلك، حتى قال الشَّنْفَرَى[1]:

ولا تَقبُروني إنَّ دَفني مُحَرَّمٌ عَلَيكُم ولَكِن أَبْشِرِي أُمَّ عامِرِ

وأم عامر هي: الضَّبْعة[2]؛ وهي تأكل أجساد الموتى، وكان الفراعنة يقبرون عظماءهم في أبنية وأقبية عظيمة، ومنها الأهرامات المعروفة، واشتُهِروا بتحنيط الموتى، في حين شرع الإسلام أن يُحْفَر للإنسان قبرٌ ويُدْفَن فيه.

ولما مات النبي ﷺ قالت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «يا أنسُ، أطابت أنفسُكم أن تَحْثُوا على رسول الله الترابَ؟»[3].

* ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢﴾:

أي: إذا شاء الله تعالى بعثه[4]، وهذا انتقال من المعلوم للمجهول، ومن المتفق عليه إلى محل الجدل والإقناع مع المعاندين المُعْرِضين، المكذِّبين بالبعث.

وإيراد حرف التراخي ﴿ثُمَّ﴾؛ لأن البعث يأتي بعد زمان طويل مقرَّر في علم الله، وهم كانوا يستعجلونه ويقولون: ما رأينا أحدًا بُعِثَ بعد موته. فكان قوله: ﴿إِذَا شَآءَ﴾ تعليقًا للنشور بإرادة الله وأنه لا يستجيب لاستعجالهم.

ولو أن الناس كانوا يُبْعَثون على دفعات في هذه الحياة، لما كان ثَمَّةَ حكمة في الابتلاء بالإيمان، فاستبطاؤهم لا معنى له!

* ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ٢٣﴾:

الأكثرون على أن معناها: إن الإنسان لم يؤدِّ ما عليه من حقِّ الله كاملًا، و﴿لَمَّا﴾ قريبة المعنى من «لم»، على أنها تفيد احتمال الحدوث في المستقبل القريب، تقول: هممت ولمَّا. يعني: لم أفعل بعد، وربما أفعل قريبًا، أو قاربت

(١) ينظر: «البرصان والعرجان» للجاحظ (ص٢٥٢)، و«جمهرة الأمثال» (٢/ ٣٠٥)، و«شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (ص٣٤٧).

(٢) ينظر: «حياة الحيوان الكبرى» (٢/ ١١٢).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٦٢) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٨٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٢٦).

الفعل.

يقول مجاهد: «لا يقضي أحدٌ أبدًا كلَّ ما افترُض عليه»[1].

ومما يناسب هذا المعنى: قوله ﷺ: «**لن يُدْخِلَ أحدًا منكم عملُه الجنةَ**». قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمَّدَني اللهُ منه بفضلٍ ورحمةٍ**»[2].

والعبد مهما اجتهد لن يؤدِّي شكر نعمة الله تعالى عليه، وهو لم يتدبَّر حقَّ التدبُّر، ولم يتفكَّر حقَّ التفكُّر، ولو تفكَّر في ملكوت السماوات والأرض، ونظر في نفسه؛ لأبصر الآيات، يقول الشاعر محمود حسن إسماعيل:

إلهي رأيتُك.. إلهي سمعتُك..
رأيتُك في كلِّ شيء..
سمعتُك في كلِّ حيٍّ..
تعاليَت لم يبدُ شيءٌ لعيني..
تباركتَ لم ينبُ صوتٌ بأذني..
ولكنَّ طيفًا بقلبي يطل..
ومِن طيفِه كلُّ نورٍ يهل..

لقد رأى آيات الله، التي جعلته يعبده كأنه يراه، أو يحاول.

وهذا المعنى مناسب لما بعده، وهو قوله سبحانه: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ أي: فليتدبَّر إذًا بالنظر إلى طعامه.

قال ابن كثير: «لم أجد للمتقدِّمين فيه كلامًا سوى هذا». أي: أن الإنسان لم يؤدِّ ما أوجب الله تعالى عليه.

ثم قال: «والذي يقع لي في معنى ذلك- والله أعلم- أن المعنى: ﴿لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أي: لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة ويفرغ القَدَر من بني آدم ممن كتب الله

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٨٠٦٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

له أن سيوجد منهم ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كونًا وقَدَرًا، فإذا تناهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم»(١).

وكأنه جواب لما يثار من تساؤل: لماذا لم يبعث الآن الأقدمون؟

فكان الجواب: لو شاء الله لأنشر الإنسان الآن، ولكن لم يشأ ذلك، ولم ينته بعد ما أمر الله به قضاءً وقدرًا من خلق الناس، فقد أذن الله أن تأتي أجيال بعد أجيال، وأمم وقرون، حتى ينتهي الأمر، ويأذن الله تعالى بالبعث، أما بعث الناس قبل موعد البعث فلا يكون.

وهو معنى لطيف، وابن كثير- وإن كان مفسِّرًا سلفيًّا- لم يجد غضاضة أن يبتكر معنى للآية جميلًا صحيحًا، تدل عليه نصوص أخرى، ولم يسبقه إليه أحد فيما يعلم.

وقد يظن بعض الناس أن الإتيان بالمعاني اللطيفة الجديدة والأسرار من الآيات خطأ، وليس الأمر كذلك، بل الأمر كما قال علماء السلوك: كما أن القرآن نزل على النبي ﷺ منجَّمًا- يعني: مفرَّقًا- فكذلك قرَّاء القرآن تأتيهم أسرار القرآن ومعانيه منجَّمة، فكلما قرأ الإنسان تجدَّد له معنى لم يلحظه من قبل.

وقد نقل الرازي عن الأستاذ ابن فُورَك معنًى في الآية مختلفًا، فقال: «كلا لم يقضِ لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان وترك الكِبْر، بل أمره بما لم يقضِ له به»(٢).

يعني: كلا لن يؤمن هذا الكافر؛ لأن الله لم يرد له أن يؤمن، ولم يقضِ له الإيمان، فالله أمره بالإيمان، لكن لم يقضِه له.

وهذا المعنى صحيحٌ في ذاته، فلا أحد يؤمن إلا بإذن الله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

لكن السياق لا يساعد؛ لأنه يبدو وكأنه يعطي الكافر العذر في كفره إذ لم يُقْضَ له ذلك.

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٣).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ٥٨- ٥٩).

* ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤﴾:

بعدما ذكر تعالى خلق الإنسان، انتقل إلى نوع آخر من الحجج والآيات الدالة على وحدانية الله سبحانه، وهي من النعم والفضائل والكرامات التي أكرم الله بها الإنسان، ودعا إلى التأمُّل في شيء محسوس قريب تشتد الحاجة إليه، وهو الطعام.

﴿فَلۡيَنظُرِ﴾ هو نظر واسع؛ نَظَرَ إيمانٍ واعتبار، فمَن نظر في هذه المخلوقات توصَّل إلى الإيمان بخالقه سبحانه، وإدراك حكمته في الخلق ورحمته وكرمه وأسمائه الحسنى.

نَظَر امتنانٍ وشكر؛ لأنه إذا نظر إلى هذا الطعام شكر مَن أعطاه إياه.

وهو نظر دائم؛ لأن الطعام، ومثله الشراب، من الضرورات الملازمة للإنسان في ليله ونهاره[(١)].

* ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥﴾:

الجمهور يقرؤونها بكسر الهمزة: ﴿إِنَّا﴾، على سبيل الاستئناف، وأما قراءة عاصم فهي بالفتح: ﴿أَنَّا﴾[(٢)]، وهذا ما يسمِّيه النحويون: بدل الاشتمال[(٣)].

والرابط بين الآية وبين الطعام ظاهر، **والصبُّ** عادة يكون من الأعلى إلى الأسفل، والمقصود بـ﴿ٱلۡمَآءَ﴾ هنا: المطر[(٤)].

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٨٦)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٢٥-٤٢٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٠٦)، و«الكشاف» (٤/ ٧٠٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٦٨).

(٢) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٧٢)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٧٨)، و«حجة القراءات» (ص٧٥٠)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٢٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٨)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٣١١).

(٣) ينظر: «غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١٣٠٩)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٦٠٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ١٦٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٦٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٤٨).

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٩٢)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٩٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٠٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٦٨).

و﴿صَبًّا﴾ مفعول مطلق، وهو دليل على قوة الصَّبِّ، والله تعالى تولَّى هذا الأمر بنفسه وذاته، كما توحي الآية، وإن كان وكَّل به الملائكة(١).

* ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾:

جاء التعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ إشارة إلى النواميس الإلهية في هذه الحياة، فالنبات لا ينبت إلا بالماء بإذن الله، والأرض تحيا بالنبات، وبعضه مترتِّب على بعض، ترتيب النتيجة على السبب، ولو شاء الله لأنبت الزرع وأحيا الأرض بغير نزول المطر، ولكنها سنته.

وفي الآية صورة تخيلية، فكأنك ترى الأمطار تهطل بغزارة، تجتاز تلك المسافة بسرعة، فتستجيب الأرض، وتتشقَّق بالنبات، حتى إنك ترى الأرض يابسة هامدة شهباء: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وأشار إلى الفاصل الزمني بعد نزول المطر وقبل خروج النبات، وهو يوضِّح معنى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣] أنه لا يعني النبات الفوري.

* وقد ذكر تعالى ثمانية أنواع من النبات: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾:

الحَبَّ هو كل ما يُحصَد، كالقمح والبُر والحِنطة والشَّعير والأرز، وهي غالبًا قوت للإنسان.

ثم **العنب**، وهو فاكهة معروفة، وهو مفيد للهضم، فإذا جُفِّف سُمِّي زَبيبًا، وكان العرب يجفِّفونه ويجعلونه قوتًا يأكلونه في غير موسمه، وله منافع كثيرة للبدن، وهو أحد الفواكه الثلاث التي هي ملوك الفواكه؛ العنب والرُّطب والتِّين، كما قال ابن القيم(٢).

---

(١) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٢٢٧)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «زاد المعاد» (٤/ ٣٣٩- ٣٤١).

والقَضْبُ هو: القَتُّ، أو العلف، ويُسمَّى قديمًا: الفِصْفِصَة، وهو ما تأكله الحيوانات، وبعض أهل العلم يقولون: إن القَضْب هو ما يُحْصَد مرة بعد أخرى(١).

والزيتون معروف، وزيته نافع، وقد ذكره تعالى في مواضع من القرآن، وسمَّى بلاد الشام بلاد التين والزيتون بالبلاد المباركة(٢).

والنخل معروف، ولم يقل: «تمرًا»؛ لأن ثمرة النخل تتشكَّل على أنواع، فتبدأ بُسرًا، ثم رُطبًا، ثم تمرًا.

ولأن النخل لا تنحصر الإفادة منه في جني ثمرته، وإنما يُنتفَع من أجزائه كلها، حتى لا يكاد يُرمى منه شيء.

والحديقة هي: البستان، والغالب أنها تُطلَق على الأشجار الملتفَّة الكثيرة المحيط بعضها ببعض، ففيها ثمار وجمال في منظرها، يقول مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ أي: أشجارًا ملتفة. وأكثر أهل التفسير على أن الغُلْب جمع: أَغْلَب، ويُطلق على الأشياء المتينة(٣).

والفاكهة معلومة، أما **الأَبُّ**، فقد قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ومجاهد: هو: الكلأ، أو ما تنبت الأرض من الحشيش أو المرعى، وهي ألفاظ متقاربة(٤). وسُمِّي بذلك؛ لأن الناس يأبُّونه، أي: يؤمُّونه.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١١٦)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٣٢٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٤٩).

(٢) كقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾ [الأنبياء: ٧١]. وقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وينظر: «تفسير الطبري» (١٠/ ٤٠٤)، (١٦/ ٣١٣)، و«التحرير والتنوير» (١٨/ ٢٤٠).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٤/ ١٠٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٣)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢٢)، و«فتح الباري» (٦/ ٢٩٦)، و«تغليق التعليق» (٣/ ٤٩٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٢).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٢١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٣).

وذكر الطبري في «تفسيره» عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قرأ هذه الآية، فقال: «قد عرفنا الفاكهة، فما الأَبُّ؟». ثم أقبل على نفسه وقال: «لعَمْرُكَ يا ابن الخطاب، إن هذا لهـو التكلُّف»(١).

وسُئل أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن هذه الآية بخصوصها؟ فقال: «أيُّ سماءٍ تُظِلُّني، وأيُّ أرضٍ تُقِلُّني، إذا قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم!»(٢).

فالصِّدِّيق والفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقفا عند «الأَبِّ» ولم يحدِّداه.

وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حَبْر الأمة وترجمان القرآن عرَّفه، ونقله عنه مجاهد، كما سلف.

أما توقُّف أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند «الأَبِّ» وعدم تحديده، فله احتمالان:

١- أن تكون من الكلمات التي جاءت في القرآن، وليست على لغة قريش.

٢- أن يكونا قد عرفا «الأَبَّ»، لكن لأنه لفظ مشترك يُطلَق على أكثر من شيء، فقد تردَّدا في تعيينه، هل المقصود بالآية المرعى والكلأ، أم المقصود به نبات آخر؟

وهذا درس في عدم التكلف والتنقير والهجوم على المشتبهات دون علم، خاصة وأن السياق مفهوم، وهو في مقام تعداد النعم والامتنان بها على الخلق وشكرها، وليس أمرًا تعبديًّا ولا يتعلق بخصوصه تكليف من زكاة أو غيرها حتى يتوجب على المكلَّفين معرفته.

وتوقُّف الشيخين في تحديد معناه لم يمنع غيرهما من البيان؛ لأن المفردة من العلم قد توجد عند المفضول وتخفى على الفاضل.

وفي الآية إشارة إلى أن هذه النعم يشترك فيها الإنسان والحيوان، ولذا ذكر ما يخص الإنسان كالفاكهة، وما يخص الحيوان كالعلف، وما يشتركان فيه كالحب،

---

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ٣٢٧)، وسعيد بن منصور (٤٣- تفسير)، وابن أبي شيبة (٣٠١٠٥)، والطبري في «تفسيره» (٣٠/ ٥٩). وينظر: «الدر المنثور» (١٥/ ٢٥١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠١٠٧)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٢٢٧)، وينظر: «تفسير سعيد بن منصور» (٣٩)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٥١).

مما يوجب الحذر أن يكون الأكل والتمتع هو قصارى ما يسعى إليه العقلاء.

يا خادمَ الجسمِ كم تَشْقَى بخدمتِـه لتطلبَ الربحَ فيما فيه خسـرانُ
أقبِلْ على النفسِ فاستكمِلْ فضائلَها فأنت بالنَّفسِ، لا بالجسمِ إنسانُ[1]

ولذا قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ﴾ [محمد: ١٢]، والذين آمنوا أَلَا يتمتعون ويأكلون؟

بلى، ولكن الذين كفروا: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾، أما المؤمن فإنه يأكل باسم الله، وينتهي بحمد الله: «**إن اللهَ ليرضى عن العبد أن يأكلَ الأَكْلَةَ فيحمدَه عليها، أو يشربَ الشَّربةَ فيحمدَه عليها**»[2]. ويتزوَّد ويتقوَّى بها على الطاعة، ويستحضر الفضل والنعمة لمُسْدِيها ومولِيها.

* ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ٣٢﴾:

فهذه المذكورات بعضها للناس، وبعضها للأنعام: ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾[3] [يونس: ٢٤]. **وكأن المعنى**: كلوا وتمتعوا، وتذكَّروا أن هذا الأمر في حدِّ ذاته لا يرفع قيمة الإنسان، فليست قيمته بما يأكل أو يلبس، أو يملك، وإنما هي بأمر فوق ذلك بكثير.

والسياق يشير من طرف خفي إلى أن على المكلَّف أن يبحث عن الكمال الإنساني، وأن يترفَّع عن مشابهة البهائم والأنعام التي لا هَمَّ لها إلا الأكل والشرب، ومع تمتعه بما أحل الله له، فعليه أن يفعل ذلك بطريقة شرعية مستحضرًا اسم الله وحمده، والتزام أحكامه، ومعرفة حقوق الجائع والمسكين وابن السبيل.

وأن يتذكَّر النعم التي شُرِّف بها الإنسان وكُرِّم دون الحيوان، وهي نعمة العقل والتكليف والمعرفة والاختيار والمواهب والأشواق والخيالات والمناجاة التي

(١) ينظر: «ديوان أبي الفتح البُستي» (ص١٨٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣٤) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٢٤)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٦٠)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٣٩٦)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ١٤٥).

هي من أعظم المتعة: «**أرحنا بها يا بلالُ**»(١).

وفي هذا السياق: دعوة إلى التوحيد والاعتراف بالخالق الرازق تبارك وتعالى.

ودعوة إلى شكر الخالق الرازق، فالله تعالى حقيق بأن يُشْكر ويُحْمَد عليها.

ودلالة على البعث؛ وهذه الأرض التي كانت هامدة، ثم شقَّها الله تعالى بالنبات كثيرًا ما تأتي في القرآن إشارة إلى البعث، وتنبيهًا إلى أن البعث يحاكي ما يقع في الأرض من خروج النبات.

* ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾:

تضمنت الآيات السابقة دعوة إلى التأمل والتوحيد والإيمان، فناسب أن يأتي بعدها تأكيد البعث، ونقل المشهد من الدنيا إلى يوم النشور، و«إذا» أداة شرط.

وقد ذكر الشيخ ابن عاشور في «التحرير والتنوير»(٢) أن جواب الشرط قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾.

وهذا بعيد، **والأقرب** أن الجواب قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾.

و﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ هي: الصيحة، وهي من أسماء القيامة، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(٣)، وقد أُطْلِق يوم القيامة في القرآن حتى صار عَلَمًا عليه، وهو يوم النفخة.

فهي الصوت الذي يصخُّ الأسماع، وقد يكون معناه: تصيخ له الأسماع، وقد يقال: فلان يصيخ، يعني: ينصت للصوت، وهذا رأي الطبري والزمخشري وجماعة(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٠٨٨، ٢٣١٥٤)، وأبو داود (٤٩٨٥، ٤٩٨٦)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٥٥٤٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٦٢١٥)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦/ ٣٠٩٧) (٧١٤٩) من حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ. وفي إسناده اختلاف، ورُوي مرسلًا. وينظر: «علل الدارقطني» (٤/ ١٢٠- ١٢٢)، و«تاريخ بغداد» (١٠/ ٤٤٢- ٤٤٥)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (١/ ٦٢- ٦٣)، و«تخريج أحاديث الإحياء» (ص١٩٥).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٧).

(٣) أخرجه الطبري (٢٤/ ١٢٤).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٢٤)، و«الكشاف» (٤/ ٧٠٥)، والمصادر الآتية.

وذهب آخرون إلى أنها الصوت القوي الذي يصخُّ أو يصمُّ الأسماعَ بقوته[1]، ولا مانع من إرادة المعنيين، فالأمر قريب.

فإذا جاءت القيامة بصوتها المجلجل القوي فذلك ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾، وورود التسلسل بهذه الصيغة انتقال من القريب إلى الأقرب، فأخوه قريب، وأقرب منه أمه وأبوه، وأقرب منهما زوجته وبنوه، في حين أن في «سورة المعارج» كان التسلسل من الأقرب إلى الأبعد، حيث يقول تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾.

وسبب فرار الإنسان من أقرب الناس إليه أنه مشغول بما يهمُّه، حتى الرسل والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هِجِّيَراهم[2]: «**نفسي.. نفسي**»[3].

أو يفرُّ منهم خشية المطالبة، كما قال قتادة؛ لأنهم بحكم المخالطة والقرابة يكون بينهم حقوق، ولهذا قال قتادة: يفرُّ قابيل من هابيل[4]؛ لأنه سوف يُمْسِك به ويقول: يا ربِّ، سَلْ هذا فيمَ قتلني؟ وهكذا كل قاتلٍ يُسأَل يوم القيامة: لماذا قَتَل؟

ذلك أنه إذا اشتد الخوف والقلق أصبح الإنسان يهتمُّ بنفسه أكثر مما يهتمُّ بزوجه أو ولده أو والده أو أخيه أو قرابته، ثم إن النتيجة المحصّلة ليست أمرًا سهلًا يمكن أن يتحمله أحد عن أحد، أو يؤثر فيه مَن يحب ويعظِّم، فهي نهاية المطاف وخاتمة المسعى، والجنة أبدًا أو النار أبدًا.

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٨٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٤)، وينظر أيضًا: «أساس البلاغة» (١/ ٥٣٩)، و«لسان العرب» (٣/ ٣٣)، و«تاج العروس» (٧/ ٢٩٠) «ص خ خ».

(٢) أي: شأنهم ودأبهم.

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٤٧١٢)، و«صحيح مسلم» (١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في حديث الشفاعة الطويل.

(٤) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٥)، و«حلية الأولياء» (٢/ ٣٤١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٦١)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٣٩٦)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ١٧١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥١).

وعبر بـ﴿مِنۡ﴾، ولم يقل: «عن أخيه»؛ لأن الأخ هو المقصود بالفرار، فيفرُّ منه بالذات؛ لأنه مشغول عنه، أو لأنه يخشى أن يطالبه، فسبب الفرار هو الأخ نفسه، أما لو قال: «عن أخيه»: فمثل أن يكون الإنسان في معركة مثلًا وفَرَّ عن أخيه، أو عن زوجه، أي: تخلَّى عنهم، دون أن يقصدهم بالفرار[١].

* ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾:

يشغله عما سواه، وفي «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال: «**يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ حُفاةً عُراةً غُرْلًا**[٢]». فقالت عائشةُ: يا رسولَ الله، النساءُ والرجالُ جميعًا، ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ؟ قال ﷺ: «**يا عائشةُ، الأمرُ أشدُّ من أن ينظرَ بعضُهم إلى بعضٍ**»[٣].

الخطب عظيم، وأمامهم من الأهوال والكروب ما يشغلهم عن نظر بعضهم إلى بعض، ليس هذا الموقف بضع دقائق أو ساعات أو أيامًا، بل ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [المعارج: ٤].

* ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ٣٩﴾:

بدأ بالفريق الأول؛ لأن السورة نزلت في شأن عبد الله ابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من جهة، وحثَّ النبيَّ ﷺ على الاهتمام بالمؤمنين ولو كانوا من الضعفاء والمساكين والمستضعفين، وعاتب الله تعالى نبيَّه بشأن هؤلاء الكفار الذين استظهرنا فيما سبق من الآيات أنهم ممن كتب الله عليهم الشقاء، وعلم أنهم لا يؤمنون، وسجَّل عليهم ذلك، فكان الأنسب أن يبدأ بالمؤمنين؛ ليبشرهم بحسن مآلهم.

والوجه قد يُراد به وجه الإنسان، ويُعَبَّر به عنه غالبًا تقول: فلان وجهه طيب.

---

(١) وقد ذهب البعض إلى أن ﴿مِنۡ﴾ و﴿عَنۡ﴾ في هذا الموضع سواء. ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٣٨)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٢٤- ١٢٥)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (٢/ ٦٠٥).

(٢) أي: غير مختونين.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

وأنت لا تقصد وجهه بالذات، لكن طِيْب معدنه وخلقه، وهي مُسْفِرَة؛ لأنها آمنت بالله عَزَّوَجَلَّ وصدَّقت المرسلين.

وجمع فيهم الصفات الثلاث كلها:

الإسفار في الوجه، وهو نور الإيمان، والتقوى، والصفاء في قلوبهم فاض على وجوههم.

الضحك، وهو فعل الإنسان، وعادةً أنه لا يضحك إلا في طمأنينة وانشراح، وهي درجة أعلى من الإسفار.

الاستبشار، وهي درجة ثالثة أعلى منهما، أي: أن في قلوبهم بِشْرًا وفرحًا وابتهاجًا، فهم يرون من هدايا ربهم ولطفه وتحفه وعطاياه ما يطمئنهم ويبشِّرهم[1].

* ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١)﴾:

وهي في مقابلة الوجوه الأولى، وكُرِّرت كلمة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ لطول الفصل، واستحضارًا للموقف نفسه.

والغَبَرة: لون الغبار المائل للسواد، كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

ومع سوادها ﴿تَرْهَقُهَا﴾ أي: تدركها وتغشاها، و﴿قَتَرَةٌ﴾ هي: الغبرة، **وقيل**: سواد كالدخان، أي أن وجوههم كاسفة ذليلة مغبرَّة سوداء لما هي فيه من الكرب والشدة[2]، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[3] [يونس: ٢٧].

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢٠٩)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٦٢)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٢٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٤٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٠٩- ٢١٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٧).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٢٩)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٢٤١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٧).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٣٢، ٦٠١).

* ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ٤٢﴾:

﴿ٱلۡكَفَرَةُ﴾ بما في قلوبهم من الجحود والعناد والاستكبار، و﴿ٱلۡفَجَرَةُ﴾ في أعمالهم، وكثيرًا ما يُطْلَق الفجور على الأعمال، كقوله ﷺ: «**إذا خاصم فجرَ**»[1]. وغالبًا ما يكون الكافر فاجرًا، كما قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ [نوح: ٢٧].

فجمعوا بين الكفر والفجور؛ ولذا جمع الله لهم بين الصفة الذاتية، وهي السَّواد في وجوههم، وبين ما يحيط بهم من حولهم، وهو القَتَرة التي تغشاهم.

وكما أن الفجور يظهر في تصرفاتهم وأعمالهم جعل القَتَرة تغشاهم وترهقهم وتحيط بهم كإحاطة أعمالهم السيئة الظالمة الفاجرة، كما قال سبحانه: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١﴾ [البقرة: ٨١]، وقال عن النار: ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، والله أعلم.

❍❍❍

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٩)، ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

❊ تسمية السورة:

اسمها في غالب كتب التفسير: «**سورة التكوير**»[1]، ومع كونه لم يرد نصًّا في السورة، إِلَّا أنه مصدر من قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، مثل «الانفطار» من قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ و«الزلزلة» من قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾.

وتسمَّى: «**سورة** ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾»، كما في حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسولَ الله ﷺ قال: «**مَن سرَّه أن ينظرَ يومَ القيامةِ كأنه رأيَ عينٍ، فليقرأْ:** ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، **و**﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، **و**﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾»[2].

وكذلك سمَّاها البخاري، وبوَّب بذلك في «صحيحه»، والترمذي في «جامعه»، وبعض المفسرين[3]، فهو اسم للسورة بإحدى آياتها، كما تُسَمَّى «الانفطار»: «سورة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾».

❊ عدد آياتها: تسع وعشرون آية، أو ثمان وعشرون، حسب اختلافهم[4].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٢٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢١١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٩).

(٢) أخرجه أحمد (٤٨٠٦)، والترمذي (٣٣٣٣)، وابن أبي الدنيا في «الأهوال» (١٩)، والحاكم (٤/ ٥٧٦).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٠٧)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٩٥)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٦٦)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٢٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٩).

(٤) واختلافهم في قوله: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ٢٦﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥٣)، والمصادر السابقة.

❁ **وهي مكية** بإجماع أهل التفسير(١).

❁ **وقد ورد في فضلها** حديث أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال لرسول الله ﷺ: يا رسولَ الله، قد شِبْتَ! قال: «**شَيَّبتني هودٌ، و﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾، والمرسلاتُ، و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾**».

وهو حديث مضطرب، كما ذكر ابن الصلاح، وغيره، وقد تقدم(٢).

❁ **موضوع السورة:**

في صدرها أخبر تعالى باثني عشر خبرًا متتاليًا: ستة منها تتعلق بالدنيا، وستة تتعلق بالآخرة، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(٣).

فالستة التي تتعلق بالدنيا ستقع في آخرها، والستة التي تتعلق بالآخرة ستقع في أولها، فكأنها متتابعة، يفضي بعضها إلى بعض.

❁ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾:

﴿إِذَا﴾ أداة شرط للمستقبل، وقد تكرر هنا ثنتي عشرة مرة، وفيه إطناب، ولم يقل: «إذا كوِّرت الشمس، وانكدرت النجوم، وسيِّرت الجبال».. وهذا من البلاغة؛ لأنه يشعرك أن كلَّ حدث خبر مستقلٌّ له هيبته ووَقْعُه وتأثيره، وكل حدث جدير بالاهتمام والعناية والتكريس، وفيه تشويق للخبر الذي بعده؛ فبعد ثنتي عشرة آية مُصَدَّرة بـ﴿إِذَا﴾ يأتي الجواب: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾.

وفيه تخويف؛ لأنه يسرد مجموعة من الحوادث العظيمة الهائلة بسرعة، ولكن بتفصيل، وكأنها مشاهد متلاحقة، كل واحد منها يستقل بإطاره، ثم يمضي ليلحقه ما بعده.

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٥)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٥٥)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» للبقاعي (٣/ ١٦٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٩).

(٢) تقدم تخريجه في أول «سورة الواقعة»، و«سورة المرسلات».

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٤١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٦).

ويُرْوَى أن أبا الوفاء بن عَقِيل كان في مجلس، وقُرِئت هذه السورة، فقال بعض الحاضرين: يا سيدي، هَبْ أنه أَنشر الموتى للبعث والحساب، وزوَّج النفوس بقرنائها بالثواب والعقاب، فلِمَ هدَمَ الأبنيةَ، وسيَّر الجبالَ، ودكَّ الأرضَ، وفطَرَ السماءَ، ونثرَ النجومَ، وكوَّر الشمسَ؟

فذكر أن ذلك لعدة معان:

١- أنه بنى لهم الدار للسكنى والتمتع، وجعلها وجعل ما فيها للاعتبار والتفكر والاستدلال عليه، فلما انقضت مدة السكنى وأجلاهم من الدار خربها؛ لانتقال الساكن منها.

٢- في ذلك تكذيب لأهل الإلحاد والزنادقة، وفضحهم وتكذيبهم؛ بهدم آلهتهم ونثر معبوداتهم ومحوها.

٣- في ذلك إظهار أن العالَم مربوب محدَث مدبَّر، له ربٌّ يصرِّفه كيف يشاء، تكذيبًا لملاحدة الفلاسفة القائلين بالقدم(١).

٤- في ذلك بيان لعزة الله وقهره وغلبته.

وقدَّم الاسم: ﴿ٱلشَّمۡسُ﴾.. ﴿ٱلنُّجُومُ﴾ على الفعل: ﴿كُوِّرَتۡ﴾.. ﴿ٱنكَدَرَتۡ﴾؛ لأن الشمس والنجوم والجبال موجودة ويراها الناس، ومستقرة في الأذهان، فإذا قال لك قائل: «الشمس» تخيَّلت صورة الشمس وهي في كبد السماء تلقائيًّا، وكذلك إذا قال لك: «النجوم» تخيَّلت هذه القبة الزرقاء، وتخيَّلت نجومها تتلألأ وتضيء، فيكون الخبر واقعًا على أمر حاضر في الأذهان، يسرع الخيال إلى تصوره وتصويره، فيكون أقوى في التأثير، حيث جعل الاسم المُسْنَد إليه أولًا، ثم بيَّن ما يطرأ عليه من الفعل، وتغيير صورته البهيَّة الجميلة.

ومعنى ﴿كُوِّرَتۡ﴾: ذهب ضوؤها فأظلمت، وهذا مروي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ويحتمل أن يكون المعنى: توقفها، وعدم جريانها مع ذهاب ضوئها، كما في قوله سبحانه: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩] وإنما جُمِعَا، لاختلال نظام جريانهما.

---

(١) ينظر: «بدائع الفوائد» (٣/ ١٨٣).

ويحتمل أن يكون المعنى: رُمِيَت وأُلْقِيَت، كما يقال: إن فلانًا صارع فلانًا، فكوَّره. يعني: أسقطه أرضًا.

وكل هذه المعاني واردة، فهي تعني أن الشمس تُظْلِم ويذهب ضوؤها وتنطفئ، وتتوقف عن حركتها المعتادة وطلوعها وغروبها، وتسقط.

ولا يلزم أن تقع هذه الحوادث كلها دفعة واحدة، بل تقع على التوالي مرة بعد أخرى(١).

* ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾:

و﴿ٱلنُّجُومُ﴾ معروفة، **وانكدارها**: ذهاب ضوئها، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾ [المرسلات: ٨].

وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢]، وعلى هذا فإن من معاني الآية: انتثارها وتفرُّقها، فعند ما يحصل انهيار النظام الكوني المعهود تظلم النجوم وتسودُّ وتتساقط، وربما تهوي في الفضاء، ويحطِّم بعضها بعضًا، أو تسقط في الأرض، أو في البحر(٢).

* ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾:

والجبال راسخة، حتى صارت مثلًا ورمزًا للقوة والثبات، ومع ذلك تُسيَّر، وجاء وصف المشهد في آيات أخرى، كما في قوله سبحانه: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٩]، وقوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

تصبح مثل القطن في خِفَّته، وكالسَّحاب في مروره، ثم تُدَكُّ وتزول، وتصبح الأرض بعد ذلك ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦- ١٠٧]،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٨٢)، (٢٤/١٢٨- ١٣١)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٦٩).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٣٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢١١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٤١- ١٤٢).

ولا ارتفاعًا ولا انخفاضًا[1].

* ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾:

أكثر المفسرين على أن ﴿ٱلْعِشَارُ﴾ **هي**: النوق الحوامل؛ فالناقة الحامل إذا دخلت في شهرها العاشر تُسَمَّى: عُشَراء، حتى تلد، وكانت من أنفس أموال العرب.

ويحتمل أن ﴿ٱلْعِشَارُ﴾ **هي**: الأرض أو الدِّيار التي تُعشَّر، أي: يُؤْخَذ منها الخراج، فالأرض الثمينة النفيسة لدى أصحابها تُهمل وتُتْرَك وتتعطَّل، وهذا لا يكون إلا لوقوع أهوال من علامات الساعة في الدنيا[2].

وتعطيلها: تركها، فلا أحد يهتمُّ بها، ولا يركبها، ولا يقتنيها، ولا يحلبها، ولا يعتني بها؛ لأن الناس مشغولون بما هو أعظم.

* ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾:

والوحوش معروفة، وهي الحيوانات المتوحِّشة، ﴿حُشِرَتْ﴾ أي: جُمِعت، وهذا أحسن وأصحُّ ما قيل، وهو أكثر ما يَرِدُ في القرآن في معنى الحشر، كقوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣]. يعني: جمع قومه، ونادى فيهم.

ومنها: قوله: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، يعني: جمعناهم.

وقوله: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٩]، يعني: مجموعة.

وقوله: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٢٢]، أي: اجمعوهم[3].

فهذا هو الأقرب في معنى الآية، ولا يمنع أن يكون جمعها هنا لإهلاكها،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٣٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٨٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٣٠)، وما تقدم في «سورة المعارج»: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٤٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٣٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٤٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٣٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢١٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٦٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٣١).

يعني: جُمِعَت ثم أُهْلِكَت؛ لأن السياق قبلها وبعدها لا يزال في وصف زوال الدنيا وقيام الساعة، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ستٌّ في الدنيا...» وذكرهن، وقد تقدم.

أما لو كان السياق عن الآخرة ويوم القيامة، فيكون معنى ﴿حُشِرَتْ﴾: بُعِثَت، ليُقْتَصَّ لبعضها من بعض، حتى يُقْتَصَّ للشاة الجَلْحاء من الشاة القَرْناء[1]، ثم يقال لها: «**كوني ترابًا**»[2].

وقد يكون جمع الوحوش بسبب الخراب الذي سيلحق الحياة البشرية، فترتعد له الوحوش الضواري، ويقترب بعضها من بعض، وقد ورد عن مجاهد- ورُوي مرفوعًا- في تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤]، يعني: «حتى ينزلَ عيسى ابنُ مريم، فيُسْلِم له كلُّ يهوديٍّ ونصرانيٍّ، وكلُّ صاحبِ مِلَّة، وتأمنُ الشاةُ الذئبَ..»[3].

* ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾:

وجاء في «سورة الانفطار»: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣﴾.

ولا مانع من إرادة المعنيين، فتفجيرها يكون بإعادتها إلى عناصرها الأولية، وإحداث الانفجار، ومِن ثَمَّ تتوقَّد وتخرج منها النار، والتسجير هو من: سجَّرت التنور، يعني: أوقدته.

ويحتمل المعنى: أن تُفْتَح البحار بعضها على بعض، ثم تفجَّر وتكون لهبًا ونارًا[4].

فهذه ست آيات تتعلَّق أخبارها بالدنيا، وهي علامات على يوم القيامة.

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٥٨٢).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة النبأ»: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ۝٤٠﴾.

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٠٤)، و«أشراط الساعة» لعبد الملك بن حبيب (٤/ ١٣٦)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ١٨٨)، و«سنن البيهقي» (٩/ ١٨٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٠٨)، و«تاريخ دمشق» (٤٧/ ٥١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٢٢٨).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٣٧)، و«الكشاف» (٤/ ٤٠٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٠).

ثم انتقل إلى ذكر آيات أخرى تتعلق بالدار الآخرة، بعد بَعْث الناس من قبورهم، ورؤيتهم لمشاهد الآخرة عيانًا أمام أبصارهم.

* ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧﴾:

وفي تفسيرها ثلاثة أقوال:

١- أشهرها: حشرُ كلٍّ إلى نظيره، فيُحْشَر الأخيار مع الأخيار، والأشرار مع الأشرار.

وتدل على أهمية الصحبة الصالحة؛ لأن الإنسان يُحْشَر مع قرنائه وأَخِلَّائه، كما في قوله تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصافات: ٢٢]، أي: نظراءهم[١]، وقوله سبحانه: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، فالأشرار يُحْشَرون معًا، ولكنهم متباغضون، والأخيار يُحْشَرون معًا متحابِّين متآلِفين حتى في عرصات القيامة، وهذا من بركة الأخوة والمحبة في الله، فهي لا تنقطع بالموت.

وهذا القول منسوب إلى عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، واختاره الطبري، وابن كثير، وعليه أكثر المفسرين[٢].

٢- إعادة الأرواح إلى أجسادها[٣]، وهو معنًى صحيح، ويؤيده أن ذلك بداية البعث وأوله، وما بعده تبع له مما جاء في سياق السورة.

٣- قرن النفوس بأعمالها. قاله الزَّجَّاج، وغيره[٤]، فكأنه حكاية عن إيتاء

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٥١٩).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٠٧)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٩٦)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١٣/ ٢٧٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٤١- ١٤٢)، و«المستدرك» (٢/ ٥١٥، ٥١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٩)، (٨/ ٣٣٢)، و«تغليق التعليق» (٤/ ٣٦١)، و«فتح الباري» (٦/ ٦٩٤)، و«الدر المنثور» (١٢/ ٣٩٥)، (١٥/ ٢٦٥).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٤٤)، و«معجم ابن المقرئ» (٦٠٠)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٠)، والمصادر الآتية.

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٩٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٠).

الإنسان كتابه بيمينه أو شماله.

* ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾:

بعدما قام الناس أحياءً، وزُوِّجَت الأجساد بأرواحها، وحُشِرَ الأبرار مع الأبرار، والفجار مع الفجار، ينتظر السامع عما سيقع بعد ذلك، فيُفاجأ بأول ما يطرق سمعه بعد، وهو مشهد الموءودة تُسأل: بأي ذنب قتلت، والناس يُسألون عما كانوا يعبدون من دون الله، وعما كانوا يعملون، وماذا أجابوا المرسلين، وعن النعيم، والسورة مكية متقدِّمة النـزول، وقد تضمَّنت تقريعًا للمشركين على الفعلة الشنعاء.

و﴿ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾: الجارية الوَئِيدة[1]، وقد كان القليل من قبائل العرب إذا قاربت المرأة الحامل عندهم أن تضع حملها وضعوها على شفير حفرة، فإن كان غلامًا أخذوه، وإن كانت جارية وضعوها في الحفرة، وواروها بالتراب!

وقد ذكر تعالى هذا المعنى في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ﴾ [النحل: ٥٨- ٥٩]، يعني: هل يبقيها حيَّة مع الهوان أو يدفنها؟

وقد رُوي أن قيس بن عاصم المِنْقَري- وهو مَن هو في شرفه ومجده وكرمه- وأد عشرًا من البنات[2]؛ ولذلك كان الفرزدق- وهو تميمي- يفخر بجدِّه صَعْصَعة ابن ناجية الذي يقال: إنه أحيا أكثر من أربعمائة وئيدة، وكان إذا أراد والدها أن يئدها، قال له: أنا أكفلها. ويعطيه ناقتين، ثم يتركها حيَّة؛ فكان الفرزدق يثني عليه

---

(١) ينظر: «لسان العرب» (٣/ ٤٤٢)، و«تاج العروس» (٩/ ٢٤٦) «و أ د».

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٩٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٤٧)، و«تفسير الرازي» (٢٠/ ٢٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٤٦).

بقوله(1):

ومـنَّـا الــذي مَـنـعَ الــوائِـداتِ وأَحـيَـا الـوَئِـيـدَ فـلـمْ يُـوأَدِ

ويُروى أن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأد إحدى بناته، وكانت تنفض الترابَ عن لحيته، وأنه كان يروي قصته بعد الإسلام ويبكي، وهي قصة موضوعة لا تصح(2).

وهذه العادة كانت موجودة في بعض قبائل العرب، وعند كثير من أمم الأرض، كالصينيين والهنود وغيرهم، ولا تزال بعض الأمم تمارِس شيئًا من الوأد الظاهر أو الوأد الخفي، منها التحكم في المواليد واختيار الذكور على الإناث، ففي كوريا كان يُولد في أوائل التسعينات من القرن العشرين (١٢٢) صبيًّا مقابل (١٠٠) بنت، كما بلغت في الصين الشعبية (١١٧) صبيًّا لكل (١٠٠) بنت، وأدَّى هذا إلى نقص البنات في آسيا، وبحلول العقد الثاني من القرن (٢١) ستواجه الصين حسب التقديرات وضعًا لن يجد فيه خُمس السكان الذكور في سن الزواج عرائس لهم! مما يترتب عليه نزوع الشباب إلى الجريمة، علمًا أن النسبة الطبيعية هي (١٠٥) فتى مقابل (١٠٠) بنت(3).

ومن ذلك عمليات التحويل الجنسية المتبادلة لأسباب شتى، مما يجور على الأنثى في الحالين، ويبخسها حقها وخصوصيتها.

ومن ذلك تجاهل الفروق الجوهرية بين الذكر والأنثى، وقد أظهرت دراسات علمية وجود فروق ثابتة، فالأنثى تملك قدرات لفظية أكثر من الذكر، وتتفوق عادة في القدرات البصرية، بينما يملك الولد قدرات رياضية، وتكون عدوانية الذكور أكثر بكثير، ولعب الأولاد بدني أكثر من البنات، وهم أكثر تنافسية جماعية، وخطاب البنات يركز أكثر على العلاقات الأسرية.

---

(١) ينظر: «الكامل» للمبرد (٢/ ٥٧)، و«منتهى الطلب» (ص٢٢٥، ٢٢٦)، و«التذكرة الحمدونية» (٢/ ٣٨٩)، و«أسد الغابة» (١/ ٥١٩)، و«الإصابة» (٣/ ٤٣٠).

(٢) ينظر: «عبقرية عمر» للعقاد (ص٢٢١- ٢٢٢)، و«دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ» (ص١١١- ١١٢).

(٣) ينظر: كتاب «مستقبلنا بعد البشر» لفوكوياما.

هذا فضلًا عن الفروق الجسدية، والتي كثيرًا ما تجور عليها طبيعة الأعمال التي تسند إلى المرأة، أو نوع التربية أو تركيز الإعلام.

أما تسليع المرأة وتوظيف جسدها في الإثارة والتشويق والاستهلاك، فقد أصبح فنًّا تقوم عليه دوائر اقتصادية ضخمة، وتسخَّر له جهود وإمكانيَّات، والله المستعان.

وفي العالم الإسلامي طرف من ذلك كله، فضلًا عن التبرم بولادة الأنثى، واعتبارها عارًا وعيبًا في بعض المجتمعات، والاستحياء من النطق باسمها، وحرمانها من حقوقها المشروعة، حتى من الميراث أحيانًا، ومن حق اختيار الزوج، وحق الدراسة والعمل المباح، والحقوق السياسية التي كفلها الإسلام حتى استشيرت النساء في مَن يلي الخلافة بعد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ!

وهنا سؤال: لماذا تُسأل الموءودة، مع أن السؤال في حقيقته موجَّه لوائدها، وهو سؤال يرد في مثل قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

والجواب:

١- أنه في يوم القيامة ينطق مَن لم يكن ينطق، ويُبِيْن مَن لم يكن يُبِين، ويتكلم كل أحد بحجته، فالمظلومون في الدنيا من الضعفاء والفقراء والنساء والمستضعفين المحرومين من حقوقهم يمكَّنون من البوح بشكواهم والمطالبة بالاقتصاص والشكوى إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فهي لما سُئلت، تجيب: إنها قُتِلَت بغير ذنب.

٢- أن سؤال الموءودة توبيخ وتبكيت لوائدها، والظالم قد يتمادى في الغي والاستبداد والطغيان، ويزيِّن له عقله وبطانته الفاسدة كثيرًا مما يعمل، فلا يلتفت ولا يتوقف، ثم يأذن الله بانكشافه وتأنيب ضميره بما يسمعه من شكاية مظلوميه، وهكذا مجرد كون الموءودة تُسأل وتُعطى حق السؤال وحق الجواب، وتعترض وتحتج، وتشتكي إلى الله، فهذا تبكيت وإيلام للوائد، فضلا عن أنه يُوحِي بمجيء

الحساب.

والوائد غالبًا هو الأب أو مَن يقوم مقامه، وفي هذا عبرة، فالله تعالى ينتقم يوم القيامة للولد من أبيه، فينتقم للموءودة من وائدها، ويعاقبه بالنار والنَّكال الشديد، وهذا دليل على ثقل المسؤولية، وأنها لا تعني إطلاق اليد، وإنما تعني التبعة والمحاسبة والسؤال، كما قال الله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، ولذلك يكون أصحاب المسؤوليات أطول وقوفًا، وأعظم سؤالًا يوم القيامة.

* ﴿بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾:

وفيه تقبيح لفعل الوائد؛ فإن هذه الموءودة قُتِلَت وهي صغيرة، فأيُّ ذنب قد جَنَتْهُ حتى تُقْتَل؟! وهو تجريد لهذه الفعلة من أي مسوِّغ، فهي فعلة شنيعة، يزيدها شناعة براءة مَن وقعت عليه من كل ذنب؛ لأنه ليس محلًّا لصدور الذنب منه.

وتضمَّنت الآية إشارة إلى مبحث مصير الأطفال يوم القيامة، وهو بحث طويل، تكلَّم فيه أهل العلم؛ كالبخاري والأشعري وابن عبد البر وابن حزم وابن تيمية وابن القيم والشوكاني وغيرهم.

أما أولاد المسلمين، فنُقِل عن الإمام أحمد الإجماع على أنهم في الجنة[١].

وأما أطفال المشركين، فقد اختُلف فيهم على أقوال، ذكرها ابن القيم في «أحكام أهل الذمَّة»[٢]، وأطال كثير من الباحثين القول فيها، وأفردوا فيها مصنفات خاصة، أحد هذه الأقوال أن أطفال المشركين ممن ماتوا دون البلوغ هم في الجنة، ونُقِل هذا عن سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]، وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ مستدلًّا بهذه الآية، ونُقِل أنه قال: «أطفال المشركين في الجنة، فمَن زعم أنهم في النار فقد كذب، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾». وهذا مذهب البخاري وابن

---

(١) ينظر: «المنتخب من علل الخلال» (ص٥٣)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (١٦/ ١٨٣)، و«فتح الباري» (٣/ ٢٤٤).

(٢) ينظر: «أحكام أهل الذمة» (١/ ٩٤٤)، وما بعدها.

(٣) أخرجه معمر في «جامعه» (٢٠٠٧٩)، ولُوَين في «حديثه» (٣٣)، وابن نصر- كما في «أحكام أهل الذمة» (٢/ ١١٣٠)- والبيهقي في «القضاء والقدر» (٥٦٧).

حزم وجماعة من الفقهاء والسلف والمتكلِّمين(١).

وقيل: إنهم يختبرون في عَرَصات القيامة، وهذا ما مال إليه ابن القيم.

لكن يحتاج إلى أدلة قوية ثابتة؛ لأنه خلاف الأصل الراسخ أن الاختبار في الدنيا قبل الموت وليس بعده.

والراجح أنهم في الجنة، كما في حديث الرؤيا أنه ﷺ رأى إبراهيم عَلَيهِ السَّلَامُ وحوله صبيان؛ أولاد الناس، وفيه: «**وأما الولدان الذين حوله، فكلُّ مولود مات على الفطرة**». فقال بعضهم: يا رسولَ الله، وأولاد المشركين؟ قال: «**وأولاد المشركين**»(٢).

* ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ١٠﴾:

﴿ٱلصُّحُفُ﴾ جمع: صحيفة، وهي: الكتب، فآخذٌ كتابَه باليمين، وآخذٌ كتابَه بالشمال، **فنَشْر الصُّحف**: إعطاؤها لأصحابها، كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾(٣) [الإسراء: ١٣- ١٤].

ومن معاني النَّشْر: فتح الصحائف، فهي تُفرَّق على أصحابها منشورة، أي: مفتوحة(٤).

* ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ١١﴾:

وهذا في الآخرة، وليس في الدنيا، فهو مختلف عما جرى لها قبل ذلك مما

(١) ينظر: «أمالي الشجري» (١/ ٢٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٣)، و«أحكام أهل الذمة» (١/ ٩٤٤)، وما بعدها، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٧٨)، وما تقدم في «سورة الواقعة»: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧﴾.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٨٦، ٧٠٤٧) من حديث سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٦٠٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٩١)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٣٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٣٥).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٤)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٦٠٦)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ١٨٤)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ٤٩٢).

ورد أنها تتشقَّق وتتمزَّق وتُفتَّح فتكون أبوابًا لنزول الملائكة، وهذه هي حالها في آخر الدنيا، أما كَشْطُ السماء هنا فمُوجِب السياق أنه يكون يوم القيامة بعد البعث[1].

والكَشْط هو: الإزالة[2]، كما قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ** ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

* ﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ ﴾:

فيه إشارة إلى أن النار مخلوقة الآن، وهو ظاهر النصوص الشرعية، كما يقول الطحاوي: «والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان»[3].

ولكن يزاد يوم القيامة تسعير الجحيم.

* ﴿ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ ﴾:

عَطَف الجنة على النار؛ ليقارن المكلَّف بينهما، **والإزلاف** هو: التقريب، وسُمِّي المشعر الحرام «مزدلفة» بهذا الاسم؛ لأنه يقترب إليها الحجاج، **والزُّلْفَى**: القربى، **وازدلف** يعني: تقرَّب، كما قال تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾[4] [ق: ٣١].

وفي هذا التقريب إكرامٌ لأهلها، فكأنها هي التي تأتيهم أو تقترب منهم؛ إشادة بأعمالهم الصالحة وتقواهم التي تقرَّبوا بها إلى ربهم.

* ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾:

أي: علمت كل نفس ما أحضرت من الأعمال في كتابها، وقد جاء في بعض

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٧٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (١٨/ ٤٣٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٧١).

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٧١٢)، و«لسان العرب» (٧/ ٣٨٧) «ك ش ط»، و«تاج العروس» (٢٠/ ٥٩).

(٣) ينظر: «العقيدة الطحاوية» (ص٥١).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٥٨٥)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٣٣)، و«تفسير الرازي» (٢٨/ ١٤٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٩٢)، و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٣١٨).

وينظر أيضًا: «تهذيب اللغة» (١٣/ ١٤٦)، و«لسان العرب» (٩/ ١٣٨) «ز ل ف».

الآيات حكاية عن الكافرين أنهم عند أول وهلة من البعث لا يستوعبون حدث البعث العظيم، فيتساءلون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾، فهم بين مصدِّق ومكذِّب، فيبهتهم الجواب: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، وإذا بالمشاهد العظيمة تتوالى عليهم، كل مشهد أشد من سابقه.

فإذا حصل هذا: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ أي: ما في يدها الآن، وما في كتابها، فالكتاب معها حاضر، ترى ما فيه خيرًا أو شرًّا.

* انتقل السياق إلى موضوع آخر، وقَسَم رباني عجيب مهيب: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾:

* ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦﴾:

هذا قَسَم، وإن كان ظاهره النفي، كما في نظائره الكثيرة في القرآن الكريم[(١)].

ويخنس، أي: يختفي[(٢)]، ومنه قيل للشيطان: الوسواس الخنَّاس؛ لأنه يوسوس، فإذا استعاذ منه الإنسان هرب، **فالخُنَّس** هي: الأشياء التي تظهر ثم تختفي.

وفسرها بـ﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ أي: التي تجري فتدخل في الكِناس، وهو مكان الاختفاء، والعرب تسمِّي بيت الظَّبي: كِناسًا؛ لأن الظَّبي يختفي فيه[(٣)]، ومنه: الكَنِيْسة أيضًا.

ويحتمل أن يكون المقصود بها: النجوم التي تظهر بالليل وتختفي في النهار[(٤)]. قال بعض أهل العلم: إنها نجوم خمسة: عُطارد، والمِرِّيخ، والمشترِي، والزُّهَرة، وزُحَل.

وقال بعضهم: النجوم كلها، وشبَّهها بالظِّباء؛ لأن النجم في خِفَّته وإشراقه

---

(١) ينظر ما تقدم في سورة «الواقعة»: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾، وما سيأتي في «سورة الانشقاق»: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦﴾.

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣٠٠)، و«لسان العرب» (٦/ ٣٥١)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٤٣٧).

(٣) ينظر: «حياة الحيوان الكبرى» (٢/ ١٤١)، و«تاج العروس» (١٦/ ٤٥١) «ك ن س».

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٣٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢١٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٦- ٢٣٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٥٢).

وحركته يُشبَّه بالظَّبي، وهذا تشبيه حيوي بديع.

وقال بعضهم: المراد بالخُنَّس: الظِّباء.

وقيل: بقر الوحش التي تشبه الظِّباء.

وقيل: المقصود: الملائكة(١).

والأقرب القول الأول، وأن المقصود: النجوم، وهو أليق بالسياق، والليل والصبح.

* ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾:

﴿عَسۡعَسَ﴾ تحتمل معنى: أقبل، ومعنى: أدبر، **والأظهر** أن المعنى شامل للصورتين؛ إقبال الليل وإدباره، فكلاهما يتحقق بالتدرج، وكأن ﴿عَسۡعَسَ﴾ على هذا من الأضداد(٢).

* ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾:

والمقصود بتنفس الصبح: شروقه(٣)، والتعبير بالتنفس في غاية الروعة، وهو يُوحي بالحياة والإشراق والتجدُّد والتغيير، وأن كل صبح يمرُّ عليك ينبغي أن يُحيي فيك يومًا جديدًا، فتتزود فيه بالطاعة، فهو على عملك شهيد، وإذا طُوِيَت صفحته فإنه لا يعود إلى قيام الساعة، وأن يبعث فيك الأمل والتفاؤل والثقة بما عند الله، والرغبة المتجدِّدة في النجاح والإنجاز وتخطِّي الصعاب، فما ليس ممكنًا بالأمس هو اليوم مقدور ومتاح.

يقول الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس يومٌ يأتي من أيام الدنيا إِلَّا يتكلَّمُ يقولُ: يا

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٨/ ٣٣٧)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢١٦، ٢١٧)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١٣١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٧)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «الأزمنة وتلبية الجاهلية» لقُطْرُب (ص٥١)، و«الأضداد» لابن الأنباري (ص٣٢)، و«تهذيب اللغة» (١/ ٦٢)، و«تهذيب الأسماء واللغات» (٤/ ٢٢)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (٤/ ١٧٨)، و«إرشاد الساري» (٧/ ٤١٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٦٣)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٠١)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٣٨)، و«روح البيان» (١٠/ ٣٥٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٦٢).

أيها الناسُ، إني يومٌ جديدٌ، وأنا على مَن يعملُ فيَّ شَهِيدٌ، وإني لو غربت الشمسُ لم أرجع إليكم إلى يوم القيامة»[(١)].

* ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١﴾:

هذا جواب القسم، **والمقصود**: القرآن، ولا يعني أن الرسول تقوَّله من تلقاء نفسه، ولكنه المُبَلِّغ به من ربه، ووَصْفُه بأنه ﴿رَسُولٖ﴾ يوحي بهذا، كما هو ظاهر.

والمقصود عند الجمهور: جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ[(٢)]، وصفه تعالى بستِّ صفات جليلة:

فأول وصف: ﴿رَسُولٖ﴾ والله تعالى يصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس، فالرُّسل يكونون من الملائكة، ويكونون من الناس.

الثاني: ﴿كَرِيمٖ﴾ **والكرم**: الشرف والفضيلة، ويكفي في كرمه أنه مبلِّغُ وحي ربِّنا سبحانه إلى أفضل خلقه، وهم الرسل، ومكانته عند الملائكة عظيمة.

الثالث: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ ويكفي في قوته: أن الله تعالى لما أمره أن يحمل قرى قوم لوط، حملهم جميعًا على جناحه حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم، وصياح ديكتهم، ثم قلبها[(٣)].

وأعظم من ذلك تحمُّله تبعات الوحي والتلقِّي عن رب العزة وحمل الرسالة للنبي البشريِّ.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٤٢٤)، وفي «كلام الليالي والأيام» (٢٢)، وابن الجوزي في «حفظ العمر» (ص٣٦).

وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٤٠٨)، وفي «كلام الليالي والأيام» (٦) من قول عبد الرحمن ابن زُبيد اليَامي نحوه.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٦٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٣٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٥٨).

(٣) ينظر: «العقوبات» لابن أبي الدنيا (ص٩٩- ١٠٣)، و«تاريخ الطبري» (١/ ٣٠٤- ٣٠٦)، و«ذم اللواط» للآجري (ص٣٨)، و«العظمة» (٢/ ٧٩٨)، و«التبصرة» لابن الجوزي (١/ ١٥٧)، و«البداية والنهاية» (١/ ٩٩).

الرابع: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي: صاحب مكانة عند الله، وأي مكانة أعظم من أن يكون رسول ربه إلى الرسل والأنبياء والمؤتمن على وحيه؟

الخامس: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾، و﴿ثَمَّ﴾ ظرف، ومعناها: هناك، فهو مُطَاع عند الملائكة والملأ الأعلى، بمثابة الرئيس عليهم، وله عليهم الطاعة.

السادس: ﴿أَمِينٍ﴾ يعني: مأمون فيما كُلِّف به، لا يزيد ولا ينقص، ولا يخل بشيء منه. فهذه الصفات الست لجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

❊ ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾:

والمقصود هنا: محمد ﷺ، ووصفه هنا بـ﴿صَاحِبُكُم﴾ على سبيل التذكير لهم بأنه لم يَفِدْ إليهم من غيرهم غريبًا لا يعرفون نسبه وسيرته، بل قد وُلِدَ ونشأ فيهم، وعرفوا أصله ونسبه وسيرته وخُلُقَه، وهذا ردٌّ على ما كانوا يَدَّعونه من أنه ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون، كأن السياق يقول: لا حاجة إلى مزيد من التفصيل في شأن محمد ﷺ، فأنتم تعرفونه، وهو ﴿صَاحِبُكُم﴾[(١)].

وفيه تحفيز للإيمان؛ لأن اختيار رسول منهم هو رفعة للجنس كله، وهو صاحبكم عزه عزكم ونصره نصركم وأنتم أسعد الناس به.

❊ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: الأفق البيِّن الواضح، فقد رأى النبيُّ ﷺ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في صورته التي خُلق عليها، وله ستمائة جناح، قد سدَّ ما بين السماء والأرض، وهذه هي الرؤية الأولى[(٢)]، وكانت بالبَطْحاء، ثم رآه ﷺ بعد ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣- ١٥].

❊ ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾:

والضَّنين: البخيل، وفي قراءة سبعية: ﴿بِظَنِينٍ﴾ بالظاء[(٣)]، **والمقصود به:**

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة النجم»: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٢٣٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٦٩)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٢)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٨)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٣٢٩- ٣٣٠).

المُتَّهم، أي: لم يكن متهمًا بسوء(١).

* ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥﴾:

وقد كان الكفار يدَّعون أن القرآن من إلقاء الشيطان، كما يُلْقِي على السَّحرة والكهنة والعرَّافين والشعراء، فرد الله عليهم ذلك(٢).

* ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦﴾:

قد أُغْلِقت الأبواب أمامكم، وليس لكم حجة أبدًا، فهذا مُنْزِلُ الوحي وهو الله، وهذا ناقله وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا مُتَلَقِّيه وهو محمد ﷺ.

وكان من مألوف كلام العرب قولهم لمَن عمل سوءًا أو قبيحًا يُلْمَز به: أين يُذهب بك؟ يعني: أين ذهب عقلك؟ فجاء القرآن بأسلوب مبتكَر، لم يكن موجودًا عندهم، ثم استعملوه، وجرى عندهم مجرى المثل، وهو أقوى من قولهم: أين يُذْهَب بك؟ لأنه حين يقال: أين يُذهَب بك؟ كأنه يُعْطَى عذرًا بأنه ذُهب به بغير اختياره، أما صيغة أين تذهب؟ فهي تحمِّله المسؤولية، وأنه هو الذي تعمَّد صرف وجهه عن الحق، والإعراض عن آياته(٣).

* ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧﴾:

فهو ليس سوى ذكر، ودعوة، وإصلاح، ووعظ، وبيان، وهدًى، ليس للعرب بخاصة، بل للعالمين كافَّة، إنسهم وجِنِّهم، فهذه هي عالمية الإسلام، تأتي مؤكِّدة في أوائل السور المكية، وهي لفتة إلى دعاة الإسلام أن يأخذوا بعالمية الرسالة في الدعوة، وأن يطبِّقوه في أقصى درجات التمدن والحضارة، كما كانوا يطبِّقونه في أدنى درجات البساطة والضعف، وأن يستوعبوا النماذج البشرية المختلفة وينقوا الرسالة من الإضافات المحلية الخاصة حين يريدون عرضه على العالمين، بل

---

(١) ينظر: «حجة القراءات» (ص٨٥٢)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٨٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٦٠).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٦٠٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٧١)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٣٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٣٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٢).

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٥٣)، و«الكشاف» (٤/ ٧١٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧١).

يقدموه بأصوله وقواعده الربانية وخياراته المتنوعة في التطبيق وسَعته وشموليته في احتواء الموروث الإنساني وتنقيته والتعامل معه.

❁ ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨﴾ ❁:

فهو مِن حيث تنزيله هداية للناس كلِّهم، فليس دينًا إقليميًّا أو عنصريًّا، أما قبول الناس وعدم قبولهم فهو شأن آخر، فمِن الناس مَن يشاء الاستقامة، فيستقيم، فيكون القرآن ذكرًا عمليًّا له، ومنهم مَن لا يريد ذلك، وهو المسؤول المحاسب على اختياره.

وفي الآية الإشارة إلى أن الإنسان إذا أراد الخير هداه الله، ويَسَّر له أسبابه، ومهما تكن العقبات في النفس أو في المجتمع فإن الإرادة الصادقة تذلِّلها بإذن الله، وقد جاء في الحديث القدسي: «**ومَن تقرَّب إليَّ شبرًا تقرَّبت إليه ذِراعًا، ومَن تقرَّبَ إليَّ ذِراعًا تقرَّبت إليه باعًا، وإذا أقبل إليّ يمشي أقبلْتُ إليه أهرولُ**»(١).

❁ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ ❁:

فللإنسان مشيئته الخاصة به، وللرب المشيئة المطلقة التامَّة، وكثير من الناس يدخلون في جدال في القدر: هل العبد مُسَيَّر أم مخيَّر؟ وإذا كان الله قد قدَّر كلَّ شيء فلِمَ العملُ إذًا؟

وهو جدل لا ينتهي، على أن الإنسان يعرف بفطرته الضرورية المحسوسة أن له إرادة، فإذا تهدَّده خطر فرَّ منه بكل ما أوتي من قوة، وثَمَّةَ فرق بين إنسان يريد أن يصنع شيئًا فيصنعه، وبين آخر يُجْبَر على شيء، ويُقْهَر عليه قهرًا، بين مَن يريد النزول فيأخذ الدرج، خطوة خطوة حتى يصل، وآخر يتم حمله قَسْرًا والرمي به أرضًا، وهذا القدر المدرك لعامة العقلاء يكفي أن يكون مناط التكليف والمحاسبة.

ثم مَن الذي يظن أن مشيئة الله سبحانه مشيئة عشوائية، فيريد لهذا الهدى، ولهذا الضلال، ولهذا الخير، ولهذا الشرِّ، بمعزل عن إرادتهم ورغبتهم الذاتية!

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالله تعالى حكيم، وقد علم من الأزل أنَّ مِن خلقه المؤمن والكافر، والبَرَّ والفاجر، وأن هذا من أهل الهداية، وهذا من أهل الشقاوة، فأراد الهداية لقوم والضلال لقوم، وهو يعلم ما أرادوه لأنفسهم، فهو قد علم وأراد، فلا يُظَن أن إنسانًا كان يريد الهداية، ولكن الله عوَّق مسيرته، ولم يُرِدْ له الهداية، وإن كان تعالى قد يتدارك عبده ويرحمه فيهديه ولو لم يكن مريدًا للهداية أصلًا، لكن أن يريد الإنسان الهداية فلا تتحقق له؛ لأن الله لا يريدها له، فهذا لا يكون؛ لأن الله تعالى حكيم في أعماله، عادل في أحكامه، سبحانه وبحمده.



سُورَةُ الانفِطَارِ

❊ تسمية السورة:

الذي في غالب المصاحف، وكتب التفسير: «**سورة الانفطار**»[(١)]، وهو مصدر من ﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾ كما مضى في «سورة التكوير».

وتسمَّى: «**سورة** ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾»، وهو الذي ورد في السنة، واعتمده البخاري في «صحيحه»، وبعض كتب التفسير[(٢)].

وفي «السنن» من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبيَّ ﷺ قال: «**مَن سرَّه أن ينظر إلى يومِ القيامةِ، كأنه رأيَ عينٍ، فليقرأْ:** ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾»[(٣)]. وهو من تسمية السورة بإحدى آياتها، وقد يتسامح بعضهم فيُسَمِّيها: «**سورة** ﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾» اختصارًا[(٤)].

❊ عدد آياتها: تسع عشرة آية باتفاق[(٥)].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٦١١)، و«سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٣٢٦)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٤٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٦٩).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٠)، و«معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٤٣)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٠٢)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٦٧- ١٦٨)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٦٩).

(٣) تقدم تخريجه في أول «سورة التكوير».

(٤) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٧٤)، و«معاني القرآن» للنحاس (٥/ ١٠٤)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٧٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٦٩).

(٥) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٦٧).

❁ **وهي مكية** إجماعًا[١].

❁ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾:

﴿إِذَا﴾ ظرف للمستقبل، وموضوع السورة عن أهوال يوم القيامة والساعة وما يجري فيها، وفي السورة تسلسل عجيب، فهي تبدأ بانفطار السماء، **والمقصود**: هذه القبة الزرقاء التي نشاهدها فوقنا، وإلا فإن لفظ السماء في اللغة يُطلَق على كل ما علا وارتفع؛ ولذلك يُسمُّون السَّحاب: سماء[٢].

هذه القبة التي نرفع أبصارنا فنراها في أجمل صورة، تنفطر وتنشق، وتتغير حالها يوم القيامة، وتبدو متهتِّكة متمزِّقة، وقد يكون هذا لنزول الملائكة.

❁ ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢﴾:

والكواكب: النجوم، وهي ذات علاقة بالسماء؛ فقد جعلها زينةً لها، وفي ذلك اليوم ينخرم نظامها ويتناثر عقدها، فتتساقط وتتهافت[٣].

والانتثار: وقوع الأشياء على الأرض على غير انتظام، لكن إذا كان على غير الأرض، فهل يُسمَّى نثرًا؟

هذا وارد على سبيل المجاز، كما في قوله سبحانه: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، والهباء المنثور ليس على الأرض، وإنما هو في الهواء.

فيكون معنى النَّثْر: التفريق غير المُرتَّب، سواءً كان على الأرض أو على غيرها[٤].

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٤)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٥٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٦٩).

(٢) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٣/ ٧٩)، و«مقاييس اللغة» (٣/ ٩٨)، و«معجم الفروق اللغوية» (ص٢٨٣)، و«تاج العروس» (٣٨/ ٣٠٣) «س م و».

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٩٥)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٤١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٧٨).

(٤) ينظر: «مقاييس اللغة» (٥/ ٣٨٩)، و«المخصص» (٤/ ١٠١)، و«تهذيب الأسماء واللغات» (٤/ ١٦٠)، و«تاج العروس» (١٤/ ١٧٥) «ن ث ر».

والمقصود: خروج الكواكب عن مداراتها؛ لأن الله تعالى جعل لها نظامًا دقيقًا، وفي ذلك اليوم تضطرب، وتخرج عن سياقها المعتاد، وتَسْبَح في الفضاء على غير مسارها، ويترتَّب على ذلك تضاربها وتصادمها، وسقوطها على الأرض، كما تفيده الآية الأخرى في «سورة التكوير»: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾.

بدأ السياق بالسماء؛ لأنه عادة ما يكون الهدم من أعلى، فإذا أراد إنسان أن يهدم بيتًا أو بناءً بدأ بهدم أعلاه، وهذا فيما إذا كان الهدم مقصودًا، أما الهدم الذي يكون بغير اختيار، بسبب الأعاصير أو الفيضانات أو الزلازل، فليس له نظام، وهكذا جاء الأمر هاهنا مرتَّبًا من الأعلى؛ لأنه مقصود، فأول ما بدأ بذكر السقف، وهو السماء وما يتعلق بها وهي النجوم، ثم انتقل بعد ذلك إلى البحار.

* ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾﴾:

تفجير البحار أن يُفْتَح بعضها على بعض، وتزول الحدود والبرازخ بينها، فيتصل بعضها ببعض وتصبح بحرًا واحدًا.

وقيل: معناه أن يخرج الماء إلى اليابسة.

وقيل: معناه أن تيبس ويذهب ماؤها(١).

وثمة معنًى رابع قَلَّ مَن ذَكَرَه، وهو أن المقصود أن تنفجر وتلتهب نارًا.

ويدل على هذا المعنى: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]، فإن التسجير هو الإحراق، كما في قوله: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾(٢) [الطور: ٦].

فالماء الذي يطفئ النار يتحول إلى نارٍ تتلهَّب وتتلظَّى، وهذا اختيار إمام المفسِّرين مجاهد، ونُقِل عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سأل يهوديًّا: أين

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٠)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٠٢)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٧٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧٢-٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٧١).

(٢) ينظرما تقدم في «سورة الطُّور»، و«سورة التكوير».

جهنم؟ فقال اليهوديُّ: البحرُ. فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله ما أُراه إلا صادقًا، ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦]، ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾(١) [التكوير: ٦].

❊ ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾:

والقبور في اليابسة، وكأن هذا من تسوية الأرض، فالإشارة إلى بعثرة القبور تنبيه على مجموعة حوادث تقع على الأرض، منها قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١-٢].

فالأرض تُخرِج ما فيها، ومن ذلك: أن تُخْرِج ما في باطنها من الناس، وهكذا يسوِّي الله تعالى الأرض، فلا يكون فيها مرتفَع ولا منخفَض وتتحول إلى أرض مستوية.

و﴿بُعْثِرَتْ﴾: أُثيرت وفُتحت وأُخْرِج ما فيها(٢). فكأنك تشاهد الأرض وهي كلها أو جُلُّها قبور، كما يقول أبو العلاء المَعَرِّي(٣):

صاحِ، هذي قبورُنا تملأُ الرَّحْـ ... ـبَ فأينَ القبورُ مِن عهدِ عادِ
خفِّفِ الوَطء ما أظنُّ أَدِيم الـ ... أرض إلا من هذه الأجساد
رُبَّ لَحْدٍ قد صار لَحْدًا مرارًا ... ضاحكٍ من تزاحُم الأضدادِ
ودَفِينٍ على بقايا دَفِينٍ ... في طويلِ الأزمانِ والآبادِ

والحوادث مختصَرة هنا، في حين أنها قد فُصِّلت في «سورة ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾»، وقد ختمها الله سبحانه هنا ببعثرة القبور، وأن هذا الحدث ليس عشوائيًّا أو عاديًّا، وإنما هو اليوم الموعود المُرتَّب المقصود، المضروب للجزاء والحساب.

❊ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾:

فإذا وقعت تلك الحوادث العظيمة، علمت كلُّ نفس ما عملت من خير أو

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٦٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦١)، (١٩/ ٢٣٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٣٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٧٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٧٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٤١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٦٧).

(٣) تقدم تخريجه في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤﴾.

شرٍّ.

وأهل اللغة والأصول يقولون: إن النكرة في سياق النفي تفيد العموم. فإذا قلت: لم يأتِ أحدٌ. فهو نفي مُطلَق، أما إذا كانت في سياق الإثبات كما هنا: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ فهي لا تدل على العموم بذاتها إلا بالسياق، فالسياق هنا أبلغُ مِن كل كلام، أبلغ مِن أن يقول: علمت كلُّ نفس؛ لأنه حين يقال: «كل» ينتقل الحديث للعامَّة، والعادة في الحديث العامِّ أن كل واحد يظن أنه غير مقصود به؛ لكن إذا قال: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ فكل واحد يشعر أنه هو المقصود. وهذا من جليل المعاني، وبليغ المواعظ؛ لأن من البلاء أن يشعر كل أحد أن الخطاب موجَّه إلى غيره، فلا يستفيد منه، بخلاف ما لو أدرك أنه هو المخاطب دون غيره، أو قبل غيره.

﴿مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾: لم يذكر ماذا قدَّمت، وماذا أخَّرت؛ لأنها سوف تعلم حينئذ ماذا قدَّمت من الأعمال، فتذكره إن كانت ناسية، وتحيط بما لم تحط به من قبل، وتعلم ثوابه وجزاءه وقيمته.

وسوف تعلم ما أخَّرت، فلم تعمله، بل أجَّلت وسوَّفت.

ويشمل ما قدَّمت لنفسها في الآخرة، وما أخَّرت لورثتها بعد موتها.

ويشمل ما قدَّمت في صدر حياتها، وما أخَّرت في نهاياتها، والله أعلم(١).

ولا أحد يموت إلا وعنده أعمال كان ينوي أو يهم أن يعملها، وقد تكون خيرًا، فإن كانت كذلك أُجر عليها، ولكنها ليست كالأشياء التي عملها وباشرها، وكما قيل(٢):

نــروحُ ونــغــدو لحاجاتنا ... وحاجةُ مَن عـاش لا تنقضـي

فالآية تحثُّ على: تقديم العمل الصالح.

والمبادرة، وعدم التأجيل والتسويف، وكان بعض السلف يقول: «أنذرتكم

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٧٥- ١٧٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٢١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٢٩١- ٢٩٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٧٩).

(٢) ينظر: «الحيوان» (٣/ ٢٣٠)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٤٩٣)، و«الكامل» للمبرد (٣/ ١٣٥)، و«المجالسة» (٨/ ٢٠) (٣٣١١)، و«أدب الدنيا والدين» (ص٤٧) منسوبًا إلى الصَّلَتان العبدي.

سوف».

وإيثار الآخرة، فهي خيرٌ وأبقى، وألَّا ينشغل عنها بالعاجل.

وترشد إلى أن التقدم هو بالعلم والعمل، وليس بالأماني والظنون، فلا ينفع المرء أن يكون مولودًا في أرض مباركة، ولا أن يكون من قبيلة أو شعب أو عائلة، حتى لو كان من قريش، أو آل بيت النبي ﷺ، أو من ذُرِّيَّته، وكل الناس أولاد أنبياء، وفي الحديث: «**مَن بطَّأَ به عملُه، لم يُسْرِعْ به نَسَبُه**»(١).

لا ينفع إلا العلم النافع، والعمل الصالح، سواءً كان من الأمر الأخروي، أو من الأمر الدنيوي.

يقول سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الأرض لا تقدِّسُ أحدًا، وإنما يقدِّسُ الإنسانَ عملُه»(٢).

وهذا يبيِّن أن العمل معنًى مُقَدَّس في الإسلام، و«مَن أَمْسَى كالًّا مِن عملِ يديه، أَمْسَى مغفورًا له»(٣).

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦﴾:

خطاب قوة وجزالة لجنس الإنسان، الذي هو صاحب النَّفْس، وتكريس لمعنى الإنسانية، وأنها محلُّ التكليف، ومناط التشريف، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقد جعل الأنبياء والرسل من بني آدم، وخاطب الإنسانَ مباشرة.

وأيُّ تعظيم أكبر من أن يُخاطِب اللهُ الإنسانَ مباشرة ويناديه؟

قرأ الرسولُ ﷺ «سورة البيِّنة» على أُبَيِّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال له: «**إنَّ اللهَ أمرني أن أقرأَ عليك:** ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾». قال: وسمَّاني لك؟

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مالك (٢/ ٧٦٩)، وعبد الله بن أحمد في زوائد «الزهد» (٨٤٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٠٥)، واللَّالَكائي (١٧١٨)، وابن عساكر (١/ ١٥٠).

(٣) ينظر: «السلسلة الضعيفة» (٢٦٢٦).

قال: «**نعم**». قال: فبكى[١].

عند ما ذكر ربُّ العزة اسمَ أُبَيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كان هذا شرفًا له، لم يخطر على البال، ولو بلغ أحدَنا أن أميرًا أو وزيرًا أو عالمًا ذكره في مجلسه بذِكْرٍ حسن، استطار من الفرح، فكيف إذا علم أن ربَّ العزة قد ذكره؟!

وذِكْره سبحانه يحصل لمَن ذكره وتوكَّل عليه، كما في الحديث القدسي: «**إنْ ذَكَرَني في نفسِه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملإٍ ذكرتُه في ملإٍ هم خيرٌ منهم**»[٢].

والقرآن ذِكْرٌ، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾: ما الذي جعلك تغترُّ بربِّك الكريم، وتنساه؟! أغرَّك الإمهال؟ أم غرَّك الغنى؟ أم غرَّك الغرور[٣]؟

والمقام مقام تهديد؛ وسياق أول السورة يدلُّ عليه، وهنا تودُّدٌ وتلطُّفٌ؛ إذ جاء بلفظ الربوبية، ووصف ذاته بالكرم، ولم يقل: «بربِّك المنتقم، أو الجبَّار، أو ذي البطش الشديد، أو ذي العذاب الأليم»، وقد ورد عن الفُضَيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «لو قال لي: ما غرَّك بي؟ قلتُ: غرَّني بك ستورُك المرخاةُ»[٤]. أي: سترك الدائم عليَّ.

وقال آخر: لو سألنا: ما غرَّكم بي؟ لقلنا: غرَّنا كرمُك.

والعرب يعتبرون كرم الإنسان سببًا في جرأة أهله عليه، كما يُروَى أن عليَّ ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نادى أحدَ غلمانه، فتأخَّر عليه، وكان واقفًا في الباب، ثم رآه عليٌّ، فقال: «ما لك لم تجبني؟». قال: لثقتي بحلمك، وأمني من عقوبتك[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٢٩٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧٤).

(٤) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٤٦)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٤٥٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١١)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٨٢).

(٥) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧١٥)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧٥)، و«فيض القدير» (١/ ١٢٨).

ومن كلام العرب: مِن كَرَمِ الرجل سوءُ خلقِ غلمانه[1].

والناس يعرفون الكريم، فيجرؤون عليه أكثر ممن يخافون بطشَه وعقابَه، والخوف ليس هو الأولى، ولا الأول، وإنما الرجاء والحب قبل الخوف، ومما يناسب هذا السياق قول قيس بن زُهير يَرْثِي الرَّبيعَ بنَ زياد العَبْسي[2]:

أظنُّ الحِلْمَ دلَّ عليَّ قومي ... وقد يُسْتَجْهَلُ الرجلُ الحليمُ
ومارستُ الرجالَ ومارسوني ... فمعوَجٌّ عليَّ ومستقيمُ

وهل هذا السياق يفضي إلى أن يتجرَّأ العبد على ربِّه؟

كلا، فالعاقل يزيده هذا مهابة وخجلًا، كما قال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠]، ومثله قول النبي ﷺ: «**لو لم تذنبوا، لذهبَ اللهُ بكم، ولجاء بقومٍ يُذنبون، فيستغفرونَ اللهَ فيغفرُ لهم**»[3].

وبعض الناس قرأ هذا الحديث وقال: هذا إغراء بالذنب.

والحق أنه ليس إغراءً بالذنب، بل إشارة إلى ما جُبِل عليه الإنسان من الضعف والنقص والميل للشهوات، ولئلا يتحوَّل وقوعه في الخطأ إلى قنوط ويأس من رحمة الله، وفي الحديث: «**إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يبسطُ يدَه بالليلِ؛ ليتوبَ مسيءُ النهارِ، ويبسطُ يدَه بالنهارِ؛ ليتوبَ مسيءُ الليلِ**»[4].

فهو عتابٌ يحمل العبد على أن يستحي من الله، فيكون الحياء وازعًا يردف وازع الخوف، والمعرفة بكرم الله ولطفه ورحمته، تدفع إلى الطاعة وتَرْكِ المعصية،

---

(١) ينظر: «التمثيل والمحاضرة» (ص٢٢١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ١٩٧)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «أمثال العرب» للضبي (ص٩٧)، و«أنساب الأشراف» (١٣/ ١٣٥)، و«العقد الفريد» (٦/ ٢٣)، و«أمالي القالي» (١/ ٢٦١)، و«شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (ص١٦٤)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٨/ ٣٧٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وتفعل ما لا يفعله الخوف.

وكذلك يُحْمَل على معنى آخر، وهو الخوف من غضب الكريم، فإذا فرَّطت ولم تصل إلى رحمته، ولا فزت برضوانه، فهلاكك مُحَقَّق، ولا يهلك على الله إلا هالك.

* ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾:

هذا من معاني الربوبية ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾، ولكنه تفصيل بعد إجمال، فخلق المادة التي خَلَقَ منها الإنسان، خَلَقَ التراب الذي خَلَقَ منه آدم، فأصل الخَلْق هو الإيجاد من عدم، وهو لله تعالى خاصة.

والتسوية: خَلْقُ أجزاء الإنسان باستقامة وتناسُب، لا انحراف فيه، ولا قبح في أصل خِلْقته. وهذا عامٌّ في المخلوقات من إنس وحيوان... إلخ.

والعدل: تخصيص الإنسان بمزيد نعمة، وهي خَلْقُه في أحسن تقويم، في جمال واعتدال.

وفي قراءة سبعيَّة: ﴿فَعَدَّلَكَ﴾ بالتشديد[1]، والمعنى واحد، فإن العدل والتعديل في خلق الإنسان أظهر حيث قامته واستقامته ومشيه على قدميه وقيامه وقعوده وتميز صفته وشكله عن بقية الحيوان[2].

* ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾:

﴿مَّا﴾ مصدرية أو صِلة، فالمقصود أن الله تعالى يركِّبك في أي صورة يشاء[3].

والآية تحتمل ثلاثة معانٍ[4]:

١- في أي صورة شاء الله تعالى ركَّبك من الصور الموجودة، فكل واحد من

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٧٨)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٧٤)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٢٠)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٣٣٦- ٣٣٧).

(٢) ينظر: «الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٨٢)، و«حجة القراءات» (ص٧٥٢).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٩٥)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٤٦)، والمصادر الآتية.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٧٧)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٢٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٧٩).

الناس يختلف عن الثاني، فلا تجد اثنين متفقين في كل شيء، حتى التوائم الذين يتشابهون، إذا أَطَلْتَ مُجالستهم أدركت الفروق بينهم، ولكل إنسان بصمة تختلف عن غيره، وكذلك حدقة العين، ونبرة الصوت، وفي الشكل والطول والملامح والشعر والأصابع والصفات الظاهرة والباطنة يبدو كل إنسان مختلفًا عن غيره.

وفي الحديث أن رجلًا قال: إنَّ امرأتي ولدت غلامًا أسودَ؟ فقال النبيُّ ﷺ: «**هل لك من إبل؟**». قال: نعم. قال ﷺ: «**فما ألوانُها؟**». قال: حمرٌ. قال ﷺ: «**هل فيها من أَوْرَقَ؟**». قال: إن فيها لوُرْقًا. قال ﷺ: «**فأَنَّى أتاها ذلك؟**». قال: عسى أن يكون نَزَعَه عِرْقٌ. قال ﷺ: «**وهذا عسى أن يكونَ نزَعَه عِرْقٌ**»[1].

ونَزَعَه عِرْقٌ أي: وراثة من جدِّه الرابع أو الخامس، ولم تظهر إلا في هذا المولود.

٢- أن الله تعالى قادر على تركيب الإنسان في صورة أخرى غير الصور المعهودة، كصور الحيوانات التي يراها الإنسان فيستقبح شكلها أو هيئتها.

٣- أو يكون المقصود شمولية الصورة، صورة الجسد، وصورة الروح والخلق، وهذا معنى جميل، ولا يتعارض مع المعنيين السابقين، قال بعض السلف: قد يكون الإنسان في صورة الحمار في بلادته، أو في صورة الخنزير في شَرَهِهِ أو ضعف غيرته، وقد يشبه طائرًا أو حيوانًا في صفة رديئة يتلبسها وينطبع بها.

فالجمال أو القبح لا ينحصر في ملامح الشكل وحُسْن الوجه.

وربما رأيت إنسانًا لأول وهلة فيعجبُك حُسْنُ مظهرِه وجمالُ ملامحه، فإذا جالستَه وخالطتَه، نفرت منه، ولذا يجدر بالباحث عن شريك أن يعتني بجمال الروح والعقل والأخلاق، فهو الذي يبقى بعد ذبول الجسد، وهو الذي يُشْعِرُك أنك تعيش مع إنسان بمعنى الإنسانية، ولست أمام تمثال من الجمال الجسدي أو الحسِّي المحض، فالجمال مطلوب، لكن بمعناه الواسع، وهذا داخل في قول

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣١٤)، ومسلم (١٥٠٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

النبي ﷺ: «**إن اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ**»(١).

❁ ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾:

نفي للكلام السابق، وقد يقول قائل: غرَّني كذا، وغرَّني كذا. فجاءت الآيات لتنفي هذا كله، وتقول: ما غرَّك إلا شيء واحد، وهو التكذيب بيوم الدين.

والدين: الجزاء والحساب(٢)، **والمقصود به**: يوم القيامة، **والدينونة**: أن يُدان الإنسان ويُجازى بما عمل خيرًا أو شرًّا؛ ولهذا قال العلماء: التكذيب بيوم الدين جماع الذنوب.

وحين تتأمَّل القرآن تجد هذا واضحًا؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص: ٤٦].

فمدح الله الصالحين بالإيمان بيوم القيامة وذكره، وذمَّ الفجارَ بالتكذيب، وقال في المطففين: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ [المطففين: ٤]، وهذا يدل على أهمية الإيمان بيوم الحساب في حسِّ المؤمن وعقيدته، وأنه لا ينبغي أن يكون صوريًّا شكليًّا، لا يحمل على طاعة، ولا يردع عن معصية.

وعند ما نتعلم العلوم في مدارسنا، وكُتُبِنا، وحلقات علمنا؛ علينا أن ننظر: هل ما درسناه يزيد اليقظة والإيمان في ضمائرنا؟ هل يحيي نفوسنا ويبعث فينا الخير؟ ويئِد فينا عوامل الشرِّ؟ أم أنها مجرد معلومات تُضاف إلى مثلها؟!

وقوله: ﴿بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ خطاب للمكذِّبين، لكن هل الإنسان الذي خُوطب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ هو الإنسان الكافر، أو أن الخطاب عام؟

الأقرب أن خطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ موجَّه لكلِّ إنسان، ثم خصَّ الله المكذِّبين

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٨١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٧٥)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٤٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٢٠٠)، وما تقدم في «سورة المعارج»: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٢٦﴾، وما سيأتي في «سورة الماعون»: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾.

بالدين بخطاب آخر.

* ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾:

﴿عَلَيْكُمْ﴾ لفظ يدل على الاستعلاء، فهم فوقكم، ومكانتهم منكم مكانة السلطان والرَّقيب الذي له فوقية وعلو؛ لأنه مبعوث من الله عَزَّ وَجَلَّ، ولم يقل: «معكم»، فهم مسؤولون عنكم، مُسَلَّطون على أعمالكم وأقوالكم بكتابتها وتدوينها.

وصف الله سبحانه هؤلاء الحَفَظَة بأربعة أوصاف:

١- الحفظ، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]، ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١].

والحِفْظ شامل، ومن معانيه أن يرقب ما تقول وما تعمل، فيكتبه لك أو عليك، وأن يحفظك أنت، حتى إذا حلَّ القَدَر أسلمَك إلى قَدَرِك[١].

٢- الكرم، فهؤلاء الملائكة كرام، وأرسلهم ربك الكريم، وهم معك وعليك، والتذكير بهذا الوصف يستدعي أن تستحيي منهم، وقد جاء في الحديث: «**إيَّاكم والتعرِّي؛ فإن معكم مَن لا يفارقُكم إلا عند الغائط، وحين يفضي الرجلُ إلى أهلِه؛ فاستحيوهم وأكرموهم**»[٢]. وفي سنده نظر[٣].

والمَلَك مخلوق كريم يراقبك ويلاحظك، وهذا مدعاة للحياء، حتى لو كنتَ منفصلًا عن الناس منفردًا، فتخشى أن يراك المَلَك على ما لا يحسُن، ولو أن أحدًا وَجَدَهُ أبوه أو أخوه أو صديقه بحالة لا تسرُّ، لاستحى، فكيف إذا عرفتَ أن هذا المَلَك معك على الدوام، ولا يفارقك إلا بالموت؟!

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٣/ ١٤)، (٣١/ ٧٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٧٠)، و«أضواء البيان» (٧/ ٤٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٠٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) ينظر: «إرواء الغليل» (٦٤)، و«السلسلة الضعيفة» (٦٠٠٦).

نحن نصحب كرامًا من الملائكة وهذا يستدعي أن نتحلَّى بمكارم الأخلاق، ونقتبس من ملائكيتهم الطهر والصفاء.

٣- الكتابة، أي: يسجِّلون كل شيء، وهذا من معاني الحفظ، ولو لم توثَّق أعمال الإنسان لأمكنه أن يجادل، ويجحد، لكن كل شيء مكتوب ومسطور: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء: ١٣- ١٤]، ولا مانع أن يكون التوثيق بعدة صيغ، منها: كتابة المَلَك، ومنها: الحفظ الذي قد يعني التصوير المتقن لكل ما يحدث والاحتفاظ به، ولذا يرى الإنسان أعماله يوم القيامة عيانًا.

٤- ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فقد زوَّدهم الله بالمقدرة على أن يعلموا كل شيء مما من شأنه أن يُحفظ أو يحاسب عليه من قول أو فعل، بل وما يخطر في قلبك من المعاني التي يُثاب عليها أو يُعاقَب؛ لأنها مِن فِعْل القلب، بل هذا من أعظم الأفعال؛ وأن أفعال القلب أصل لأفعال الجوارح، فطاعات القلب أصل لطاعات الجوارح، مثل: الإيمان، والرجاء، والحب، والخوف(١).

ومعاصي القلب أصل لمعاصي الجوارح، مثل: الشك، والشبهة، والحسد، والكِبْر..

كيف تعلم الملائكة ما في القلوب؟

لا شك أن ربنا سبحانه أقدر هؤلاء الملائكة على المهمة التي أوكلها إليهم، فجعل لهم قدرة على معرفة كل ما يتعلَّق بعملهم، بما في ذلك همُّ العبد وخطرات قلبه، وقد جاء في «الصحيحين» من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: «**إن اللهَ كتبَ الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك: فمَن همَّ بحسنةٍ فلم يعملْها، كتبَها اللهُ عنده حسنةً كاملةً، وإنْ همَّ بها فعملها، كتبَها اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **عنده عشرَ حسناتٍ إلى سبعمائةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، وإنْ همَّ بسيئةٍ فلم يعملْها، كتبَها اللهُ عنده**

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٣/ ١٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (٨/ ١٩٦)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٨/ ١٩٦)، (١١/ ٢٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٧٩).

حسنةً كاملةً، وإنْ همَّ بها فعملها، كتبَها اللهُ سيئةً واحدةً»[1].

فلا يفلت منهم شيء: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣].

* ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾:

والأبرار جمع: بَرٍّ، وهو مَن يفعل البرَّ[2]، قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ...﴾ [البقرة: ١٧٧].

والنعيم الذي وعده الله للأبرار عام، شامل للدنيا والآخرة، كما قال ابن تيمية[3]، فهم في نعيم تامٍّ يوم القيامة، ويصلهم مِن ذلك وهم في البرزخ وفي قبورهم، ويصلهم وهم في الدنيا من السرور والبهجة وقرَّة العين والرضا والأنس بالله ما تسعد به نفوسهم.

* ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾﴾:

وهم أهل الفجور ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المطففين: ١١]، فهم في الآخرة في جحيم، ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يدخلونها[4].

وقيل: من الصَّلْي، وهو معروف؛ يقال: صَلَى الشاة، إذا شواها، فكمال العذاب بالنار كيًّا وشيًّا يكون في الآخرة، وفي قبورهم يُفتَح لهم باب من النار، فيصلهم من عذابها[5]، وفي الدنيا يصلهم من الشقاء والعذاب النفسي والضيق،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٠٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٥٨)، و«الكشاف» (٤/ ٦٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٥)، وما سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾.

(٣) ينظر: «جامع الرسائل» (٢/ ٣٢٤).

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٢/ ٢٤٣)، (٣/ ١٧١، ٤١٦)، و«تفسير السمعاني» (٤/ ٤٤٩)، (٥/ ٣٨٧)، (٦/ ١٧٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٢٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٧٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٢٠٣)، و«فتح القدير» (٤/ ٥٠٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢٠٥).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٩)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٤٢٦)، و«تفسير السعدي» (ص٩١٤)، والمصادر السابقة.

وإن كان منهم مَن يكون في أهله مسرورًا بمظاهر الحياة، لكن في قلبه قلق وتوتر.

والمؤمن قد يجد آلامًا وأمراضًا نفسيَّةً، ابتلاءً من الله؛ من أجل أن يُثاب عليه إذا صبر، مثل ابتلاء الإنسان بأمراض البدن، ولكن هذا المصاب بالمرض لو كان كافرًا، فسيكون مرضه أضعاف ما هو عليه، فإذا تصوَّرناه مؤمنًا، وجدنا الإيمان خير دواء مسكِّن أو مزيل لهذا المرض الذي يعانيه.

وهي أمور نسبية، وقد يرتبك مَن يحاول أن يقرأ حالة كل إنسان على انفراد، أما القاعدة العامة فهي ظاهرة: أن الإيمان من أعظم أسباب السعادة وزوال الآلام واحتمال المصائب.

وقوله: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ لا يعني حصر صليهم بالنار في يوم الدين، بل ذلك هو كمال الصَّلْي، وينالهم شيء من الصَّلْي في قبورهم في البرزخ وفي الحياة الدنيا[1].

* ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦﴾:

أي: لا يُرفَع عنهم العذاب، ولو لحظة واحدة، ولا يُخَفَّف عنهم[2]: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٤٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٤٩- ٥٠]. بل يبلغ بهم الحال أن يسألوا الملائكة الموت: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ ...﴾[3] [الزخرف: ٧٧].

ولو تأمَّلتُ التعبير بقوله: ﴿بِغَآئِبِينَ﴾ لوجدت أمثال هؤلاء في الدنيا يحضرون ويغيبون، يحضرون عند الطمع والشهوة والمتاع، ويغيبون عند الجد والموعظة والخير والمبادرة والإحسان، فكان من المناسب أن يسجل عليهم الحضور الدائم

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الطور»: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ ...﴾ [الطور:١٦]، وما سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ١٦﴾، و«سورة الليل»: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٨٢)، و«الكشاف» (٤/ ٧١٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٣)، والمصادر الآتية.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٥/ ٢٣٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٨٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٤٥).

هناك!

وقد يجوز أن يكون بعض مَن نزلت فيهم السورة من مشركي مكة؛ كانوا لا يطيقون أن يحضروا مجالس المؤمنين، ولا أن يستمعوا إليهم، فكانت العقوبة أن لا يغيبوا عن نار جهنم يومًا ولا بعض يوم.

* ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨﴾:

قال سُفيان بن عُيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يخبره به».

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر[1].

والتكرار له معانٍ وأسرار:

١- أن يكون لتأكيد المعنى، ولَفْت ذهن السامع إلى يوم الدِّين وعظمته البالغة، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٢﴾، ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢﴾[2].

وربما تخيَّل السامع ذلك اليوم العظيم، الذي تتفطَّر فيه السماء، وتُنْثَرُ الكواكب، وتنكدر النجوم، وتتفجر البحار، وتُبَعْثَر القبور، فتأتيه الآية لتقول: إن الأمر الذي تخيَّلته ليس بشيء بالقياس إلى حقيقة يوم الدين.

ولو أن الإنسان ضاعف طاقته التخيُّلية والتصوُّرية آلاف المرات، ما استطاع أن يتخيَّل حقيقة ذلك اليوم؛ ولهذا قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «ليس في الجنة مما في دنياكم إلا الأسماءُ»[3]: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا﴾ [البقرة: ٢٥].

٢- أن يكون التكرار إشارة إلى أهل الجنة، وأهل النار، فتكون إحدى الآيتين لأصحاب الجنة، وكأنه قال: ما أدراك ما أعدَّ الله تعالى للأبرار، ممن هم في نعيم

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٣﴾.

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»، وما سيأتي في «سورة القارعة».

(٣) تقدم تخريجه في «سورة الملك»: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨﴾.

من ألوان السرور، والمتعة، والنعمة التي لا تخطر على بالهم؟ وما أدراك ما أعدَّ الله تعالى للفجار من العذاب والنَّكال، والأغلال والوَبال؟ والمعنيان متقاربان[1].

* ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾:

نفى أن تملك أي نفس لأي نفس أي شيء على الإطلاق: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ فهو لله في الدنيا والآخرة، لكن في الدنيا قد يبدو أن الناس يعملون أو يتسبَّبون، أما في ذلك اليوم فقد تجلَّت الحقيقة للناس جميعًا، بل للثقلين ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فالأمر لله، ولا تملك نفس لنفس شيئًا إطلاقًا، لا خيرًا ولا شرًّا.

والآية لا تعارض الشفاعة؛ لأن الشفاعة إذن من صاحب الأمر[2]: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾.

ooo

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢٢٤)، و«في ظلال القرآن» (٦/ ٣٨٥٢)، و«أسرار التكرار في القرآن» (ص٢٤٧)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «مسند الطيالسي» (٣٨٩)، و«مسند أحمد» (١١٢٠٠)، و«صحيح البخاري» (٧٥١٠)، و«صحيح مسلم» (١٩٣).

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

* **تسمية السورة:**

عُرِفت في كتب الحديث بـ«**سورة** ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾»، كما في «صحيح البخاري»، و«السنن»، وغيرها[1].

وغالب كتب التفسير على تسميتها: «**سورة المطفِّفين**»[2] اختصارًا.

وذكر بعض المتأخرين من أسمائها: «**سورة التطفيف**»[3]، وهذا على سبيل التصرُّف واستخراج المصدر من أصل الفعل.

* **عدد آياتها:** ست وثلاثون آية بالاتفاق[4].

* **واختلف في نزولها:**

فقيل: مكية، كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5].

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٠٣)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٦٧)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٢٩١)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ١٧١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٧).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١١)، و«سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٣٢٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٨٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٧).

(٣) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦٧)، و«دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (٢/ ٦٩٤)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص٣٩٢)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٧).

(٤) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦٧)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣٢٠)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٧٣).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٧).

وقيل: مدنية، وهو اختيار ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[1].

وذكر الواحدي في «أسباب النزول» عن السُّدِّي أن سبب نزولها أنه كان رجل في المدينة عنده مكيالان، أحدهما كبير يكيل به لنفسه، والثاني صغير يكيل به للناس. وهذا ضعيف[2].

وقيل: فيها المكي والمدني[3].

وقيل: نزلت بين مكة والمدينة، ذكره جابر بن زيد وغيره[4]، وهو جيد من جهة أنه يجمع بين الأقوال، لأن الذين قالوا: إنها مكية. ربما قصدوا أنها من آخر أو آخر ما نزل بمكة، واعتبروا أن ما نزل بالطريق فهو تابع للمكي.

والذين قالوا: إنها مدنية. نظروا إلى أن ما نزل بالطريق إلى المدينة فهو مدني.

ففيه توفيق بين القولين، وإيماء إلى أن التطفيف خطيئة عامَّة، منتشرة بين التجار، سواءً بمكة أو المدينة، وكانت مكة مركزًا تجاريًّا للعرب، وكان عند الكثير من مشيخة مكة وكبرائها كبرياء وازدراء للناس، فيكيلون لهم بغير ما يكيلون به لأنفسهم.

ونَفَسُ السورة مكيٌّ، فالسياق والوعد والوعيد والوصف الذي فيها أقرب ما يكون إلى صفة الآيات المكية.

وبالمقابل فالمدينة من المراكز التجارية، وفيها اليهود المطفِّفون، فالقول بأنها نزلت بين مكة والمدينة وجيه.

---

(١) ينظر: «سنن ابن ماجه» (٢٢٢٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٧).

(٢) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٢٩٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٢١)، و«الكشاف» (٤/ ٧١٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٧٣).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٧)، وهو القول الآخر لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٧).

* ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١﴾:

﴿وَيۡلٞ﴾ قريبة من كلمة: ويح، التي يُعَبَّر بها عن التوجُّع أو الوعيد، وعادة الإنسان إذا أصابه شيء أن يقول: يا ويلي. فهو توعُّد لهم بالويل(١).

والذين قالوا: «﴿وَيۡلٞ﴾: وادٍ في جهنم»(٢). حاولوا أن يفسِّروا سياق اللفظ، لكن هذا المعنى غير معروف في لغة العرب، وهي لفظة مُستخدَمة قبل الإسلام، ولم يُقْصَد بها وادٍ في جنهم، ولا كانت اسمًا علمًا يُطلق على مكان، وإنما يُطلق للوعيد، وهو إذا كان مُبْهَمًا أقوى في الوعيد.

والتطفيف يحتمل معنيين(٣):

١- أنه مأخوذ من الشيء الطَّفيف، أي: القليل اليسير التافه، فهم الذين بلغ مِن دناءتهم أن يغشوا الناس بالشيء اليسير، فإذا كالوا أو وزنوا أخذوا شيئًا يسيرًا وأضافوه إلى مالهم.

وهو تسفيه لهذا العمل وتنفير منه؛ لأنه يدلُّ على دناءة وحقارة، إلى حدِّ أنه يسرق اللقمة من فم الفقير.

٢- أن الطفَّ هو حدُّ الصاع وطرفه، فيكون المطفِّف هو الذي قارب الوصول إلى حدِّ الصاع ولم يُوَفِّه.

والمعنيان متقاربان من حيث الاشتقاق اللُّغوي، وقد جاء السياق مفسَّرًا حيث وصفهم سبحانه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الهمزة».

(٢) وهذا لم يصح فيه شيء. ينظر: «مسند أحمد» (١١٧١٢)، و«صحيح ابن حبان» (٧٤٦٧)، و«تفسير الطبري» (٢/ ١٦٤، ١٦٨)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨١)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٣١٢)، (٨/ ٢٦٦، ٢٩٨)، و«فتح الباري» (١/ ٢٠٧، ٢٦٦)، (١٠/ ٥٥٣)، و«الدر المنثور» (١/ ٤٣٤، ٤٣٥)، (٣/ ٥٥١)، (١٥/ ١٧٨)، و«السلسلة الصحيحة» (٢١٦٥)، وما سيأتي في «سورة الهمزة».

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٥٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (١٦/ ٥٢٠)، و«لسان العرب» (٩/ ٢٢٢)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٨٨٤)، والمصادر السابقة والآتية.

يُخۡسِرُونَ ﴿٣﴾﴾.

والمطفِّف مَن يستوفي لنفسه من الناس، فيأخذ حقه وافيًا، ويُخْسِر لغيره، فأما إذا زاد على ذلك بأن يكيل بمكيالين، فيبخس الناس حقوقهم آخذًا ومعطيًا، فهو في غاية الفجور والعدوان[(١)].

و«**الكيل بمكيالين**» أصبحت كلمة تجري مجرى المَثَل عند الحديث عن السياسات الدولية التي لا تقيم العدل، ولا تراعي المعايير الصحيحة في التعامل مع الأحداث، وتوظِّف قضايا أخلاقية كحقوق الإنسان لمصالح سياسية أو اقتصادية.

والآية الكريمة أصل في النهي عن الظلم، ودعوة إلى العدل والإنصاف، وحفز الإنسان على أن يكون في تعامله مع الآخرين على ما يحب أن يتعاملوا معه، وكما في قول النبي ﷺ: «**فمَن أحبَّ أن يُزَحْزَحَ عن النارِ ويدخلَ الجنةَ، فلتأتِه منيَّتُه وهو يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ، وليأتِ إلى الناسِ الذي يحبُّ أن يُؤْتَى إليه**»[(٢)]. أي: أن يفعل الشيء الذي يريد أن يفعله الناس معه.

والتطفيف في الكيل والوزن مثال قائم مشهودٌ وقت نزول الآية الكريمة، والعدل نفسه يؤكِّد أن كل ما ماثله أخذ حكمه، وربما كان من صور التطفيف ما هو أعظم جرمًا وأشد إثمًا وأوسع ضررًا من بخس المكيال والميزان.

كان سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «الصلاةُ مكيالٌ، فمَن وفَّى وُفِّي له، ومَن طفَّف فقد علمتم ما أنزل الله تعالى في المطفِّفين»[(٣)].

وقال النبيُّ ﷺ: «**أَسْوأُ الناسِ سرقةً: الذي يسرقُ مِن صلاتِه**»[(٤)]. فالسرقة

(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٥١٩)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٣٦٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١١٩٢)، وعبد الرزاق (٣٧٥٠)، وابن أبي شيبة (٢٩٩٦)، والبيهقي (٢/ ٢٩١)، وفي «شعب الإيمان» (٣١٥٠). وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٣٨٠٩).

(٤) أخرجه الطيالسي (٢٣٣٣)، وأحمد (١١٥٣٢، ٢٢٦٤٢)، والحاكم (١/ ٢٢٩) من حديث أبي سعيد وأبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وينظر: «أصل صفة صلاة النبي ﷺ» للألباني (٣/ ٦٤٤- ٦٤٦).

تكون من كل شيء.

والوعيد عامٌّ في كل ألوان التطفيف، حيث يكون الإنسان أنانيًّا في تعامله مع الناس، وفي حُكْمِه عليهم، وفي حفظ الحقوق، ولا بد أن يكون المؤمن يَقِظًا عادلًا، يكيل للناس بالمكيال الذي يكيل به لنفسه، بل الأَرْقى والأكمل أن يكيل الإنسان بمكيالين، لكن على نقيض ما يفعله المطفِّفون، فإذا كان الأمر يتعلَّق به كال بمكيال العفو والتسامح وحسن الظنِّ والتماس العذر، وإذا كان المكيال للناس، كان حريصًا على حِفْظ حقوقهم، وعلى الورع والتحرِّي، بحيث لا يصيب أحدًا بسوء.

وهذه هي الدرجة الأولى: وهي المستوى الأفضل والأكمل؛ أن يؤدِّي إليهم حقوقهم كاملة موفاة، ويتسامح معهم إذا قصَّروا في بعض حقه.

والدرجة الثانية: درجة العدل، بأن يكيل الإنسان للناس بالمكيال الذي يريد منهم أن يكيلوا له، فينصف معهم ولا يظلمهم، ولا يقبل منهم أن يظلموه.

والثالثة: درجة التطفيف، أن يكيل فيما يخصُّه بالمكيال الأوفى إذا كان الحق له، أما إذا كان الحق عليه، فإنه ينقص المكيال والميزان ويبخس الناس أشياءهم.

والرابعة: أن يطفِّف في الحالين، فيأخذ فوق حقه إذا اكتال، ويبخس حق الآخر إذا كال أو وزن.

إن السورة تؤسِّس لمبدأ أخلاقي عظيم، وهو مبدأ العدل والقسط في المعاملة بين الناس.

وأين المسلمون من هذا المعنى؟! أين علماؤهم؟ دعاتهم؟ أزواجهم؟ شبابهم؟ حكامهم؟

أين الإنسان الذي يعطي للناس ويتسامح معهم؟!

أين الذي يأخذ حقًّا ويعطي حقًّا؟!

لقد انتشرت في الناس اليوم مبادئ الشحِّ والأنانية والهوى، فصار الإنسان يشدِّد في الحساب ويدقق في الميزان في الأمر الذي يخصُّه ويحاسب على

النَّقِير والقِطمير، وإذا كان الأمر يخصُّ الآخرين، فإنه لا يقيم وزنًا لمشاعرهم وأحاسيسهم ولا لحقوقهم، **إن مبدأ العدل والإنصاف ينبغي أن يشمل الجانبين كليهما:**

الأول: الجانب المعنوي، في الأحكام والمواقف والأقوال، وقد جاء في الحديث: «**وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوهِهم**- أو قال: **على مناخرِهم- إلَّا حصائدُ ألسنتِهم؟!**»(١).

حينما تحكم على شخص، أو جماعة، أو جامعة، أو مشروع، أو كتاب، أو موقع، أو نشاط، فهي شهادة ينبغي أن تحذر فيها من التطفيف، ووجود الحق والصواب في هذا العمل لا يمنعك من أن تقدِّم ما تَلْحَظه من مآخذ بإنصاف وعدل، كما أن الخطأ الكثير لا يبيح لك أن تتجاوز الصواب وتجحد ما فيه من الحق.

الثاني: الجانب الحقوقي في شتى شؤون الحياة، فكثير من الحقوق في المجتمعات الإسلامية مُهدَرة، ولا زال المسلمون محتاجين إلى تكريس ثقافة الحقوق وتحقيقها بشكل صحيح في الميادين كافَّة.

كيف يتعامل الأستاذ مع طلابه..

كيف يتعامل الزوج مع زوجته..

كيف يتعامل الجار مع جاره..

كيف يتعامل الناس في بيعهم وشرائهم وتعاملهم..

كيف يتعامل الحاكمون مع شعوبهم؟ وما طبيعة العلاقة، أهي علاقة سلطوية متعسِّفة، قائمة على الصراع والتآكل، أم علاقة ودية منصفة، قائمة على التعاقد الرشيد والتكامل؟

فإذا تأمَّلت هذه الجوانب وجدت تضييعًا واسعًا للحقوق، حتى أصبح

---

(١) أخرجه الطيالسي (٥٦١)، وأحمد (٢٢٠١٦)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١١٢٢، ٣٢٨٤).

التطفيف جزءًا من البناء التربوي والمألوف السلوكي، وهذه السورة العظيمة تُسهم إسهامًا مباشرًا ومؤثِّرًا في إعادة بناء الأخلاق الاجتماعية.

مَن هم المطفِّفون؟

* ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣﴾:

وهذا نموذج للتطفيف له أهميته، ويومئ إلى ما وراءه، حتى لقد ذكره الله تعالى في أكثر من سبعة مواضع في القرآن الكريم، وكان من الأنبياء مَن بُعِثَ للأمر بالقسط في المكيال والميزان مع التوحيد، وهو شُعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ [الشعراء: ١٨١- ١٨٢]، والاقتصاد الدولي يجب أن يقوم على الانضباط والاعتدال في الكيل والوزن.

ومع تقدم العلم والحضارة والوسائل التقنية، فإن الكيل والوزن يظل شديد الحضور في حياة الناس، وهو رمز للتعاطي، بأي وسيلة من وسائل الإيفاء والاستيفاء للحقوق.

وهؤلاء المتوعَّدون إذا كان الحق لهم يأخذونه وافيًا غير منقوص، ولم يقل: «اكتالوا من الناس»، بل قال: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لأن ﴿عَلَى﴾ فيها معنى استعلاء هؤلاء المطفِّفين، وقد يكون مع التطفيف كبرياء وتسلط وفوقية، إضافة إلى البَخْس والأخذ من الناس، فكأن الاكتيال على حساب الناس وحقوقهم.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾: والمعنى المتبادر والذي عليه جمهور المفسرين: أنهم إذا كالوا لهم، أو وزنوا لهم؛ يُخسِرون ويُنْقِصون.

وهذا جارٍ في لغة الحجاز وغيرها، يقولون: كال فلانًا، أي: كال له. وزن فلانًا، أي: وزن له، وهو معنى واضح، فمعنى ﴿كَالُوهُمۡ﴾: أعطوهم كيلًا، ومعنى ﴿وَّزَنُوهُمۡ﴾: أعطوهم وزنًا[1].

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٧٢)، و«صحيح البخاري» (٣/ ٦٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٨٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٩١).

وقال بعض المفسرين: وإذا كالوا هم، أو وزنوا هم، فجعلوا «هم» ضميرًا لتوكيد الفاعل، فالمعنى: إذا كالوا أو وزنوا، فإنهم يُخْسِرون.

وهذا ضعيف، كما قال الطبري، وغيره؛ لأنه لو كانت كذلك لفَصَل بين الفعل وبين الضمير المؤكِّد بفاصل، وهو الألف التي تلحق واو الجماعة، وهذا لا يوجد في رسم القرآن، فدلَّ على أن الأول هو المعنى الصحيح، أي: أعطوهم بأن باعوا عليهم، أو اشتروا منهم كيلًا أو وزنًا؛ فإنهم يرجعونهم بالصفقة الخاسرة، ولا يعطونهم حقَّهم، وهنا مقابَلة بين ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ وبين ﴿يُخْسِرُونَ﴾[1].

فهم لم يصلوا إلى الفضل، بحيث إن الواحد منهم إذا كال لغيره وفَّى، وإذا كال لنفسه احتاط فأنقص، ولم يصلوا إلى العدل، بحيث إن الإنسان أوفى لنفسه ولغيره، ولكنهم إذا اكتالوا مِن الناس يستوفون، وإذا كالوا أو وزنوا للناس فإنهم يخسرون.

* ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥﴾﴾:

وهذا سؤال في معنى الاستنكار: أَلَا يظنون- ولو مجرَّد ظن- أنهم مبعوثون؟ فإن مجرَّد الظن كافٍ لأن يجعل الإنسان يعيد النظر فيما هو فيه، فكيف والأمر يقينٌ لا مِرية فيه، بدلالة العقل والشرع والفطرة!!

والسياق تنفير من فعل المطفِّفين؛ فإنه توعَّدهم بالويل، ثم سمَّاهم: «مطفِّفين»، ثم فصَّل فعلهم؛ فكان التفصيل عرضًا مخجلًا لأنانية هؤلاء الظلمة.

وكأنك عند ما تقرأ الآية، ترى إنسانًا يعتقد أنه مخلوق من طينة غير الطينة التي خُلِقَ منها الناس، ومنطق الحق يعاتبه ويقول: هل لك فضل على عباد الله، بحيث تتعامل معهم بغير ما تريد أن يتعاملوا به معك؟

وأشار إليهم بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وهو اسم إشارة يوحي بالبعد، فلو كانوا قريبين لقال: «أَلَا يظنُّ هؤلاء...»، فهم بعيدون عن رحمة الله، بعيدون عن الفضل، بعيدون عن الذكر الطيب، بعيدون عن الإيمان بالآخرة وجزائها.

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٨٦- ١٨٧).

ويحتمل أن يكون الظن بمعنى اليقين، أي: أَلَا يوقنون.. وهو قول جمهور المفسرين[1]، كما في قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥- ٤٦].

﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وصفه بالعظيم؛ لطوله ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، فهو عظيم بمدَّته، عظيم بالحوادث التي تجري فيه، عظيم بظهور القدرة الإلهية التامَّة والعدل المطلق، حيث يدرك المشركون حينذاك أنه لا حول لهم ولا قوة.

* ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾:

يقوم الناس من قبورهم، وتُنْفَخ الأرواح في الأجساد.

ومن معاني القيام لرب العالمين: وقوف الناس في عرصات القيامة؛ خوفًا، وحياءً، وخجلًا، وانتظارًا للحساب ثم المصير، وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ قال: «**﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حتى يُغيَّب أحدُهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه**»[2].
أي: يتصبَّب منه العرقُ طيلة هذه المدة من شدة الكرب وطول الموقف.

إن نظام ذلك اليوم وسُنَنَه مختلفة عمَّا عليه الأمر في الدنيا، فنحن نرى الماء في الدنيا مادة سيالة، يسيل من المرتفع إلى المنخفض، لكن القوانين تتغيَّر يوم القيامة بإذن الله تعالى؛ حتى نظام الكواكب والنجوم والشمس والقمر، والأرض قد اختلف عما كان معهودًا في الدنيا[3].

والله سبحانه ذكر القيام، ولم يذكر الانتقام أو المطالبة بالقصاص، لأن غالب عمل المطفِّفين كان خفيًّا، لا يدركه الطرف المظلوم، ولا يفطن له، ولا يُطالِب

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٥٦)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٥١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٧٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٨٣)، وما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾، و«سورة القيامة»: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾، وما سيأتي في «سورة الانشقاق»: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾.

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٣٨)، ومسلم (٢٨٦٢) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) كما تقدم في «سورة الانفطار».

به، فلهذا توعَّد تعالى المطفِّفين بأنه سيكون هو المُطالِب لهم، وهو الذي سيأخذ منهم حقوق المظلومين، فالمطفِّف والظالم والمعتدِي على حقوق الناس سيكون خصمه الله تعالى يوم القيامة.

وفي الحديث القدسي: «**ثلاثةٌ أنا خَصْمُهم يومَ القيامةِ: رجلٌ أعطى بي ثم غَدَرَ، ورجلٌ باعَ حرًّا فأكلَ ثمنَه، ورجلٌ استأجرَ أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطِه أجرَه**»(١).

وإنما كان الله خصمهم؛ لعظم الذنب، ولأنه حق عظيم من حقوق العباد؛ فمَن لم يُعْطِ الأجيرَ أجرَه، أو باع حرًّا وأكل ثمنه، فقد قارف أسوأ أنواع التطفيف.

وفي السياق دليل على أن التطفيف إنما يصدر في الأصل من غير المؤمنين، ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقد يصدر من المؤمن، وقد يقع الظلم والخطأ والبغي منه، ولا يخرج من دينه بهذا الفعل، بل ذلك دليل على ضعف إيمانه وتناسيه يوم الحساب، ففِعْلُه فِعْلُ الكافرين وإن كان لسانه لسان المؤمنين، وفي هذا مزيد تنفير.

إن لدى الكثير من الشعوب المتقدِّمة اليوم ثقافة تعلَّموا بموجبها كيف يؤدُّون الحقوق، وكيف يحفظونها، وكيف ينضبطون في المصالح العامة، فلا يعتدون على حقوق غيرهم، ولا يسمحون أن يعتدي أحدٌ على حقوقهم، وكيف يضعون الأشياء في مواضعها، ويستخدمونها استخدامًا رشيدًا؛ استشعارًا للروح الاجتماعية، وهذا إنما أخذوه بالتربية والتعويد والتوارث، دون أن ينتظروا عليه جزاءً أخرويًّا.

وفي العالم الإسلامي لا تتوافر التربية الاجتماعية أو الثقافة المحفِّزة على العدل والانضباط، ولم يكن إيمانهم بالله بالقوي الراسخ الذي يحملهم على الالتزام الاجتماعي والانضباط الحقوقي والأخلاقي، فضعفت أخلاقهم؛ لغياب الوازع الديني، وصاروا يقدِّمون صورة سيئة عن الدين.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأكثر الناس يحكمون على الديانة من ممارسات أهلها، وأنت لو رأيتَ شخصًا ينتمي إلى ملَّة لا تعرفها يقوم بأعمال مرذولة لا يقبلها العقل، فإنك بعفويَّة ستقول: الحمد لله الذي أكرمنا بالإسلام! لأنك تظن أن ما فَعَلَه كان بمقتضى دينه، وقد لا يكون ذلك مباحًا في دينه، لكن دفعه إلى ذلك الفعل جهلُه أو غفلتُه، أو تربيتُه السيئة، فإذا تكرر هذا معك من شخص آخر فثالث ترسَّخ عندك أن الدين الذي ينتحلونه سبب في فساد فعلهم.

وكذلك الآخرون ربما يأخذون صورة سيئة عن الإسلام؛ بسبب مقارفة بعض المسلمين للرذائل وانتهاك القيم والفضائل، وفي ذلك صدٌّ عن سبيل الله وتشويه لجمال الإسلام لدى مَن لا يعرفونه.

* ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨﴾:

﴿كَلَّآ﴾ كلمة إعراض وإضراب عن الموضوع السابق إلى موضوع آخر مرتبط بما قبله، و﴿ٱلْفُجَّارِ﴾ جمع: فاجر، وهو الذي يتعدَّى الحدَّ، **وكتابهم** هو: الكتاب الذي تُكْتَب فيه أعمالهم وأقوالهم(١).

وقد بدأ بالفجار، خلافًا لعادة القرآن في تقديم أهل الإيمان؛ مراعاة لموضوع السورة وسياقها، حيث كانت بدايتها في وعيد المطففين، وهم الفجار.

وذكر المفسرون في﴿سِجِّينٍ﴾ أربعة أقوال(٢):

١- الأرض السابعة، وهو قول الأكثرين، ونُقل عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- ولا أظنه يصحُّ عنه- وقتادة وكعب وغيرهما، ورُوي مرفوعًا، ولا يصح.

٢- في سِفال، أي أنه في مكان سافل، أو في وضع سافل، وهذا معنى صحيح.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٩٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٩٨)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٢، ١٩٤- ١٩٥)، وما تقدم في «سورة النبأ»: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ۝٢٩﴾.

(٢) ينظر: «تفسير ابن وهب» (٢/ ١٠)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٠٤)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٥٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٢٧)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٣١٧)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٨٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٥٢)، والمصادر السابقة والآتية.

٣- في سِجِّين ضيق، فهي صيغة مبالغة، كما تقول: فلان سِكِّير، أي: يكثر من شرب الخمر.

وجهنم سجن، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨]، أي: سجنًا يُحْصَرون فيها[١].

٤- في ضيق وشدة وكربة وسِفال، ولا يلزم أن يكون ذلك في الأرض السابعة، كما قال بعض المفسرين، أو في صخرة عندها، أو عند الشيطان.

وتلك الأقوال وما شابهها ذُكِرَت في كتب التفسير، وليس لها أسانيد صحيحة، ولا أدلة واضحة، والأَوْلَى أن يُتْرَك النصُّ القرآني على إطلاقه وعمومه[٢].

و﴿سِجِّينٌ﴾ كلمة عربية معروفة وليست شائعة الاستعمال[٣].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ أسلوب قرآني لتعظيم الأمر، وتعظيم السؤال عنه.

وقال سُفيان بن عُيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فلم يخبره به».

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر[٤].

* ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ٩﴾:

والراجح- ما ذهب إليه ابن كثير، وكثير من المفسرين- أن هذا ليس جوابًا لقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾؛ فسياق ذلك انتهى بالتشنيع والتهويل، ثم أنشأ يتكلم عن الكتاب؛ لأنه قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾، فكأنه قيل: وما هو كتاب الفجار؟ فقال: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾[٥]، وفيه إشارة إلى أنه قد كُتِبَ لهم فيه السجن والنار والعذاب.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٥٠٧)، و«زاد المسير» (٣/ ١٢)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٨)، و«روح المعاني» (٨/ ٢٢).

(٢) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤١٥)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «الصحاح» (٥/ ٢١٣٣)، و«تاج العروس» (٣٥/ ١٧٠) «س ج ن».

(٤) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ٣﴾.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٥٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٨٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٩٤).

و﴿مَّرۡقُومٞ﴾ اسم مفعول من الرَّقْم، ومعناه: الكتابة، كما في «سورة الكهف»: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾، **فالرَّقيم** هو: الكتاب، **وقيل**: كتاب فيه أسماؤهم وأخبارهم، وهنا قال: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ أي: مكتوب.

قد يقال: هذا تحصيل حاصل، فمعلوم أن الكتاب مكتوب!

والجواب: أن في ذلك فوائد:

١- أنه كتاب مضبوط، لا يُزاد فيه ولا يُنْقَص منه.

٢- أنه كتاب واضحٌ مجوَّد بَيِّنٌ في دلالاته وما فيه، ففيه البداية والنهاية والكثير والقليل، ولهذا يقول تعالى في «سورة الكهف»: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، وهو هذا الكتاب المرقوم، ﴿فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ۝٤٩﴾.

فهذا ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ وهؤلاء مطفِّفون يزيدون وينقصون، أما الكتاب فلا تطفيف فيه ولا زيادة ولا نقص، وكل شيء مضبوط فيه ومحفوظ.

٣- أنه مميَّز بعلامة، وليس ببعيد أن يكون كتاب الكافر مميَّزًا بعلامة تخصُّه، وكتاب المؤمن مميَّزًا بعلامة تخصُّه، فكتاب الكافر مرقوم، وكتاب المؤمن مرقوم، لكن شتان بين رَقْم ورَقْم.

فالمرقوم: المختوم، الذي عليه الختم أو الخاتم[1].

٤- ويحتمل أن يكون الكتاب مشتملًا على رقم يدل على صاحبه، كما تجري العادة في مثل التجمعات الواسعة أن يُعطى كل فرد بطاقة فيها رقم، ولعل كل كتاب لإنسان مسلم أو كافر يحوي رقمًا يدل على صاحبه؛ ولذا سُمِّي مرقومًا، والله أعلم.

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٥٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٥٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٢٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٣٢٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٨٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٧٨).

إنه كتاب دقيق متقن مفصَّل لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، مضبوط لا يتمكَّن أحد من الزيادة فيه ولا النقص منه، مميَّز مُعلَّم، بحيث يعرف كل أحد كتابه، فهذا يأخذ كتابه بيمينه، وذاك يأخذ كتابه بشماله.

* ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾﴾:

وصفهم بالمكذِّبين بعدما قال عنهم: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾﴾؛ ليحدِّد معنى الظن، وأنه التصديق(١).

ثم بيَّن متعلَّق التكذيب، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؛ ليبرز شناعة ما عملوه.

ووصفهم بالمكذِّبين دليل على أنهم دُعوا وبُلِّغوا وقامت عليهم الحجة وسمعوا آيات الله؛ لأن المكذِّب هو الذي سمع الخبر وأدلته، وقامت عليه الحجة، ومع ذلك هو يعرِض ويصرُّ على التكذيب.

وهو دليل على أن العقاب للكافرين يوم القيامة يلحق مَن بلغته الحجة وقامت عليه دلائل الرسالة والنبوة، فأصرَّ وعاند وكذَّب، أما مَن لم تبلغه الحجة، فلا يدخل في هذا، وأمرُه إلى الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

وهذا المعنى يرد في القرآن كثيرًا، وسبق في «سورة النبأ»(٢).

ودلائل الشريعة على هذا اليوم عظيمة، والذي يقرأ القرآن- خصوصًا المكِّي- يجد كثرة الحديث عن البعث، ولا يوجد عند الأنبياء السابقين والكتب السابقة مثلما يوجد في القرآن الكريم من تفصيل أخبار الآخرة والبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والصراط والميزان، فدلالة القرآن واضحة قوية، والإيمان بيوم الدين فيصل حاسم بين فئتين من البشر، فإن الإيمان بالآخرة يجعل الإنسان أكثر جدية واهتمامًا في التعاطي مع قضايا التدين والعبادة والأخلاق والحقوق.

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٢٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٧٧)، وما تقدم في قوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾﴾.

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة النبأ»: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾.

والفطرة تغتبط بمثل هذا الإيمان، فهو يمنحها فسحة وانشراحًا ورضًا وانتظارًا لوعد الصدق؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فلو تخيَّل المخلوق أن هذه الروح تفنى بالموت، وكأنها لم تمشِ على الأرض ولا عاشت، بل تحوَّلت إلى رماد ورميم ونهاية وعدم، فهو إحساس قاتل، يجعل الإنسان يموت قبل أوان الموت.

فهنا يكون في النفس تطلُّعٌ إلى أن يكون بعد الموت حياة أخرى، كما كان قبل الحياة موت آخر.

والإنسان يرى في هذه الدنيا أشياء عديدة لم يستقم فيها الميزان، فهذا مطفِّف هلك، وقد أخذ أموال الناس بالباطل، وهذا ظالم مات في عزٍّ ومَنْعة ومتعة لم يُنتقَم للمظلوم منه، وهذا محسن مات ولم يُكافَأ على إحسانه، وهذا شهيد لقي حَتْفه في ضيق وشدة وكرب، ولم ير بصيصًا من الرَّوْح والفرج، فلا بدَّ مِن دار أخرى تُردُّ فيها الحقوق لأصحابها، ويُنْتَصَف من الظالم للمظلوم، وترجع الأمور فيها إلى نصابها.

فهذا يوم الدين، أي: يوم الدينونة، **والدِّين**: الجزاء[1]، كما تقول: أدينك بهذا، أي: أجازيك به، ومنه: «كما تدين تُدان»، أي: كما تعمل تُجازَى، فالدينونة معناها أن يردَّ الدين للإنسان بما أخذ، ويُوفَّى عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ.

* ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾:

لا يكذِّب بيوم الدين بعد قيام الحجة ودلالات الشريعة إنسانٌ سَوِيٌّ متجرِّد من الأهواء، **لا يُكذِّب به إلا مَن كان مُتَّصفًا بثلاث صفات:**

١- العدوان، وهذا يرجع لتأكيد مسألة حقوق الناس، وقد بدأ تعالى بحقوق

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٩٦)، وما تقدم في «سورة المعارج»: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾، و«سورة الانفطار»: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾﴾.

الناس قبل حقِّه، فقال: ﴿مُعۡتَدٍ﴾، فهو يريد أن يمضي في عدوانه دون خوف من بعث أو حساب.

٢- **الإثم**، والأثيم على وزن فعيل، وهو صيغة مبالغة، **والإثم**: الذنب والمعصية، وإذا أدمن عليه صاحبه وأصرَّ سُمِّي: أثيمًا.

وقدَّم «المعتدي» على «الأثيم»؛ لأن الإضرار بحقوق الناس معصية لله وأذى للناس في الوقت ذاته، فهو إثم مضاعَف، بخلاف الأثيم فذنبه على نفسه وليس على غيره.

والإضرار بحقوق الناس والعدوان عليهم سبب في فساد الدنيا، كما قال رسولُ الله ﷺ: «**يوشِكُ أن يأتي زمانٌ يُغربَلُ الناسُ فيه غربلةً، تبقى حُثالةٌ من الناس قد مَرِجَتْ**[1] **عهودُهم وأماناتُهم، واختلفوا فكانوا هكذا**». وشبَّك النبيُّ ﷺ بين أصابعه[2].

أي: فلا تدري أين المحقُّ، وأين المبطل، وأين الصادق، وأين الكاذب، فهذا الحسد والبغي والعدوان، ولهذا كان من أعظم ما جاء الرسل بدفعه والنهي عنه البغيُ والعدوانُ.

وسواء كان البغي والعدوان بالعلم، كما وقع لبني إسرائيل، أو بالرياسة، أو بالمال، أو باسم ينتحله أو مذهب يترسمه؛ فكله مذموم محرَّم.

ولم يقل: «آثم»؛ ليبيِّن أن الإثم قد أصبح جزءًا من شخصيَّته، وطبعًا لا يستطيع الخلاص منه، ولذا قال في السورة ذاتها: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾، فهي حالة انطباع عاطفي وجسدي بالمعصية لا يسهل الفكاك منها.

٣- **تكذيب القرآن**، كما قال تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ

---

(١) **الحُثالة**: سفلة الناس، **ومَرِجَت**: اختلفت وفسدت.

(٢) أخرجه نُعيم بن حَمَّاد في «الفتن» (٦٩٣)، وأحمد (٦٥٠٨، ٧٠٦٣)، وأبو داود (٤٣٤٢، ٤٣٤٣)، وابن ماجه (٣٩٥٧)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١١٧٦)، والحاكم (٢/ ١٥٩)، (٤/ ٤٣٥) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه ابن حبان (٥٩٥٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وينظر: «صحيح البخاري» (٤٨٠)، و«فتح الباري» (١/ ٥٥٦)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٠٥).

﴿١٣﴾، تُلي عليه القرآن؛ فأعرض وقال: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

وهذا قاله النضر بن الحارث في مكة، حين كان يقرأ على قريش كتب رُستم واسْفَنْدِيار وأساطيرهم المدوَّنة، ويقول لهم: بماذا محمد أحسن حديثًا مني؟ لماذا يتبعه الناس ويتركونني[1]؟

والآية عامَّة لكل مَن تحقَّقت فيه هذه الصفات المرذولة؛ لأنه تعالى عمَّم الحكم على ﴿كُلُّ﴾ مَن كان كذلك.

وهذا لا يخصُّ شخصًا بعينه، بل يشمل كُلَّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ، من السابقين واللاحقين والعرب وغيرهم.

واليوم تجد مَن يقول: للقرآن الكريم أن يحدِّثنا عن قصة إبراهيم وإسماعيل، لكن هذا لا يعني أنها حقيقة، **ومَن يقول**: إن قصة أصحاب الكهف، وعصا موسى التي تلقف ما يأفكون أسطورة، ولا يلزم أن تكون حقيقة!

و﴿أَسَٰطِيرُ﴾ جمع: أُسطورة- مثل: أُكْذُوبة وأُعْجُوبة وأُحْدُوثة- مأخوذ من السَّطْر، وهو الكتابة والتسطير، أي: الأشياء التي سطَّرها وكتبها الأولون.

والوزن الصرفي: «أفعولة» قليل الاستعمال، كما في الأمثلة السابقة، **وقيل**: ليس لها واحد من لفظها، مثل: ﴿أَبَابِيلَ﴾[2].

والأساطير: خرافات يرفضها العقل، وقد تكون قصصًا وهمية أو أمثالًا تُضرب كقصص الحيوانات والطيور والجن.

أما الغيب، فهو الحق الذي أخبر الله به، مما لا تستطيع العقول إدراكه بذاتها، لكنه ليس مُحالًا، ولا تأنف العقول من الإيمان به، بل تستسلم له مِن غير أن تدركه،

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٥٥)، و«سيرة ابن هشام» (١/ ٣٠٠، ٣٥٨)، و«تفسير الطبري» (١٧/ ٣٩٩)، و«تثبيت دلائل النبوة» (١/ ٥٣)، و«شعب الإيمان» (٧/ ١٦٦- ١٦٧)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٣٤٥)، و«تفسير الرازي» (٢١/ ٤٢٨)، و«البداية والنهاية» (٤/ ٢١٧).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (١/ ٢٩٦)، و«تفسير الطبري» (٩/ ٢٠٠)، و«تهذيب اللغة» (١٢/ ٢٣٠)، و«لسان العرب» (٤/ ٣٦٣)، و«تاج العروس» (١٢/ ٢٦) «س ط ر»، و«التحرير والتنوير» (٧/ ١٨٢)، وما سيأتي في «سورة الفيل»: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾﴾.

ولهذا قال ابن تيمية: «إن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يخبرون بمحارات العقول، لا بمحالات العقول»[1].

والأساطير تُذكر في سياق التكذيب، فتقول: هذه أسطورة، أي: كذبة، وإن كانت شائعة عند الناس، كما في كتاب «كليلة ودِمنة»، أو قصص الرومان واليونان والفراعنة والصينيين وغيرهم.

فإذا حكى الله تعالى لنا قصص الأنبياء، أو قصة أصحاب الكهف، أو أصحاب الأُخدود؛ فهي حقائق تاريخية في أعلى درجات الوثوق والمصداقية؛ لأنها تنزيل من الله العزيز العليم.

عقلية المؤمن ليست خرافية، بل هي إيمانية غيبية، وأعظم ما يميِّز المؤمن عن الملحِد هو الإيمان بالغيب، ولهذا قال سبحانه: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢- ٣]؛ لأنه إذا لم يؤمن بالغيب لم يؤمن بالله، ولا بالآخرة، ولا بالجنة، ولا بالنار، ولا بالوحي.

فالإيمان بالغيب ليس شيئًا ثانويًا، بل هو أصل وركن في عقيدة المسلم، هو إيمان حقيقي يؤثِّر في تصوره ومنهجه وسلوكه، ولذلك كان المكذِّبون يطفِّفون؛ لأنهم لا يؤمنون بالغيب، ولا يظنُّون أنهم مبعوثون ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وبذا تجرؤوا على حقوق الناس، والمؤمن قد يتخلَّى عن بعض حقِّه في الدنيا، لا من باب أنه لا يريد هذا الحقَّ، أو لا يحبُّه؛ ولكن لأنه يدَّخره ليوم آخر هو عنده أكثر يقينًا من المشهود الذي يراه ويحسُّه.

إن عقلية المؤمن الغيبية لا يجوز أن تتحوَّل إلى عقلية أسطورية خرافية، تؤمن بكل ما يخالف الحسَّ، وتقيس قياسًا فاسدًا، فتقيس أوهام الناس وحكاياتهم وأقاويلهم على خبر الكتاب المنزَّل، وكثير من عوامِّ المسلمين وشعوبهم ضعف حسهم النقدي، وصاروا يتلقَّفون الغرائب ويؤمنون بها!

يُفترَض أن يكون مبدأ المؤمن رفض الروايات الموهومة، والأخبار المناقِضة

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٤٤٤)، و«الجواب الصحيح لمَن بدَّل دين المسيح» (٤/ ٣٠٩)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٧/ ٣٢٧).

للشرع والعقل، والمناقِضة للحسِّ، أما أن يكون مُستودَعًا للأوهام، فهذا انحراف كبير في المنهج.

لما أُخْبِرَ أبو بكر الصِّدِّيقُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بالإسراء والمعراج، وجاءته قريش يقولون له: هذا صاحبُك يزعمُ أنه قد أُسرِيَ به إلى بيت المقدس، ثم رجع من ليلته! فقال أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أَوَ قال ذلك؟». قالوا: نعم. فقال: «فإنِّي أشهدُ إن كان قال ذلك لقد صدقَ». فقالوا: أتصدِّقه بأنه جاء الشامَ في ليلة واحدة، ورجعَ قبل أن يُصبحَ؟ قال: «نعم؛ إني أصدِّقه بأبعدَ من ذلك، أصدِّقه بخبر السماء بكرةً وعشيًّا»[(١)].

فكان الخبر غريبًا على أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ولهذا لم يعطِ إيمانًا مطلقًا؛ لأن الذين أخبروه به أخبروه على سبيل الإزراء، فقال: «إن كان قال ذلك لقد صدقَ»، فعلَّق الإيمان به على ثبوت الخبر وصِدْقِه عن النبي ﷺ، وهكذا ينبغي أن يقول المؤمن، فلا يتعجَّل في قبول الروايات والأخبار دون تحرٍّ.

وكثير من الدُّعاة والوُعَّاظ منذ قديم يدغدغون مشاعر المتلقِّين من البسطاء والسُّذَّج بقصص خرافية أو مبالغات وتوهمات وحكايات لا أصل لها، وربما ساق مصنِّف أو واعظ أو مجاهد في الميدان رواية غريبة منكرة، ونسبها إلى ثقة صالح، فلا يلزمنا قبولها، وإنما الذي يلزمنا قبول ما جاء في الكتاب والسنة.

فلو قال لنا قائلٌ خبرًا يتعلَّق بعذاب القبر، أو بكرامات حصلت لفلان أو علان، فلا يلزم الإيمان بخصوص هذه الروايات، ولكن نؤمن بأصل الاعتقادات الشرعية، ونتوقف في تفصيل المرويات، حتى نطمئن إلى صدقها وعدالة رواتها وسلامة عقولهم وحواسهم.

يسألنا شابٌّ عن مقطع في اليوتيوب، يظن أنه يسجِّل صراخ المُعَذَّبين في قبورهم، والله تعالى جعل أمر البرزخ وعذاب القبر ونعيمه من عالم الغيب، ولو أن الناس سمعوه وشاهدوه لكان من عالم الشهادة.

نعم، صحَّ أن رسولَ الله ﷺ سمع يومًا وَجْبَةً، فقال: «**تدرونَ ما هذا؟**». قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «**هذا حَجَرٌ رُمِيَ به في النارِ منذُ سبعينَ خريفًا، فهو يَهْوِي**

(١) تقدم تخريجه في «سورة النجم»: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾.

في النار الآن، حتى انتهى إلى قَعْرِها»[1]. فنقول: صَدَّقنا بذلك؛ لأن النبيَّ ﷺ أخبرنا به.

وكذلك قال: «**إن هذه الأُمَّةَ تُبتلَى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا، لدعوتُ اللهَ أن يُسمِعَكم من عذاب القبر الذي أسمعُ منه**»[2].

فبيَّن السبب في إخفاء هذه الأمور، ولم يَدْعُ اللهَ أن يراها الناس أو يسمعوها.

المهم أن هذه أخبار قالها النبي ﷺ، أما بعد وفاته فإننا لا نستطيع أن نجزم أن فلانًا يُعَذَّب في قبره، ولا أن في هذا القبر نارًا أو نعيمًا، ولا أن ما يُسَجَّل في هذا الشريط أنه أصوات المُعَذَّبين، ولا أن ما يصوَّر في الفيديو هو مَلَكَ أو شيطان أو طائف من الجن، وما يدرينا أن تكون تلك الأصوات حِمَمًا أو براكين أو نيرانًا تتلهَّب وتغلي، أو أصواتًا مُقلَّدة أو مشبَّهة.

وفي الولايات المتحدة رجل من أهل الكتاب وضع عنده متحفًا، ووضع فيه ما جاء في الكتب السماوية عن الآخرة، وصوَّرها تصويرًا حسِّيًّا مشهودًا، فصوَّر الجنة والنار وغيرها، وربما سجَّل أصواتًا تتعلَّق بذلك.

والله تعالى يقول: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم: ٩٨]، أي: لا تحسُّ منهم من أحد، ولا تسمع لهم صوتًا[3].

ولا ينبغي ربط إيمان الناس بأشياء مُحتمَلة، بل يُرْبَط إيمانهم بالحقائق القرآنية والحقائق النبوية الناصعة التي مَن آمن بها فقد آمن، ومَن كفر بها فقد كفر، أما أخبار الناس فهي مما تحتمل الصدق والكذب، ولا ينبغي أن يُمْتَحَن المكلَّف بها، ولا أن تُعتبَر حجة أو دليلًا أو برهانًا، وإن كنا نقول: إذا اغترَّ أحد وسمع هذه الأشياء واستفاد وأناب وتاب، فهو كما لو تاب بسبب سماعه لحديث موضوع أو ضعيف، هو شيء يفرح به، ولا يعني قبول الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة أو

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. **والوَجْبَة**: السَّقْطة.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٧) من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ٦٤٧)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٣/ ١٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١١/ ١٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٧٠)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٣/ ١٦٣).

الحكايات الباطلة.

مهمٌّ أن تكون العقلية الإسلامية عقلية ناضجة رزينة، لا تتسرَّع في قبول الظنون والاحتمالات، ولا تتسرَّع في نفيها، فالعلم أوسع مما تظن، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥]، ولا يزال العلم البشري يحبو في مجال الروحانيات والإيمانيات والمسائل النفسية، وهذا سر شرف المصادر الشرعية التي يتلقاها المسلم بالقبول، قائلًا مع أمثاله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

* ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾:

إضراب وانتقال من موضوع إلى آخر، أو زجر، أو نفي، **والمعنى**: ليس الأمر كذلك، وليست الآيات من أساطير الأولين، بل من كلام رب العالمين.

ثم ذهب إلى تعليل ما وقعوا فيه فقال: ﴿بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي: أنهم كذَّبوا بسبب الرَّان الذي أصابهم(١).

والرَّان: غلاف يكون على قلب الإنسان، ويُسَمَّى: الرَّانُ، أو الرَّين(٢)، **وأشد منه**: الطَّبْعُ، كما في قوله: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [التوبة: ٩٣]، **وأشد منهما**: القُفْل، كما في قوله: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وهي آفات تصيب قلب الإنسان، تجعله محجوبًا عن تشرُّب الحقائق فلا يقبلها، ويعمى عنها ويماري في الحقِّ.

رحلتها الطويلة مع الهوى والانحراف جعلتها تكره الخير والصدق، والطهارة والعفاف، وتحب ضدَّ ذلك من الشر والفجور، والكذب والريبة، وهذا يحدث حين يعتاد امرؤٌ حياة الرذيلة والفسق، أو الانهماك في صفة مذمومة؛ ولذا قال:

---

(١) ينظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٩٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٨٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٧٩)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٥/ ١٣٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٩٩).

(٢) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٣٢٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٨٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٢٥).

وينظر أيضًا: «لسان العرب» (١٣/ ١٩٢)، و«تاج العروس» (٣٥/ ١٣٠) «ر ي ن».

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾ [الزمر: ٤٥].

تجد شابًّا إذا رأى فتاة محتشمة ازدراها، وامتعض لرؤيتها؛ لأنه يريد المتبرِّجة، اللَّعوب التي يسهل اصطيادها واستغلالها، وإذا وجد نفسه في بيئة محافظة جادة شَرِقَ بذلك، فهذا سببه الرَّانُ الذي يغطِّي على القلب.

ومنه ما يُسَمَّى بالإدمان، كمَن يتعاطى المخدرات، حتى تجري سمومها في دمه، فلو مُنِع عنها بالقوة صار يعاني ما يُسَمَّى بالأَعْراض الانسحابية.

ومثله إدمان الرذيلة أو المشاهدات الإباحية أو المكالمات والعلاقات المحرمة.

والرَّان شيء غير الغَين، كما في حديث: «**إنه ليُغانُ على قلبي، وإني لأستغفرُ اللهَ في اليوم مائةَ مرة**»[1]. فكأن **الغَين** شيء خفيف يَعْرِض لقلوب الأخيار والصلحاء من الغفلة، فيدفعونه بالاستغفار، أما **الرَّان**، فغالبًا ما يصيب قلوب الكافرين أو أهل الفجور.

وفي ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ ﴾ بين اللام والراء إدغام عند بعضهم، وبعضهم يفصلونها بغير إدغام، فيقولون: «بلْ رَان»، وبعضهم يفصلون بينهما بسكتة لطيفة دون تنفُّس، وهذه قراءة حفص[2].

* ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥ ﴾:

وفي عطف هذه الآية على السابقة مناسَبة جميلة؛ حيث ذكر الرَّان الذي حجب قلوبهم عن الحق والمعرفة والإيمان والعمل الصالح؛ فناسب أن يكون عقابهم في الآخرة حجابًا كالذي كان عندهم في الدنيا.

والحجاب عن الله هو أنْ يُحْرَموا من رؤيته سبحانه، فلا يرونه كما يراه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأَغَر المزني رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٥/ ٢٩٩)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٧٥)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٨٥)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص٤٦٧)، و«حجة القراءات» (ص٧٥٤)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٧٩)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٣٤٦- ٣٤٨).

المؤمنون؛ فهو تجلَّى لأهل كرامته، واحتجب عن أهل معصيته.

واستدلَّ الشافعي بهذه الآية على رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة.

وهو استدلال بمفهوم المخالفة؛ فإن الله لما عاقب المكذِّبين بحرمانهم من رؤيته، دلَّ على أن غيرهم من المؤمنين يرونه.

وقد تضافرت الأدلة عليه، وهو مذهب أهل السنة، كما في قوله تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٣]، ورؤية الله من أعظم النعيم الذي يُنعَّمون به في الجنة، فبعد أن تنعَّموا بذكره في الدنيا، تنعموا برؤيته في الآخرة(١).

وعن جَرِير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلةَ البدر، فقال: «**أما إنكم سترونَ ربَّكم كما ترونَ هذا القمرَ، لا تُضامُّونَ في رؤيتِه**»(٢).

والمقصود: تشبيه الرؤية بالرؤية، لا تشبيه المرئي بالمرئي.

* وحجاب الكافرين عنه سبحانه يفعل في القلوب والأرواح مثلما تفعل النار بالأجساد من الحرقة والألم والإهانة، ولذا عقَّب بقوله: ﴿**ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾**﴾، وهذا عقاب أجسادهم.

والصَّلْي: الشَّي والكي والإحاطة من كل جانب(٣)، **والجحيم**: أشد النار.

* ﴿**ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾**﴾:

عند ما يرون مصيرهم يوم القيامة، يقال: هذا الذي كنتم تقولون عنه: إنه ﴿**أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾. فكان عقاب الفجار في الآخرة: الحجاب، ثم الصَّلْي بالنار، ثم التوبيخ والتبكيت.

ولما انتهى من ذكر حال الفجَّار المكذِّبين ومآلهم، انتقل إلى الكتاب الآخر، وهو كتاب الأبرار، وهذه طريقة جارية في القرآن، أنه يكرِّر ذكر الجنة والنار،

(١) ينظر: «شرح أصول الاعتقاد» للَّالَكائي (٣/ ٥١٩)، و«الحجة في بيان المحجة» لقِوام السنة (٢/ ٥٢٤)، و«مجموع الفتاوى» (٦/ ٤٩٩)، و«حادي الأرواح» (ص٢٩٢)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (ص١٩١)، و«تفسير الشافعي» (٣/ ١٤٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٤)، ومسلم (٦٣٣).

(٣) ينظر ما تقدم في «سورة الانفطار»: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾﴾.

والخير والشر، والإيمان والكفر[1].

* ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨﴾:

كتابهم الذي كُتبَت به أعمالهم، فهو صحيفة الأعمال[2].

والأبرار جمع: بَرٍّ، وهو صاحب البِرِّ، وهو اسم جنس لأعمال الخير والطاعة[3].

يقول الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأبرار هم الذين لا يُؤْذُون شيئًا حتى الذَّرَّ»[4].

والذَّرُّ: نوع من النمل، وفي الحديث الصحيح: «**نزلَ نبيٌّ من الأنبياءِ تحت شجرةٍ، فلَدَغَتْه نملةٌ، فأَمَرَ بجهازِه فأُخرِجَ من تحتِها، ثم أَمَرَ بها فأُحرِقَت، فأوحى اللهُ إليه: فهَّلا نملةً واحدةً**»[5]. يعني: أحرقت بيت النمل كله من أجل نملة واحدة قرصتك، لماذا لم تنتقم من النملة التي قرصتك فقط؟ إن كان ولا بد!

وهذا السياق مناسب لموضوع التطفيف؛ فبعد وعيد المطفِّفين وهم أهل بغي وعدوان، جاء ذكر الأبرار أصحاب العدل والإنصاف.

وليس المقصود بالبِرِّ المظهر الذي يبدو به الإنسان وكأنه أصبح معدودًا في الأخيار، بل البِرُّ هو الإيمان في الأصل، وهو من المعاني القلبية التي تفيض على الجوارح ويظهر أثرها.

والدين ظاهر وباطن، وسلوك وعمل، والإيمان قول وعمل واعتقاد، والاعتقاد هو الأصل؛ ولهذا عرَّف النبي ﷺ الإحسان بـ«**أن تعبدَ اللهَ كأنك تراه**»[6]. وهذا

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الفاتحة».

(٢) كما تقدم في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ٧﴾.

(٣) «المفردات في غريب القرآن» (ص١١٤)، و«بصائر ذوي التمييز» (٢/ ٢١١)، و«مفردات القرآن» للفراهي (ص٢٦٤).

(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (٢٢٨٧)، والطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٢٠٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨٤٦)، والدينوري في «المجالسة» (٤٥).

(٥) أخرجه البخاري (٣٣١٩)، ومسلم (٢٢٤١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٦) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه مسلم (٨) من حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

شيء في القلب، وكذلك الإيمان أصل تحقيقه في القلب.

ثم درجة الإسلام، وهي الظاهر الموافِق للباطن، وكل هذه الدرجات مشروعة.

و﴿عِلِّيُّونَ﴾: كلمة عربية تُطلَق على الذين يسكنون في الأعالي(١)، وبضدهم: السُّفليُّون الذين يسكنون في الأسافل.

وقد تنوَّعت عبارات السلف في تفسيرها، فقيل: سِدرة المنتهى، **وقيل**: السماء السابعة، **وقيل**: عند العرش(٢).

والمقصود: المنازل السامية الرفيعة، كما أن كتاب الفجار في سِجِّين، الذي مِن أشهر معانيه: السُّفل، وهو دليل على أن الجنة في السماء وسقفها عرش الرحمن عَزَّوَجَلَّ(٣).

* ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩﴾:

وهي إشادة به، وأنه بالغ مبلغ الارتفاع والسمو(٤).

* ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠﴾: تفسير لـ﴿كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾، وليس تفسيرًا لـ﴿عِلِّيِّينَ﴾، وإنما دخلت كلمة: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ بين الكتاب وبين وصفه؛ للتعظيم والتفخيم.

* ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١﴾:

أي: يحضره، **وقيل**: يطَّلع عليه المقرَّبون(٥)، وهم الملائكة والأنبياء والرسل

---

(١) كما تقدم في «سورة الانفطار»: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٠٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٢٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٥٢).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٥/ ٢٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٠٦- ٢١٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٢).

(٤) وينظر ما تقدم في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨﴾.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢١١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٥٢).

والصِّدِّيقون والشهداء، وكلهم يشهدون كتب الأبرار، وهو من بركة ما رُقِمَ فيه من الأعمال الصالحة.

* ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾:

أي: الذين هذا كتابهم، ولم يقل: «لفي النَّعيم»، بل جاء بها نكرة تشمل كل نعيم، فكل ما يُتَصوَّر أو يَخْطُر على البال من النَّعيم فهم فيه، وكأن النَّعيم وعاء، والأبرار قد وُضِعوا فيه، فهم يتنعَّمون بكل ما فيه.

ومنه: النَّعيم المعنوي، نعيم الأرواح والقلوب برضوان الله وسماع كلامه سبحانه، والنظر إلى وجهه الكريم، والرضوان، كما قال سبحانه: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة: ٧٢].

وهناك النَّعيم الحِسِّي، من المآكل والمطاعم والمشارب والأصوات الجميلة، والمَلذَّات، والنكاح وألوان المتع التي نعرف، والتي لا نعرف.

* ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ جمع: أريكة، وهي السُّرر والمتكآت التي يقعدون عليها في الجنة(١)، ثم هم ينظرون، ولم يذكر الله تعالى إلى ماذا ينظرون؟

وعند ما يأتي الإطلاق في القرآن فإنه يدل على عموم المتعلِّق، فهم هنا ينظرون إلى النَّعيم والمُلْك الذي أُعطُوه، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠]، والإنسان يتلذَّذ بالنظر إلى ما يملك، وهو في ذاته متعة.

وينظرون إلى الأشياء الجميلة التي يلتذُّ المرء بالنظر إليها، فإن الإنسان حين ينظر إلى المناظر الجميلة يتمتَّع حتى لا يريد أن يغمض عينيه، وقد يكون هذا عنده ألذ من الطعام والشراب وألوان المَلذَّات، ولو لم تكن الأشياء ملكًا له.

وينظرون إلى وجه الله سبحانه، وهو أعظم نعيم.

وينظرون إذا شاؤوا إلى الكفار في النار، ليذَّكَّروا نعمة الله تعالى عليهم، كما في قصة الصافات، والمؤمن الذي كان له صديق في الدنيا يشكِّكه، فيحب أن

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ٢٥٥)، (٢٤/ ٣٢٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٨٤)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ٤٤)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ١٥٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٠٤).

ينظر إليه، فيريه الله إياه في النار، فيخاطبه وهو في النار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٦- ٥٧].

فهذا هو نعيم الجنة، نعيم متنوِّع، تستمتع به كل جارحة، وكل حاسَّة من حواسِّ الإنسان.

* ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾:

بلغ بهم النَّعيم أن صار علامةً تُرى في وجوههم.

فكما كان أثر الطاعة والإيمان في وجوههم في الدنيا ظاهرًا، فكذلك تظهر في وجوههم نضرة النعيم(١).

* ﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾﴾:

وهذا من ألوان نعيمهم، حيث تُدار عليهم الخمر وهم في مجالسهم وسَمَرهم.

واختلفوا في «الرَّحيق» على أقوال(٢):

أنه الخمر الصافي، أو الخمر القديم المعتَّق- لأن الناس في الدنيا يعدُّونها أجود الخمر- أو الخمر الأبيض الجيِّد.

وهي خمر، لا تَذْهَب بالعقول والألباب كخمر الدنيا، وليس فيها كحول ولا سكر.

والمختوم يكون في أكواب وقوارير مغلقة خاصة بصاحبها، فهو الذي يقوم بفتحها وفضِّها، وهذا من كمال النعيم(٣).

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٦٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٣٣٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٩١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢١٤- ٢١٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٣٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٥٢)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٠٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٩٠).

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٨٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٩٢)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٢٥٤)، والمصادر السابقة.

* ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾:

والخَتْم نفسه مِسْك؛ ولذا قال: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ﴾، وفي بعض القراءات: (**خَتَمُهُ مِسْكٌ**)[1]. فالختم الذي خُتِمَ به على القارورة أو الكأس من المسك، فما بالك بما في داخلها؟! ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾:

وكان أهل التطفيف في الدنيا يتنافسون بالدرهم والدينار، وبالتطفيف بشيء قليل من الطعام يأخذونه من أفواه الفقراء والمساكين، فـ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾.

أما المؤمنون فقد كانوا يتنافسون في النَّعيم العظيم الذي حُقَّ لهم أن يتنافسوا فيه، وهو ما يجب أن يكون فيه التنافس.

هـذي المـكارمُ لا قَعْبـانِ مـن لبنٍ ... شِـيبا[2] بماءٍ فعـادا بعدُ أبـوالَا[3]

وهي إشارة إلى مشروعية التنافس في الخير، كالتنافس في العلم، حتى قال بعض الفقهاء: لا إيثار في القُرَب، ففي مجال القربات والطاعات ينبغي أن يتنافس الناس.

ولا يعني هذا المنع من التنافس في خير الدنيا وطيبها ومتاعها المباح وفرصها التي سُخِّرت للإنسان، مثل التنافس في تجارة يُنْفِق الإنسان منها في سبيل الله، أو وظيفة ينفع وينتفع بها، أو منصب يبذل فيه طاقته ويجد فيه نفسه، كما يتنافس الناس في الانتخابات وغيرها، فهذا يرجع إلى نيَّة الإنسان.

ولو كان لدى المرء رغبةٌ في سمعة أو مكانة أو جاه مباح، فهذا مما لا يُلام عليه، وهو طبيعة وجِبِلَّة، لكن فَرْقٌ بين إنسان في نيَّته أن ينفع الناس، وآخر همُّه الرياء والسمعة والتفاخر.

---

(١) ينظر: «المقنع في رسم مصاحف الأمصار» (ص٢٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٧)، و«الإتقان» (٤/ ١٨١)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٣٥٠- ٣٥١).

(٢) أي: خُلِطَا.

(٣) ينظر: «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣/ ٦٥) منسوبًا إلى أبي الصلت بن أبي ربيعة، شاعر جاهلي، وهو والد أمية بن أبي الصلت، قاله في قصيدة مادحًا فيها سيف بن ذي يزن.

وشر منهم ثالث قصده الإضرار بالخلق والظلم والانتقام.

وعادةً لا يمكن تحصيل الخير إلا بشيء من مراعاة حظِّ النفس، وعلى المؤمن أن يصحِّح نيَّته.

وفي الآية معنى لطيف: وهو أن مجرد دخولك ميدان المنافسة محمود؛ حيث يشملك بذلك وصف المتنافسين، وأنت على خير، ولو سُبقت فحَسْبُك أن تكون من المتنافسين، ولهذا لما خَيَّرَ رسولُ الله ﷺ دُورَ الأنصار، قال له سعدُ بنُ عُبادةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسولَ الله، خُيِّرَ دُورُ الأنصار، فجُعِلْنا آخِرًا! فقال ﷺ: «**أو ليس بحَسْبِكم أن تكونوا من الخيار؟**»(١).

* ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ٢٧﴾:

﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ من المَزْج، **والمَزَاج**: الشيء المختلط الممزوج(٢)، وتُستخدم في الأشياء المعنوية، فيقال: فلان مزاجه متعكِّر، وإذا خُلِط شراب بشراب قيل: هذا مزيج، أو مزاج، أي: ممزوج بعضه ببعض(٣).

و﴿تَسْنِيمٍ﴾: عين في الجنة، وهي أفضل ماء الجنة، وهذه العين تصب على جنانهم من علو؛ مشتقة من السَّنام، وسَنام البَعير: أعلاه، فكأنها في الجنة سَنامٌ؛ لعلوها(٤).

وقال ابن عباس وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في هذه الآية: «إنها تُمزَج لأصحاب اليمين مزجًا، ويشربها المقرَّبون صِرْفًا»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٩١)، ومسلم (١٣٩٢) من حديث أبي حُميد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٧٦٦) «م ز ج».

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٠٧).

(٤) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٣)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٥٢٠)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٢١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٣١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٧)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٠٨).

(٥) ينظر: «الزهد» لابن المبارك (١٥٢٢)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٣٤٠٩١)، و«الزهد» لهناد (٦٥، ٦٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٢١)، و«صفة الجنة» لأبي نعيم (٣٠٦)، و«البعث والنشور» للبيهقي (٣٢٧)، و«المختارة» (١٠/ ٣٠٠) (٣٢٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣١٠).

فأصحاب اليمين يشربونها ممزوجة بغيرها، **أما المقرَّبون** فيشربونها صِرْفًا غير ممزوجة؛ لأن المقرَّبين أفضل من أصحاب اليمين(١).

* ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾:

أي: يشرب منها المقرَّبون، فالباء بمعنى «من»، وهو معروف في اللغة(٢)، فالمقرَّبون يشربونها صِرْفًا، أما الأبرار وأصحاب اليمين فإنها تُمزَج لهم مزجًا.

* ختم تعالى هذه السورة بذكر ما كان عليه الأبرار والفجار في هذه الدار، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾:

ولم يقل: «المجرمين»، بل عرَّفهم بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ثم بالفعل الماضي ﴿أَجۡرَمُواْ﴾، فبيَّن أن فعلهم- وهو الإجرام- أمر مضى، فالله تعالى يذكر هؤلاء المجرمين يوم القيامة بصفتهم التي كانوا عليها في الدنيا، ولذلك قال بعض المفسرين: إن هذه الآيات مما يوبِّخ الله تعالى به المجرمين يوم القيامة.

وسواء كان ذلك توبيخًا لهم، أو تقييدًا لما عملوه في الدنيا، فالأمر يتعلق بذكر معنًى مهم وواقع، وهو أنهم أجرموا، ومن أعظم إجرامهم كفرهم بالله عَزَّوَجَلَّ.

وعند ما تجد في القرآن ذكر الإجرام والكفر، وبمقابل ذلك الإيمان، لا تجد أن شيئًا من ذلك مقرونًا باسم قبيلة أو بلد أو شخص، فالعبرة بفعل الإنسان، لا بما كان عليه الآباء والأجداد.

كُنِ ابنَ مَن شِئتَ واكتَسِبْ أَدَبًا ... يُغنيكَ مَحمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ
فلَيسَ يُغني الحَسيبَ نِسبَتُهُ ... بلا لِسانٍ لَه ولا أَدَبِ
إِنَّ الفَتى مَن يَقولُ: ها أَنا ذا ... لَيسَ الفَتى مَن يقول: كانَ أَبي(٣)

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ٩٣)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (٢/ ٦١٣)، و«التفسير المنير» للزحيلي (٣٠/ ١٣٠).

(٢) ينظر: «المخصص» (٤/ ٢٤٠)، و«شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك» (٣/ ٢٢)، و«تاج العروس» (٤٠/ ٤٠٣).

(٣) ينظر: «معجم الأدباء» (٦/ ٢٧١٦)، و«الوافي بالوفيات» (٢٦/ ٤١)، و«بغية الوعاة» (٢/ ٣٠٠)، و«ديوان علي بن أبي طالب» (ص١٦).

ويُنسب إلى علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]:

لَعَمـرُكَ مـا الإنسـانُ إلَّا بدينِـــهِ فَلا تَترُكِ التقوى اتِّكالًا على النَّسَبْ

فقد رَفَعَ الإسـلامُ سَـلمانَ فارِسٍ وقد وَضَعَ الشِّركُ الشَّريفَ أبا لَهَب

﴿كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾: إشارة إلى الأكابر من قريش، كأبي جهل وأبي لهب وعُتبة وشَيبة ابني رَبِيعة والنضر بن الحارث وغيرهم من صناديد الكفر الذين كانوا يضحكون من المؤمنين، ويسخرون منهم في نواديهم.

وهم لم يكونوا يفعلون ذلك في الجاهلية قبل الإسلام، والله أعلم، لكن لما بُعِث الرسول ﷺ فأسلموا معه صاروا يسخرون منهم، وهذا غاية التطفيف، والتغاضي عما لديهم من الصدق وحسن النية والإخلاص.

وقد ذكر الله تعالى مثل ذلك عن الأنبياء السابقين مع قومهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: ١٠]، وقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾ [الزخرف: ٧].

وهذه الآية درس في التربية والأدب، فأسلوب الضحك من الآخرين أسلوب ممجوج، لا يصدر من سويٍّ حسن الخلق؛ ولهذا جاء في القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]، والمرء قد يضحك من إنسان من أجل لونه، أو شكله، أو خلقته، أو طريقة كلامه، وهو خير منه عند الله، وهو فعل الذين أجرموا، وهذا غاية التنفير للمؤمن من الوقوع فيه.

* ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠﴾:

هذا الوصف الثاني للمجرمين، فالاستهزاء لم يقع مرة أو مرتين، بل صار خُلُقًا لصيقًا بهم.

والضمير في قوله: ﴿مَرُّوا۟ بِهِمْ﴾ محتمَل، فيجوز أن يكون المشركون جالسين

---

(١) ينظر: «مفيد العلوم» (ص٣٧٨)، و«تاريخ دمشق» (٦٧/ ١٣٧)، و«ديوان علي بن أبي طالب» (ص١٢).

فيمرُّ المؤمنون بهم، فيتغامزون عند رؤيتهم، أو العكس، وهو أن يكون المؤمنون قعودًا، فإذا مرَّ المشركون نظروا إليهم فغمزوهم، وسخروا منهم.

وإبهام الضمير يشمل الحالتين معًا(١).

والفعل: ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ مشترك يدلُّ على أنه ليس فِعْلَ فرد، وإنما هو فعل جماعة يتنافسون فيه ويتسابقون إليه.

ومِن معاني التغامز: اللمس بطرف اليد أو الرِّجل، كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فإذا سجدَ غَمَزَني فقبضْتُ رِجلي»(٢). فيمكن أن يغمز بعضهم بعضًا، وكأنه ينبهه على المشهد الذي لا ينبغي أن يفوت.

وقد يقلِّد حركة الشخص على سبيل التنقُّص والسخرية، وهذا نوع من السَّفَه الذي لا يمتُّ إلى القيم والأخلاق بصلة، ولا يُحِقُّ حقًّا، ولا يبطل باطلًا، وغاية ما يدلُّ عليه أن الذي تصدر منه هذه الحركات سيئ الخلق، فاسد المزاج، خفيف العقل معتلِّ الشخصية.

ذلك أنهم يعيشون في مجتمع واحد، وكأنهم قد خاضوا غمار البحر في سفينة تُقِلُّهم جميعًا، فمن العقل والمروءة أن يكون بينهم قَدْر من العلاقات المشتركة الإنسانية التي تضمن التعايش والتعاشر بالحسنى، لكنهم أطاحوا بكل هذه المعاني، وصاروا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

ولهذا نهى الله تعالى عن الغمز واللَّمز والهمز، وتوعَّد فاعله، كما في قوله: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

* ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾:

وهذا الوصف الثالث للمجرمين.

والانقلاب: معناه الرجوع إلى معتاد يذهب إليه الإنسان(٣).

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٥٤)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ٥٦٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٢)، ومسلم (٥١٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٠/ ٣٦٤)، و«روح المعاني» (٦/ ٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٢٣).

ولم يقل: «إلى بيوتهم» وإنما قال: ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ﴾؛ لأن هؤلاء القوم يُشْرِكون أزواجهم وأطفالهم في السخرية، فهي ليست موقفًا عابرًا، بل أصبحت جزءًا من طبيعتهم وأخلاقهم، فيُشْرِكون أزواجهم وأهلهم معهم فيها وقت الراحة والأنس والجمام!

وتكرار الفعل في قوله: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾، يعطي صورة من أجمل الصور البلاغية، وكأن السياق يُشعِر بأنهم لا ينقلبون إلى أهلهم إلا وينقلبون فكِهين، فهم دائمًا يرجعون بهذه الصفة، ولا يُكرَّر الفعل إلا لمثل هذا المعنى، مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَا﴾ [القصص: ٦٣]، فالتكرار جاء لإنشاء معنًى جديد، وهو ذِكْر ارتباط الانقلاب بهذه الصفة.

والجمهور يقرؤونها: ﴿فَكِهِينَ﴾ مقصورة، وقرأها عاصم، وغيره: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ بالمد[1]، والفرَّاء يذهب إلى التفريق بين الفعلين، **والأقرب** أن معناهما واحد[2].

ومن معاني ﴿فَكِهِينَ﴾: أنهم ينقلبون متنعِّمين إلى بيوتهم، حيث المآكل والمشارب، والمطاعم والخيرات، ويشعرون بالتنعُّم والفرحة والسعادة، فالله يسجِّل عليهم النعمة التي أنعم بها عليهم فلم يشكروها ولم يقدِّروها، بل ﴿بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾[3] [إبراهيم: ٢٨].

ومن معانيها: مَرِحين، فهم أهل مرح وسرور ونعيم، فإن الكفار قوم عُجِّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، وقد قال الله تعالى عنهم: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾[4] [التوبة: ٨٢].

---

(١) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٧٦)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٢١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٥٤، ٣٩٩)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٣٥٢).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٤٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٨٦)، (٥/ ١١٤)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٨٨)، و«حجة القراءات» (ص٧٥٥)، وما تقدم في «سورة الطور»: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ١٨﴾.

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ١٢٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٩٤)، و«فتح القدير» (٤/ ٦٥٨).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٢٦)، والمصادر السابقة والآتية.

ومن معانيها: ساخرين متندِّرين، **وهذا أقوى المعاني**، أي أن جزءًا من فكاهتهم ونكتهم التي يتداولونها والطرائف التي يذكرونها، هو من المعركة التي يديرونها ضدَّ الحقِّ، فإذا رجع الواحد منهم إلى أهله بدأ يحدِّث أهل بيته وسُمَّاره بما رأى، وما عمل، وما قال، وما سمع، على سبيل السخرية، ويُظهر أنه كان منتصرًا وفائزًا ومتفوِّقًا وخفيف الظل حاضر البديهة(١).

* ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢﴾:

هذا هو الوصف الرابع للمجرمين.

فكلما رأوهم أطلقوا عليهم هذا الوصف افتراءً وتضليلًا، ويؤكِّدون الوصف بأدوات التوكيد: «إن»، واسم الإشارة، واللام في قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾.

وماذا يريدون بالضَّلال(٢)؟

يحتمل أن مقصودهم أنهم قوم ليس لهم علم ولا فهم ولا إدراك، وذلك لأنهم- في نظر المجرمين- يعملون أعمالًا لا معنى لها إلا النَّصَب والجوع والعطش، كالصلاة والصيام، ويتركون الربا مع أرباحه المضاعفة، فهذا في نظرهم ضلال.

أو يكون المقصود: الضلال في الدين، وهذا أعجب وأطرف، حين يصبح أبو جهل وأبو لهب وعتبة وشيبة والنضر حُكَّامًا في تمييز الهدى من الضلال، وقد كان فرعون من قبلهم يقول: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، ويقول عن موسى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، ففرعون يتظاهر لقومه بأنه خائف من الفساد أن يظهر على يد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويزعم أنه يهديهم سبيل الرشاد والهدى!

والمؤمن يتألَّم مما يُقال فيه من السخرية واللَّمز، ومِن أشد الألم الذي يجده

---

(١) ينظر: «التفسير القرآني للقرآن» (١٦/ ١٤٩٨)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٤/ ٤٤٩)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٥٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٣).

أن يجتهد في دعوة الناس للخير والهدى، ثم يُتَّهَم بأنه يريد الإفساد وإشاعة الفتنة.. إلخ.

والالتزام بالحق له تَبِعة كبيرة، وأكثر مَن يحسُّ ذلك ويعاني تَبِعاته مَن نشأ في بيئة غير صالحة، حيث السخرية والهمز واللَّمز مِن كل ما يتميَّز به عنهم مِن سيما الصلاح وآثاره.

إن السخرية ممارسة قبيحة وحصار إعلامي وقح، يمارسه الملأ من قريش ضد دعوة النبي ﷺ؛ حتى يحولوا بين الناس وقبول الحق، وهذه سنة الله في كل دعوة تستهدف إصلاح أحوال الناس فتُبْتَلى بمَن يحاربونها.

وليس مَن يحاربها الكفار فحسب، بل يقع هذا في المسلمين، إذ تجد التنابز بالألقاب والتصنيف والسخرية والتشكيك ونشر الشائعات والأباطيل في مجتمعات المسلمين، كما تجده في المجتمعات الأخرى.

* ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣﴾:

ولك أن تنظر إلى هذا النسف الهادئ لكل ما قالوه، فإن الله تعالى لم يَرُدَّ عليهم ردودًا طويلة مُفَصَّلة، واكتفى بهذا الرد المفحم، فهو لم يرسلهم على خصومهم حتى يحفظوهم أو يراقبوا أعمالهم.

ولم يقل: «وما أرسلوا لهم، أو إليهم»؛ لأن فعلهم فعل التسلُّط والعلوَّ وكأنهم عذاب مرسل، فالله تعالى يقول: لم نرسلهم على هؤلاء المؤمنين حافظين لأعمالهم وأقوالهم وسلوكهم.

وهذا توبيخ للمشركين أنهم لم يُكلَّفوا بهذه المهمة، وتصبير للمؤمنين، وهو يومئ إلى أن الحكم والأمر والنهي والتصويب والتخطئة لله سبحانه، فما دام لم يرسلهم حافظين، فلا يهمَّنَّكم ما يقولون، ولا تلتفتوا إليهم.

وفيه تأديب عام لجميع الخلق؛ فإنه لم يُرْسَل أحدٌ حافظًا على أحد، حتى النبي ﷺ قيل له: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ [الغاشية: ٢٢]، وإنما الحافظون هم الملائكة الذين يرسِلهم الله إلى الإنسان يحفظون أقواله ويسجِّلون عليه: ﴿وَيُرۡسِلُ

عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾[1] [الأنعام: ٦١].

وعلى الناس أن يلزموا حدودهم، فلا أحد حافظٌ على أحد، إلا بمُقْتضَى مسؤوليته إن كانت، كالأب على أولاده، أو المسؤول في حدود وظيفته.

والمراقبة على تصرفات الناس تنتهي إلى البحث عن الأخطاء والعيوب والزلَّات، وقد رُوي عن النبي ﷺ: «**مَثَلُ الذي يجلسُ فيسمعُ الحكمةَ، ثم لا يحدِّثُ عن صاحبِه إلا بشرِّ ما سمعَ، كمَثَلِ رجلٍ أتى راعيًا، فقال: يا راعي، أَجْزِرني شاةً**[2] **من غنمِك. قال: اذهب فخذْ بأُذُنِ خيرِها، فذهب فأخذَ بأُذنِ كلبِ الغنمِ**»[3].

ومثل هذا مَن يحضر موعظة، أو يقرأ كتابًا، أو يسمع برنامجًا، فيجد علمًا وخيرًا، لكنه لا يتذكَّر إلا الزَّلل، فهو كالذي أخذ الكلب، وترك الغنم، وقد كان يسعه أن يأخذ أثمن شاة[4]!

وفي الآية وجوب عناية المرء بنفسه، وأن أولى ما يبدأ به إصلاح عيبه ورعاية سلوكه.

ابدأ بِنفسِكَ فَانْهَها عَن غَيِّها فَإِذا انتَهَتْ عَنهُ فَأَنتَ حَكيمُ[5]

ومن دروسها: أن كثيرًا من الناس يُحْسِنون ردَّ الفعل أكثر مما يُحْسِنون المبادرة، ويتفاعلون عند وقوع منكر أكثر مما يتفاعلون عند غياب معروف.

على المؤمن أن ينكر المنكَر، لكن لا ينبغي أن يكون نشاطه وحيويَّته واندفاعه

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٩/ ٢٨٩)، و«زاد المسير» (٢/ ٣٨)، وما سيأتي في «سورة الغاشية».

(٢) أي: أعطني شاة تصلح للذبح.

(٣) أخرجه الطيالسي (٢٦٨٦)، وأحمد (٨٦٣٩، ٩٢٦٠)، وابن ماجه (٤١٧٢)، والبزار (٩٥٨١)، وأبو يعلى (٦٣٨٨)، والرامهرمزي في «الأمثال» (٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (١٧٦١).

(٤) ينظر: «شكرًا أيها الأعداء» للمؤلِّف.

(٥) ينظر: «البيان والتبيين» (١/ ١٧٣)، و«عيون الأخبار» (٢/ ٢٣)، و«المجالسة» للدينوري (٥/ ٣١٢) (٢١٨٥)، و«جامع بيان العلم وفضله» (١١٨٨) منسوبًا إلى أبي الأسود الدُّؤَلي وغيره.

مرهونًا بإثارة أو استفزاز، فإذا ذهب المثير خمد ولم يكن عنده فاعلية، لأن معنى ذلك أن يكون عدوك هو الذي يوجِّه طاقتك أو يُسَكِّنها، ويختار الموضوع والوقت والمكان الذي يستفز طاقتك فيه وإليه، وهو يفضي إلى أن يكون الناس سلبيِّين حتى توجد المثيرات أو المحفِّزات، وربما تفاعلوا معها بطريقة خاطئة تعويضًا عن سلبيتهم.

ومن دروس الآية: أن الله وصف الكفار بأنهم يضحكون ويتغامزون ويتفكَّهون، ولم يذكر عن المؤمنين أنهم قابلوا ذلك بمثله.

إن مقياس القوة ليس الصراخ والضجيج والصخب، وإنما الحجة والصبر، والنبي ﷺ يقول: «**ليس الشديدُ بالصُّرَعةِ**[1]**، إنما الشديدُ الذي يملِكُ نفسَه عند الغضبِ**»[2].

فقدرتك على أن تملك نفسك عند الساخرين واللَّامزين هي القوة والكفاءة.

وفي المثل العربي: «أوسعتُهم سبًّا، وأَوْدَوا بالإبل». وذلك أن لصًّا أخذ الإبل، فتبعه الراعي يسبُّه، ويشتم آباءه، فلما أخبر الناس بخبره سألوه: ماذا فعلت؟ فذكر المثل[3]!

وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، ويقول أبو تمام[4]:

إذا جـارَيـتَ فـي خُـلُـقٍ دَنِيئًا ... فـأنـتَ ومَـن تُـجـاريـه سَـواءُ

فإذا عاملت سفيهًا بالمِثْل، فكأنك نزلت إلى درجته، فأنت تحفظ بالإِعراض مكانتَك عند الله وعند نفسك، فهو أرفع في درجاتك يوم القيامة.

وأنت بذلك تجعل المجال مفتوحًا للخير والهدى، ولهذا يقولون: كَسْب

(١) **الصُّرَعة**: الذي يَصْرَع الناسَ كثيرًا، **والصُّرْعة**: الذي يَصْرَعه غيرُه كثيرًا.

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «الفاخر» للمفضَّل بن سلمة (ص١٧٦- ١٧٧)، و«جمهرة الأمثال» (١/ ١١٦)، و«مجمع الأمثال» (٢/ ٣٦٣)، و«المستقصى في أمثال العرب» (١/ ٤٣١)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣/ ١٧).

(٤) ينظر: «ديوان أبي تمام» (ص٤٨٥).

الأشخاص أفضل من كَسْب المواقف، ومقام الهداية أولى بالرعاية من مقام النكاية.

مقام الهداية هو تأليف قلوب الناس على الخير، وهو أحب إلى الله وأنفع لعباد الله من النكاية، والغلبة والإيقاع بالخصم.

* ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

ما زال السياق في مشهد القيامة، و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في مقابل ﴿ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾، وصفهم بالإيمان الذي مضى منهم، وهم قد بلغوا اليوم النعيم المقيم، وهم يضحكون من الكفار، وهذا دليل على أنهم لم يكونوا يضحكون منهم في الدنيا.

فالمؤمن بقيمه وأخلاقه لا يسخر من الناس، وإنما هو داعٍ وهادٍ، والسخرية ليست من أساليب الدعوة.

وضحك الذين آمنوا من الكفار؛ لأنهم وجدوا ما وعدهم ربهم حقًّا، وأن الكفار لم يجدوا ما منَّتهم به أنفسهم من الأماني الباطلة، ولم يجدوا لوعود الشيطان حقيقة، فحُقَّ للمؤمنين أن يضحكوا منهم كما ضحك منهم الكفار في الدنيا؛ زيادة في عذابهم، ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾[1].

* ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

و﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمع: أَرِيكة، وهي: السُّرُر المحجَّلة[2]، وهي مقابل ما كان عليه الكفار من التفكّه والنَّعيم، فالمؤمنون اليوم هم الفَكِهون مع أزواجهم: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٦].

والمجالس والمتكآت المعدَّة لهم من أجمل ما يكون، مما لا يخطر على بال بشرٍ، فهم في هذا النعيم ينظرون.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٢٨)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٥٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٨)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٧/ ٢٦٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ٢٥٥)، (٢٤/ ٣٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ١٥٦)، (٨/ ٣٥٢)، وما تقدم في قوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

وقد أطلق النظر هنا، فهم ينظرون إلى وجه الله الكريم، وينظرون إلى النَّعيم في الجنة والمُلْك، وينظر بعضهم إلى بعض لما فيه من المتعة والسرور والأنس: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

والتعبير بالمضارع: ﴿يَنظُرُونَ﴾ يدل على الاستمرار، فنظر الذين آمنوا في الجنة دائم، إذ ليس يغشاهم موت ولا فوت ولا غفلة ولا نوم.

* **ومن معاني الآية**: أنهم ينظرون إلى ما جُوزي به الكفار، ولهذا ربما يكون تكرار الآية ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾؛ لقرنها بقوله سبحانه: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾؛ أي: يشاهدون ذلك، وهم يعلمون يقينًا أنْ قد ثُوِّب الكفار، ولكن يراه عيانًا بعد ما آمنوا به في قلوبهم.

وهنا قال: ﴿ثُوِّبَ﴾، والثواب غالبًا ما يُطلَق في القرآن الكريم على الثواب الحسن، وهو الجنة، وعلى النَّعيم والرضوان؛ وقد يكون إطلاقه هنا من باب المعنى اللُّغوي العام[1].

أو يكون قوله: ﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾ من باب السخرية؛ لأنه تقدم ذكر سخريتهم بالمؤمنين.

وقوله: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ دليل على أن هذا الأمر كان منهم عادةً وخُلُقًا، جرى منهم مجرى السجيَّة النفسيَّة، وفيه إشارة إلى أهمية أن يتخلَّق الإنسان بالخُلُق الفاضل؛ حتى يكون سجيَّة له وطَبْعًا، وقد قال النبي ﷺ للأشجِّ؛ أشجِّ عبد القيس: «**إن فيك خَصلتين يحبُّهما اللهُ: الحلمُ والأناةُ**»[2]. وقال في رواية: يا رسولَ الله، أنا أتخلَّق بهما، أم اللهُ جَبَلَني عليهما. قال: «**بل اللهُ جَبَلَك عليهما**». قال: الحمدُ لله الذي

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٢٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٠١)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١١٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٧، ١٨) من حديث ابن عباس وأبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأصله في «صحيح البخاري» (٥٣).

جَبَلَني على خَلَّتين يحبُّهما اللهُ ورسولُه[1].

فهي أخلاق جِبِلِّية، لكنها تحتاج إلى ترشيد وتحصيل وتثبيت، وقد تكون مفقودة، فيحتاج المرء إلى أن يتعلَّمها، ومن ذلك أن يتعلَّم الصبر إذا وجد مَن يستهزئ به أو يسبُّه، فلا يقابل السيئة بالسيئة، بل يعفو ويصفح، كما علَّم اللهُ المؤمنين وربَّاهم على مصانعة شياطين الإنس في ثلاث مواضع في كتابه، منها: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]، والله أعلم.

❍ ❍ ❍

(١) أخرجه أبو داود (٥٢٢٥) من حديث زارع العبدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

سُورَةُ الانشِقَاقِ

❊ تسمية السورة:

الذي في غالب كتب التفسير، وعلوم القرآن، وكتب الحديث، كالبخاري والترمذي وغيرهما: «**سورة** ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾»[(١)].

وفي «الصحيح» عن أبي رافع قال: صلَّيت مع أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صلاةَ العَتَمَةِ، فقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾، فسجد فيها، فقلتُ له: ما هذه السجدةُ؟ فقال: «سجدتُ بها خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزالُ أسجدُ بها حتى ألقاه»[(٢)].

وشهرتها: «**سورة الانشقاق**»، كما في «سنن النسائي»، وبعض التفاسير[(٣)]، وهو مصدر، كما سلف.

وتسمَّى: «**سورة** ﴿ٱنشَقَّتۡ﴾»، كما في بعض الكتب اختصارًا[(٤)].

وسمَّاها بعضهم: «**سورة الكَدْح**»[(٥)]؛ لقوله تعالى فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٤)، و«معاني القراء» للفراء (٣/ ٢٤٩)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٠٧)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٦٧)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٢٩٣)، و«المصاحف» لابن أبي داود (ص٢٦٨)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١١١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٧٨)، ومسلم (٥٧٨).

(٣) ينظر: «سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٣٢٨)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٣٠)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٥٨)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٥٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٧).

(٤) ينظر: «جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، (٢/ ٥٥٥)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٥٠٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٧).

(٥) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٨٦).

كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾.

* **عدد آياتها:** خمس وعشرون آية عند الجمهور، **وقيل**: ثلاث وعشرون آية، وجمعوا قوله: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧﴾، وقوله: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨﴾ على أن أنهما آية واحدة، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠﴾، وقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۝١١﴾ على أنهما آية واحدة[١].

* **وهي مكية** باتفاق علماء التفسير[٢].

* ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾:

بدئت السورة بأداة الشرط: ﴿إِذَا﴾، وهي أداة ظرف للمستقبل، كما تقدم في «سورة التكوير»، و«سورة الانفطار».

وما ورد في السورة جاء في مواضع أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧].

والانشقاق، والانفطار معناهما واحد[٣].

وفي السورة طرف مما في السورتين قبلها: «التكوير»، و«الانفطار»، مع ربطه بإذن الله وإرادته، والسياق مشعر بانتقال هائل من حال إلى حال، مُؤْذِن بتغيُّر واختلاف، وفي نهاية السورة تعريج عليه وتوكيد له بقَسَم آخر، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ۝١٩﴾، يعني: حالًا بعد حال[٤]. فهذا نوع من التغير.

---

(١) ينظر: «البيان في عَدِّ آي القرآن» (ص٢٦٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٧).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٠٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٥٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٤١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٧).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٧٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٢٣)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٨).

(٤) ينظر ما سيأتي في قوله تعالى: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ۝١٩﴾.

* ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾:

﴿وَأَذِنَتْ﴾ أي: استمعت، يُقال: أَذِنَ له، أي: استمع[1].

ولعله تعريض بالبشر الغافلين الذين لا يسمعون كلام الله وأمره بطوعهم واختيارهم!

وهو أبلغ من قوله: «سمعت»، أو: «استمعت»، وبين «سمع»، و«استمع» فرق، فـ«سمع»: لما يسمعه الإنسان، حتى لو كان بغير قصد، و«استمع»: إذا كان قصد الإنصات، و«أَذِنَ» أبلغ منهما، وفي الحديث: **«ما أَذِنَ اللهُ لشيءٍ ما أَذِنَ لنبيٍّ حَسَنِ الصوت يتغنَّى بالقرآن، يجهرُ به»**[2]. أي: استمع لنبيٍّ، قال الشاعر[3]:

صُمٌّ إذا سمعوا خيرًا ذُكِـرْتُ به ... وإن ذُكِـرْتُ بسوءٍ عندهم أَذِنُوا

أي: أَصْغَوْا.

وكأن معترضًا قال: السماء جماد، لا يعي ولا يحس، فكيف يستمع ويَصْغِي؟

فكان الجواب في قوله سبحانه: ﴿وَحُقَّتْ﴾ يعني: وحُقَّ لها أن تأذن[4]؛ لأن الذي يخاطبها ويأمرها ربها الذي ركَّب طبيعتها وهو على تغييرها قدير.

وانشقاقها ليس اختياريًّا، بل هو أمر كوني مِن عند ربها، وكما وُجِدَت بأمر الله، وتكوَّنت بإذنه، وكانت صفتها وكينونتها بإرادته؛ فهكذا ما يطرأ عليها يوم القيامة، هو بأمره وإذنه وإرادته سبحانه.

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٠٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٣٣)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٨٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٩)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٨)، والمصادر الآتية.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٢٣)، ومسلم (٧٩٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «عيون الأخبار» (٣/ ٩٦)، و«أمالي القالي» (١/ ١٢٢)، و«الصداقة والصديق» (ص٢٢٠) منسوبًا إلى قَعْنب بن أم صاحب.

(٤) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٤)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٠٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٣٠- ٢٣١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٠٣)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٥٥- ٣٥٦).

* ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ٣﴾:

المدُّ- كما قال ابن عباس وابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا-: أن الله تعالى يبسطها يوم القيامة بسط الأَدِيم[1]، وهو الجلد، وكأن الأرض تُبسَط بسطًا، وتتحول من شكلها الكروي، لتكون مسطَّحة ممتدَّة.

ويحتمل أن المقصود: أن ما في الأرض من مرتفعات ومنخفضات تكون على مستوى واحد، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، بحيث تكون مستوية تمامًا؛ لتستوعب الناس كلهم.

وللآية احتمال ثالث، وهو التوسعة والبسط، وهو معنًى لُغويٌّ صحيح وجيه؛ فإن الله احتجَّ عليهم بأنه ينقص الأرض من أطرافها، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]، فلا يمنع أن يكون من الآيات العظيمة في ذلك الموقف أن تُمَدَّ الأرض وتتسع أكثر مما كانت عليه؛ حتى تتسع للخلائق الذين يُحشَرون عليها[2].

* ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ٤﴾:

ألقت ما كان في بطنها، كقوله سبحانه: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]، فأخرجت ما فيها من الموتى الذين كانوا في بطنها؛ ليكونوا على ظاهرها، أحياء بعدما نُفخت فيهم الأرواح[3].

ويُحتمَل أنها ألقت ما فيها من الكنوز والخزائن والمدفونات[4].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٨٤)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٧١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٥٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٧).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٢٠).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٢٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٠٣)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٦٠)، والمصادر السابقة والآتية.

(٤) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٠٩)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٥٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٨٧)، والمصادر السابقة.

وهذا وإن كان معنًى صحيحًا، إلا أنه ليس مناسبًا لهذا الموقف؛ لأن الأرض قبل قيام الساعة تُخْرِج كنوزها وخيراتها(١)، فيكون المقصود هنا بإلقاء ما فيها: إخراج الناس، خصوصًا وأن مدار الكلام على الإنسان، فهو محطُّ التكليف والعناية، كما سوف يأتي هنا في تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ [الانشقاق: ٦].

﴿وَتَخَلَّتْ﴾: والتخلِّي من الخلوِّ، **وكأن المعنى**: «خَلَتْ»، لكن إضافة التاء مع التشديد توحي بالمبالغة في التخلص من كل ما في بطنها، وأنه لم يبقَ في جوفها شيء ألبتة(٢).

وربما كان ذلك لأنه حتى الجمادات في ذلك الموقف يكون فيها شيء من الوَجَل، تريد أن تتخلَّى مِن كل شيء حتى لا يُسائِلها أحد ولا يطالِبُها بتبعة.

ولذلك يتمنَّى الكافر أن يكون جزءًا من هذه الأرض التي ألقت ما فيها وتخلَّت، ويتمنَّى أن يكون ترابًا(٣).

* ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾:

تكرار في موضعه؛ لأنه ذكر السماء، فذكر استماعها لربها، ثم ذكر الأرض، وذكر استماعها لربها، وذلك في نهاية الأمر، كما حدث في بداية الخلق حين قال سبحانه: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. فهو تفصيل مناسب في موضعه، جاء في أعلى درجات البلاغة والتأثير.

فهذه السماء، وهذه الأرض، وهما محيطان بالإنسان قد أذنتا لربهما وجاءتا طائعتين وكأنهما من العقلاء، ولذلك عاملهما لغويًّا كذلك، فعبَّر بـ﴿طَآئِعِينَ﴾، وهو جمع الذكور السالم العاقل، فما بالك بالإنسان المزوَّد بآلة السمع، والمميَّز

(١) كما في «صحيح مسلم» (١٠١٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**تَقِيءُ الأرضُ أفلاذَ كبدها...**».

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة الزلزلة»: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾.

(٣) كما في قوله تعالى في «سورة النبأ»: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ۝٤٠﴾.

بالفهم والعقل، وهو يصد ويعرض ويتغافل!

* ولذا جاء الخطاب مباشرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦﴾:

وهذا خطاب لفرد، ولذلك قال بعض المفسرين: إن المقصود به: رسول الله ﷺ.

وقال آخرون: المقصود أشخاص بأعيانهم من الكفار، كأبي جهل أو أُبي بن خلف، **والأقرب** أن المقصود جنس الإنسان أيًّا كان.

وليس فيه تخصيص أحد عن أحد، ولذا ذكر اختلاف مصيرهم بين نعيم وعذاب، مما يؤكِّد أن المقصود الجنس، أيًّا كان طريقه ومذهبه، من مؤمن وكافر وبر وفاجر(١).

وخطابه تعالى للفرد دليل على شرف الإنسانية وتميزها، وها قد تخلَّت الأرض، فلم يعد عليها حساب، ولم يوجَّه إليها سؤال ولا عتاب، بخلاف الإنسان الذي حمَّله ربُّه التكليف، وجعله أهلًا لذلك، فهو سيد الأرض.

فالحرية تقابلها مسؤولية: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، فمن شرف الإنسان أن يكون عاقلًا مسؤولًا محاسبًا، وإذا أخفق كان الوبال عليه عظيمًا؛ وأصبح بمنزلة أحطَّ مِن المخلوقات المُسَيَّرة التي ليس لها اختيار، كالأرض التي يطؤها والكون الذي سُخِّر له.

ومن الأهمية بمكان الحفاظ على هذه الإنسانية، ولذا جاء الإسلام بحفظ حقوق الناس، حتى قال النبيُّ ﷺ في خطبته الشهيرة في حَجَّة الوداع: «**فإنَّ دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم بينكم حرامٌ، كحرمةِ يومِكم هذا، في شهرِكم هذا، في بلدِكم هذا**»(٢).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٣٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٥٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بَكْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فوظَّف المقدَّس الزماني والمكاني الذي يرعى الناس حرمته؛ للتأكيد على أهمية حفظ الحقوق الذاتية والمالية والمعنوية والضرورات التي بها قوام الحياة.

واليوم تبدو حقوق الإنسان وكأنها مُنْتَج غربي، حتى إنَّ من المسلمين مَن يسمع كلمة حقوق، أو كرامة، أو حرية، فيحسُّ أنها ألفاظ مجلوبة من أمم أخرى، متناسيًا ترسيخ الإسلام لهذه الحقوق العظيمة في النصوص القطعية.

إن مخاطبة الإنسان بإنسانيته دليل على أن دين الله لم ينزل للإطاحة بإنسانيته أو دوس كرامته أو جرِّ ناصيته، ولكن جاء ليحفظه بالتقوى والشريعة وطاعة الله ورسوله؛ ولذلك جاءت الشرائع والحدود والعقوبات الرادعة للمتجاوزين، كما قال سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال عن بني إسرائيل: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ﴾ [المائدة: ٣٢].

والذين يربطون الاستجابة لدين الله بإهدار كرامة المدعو أو إذلاله، يعانون مشكلة عويصة في فهمهم لدين الله، ويعجزون عن التمييز بين الدين المنزَّه العظيم، وبين أمزجتهم ومشاعرهم وعصبياتهم النفسية والجماعية التي لم يفلحوا في الخلاص منها.

وفي شأن المعصية يقول النبيُّ ﷺ: «**إذا زَنَتِ أَمَةُ أحدِكم فتبيَّن زناها، فليجلدْها الحدَّ، ولا يثرِّبْ**(١) **عليها**»(٢).

ليس من حقه أن يعيِّرها أو يشتمها أو يهينها استجابة لدافع نفسي مريض، ولكن عليه أن يقيم عليها حد الله دون مواربة.

وفي حديث شَدَّاد بن أَوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**إنَّ اللهَ كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيءٍ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلةَ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبحَ، وليُحِدَّ أحدُكم**

---

(١) التثريب: التوبيخ واللَّوم على الذنب.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٣٤)، ومسلم (١٧٠٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

شفرتَه، وَلْيُرِحْ ذبيحتَه»[١].

والقتل هنا يراد به حين يكون مشروعًا للقصاص أو غيره، والذَّبح يكون لحيوان، ولا يجوز التمثيل بجثة القتيل، ولو كان قتله مشروعًا.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾: **الكَدْح**: السعي والتعب[٢]؛ فالإنسان ساعٍ إلى ربِّه، ساع في آخرته وإصلاحها والاستعداد لها، وساع في دنياه بنجاحاتها وفرصها، والكدح إلى الله يشمل الاثنين معًا، ويشمل المؤمن والكافر؛ ولذا قال بعده: ﴿فَأَمَّا﴾.. ﴿وَأَمَّا﴾. وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: ماض إلى الآخرة ولقاء الله، وكل يوم يدنيك منها، سواء كنت يقظًا مؤمنًا، أو غافلًا، أو منكرًا.

وفي حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**كلُّ الناس يغدُو، فبائعٌ نفسَه، فمعتقُها أو موبقُها**»[٣]. فإعتاقها بالطاعة، وإيباقها بالمعصية.

ولو تأمَّلت قدرة الإنسان وإمكانيَّاته، لوجدتَها محدودة متواضعة، لكن الله جعل فيها أسرارًا وإعجازًا، ونوَّرها بالعقل الذي يفكِّر ويحفظ التجارب ويبني عليها حتى يحقِّق له تسخير الكون وبناء الحضارات: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَـٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

لقد أصبح الإنسان اليوم يطير في الفضاء، ويغوص في الماء، ويقرِّب المسافات، ويوظِّف ألوان الخبرات والإمكانيَّات للتسهيل والترفيه، والسعادة والراحة، والعلاج والتواصل...

والتعب والعمل جزء من الفطرة وسنة الحياة، وبقَدْر ما تكون الحياة صعبة يتحقَّق معها النجاح والتوفيق، ولو ترك الإنسان العمل؛ لكان عليه من الهموم والغموم الشيء العظيم، وبقَدْر ما يشعُر بالتعب والمرارة في العمل يشعُر بالسعادة

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١١٣)، ومسلم (١٩٥٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٣٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٠٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧١).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣).

والرضا عن الإنجاز ولو كان يسيرًا.

ولذا قال تعالى لمريم عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم: ٢٥]، هي نخلة ثابتة، ومريم امرأة ضعيفة القوى وفي حالة طَلْق، وحال نفسية أليمة، ومع ذلك يأمرها سبحانه أن تهزَّ بجذع النخلة، ويَعِدُها أنها إذا فعلت فسوف تساقط عليها النخلة رطبًا جنيًّا، فعلى الإنسان السعي، ومن الله تعالى التوفيق والنجاح.

كم يكون طعم الرُّطب لذيذًا حين يشعر الإنسان أنه أخذه بنفسه أو شارك في زراعته أو قطافه!

و﴿كَدۡحٗا﴾ مصدر يُقْصَد به التوكيد.

وقوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ يحتمل أمرين:

أن يكون مرجع الضمير إلى ﴿رَبِّكَ﴾ أي: إنك كادح إلى ربك فملاقٍ ربك، والخطاب عام للمؤمن والكافر، فكلهم ملاقو ربهم جل وعز، كما قال سبحانه: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥]، واللقاء هنا معناه: البعث، وهذا أحد استخدامات لفظ اللقاء والملاقاة.

وثَمَّ معنى آخر، وهو رؤيته يوم القيامة، وهذا خاص بالمؤمنين.

وعليه فالمقصود هنا: فملاقيه، أي: اللقاء العام الذي يشترك فيه الناس جميعًا.

ويجوز أن يكون الضمير في قوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ إلى الكَدْح، فالعمل الذي عملته وكدحت فيه سوف تجده في الدار الآخرة، والفاء تدل على التعقيب المباشر، فبمجرد ما يلفظ الإنسان آخر نفس من أنفاسه ينتقل إلى مرحلة اللقاء، وينتقل من طَبَقٍ إلى طَبَقٍ، ومن حال إلى حال[1].

وفيه إشارة إلى أن الإنسان يلقى جزاء عمله الدنيوي ولا يبخس شيئًا، كما

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٠٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٦١)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٩٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٩٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٢٢).

ورد في العديد من النصوص القرآنية والنبوية، أن الله لا يظلم الكافر شيئًا، وأنه يُجازى بثواب ما عمل في الدنيا، من العافية والرزق والسمعة الحسنة وغير ذلك من عاجل الجزاء[1].

* ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾﴾:

أمَّا: للتقسيم، **والكتاب** هو: ما تُدوَّن فيه أعمال الإنسان، لا يغادر منها صغيرة ولا كبيرة.

مع أن الذي يحاسب هو الله تعالى، لا معقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه، ومِن كمال عدله أن جعل لكل إنسان كتابًا يشهد بأعماله ويحصيها عليه[2].

واليمين: اليد اليمنى، وهم المؤمنون أصحاب اليمين أهل الجنة.

* ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾:

وهو العَرْض، كما في «الصحيح» من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن النبيَّ ﷺ قال لها: «**مَن حُوسِب يومَ القيامةِ عُذِّب**». فقالت له: أليس قد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ فقال: «**ليس ذاك الحسابُ، إنما ذاك العَرْضُ، مَن نُوقِش الحسابَ يومَ القيامةِ عُذِّب**»[3].

والعَرْض: أن تُعرَض عليه ذنوبه، وفي الحديث: «**يدنو أحدُكم من ربِّه، حتى يضعَ كَنَفَه[4] عليه، فيقول: عملتَ كذا وكذا؟ فيقول: نعم. ويقول: عملتَ كذا وكذا؟ فيقول: نعم. فيقرِّره، ثم يقول: إني سترتُ عليك في الدنيا، فأنا أغفرُها لك اليومَ**»[5].

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٨٠٨) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنةً، يُعطَى بها في الدنيا ويُجزَى بها في الآخرة، وأما الكافرُ فيُطْعَمُ بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنةٌ يُجْزَى بها**».

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة النبأ»: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾﴾، و«سورة المطففين»: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦).

(٤) أي: سِتْره.

(٥) أخرجه البخاري (٦٠٧٠)، ومسلم (٢٧٦٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

* ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ٩﴾:

الانقلاب: الرجوع(1)، قال الله: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا﴾ [الفتح: ١٢]، وهذا يوحي بأن العَرْض يكون في زمن يسير، ليس فيه إبطاء ولا تأخير.

والمقصود بالأهل: أهله الذين معه في الجنة(2)، سواءً كانوا هم أهله في الدنيا، أو غيرهم، يرجع إليهم مسرورًا سرورًا لا انقطاع له ولا حِوَل عنه.

وهذا في مقابل الكَدْح في الدنيا الذي كان يصحبه- ولا بد- تعب وعناء وألم وكمد وضيق ونكد.

* ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ١٠﴾:

وفي «سورة الحاقة»: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥]، ولا تَعَارُض بين الآيتين، فالمقصود: أن تُشَدَّ يده إلى ظهره، ثم يُؤتَى كتابَه بيده الشمال وهي وراء ظهره، كما أن يده اليمين مغلولة إلى عنقه.

ويحتمل أن الكافر يأتيه كتابه من وراء ظهره، فيأخذه بشماله من خلفه(3).

* ﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ١١﴾:

أي: ينادي بالثُّبور، وجرت العادة أن الإنسان إذا نزلت به مصيبة يقول: يا ويلاه! واثبوراه! **والثُّبور**: الهلاك الأكيد الطويل(4).

* ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ١٢﴾:

أي: يدخل عذاب السَّعير، ومثل هذا قوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا﴾ [إبراهيم: ٢٩]،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٠/ ٣٦٤)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٦٨١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٣٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٢٩)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٥٧)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٩).

(٣) وتقدم في «سورة الحاقة» مزيد بيان.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٤١١)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص١٧١)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢٦)، و«تفسير القرطبي» (١٠/ ٣٣٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٩).

﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾ [الليل: ١٥]، ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣١]، ﴿ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا﴾ [مريم: ٧٠]، **فـالصَّلْي** أبلغ في الوصف وأشد في النَّكال[(١)].

فالسَّعير تستوعبه مِن فوقه ومِن تحته، وعن يمينه وعن شماله، ومن أمامه ومن ورائه، فهو يقاسي حرَّها وعذابها.

* ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ١٣﴾:

فقد كان مسرورًا في الدنيا بالسخرية بالمؤمنين والاستهزاء بهم، والسياق له صلة بسخرية المشركين بالمؤمنين بمكة، وكانوا إذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فَكِهين مسرورين.

وقد يكون مسرورًا بالدنيا وزينتها، وفي هذا دلالة على أن الله يمنح الكفار من لذَّات الحياة الدنيا برحمته وفضله، كما جاء في الحديث: «**إنَّ الله** عَزَّوَجَلَّ **يُعطي الدنيا مَن يحبُّ ومَن لا يحبُّ، ولا يعطي الدينَ إلا لمَن أحبَّ**»[(٢)].

وحين دعا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ربَّه بقوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، أجابه ربُّنا سبحانه فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦]، فحتى الكافر يرزقه الله مِن فضله، وهو يكفر به، ويعبد غيره؛ ولذلك تجد عند الكافرين شيئًا من السعادة العاجلة والاستمتاع بالأموال والأحوال والأولاد والطبيعة، لكن تظل الروح في عطش وقلق وكآبة، لا يكتمل معها سرور ولا يطول معها حُبور.

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الانفطار»: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥﴾، و«سورة المطففين»: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ١٦﴾.

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٧٢)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (٢٠٩)، والبزار (٢٠٢٦)، والحاكم (١/ ٣٣)، (٢/ ٤٤٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٦٦)، (٥/ ٣٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥١٣٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

وأخرجه موقوفًا: ابن أبي شيبة (٣٤٥٤٥، ٣٤٥٧٨)، وأبو نعيم (٤/ ١٦٥)، واللَّالَكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (١٦٩٧). **ورجَّحه العقيلي**، والدارقطني، وغيرهما. ينظر: «التاريخ الكبير» (٤/ ٣١٣)، و«ضعفاء العقيلي» (٣/ ٢٢٨)، و«علل الدارقطني» (٥/ ٢٦٩)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٧١٤).

* ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤﴾:

﴿ظَنَّ﴾: أيقن، أو شك[1]، **والحَوْر**: الرجوع[2]. حار يعني: رجع، وفي الحديث: «**ومَن دعا رجلًا بالكفر، أو قال: عدوُّ الله. وليس كذلك؛ إلا حارَ عليه**»[3]. يعني: رجع عليه، فهذا من معاني الحَوْر.

ولهذا كان النبي ﷺ إذا سافر يستعيذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر[4]، يعني: النقص بعد الكمال، والضلال بعد الهدى، والكفر بعد الإيمان[5].

والمعنى يحتمل:

١- أنه لن يُبعَث بعد الموت.

٢- على فرض البعث بعد الموت، فسوف يكون على خير ولن يُعَذَّب، كما قال الله عن صاحب الجنة: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، فيظن أنه لن يتغير وضعه حتى ولو بُعث.

٣- ظن أنه في ازدياد دائم ونمو متواصل، ولن يعتريه نقص، مع أن النقص سنة الله لمَن وصل إلى التمام، كما قيل[6]:

إذا تمَّ شيءٌ بدا نقصُهُ ... ترقَّب زوالًا إذا قيل: تمْ!

وإذا بدأ النقص فهو كالمُسْرِع النازل من قمة جبل سرعان ما يجد نفسه في قرارة الوادي.

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة المطففين»: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ٤﴾.

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٤٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٤١٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٣٦٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٠٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٩٧)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٤٥)، ومسلم (٦١) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (١٣٤٣) من حديث عبد الله بن سَرْجِس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (٩/ ١١١).

(٦) ينظر: «عيون الأخبار» (٢/ ٣٥٨)، و«الزهد» لابن أبي الدنيا (ص٩٠)، و«الصناعتين: الكتابة والشعر» (ص٣٩)، و«يتيمة الدهر» (٤/ ٢٥٩).

٤- التغيير، تقول: هذا الكلام فيه تحوير. يعني: فيه تغيير، وحَوَّر الشيء: غيَّره أو بدَّله.

أي: ظن أنه لن يتغير عما هو عليه، وهذا يقع للأفراد من جهة نفوسهم، فالإنسان إذا كان ممتَّعًا موسَّعًا له في الرزق والعافية والصحة والشباب، لا يكاد يتخيَّل نفسه على غير تلك الحال، ويظن أنه باقٍ عليها، وإن كان يعرف نظريًّا أن الأيام والليالي تمرُّ عليه وتؤثِّر فيه، فالغني لا يتصوَّر نفسه قد افتقر، والمُعَافى لا يتصوَّر نفسه قد مرض والشاب لا يتصوَّر نفسه قد هَرِمَ وشاخ، وهذا من أسباب الركون والغفلة.

وكذلك الأمم والجماعات، يغلب على الناس الشعور ببقاء ما هم عليه، ويستبعدون حين يسمعون مَن يحذِّرهم من عواقب الأمور، وكأنهم استثناء لا تجري عليهم السنن، ولا تحق عليهم الآيات! كما قال الله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

* ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾:

ومَن كان بعبده بصيرًا، فلا شك أنه بصير بما في قلبه من الكفر والتكذيب والظنون.

* ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾﴾:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾: هذا وإن كان نفيًا، إلا أنه نوع من القَسَم، فالله يقسم ﴿بِٱلشَّفَقِ﴾(١).

وفي الشَّفق أقوال، أشهرها: أنها الحمرة التي تكون بعد غروب الشمس إلى وقت أذان العشاء، نحو ساعة.

وهذا قول جماعة من الصحابة، كابن عمر وابن عباس وابن مسعود وأبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وهو المعروف عند أهل اللغة، كالخليل بن أحمد والجوهري

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الواقعة»: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾، و«سورة القيامة»: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾، و«سورة التكوير»: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾، وما سيأتي في «سورة البلد»: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾﴾.

وغيرهما[١].

وفيه أقاويل أخرى ذكرها المفسرون، كابن الجوزي، وغيره[٢].

* ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾:

يقسم بالليل، وبما جمعه الليل. والعطف دليل على أن قوله: «لا أقسم» هو قسم، بمثابة قوله: أقسم.

والوَسَق: الجمع، ومنه «الوَسْق» وهو إناء كبير يسع ستين صاعًا، كما هو معروف عند أهل اللغة والفقه[٣].

والمقصود ما يحتويه الليل من أحوال، من نوم وعبادة وطاعة ومعصية، وما يسكن فيه من حيوان وطير وهوام، وإنس وجن وحيتان، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

ويدخل فيما وَسَق: النجوم والكواكب والقمر، فهي وإن كانت موجودة في الليل والنهار، إلا أنها لا تُرى إلا بالليل، فهي به أنسب وألصق؛ ولهذا أقسم الله تعالى بالليل، وأقسم بما جمعه هذا الليل[٤].

* ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨﴾:

أي: اكتمل نوره وصار بدرًا[٥]، والقمر مظهر من مظاهر الجمال، والعرب في

(١) ينظر: «العين» (٥/ ٤٥)، و«مصنف عبد الرزاق» (٢١١١)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١/ ٣٣٣)، و«مسائل عبد الله بن أحمد» (١٨٦، ١٨٧)، و«الأوسط» (٢/ ٣٣٩- ٣٤٢)، و«الصحاح» (٤/ ١٨٧)، و«سنن الدارقطني» (١/ ٢٦٩)، و«سنن البيهقي» (١/ ٣٧٣)، و«فقه العبادة» (٢/ ٧١- ٧٧).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢٣٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٩١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٢١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٥٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٩٤).

(٣) ينظر: «معجم مقاييس اللغة» (٦/ ١٠٩)، و«الصحاح» (٤/ ١٥٦٦)، و«النهاية» (٥/ ١٨٥)، و«تاج العروس» (٢٦/ ٤٧١) (و س ق).

(٤) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٥)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٠٨)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٤٥، ٢٤٨)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧٦).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٥٨)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٦٩)، و«تفسير أبي السعود» (٩/ ١٣٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٩٠)، والمصادر السابقة.

أشعارهم يشبِّهون الوجه الجميل بالقمر؛ لبياضه واستدارته.

وفي القَسَم إشارة للإبداع الرباني في الخلق، فالجمال والزينة مقصد من مقاصد الخلق، والنجوم زينة، والحُسن نعمة: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤].

وكذلك الانتظام والترتيب والاتساق وبلوغ الشيء كماله درجةً درجةً، ومثله التنويع والتبادل والتناوب ما بين الليل والنهار والشمس والقمر والذكر والأنثى.

* ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾:

هذا جواب القسم، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والحسن البصري: لتركبن حالًا بعد حال[1].

والقراءة المشهورة بضم الباء: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾، لخطاب الجماعة، وفي قراءة بفتحها: ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾[2]، أي: لتركبن أيها الإنسان، **والمقصود** الجنس، فهو ينتقل من حال إلى حال، من الطفولة إلى الشباب.. إلى الكهولة.. إلى الشيخوخة.. إلى الهرم، وتتداوله النقائض من الصحة والمرض والغنى والفقر والعز والذل، والقوة والضعف والاندفاع والفتور[3].

وانتقال الإنسان من حال إلى حال هو من الحَوْر، وفيه رَدٌّ على مَن ظن أن لن يحور، وما الانتقال من الدنيا إلى الآخرة إلا ركوب طبق عن طبق، فالحور أصل في خلقة الإنسان وكينونته، في الفرد والأسرة، والجماعة والمجتمع، والدولة والأمة، فلا تستقر الأمور، بل هي في تغير مستمر، وهذا التغيُّر فطري وضروري

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٥)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤١٠)، و«صحيح البخاري» (٤٩٤٠)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٥٠- ٢٥٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٢٩).

(٢) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٧٧)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٢١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٩)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٣٦١- ٣٦٣).

(٣) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٦٧)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٩١)، و«حجة القراءات» (ص٧٥٦).

يؤكِّد أن الإنسان مربوب مخلوق على صفة خاصة، فلا استقرار ولا استمرار.

والكَدْح المذكور يستدعي التغير والانتقال فيما يظن أنه أفضل وأكمل، وكدح المؤمن يشمل الشكر والطاعة والعبادة، وهي بحسب الحال التي هو عليها، فطاعة الصغير ليست كالكبير، وطاعة الغني ليست كالفقير، والصحيح ليس كالمريض، والقوي ليس كالضعيف، والعزيز ليس كالذليل.. وتغيرات الحياة تتطلَّب الكَدْح واليقظة المستمرة.

والمعتاد في اللغة أن يقال: «لتركبن طبقًا بعد طبق»، لكن قوله: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أقوى وأبلغ في الدلالة؛ لأنها تدل على عمق التبدل والانتقال، كأنه ينتقل من طبق إلى طبق آخر، فيدل على التبدَّل وركوب حالة كأنها الدابة التي توصل المرء إلى مراده ونهايته.

ومن معاني «الطَّبق» في اللغة: الشدة، حتى إن العرب يسمون المصيبة أو الداهية: بنت طَبَق، ومن أسماء الحيات عندهم: أم طَبَقٍ، وبنت طَبَق، وهذا اسم حية مخيفة، فاستعاروه للنوازل والمصائب التي تلمُّ بالإنسان(١).

إن طبيعة الحياة الانتقال والتغير، انتقال تفرضه المرحلة العمرية، أو انتقال لما هو أفضل؛ من الجهل إلى العلم، ومن المعصية إلى الطاعة، أو انتقال متصل بطبيعة الحياة والمجتمع ومستواه الاقتصادي والثقافي، انتقال اختياري طوعي، أو انتقال قَسْري اضطراري.

وقد رأيتُ الناس يتشاءمون بما يقع من التغيرات، وينظرون إلى الجانب المظلم منها، وينظرون للماضي دائمًا على أنه خير من الحاضر، ويظنون القادم أسوأ؛ بسبب الإفراط في الخوف، والخير للإنسان أَلَّا يفرط في التشاؤم، والتوازن مطلوب، والوسط هو جادة المنهج الحق.

وفي الآية إشارة إلى أنه ليس كل ما يقع من التغيير هو بإرادة الإنسان، بل ثَمَّ

---

(١) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٥١٦)، و«لسان العرب» (١٠/ ٢١٣)، و«تاج العروس» (٢٦/ ٥٣) «ط ب ق».

تغييرات جارية متصلة بالشَّفق والليل، والقمر، فالزمن يفعل فعله في الأجساد والعقول والنفوس والأحوال.

وقد حاول الأطباء البحث عن دواء يؤخِّر الشيخوخة، فلم يعودوا بطائل، ولو أمكن هذا فأنَّى لهم أن يؤخِّروا الموت: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨].

ولذلك كان كثير من الحكماء يقول: إذا رأيتَ تحولات تقع عليك، فاعلم أن التدبير بيد غيرك.

والزمن وعاء للتحولات الإرادية المبنية على الرؤية والتخطيط والفعل والمبادرة، ولا يصح معها حرق المراحل، ولا استعجال النتائج.

* ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٠﴾:

سؤال استنكاري، أَبَعْدَ كل هذه الآيات والدلائل على ألوهية الله وقدرته على البعث والنشور لا يؤمنون!؟

* ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ٢١﴾:

والمقصود بالسجود: الطاعة والامتثال(١)؛ ولهذا قال بعض المفسرين: إن هذه الآية ليست من عزائم السجود؛ لأن المقصود فيها ليس فعل السجود، وإنما ما يترتب على سماع القرآن من الإيمان، والخضوع لله سبحانه، والتوجه بالعبادة له وحده؛ فالعتب لتركهم الإيمان والاستجابة لله.

وقد ورد في «الصحيحين» أن أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صلَّى بالناس فقرأها وسجد، وأخبرَ أنه سجدَ بها خلف النبي ﷺ(٢)؛ ولذلك عَدَّها الشافعي وأحمد وغيرهما من مواضع السجود في القرآن، وعددها أربعة عشر موضعًا(٣).

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٥٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٦٢)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٢)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٤٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٢).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٧٦٦، ١٠٧٤)، و«صحيح مسلم» (٥٧٨).

(٣) ينظر: «فقه العبادة» للمؤلِّف (٢/ ٣٤٧- ٣٥٣).

* ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢﴾:

﴿بَلِ﴾ للإضراب وبيان السبب[1]، و﴿يُكَذِّبُونَ﴾ فعل مضارع يدل على الاستمرار، فهم كلما ورد إلى قلوبهم وارد من دواعي الإيمان جحدوه وقاوموه، بدل أن يؤمنوا ويسجدوا[2].

وهل الآية عامَّة في الكفار كلهم، أم هي لبعضهم؟

الأرجح أنها لبعضهم؛ لأن الله تعالى ذكر إسلام بعضهم، والواقع يشهد لهذا، فكم من أمة أو طائفة دُعيت إلى الإسلام فأسلمت، وصَدَقَت في إسلامها.

فهؤلاء الذين أسلموا، وكانوا بالأمس كفارًا، كان سبب كفرهم في الغالب الجهل وليس الكِبْر والمعاندة، فلم يأتهم بشير ولا نذير، ولم تقم عليهم حجة، ولم يسمعوا الحق بصفائه من غير تشويه، ومجموع أخبار القرآن عن المعرضين تدل على أن من الناس مَن يكفر جحودًا وهو يعلم الحق، وهؤلاء ممن أخبر الله عنهم في هذه الآية.

وبعض الناس يقع له شك أو تردد، ثم يزول بالبحث والتحرِّي والنظر، وهذه أحوال مختلفة، وعليه فالسياق في حق فئة من الكفار، خصوصًا صناديد قريش المعاندين.

* ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣﴾:

﴿يُوعُونَ﴾: من الوعاء، كما تضع الشيء في وعاء[3]. فالله أعلم بما يوعون،

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة القيامة»: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥﴾، وما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٍ ١٩﴾.

(٢) ينظر: «تفسير القاسمي» (٩/ ٤٤٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٩٢)، و«تفسير المراغي» (٣٠/ ٩٦)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٦/ ١٥٠٩)، و«إعراب القرآن وبيانه» (١٠/ ٤٢٧).

(٣) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٨١٦٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٠٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٢٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٤).

وينظر أيضًا: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٧٤)، و«معاني القرآن» لابن قتيبة (ص٥٢١).

أي: بما تحويه قلوبهم من التكذيب إن كانوا مكذِّبين، أو من الجحد إن كانوا جاحدين، أو من الحقد على النبي ﷺ، أو الكيد والمؤامرة؛ لأنهم لم يقتصروا على الكفر فحسب، بل زادوا الحرب وصد الناس عن الإيمان، والاستهزاء بالمؤمنين[1].

* ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾:

ولفظ البشارة سيق مساق الاستهزاء والسخرية؛ لأنهم كانوا يبطنون في قلوبهم شيئًا، ويظهرون بألسنتهم شيئًا آخر، فجاءت الآية تقول: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾، والبشارة في الظاهر تُستخدَم في الخير، وفي الحقيقة في نقيضه في حقهم، فعوملوا بجنس فعلهم[2].

والمقصود: يوم القيامة، وهو في مقابل السرور الذي كانوا فيه في الدنيا[3].

* ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾:

هذا استثناء، وهو عند جمهور المفسرين متصل غير منقطع، **يعني**: بشِّر الكافرين بعذاب أليم، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم، وهذا يعني أنهم بدَّلوا الكفر بالإيمان، وبدَّلوا الأعمال السيئة التي كانوا يعملونها بالعمل الصالح.

ولا يمنع هذا أن يكون المقصود كل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، سواء سبق هذا الإيمان كفر أو لم يسبقه؛ لأنه إذا جاز أن يكون هذا الوعد لقوم كفروا وكذَّبوا وعاندوا، ثم آمنوا وعملوا الصالحات، فوسعتهم رحمة ربنا سبحانه،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٥٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٣٧٤)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٣١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٩٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٩٢).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٣٩)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص١٨٠).

(٣) كما تقدم في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾.

وينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٦٢)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٣٧٤)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٩٣)، و«تفسير الراغب الأصفهاني» (١/ ١٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٢)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٦٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٩٦).

ووعدهم بالأجر والفضل، فلأن يكون ذلك لـمَن لم يسبق منه كفر ولا عناد من باب أولى[1].

وفيها تأكيد ما بين الإيمان والعمل الصالح من اتصال وثيق، ولفظ الإيمان يعمُّ العمل الصالح؛ وذُكر هنا على سبيل التوكيد، وأن الإيمان ليس مجرد عمل القلب، بل هو وما يفضي إليه من الأعمال الصالحة.

وأجرهم ليس فيه مَنٌّ ولا أذى، وشأن الناس أنهم يمنُّون إذا أعطوا، فبيَّن سبحانه أن الأجر الذي يُعطَون ليس فيه مَنٌّ ولا أذى لهم ولا إهدار لإنسانيتهم.

وللآية معنى آخر، وهو أن الأجر دائم مستمر بلا انقطاع، جزاء كدحهم في العبادة والطاعة الذي استغرق عمرهم كله؛ ولذلك ورد أن الإنسان لو ترك العمل الصالح لعذر مثل مرض أو سفر أو هَرَم، فإنه يُكتَب له ما كان يعمله وهو صحيح مقيم[2].

وتحتمل الآية معنًى ثالثًا، وهو: الزيادة وعدم النقصان، أي: غير منقوص، فإنه لا ينقص مع الوقت، بل هو مستمر، وفي زيادة، فكل يوم لهم من ربهم سبحانه هدايا وإفضالات عظيمة.

والآية الكريمة تشمل أجر الدنيا وأجر الآخرة[3].



---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٦٢)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢٨)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٠٥)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٩٩)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٦٢١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٩٦)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٤٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٤).

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٢٩٩٦) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٣٠٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٢).

سُورَةُ البُرُوجِ

❊ **تسمية السورة:**

أشهر أسمائها: «**سورة البُروج**». وهو المثبت في المصاحف، وغالب كتب التفسير[1].

وورد تسميتها بـ«**سورة** ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾»، كما في حديث جابر بن سمرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، أن رسولَ الله ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر بـ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، و﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾، ونحوهما من السور[2].

❊ **عدد آياتها:** اثنان وعشرون آية، وليس في ذلك خلاف فيما أعلم[3].

❊ **وهي مكية** باتفاق أهل التفسير، ذكره جمع[4]، وواضح من سياق السورة وموضوعاتها أنها مكية.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦/ ١٦٨)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٢٩٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٦٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٩٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٠٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٣).

(٢) أخرجه الطيالسي (٨١١)، وأحمد (٢٠٩٨٢، ٢١٠١٨، ٢١٠٤٨)، وأبو داود (٨٠٥)، والترمذي (٣٠٧)، والنسائي (٢/ ١٦٦)، وفي «الكبرى» (١٠٥٣)، وابن حبان (١٨٢٧).

ووردت روايات بدون الواو فيهما: «السماء ذات البروج»، «السماء والطارق». وينظر: «سنن البيهقي» (٢/ ٣٩١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٦).

(٣) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦٩)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٥).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٦٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٢)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٢٧)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٦، ٢٥٧).

وهي من السور القليلة المخصَّصة من أولها إلى آخرها لمعالجة قصة واحدة، وهي في هذا تشبه «سورة يوسف»، المخصَّصة لسرد القصة، واستنطاق عبرها، ولفت الأنظار إلى دروسها.

وقد اختلف العلماء والمؤرِّخون في قصة الأخدود، **والأقرب** أنها وقعت في أطراف اليمن، في منطقة نجران، وعندهم وادٍ يسمى بالأُخدود، وقد يكون هذا الاسم مُستحدَثًا، لكن غالب الروايات التاريخية تؤكِّد أن نجران هي مسرح القصة.

وكان وقوعها بعد الـ(٥٠٠) من الميلاد، في عام (٥٢٢) أو (٥٢٣)، فهي قبل حادثة أصحاب الفيل، وقبل ميلاد النبي ﷺ بعشرات السنين.

وهذا يجعل من المحتمَل أن يكون بعض القصة وصل إلى العرب، وتداولوه وعرفوه، فيكون حديث القرآن عن هذه القصة هو لاستخراج العبر، ولتصحيح الروايات المغلوطة، وإن كنا لا نعرف في شعر العرب- الذي هو ديوان حياتهم وسِجل ثقافتهم- نصوصًا تؤكِّد معرفتهم بهذه القصة، فالله أعلم.

وقد ورد في «صحيح مسلم» قصة الغلام والساحر والرَّاهب، وأن هذا الغلام- الذي يقال: إن اسمه: عبد الله- تردَّد بين الساحر والراهب؛ لينظر أيهما أصدق وأحب إلى الله، فجعل الله له آية في الدابة التي حبست الناسَ، فدعا الله، فقال: «اللهمَّ إن كان أمرُ الرَّاهب أحبَّ إليك من أمر الساحر، فاقتُلْ هذه الدابةَ؛ حتى يمضيَ الناسُ». وأخذ حجرًا، فرماها فقتلها، وخرج الناسُ وانطلقوا يمشون في طريقهم، ثم عالج وزيرَ المَلِك فشُفِي وكان أعمى، ثم علم به الملك وقرَّره على الشرك بالله، فأصرَّ الغلام على الإيمان، فقتله بقوله: «بسم الله رب الغلام».. بعد أحداث مذكورة في الحديث؛ فآمن الناسُ كلهم، وقالوا: آمنا برب الغلام. فخدَّ المَلِك لهم أخاديد، وحفر لهم في الأرض، وعرضهم على النار، فمَن ارتدَّ منهم تركه، ومَن أصرَّ منهم على التوحيد أحرقه[1].

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (٣٠٠٥).

وليس في السياق النبوي نصٌّ على أن هذه هي قصة أصحاب الأُخدود، إلَّا أن السياق متقارب، وعلى ما هو ظاهر من السياق، فإن الملك الذي عذَّبهم كان مشركًا، والوثنية كانت موجودة في منطقة اليمن.

وهناك احتمال آخر، **وهو الأرجح عند المؤرِّخين**، أن الملك الذي عَذَّبهم هو: يوسف ذو نُوَاس، وكان يهوديًّا، واليهود أيضًا كان لهم وجود في اليمن، وكانت لهم فيها هيمنة اقتصادية، فكأن النصارى بنجران صار لهم شوكة وقوة ونفوذ، وكان بينهم وبين اليهود اختلاف، فاستنجد اليهود بهذا الملك، فأتى وأنجدهم وعرض المؤمنين على النار وأحرقهم.

وكان من جرَّاء ذلك أن تداعت الأمم النصرانية لنجدة إخوانهم، ولقتال هذا الملك الظالم، وجاءت جيوش الحبشة وغيرها، وهزمت الملك، حتى قيل: إنه في آخر أمره ألقى بنفسه في البحر فغرق[1].

* ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢﴾:

أقسم تعالى بالسماء المعروفة، وبـ﴿ٱلۡبُرُوجِ﴾، وهي جمع: بُرْجٍ، وهو مأخوذ من التبرُّج، وهو الظهور، كما يقال: تبرَّجت المرأة؛ إذا أظهرت مفاتنها، والبُرْج يُطلَق على القصر، كما قال تعالى: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ [النساء: ٧٨]، فالبرج المُشَيَّد هو القصر[2].

والبُرْج يُطلق على النجم، قال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾[3] [الفرقان: ٦١].

---

(١) ينظر: «نسب مَعَد» (٢/ ٥٤٧)، و«سيرة ابن هشام» (١/ ٣١)، و«أخبار مكة» للأزرقي (١/ ١٣٧)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ١١٩)، و«تاريخ دمشق» (٧١/ ٣٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٠، ٢٩٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٧/ ٢٣٤- ٢٣٧)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ١٠٠٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٠)، و«تفسير الرازي» (٢٤/ ٤٧٩)، و«الدر المنثور» (٤/ ٥٤٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٣٠- ٣١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٧١٦)، و«تفسير الماوردي» (٤/ ١٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٦٥)، والمصادر السابقة.

وتطلق ﴿ٱلْبُرُوجِ﴾ على منازل الشمس والقمر التي يلحظها الفلكيُّون[١]، وإلَّا فهي ليست في الواقع منازل، لكنهم من خلال مراقبتهم لحركة الشمس في اليوم، وحركة القمر في الشهر، يلاحظون الجِرْم الفلكي ينتقل من منزل إلى آخر فيما يرى الإنسان، حتى إنهم يقولون: إن القمر يمكث في كل برج يومين وثلث يوم تقريبًا، فيظهر في ثمانية وعشرين يومًا، ويبقى يومين يستتر فيها فلا يُرى، وهي التي تُسمَّى: ليالي السِّرار[٢].

فهذه البُروج مجموعة ثابتة من الأبعاد لا تتفاوت فيما بينها، ينزل فيها القمر أو تنزل فيها الشمس، يتخيَّلها الناس، ويسمُّونها بُروجًا، وهي اثنا عشر بُرْجًا، أطلقوا عليها أسماء بحسب شكلها، كالأسد، والحُوت، والدَّلْو، والسَّرطان، والسُّنبلة، والحَمَل، والثَّور، والعقرب، والجَدْي.

وأجمع المفسِّرون على أن **اليوم الموعود** هو يوم القيامة[٣]، وورد في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا وموقوفًا: «**اليومُ الموعودُ: يومُ القيامة**»[٤].

* ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾:

واختلفت أقوال أهل التفسير إلى أكثر من أربعة وعشرين قولًا في تفسير

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٦١).

(٢) ينظر: «غريب الحديث» لأبي عُبيد (٢/ ٧٩)، و«مختار الصحاح» (ص١٤٦)، و«تاج العروس» (١٢/ ١٦) «س ر ر».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٦٢)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٩٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٤).

(٤) أخرجه أحمد (٧٩٧٢)، والترمذي (٣٣٣٩)، والبزار (٩٥٩١)، والطبري (٢٤/ ٢٦٢)، والطبراني في «الأوسط» (١٠٨٧)، وابن عدي (٢/ ٢١٩)، والحاكم (٢/ ٥١٩)، والبيهقي (٣/ ١٧٠)، وفي «شعب الإيمان» (٣٤٨٢)، وابن عساكر في «فضل يوم عرفة» (٥) مرفوعًا.

وأخرجه موقوفًا: أحمد (٧٩٧٢، ٧٩٧٣)، والبزار (٩٥٩١)، والطبري (٢٤/ ٢٦٢)، والحاكم (٢/ ٥١٩)، والبيهقي (٣/ ١٧٠)، وينظر: «علل ابن أبي حاتم» (١٦٨٨)، و«علل الدارقطني» (١١/ ١٢٠)، و«زاد المعاد» (١/ ٣٩٨- ٣٩٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٤)، و«السلسلة الصحيحة» (١٥٠٢).

«الشاهد»، و«المشهود»، **ولعل المقصود**: كل شاهد وكل مشهود[1]، فكل ما ورد في القرآن والسنة أو صحَّ في العقل أو الحس أنه شاهد أو مشهود، فقد أقسم الله به هنا.

وأعظم شاهد هو: الله سبحانه؛ كما قال: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]. وهو خير الشاهدين.

ثم النبي محمد ﷺ: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وكذلك الأنبياء؛ لأنهم يشهدون على أممهم؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٨٩].

ويقول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

ويدخل فيه: الملائكة الحَفَظَة، والشهود من الناس، حتى الأرض تدخل في الشاهد؛ لأنها تشهد على الإنسان بما عمل عليها: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤- ٥].

ويدخل في ذلك: أعضاء الإنسان؛ قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ [النور: ٢٤].

فكل ما صحَّ أنه شاهد، فهو داخل في هذا القَسَم العام.

والمشهود: كل مُبْصَر- بفتح الصاد- تصحُّ الشهادة عليه، من أعمال الناس وأقوالهم، من الخير ومن الشر[2].

ففي هذا القسم معنى عظيم مناسب للقصة؛ فالله تعالى أقسم بالسماء ذات البروج، في مقابلة الأُخدود الذي حفروه في الأرض، ووضعوا فيه النيران، وأحرقوا فيه المؤمنين، فكأنه تعالى أقسم بالسماء؛ إشارة إلى مَن هو فوق السماء

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٦٣- ٢٧٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٩٤- ١٩٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٣٢- ٢٣٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٣- ٤٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٨)، و«تفسير السعدي» (ص٩١٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٨)، و«تفسير السعدي» (ص٩١٨).

عَزَّوَجَلَّ، ينتقم ويعاقب الظالمين، وينتصر للمؤمنين ولو بعد حين.

وأشار في اليوم الموعود إلى وقت الحساب والجزاء، وإيصال الحق إلى أصحابه، ونزول العقوبة بالظالمين.

وأشار بالشاهد والمشهود إلى ضبط الحوادث وحفظها، وأنه لا يضيع منها شيء، فكل شيء محفوظ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، أي: في كتاب بَيِّن مقروء[١].

* أقسم تعالى بهذه المعاني الثلاثة على معنى، وهو على الراجح ما ذكره بقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾، **والقتل** في لغة القرآن يأتي بمعنى اللَّعن[٢]، فالمعنى أن الله أقسم بأنه قد لعنهم.

والمقصود بـ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾: الظَّلَمَة الذين قَتَلوا المؤمنين[٣].

ويجوز أن يكون المقصود: المؤمنين الذين أُحْرِقوا، فيكون معنى القتل: الموت بالإحراق بالنار الذي حصل لهم على أيدي الظالمين.

ولكن هذا معنى ضعيف، والأول أقوى؛ أنه إشعار أن عقوبة الله ولعنته حلَّت على أولئك القتلة الفجرة المارقين الذين كانوا يتلذَّذون بمشاهدة المؤمنين من الرجال والنساء، والصبيان والنار تشويهم.

وهي حادثة بشعة؛ لأن التعذيب بالنار من أبشع ألوان التعذيب، ولهذا توعَّد الله به الكافرين يوم القيامة، وأنت لو رأيتَ صور بعض الناس الذين أصابتهم النار وأحرقت وجوههم أو أجسادهم، لرأيتَ مشهدًا يقشعر منه البدن، حتى لا

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٤١٢)، و«تفسير الماتريدي» (٨/ ٥٠٨)، و«تفسير الرازي» (٢٦/ ٢٥٨)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ٥٦٨)، و«فتح القدير» (٤/ ٤١٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٤١٥)، (٢٤/ ٢٧٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٦)، و«تاج العروس» (٣٠/ ٢٣٤) «ق ت ل»، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧٠- ٢٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٦)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٣٤).

يكاد يطيق الإنسان رؤية الجسد المتهتك المحترِق، وصاحبه يصيح من الألم؛ لأن الجلد هو موضع الإحساس، فإذا تسلَّطت عليه النار تألَّم.

فهذا الحدث مشهد رَعِيب، وحادث مروِّع؛ لكن السياق يضعه في وضعه الطبيعي، حين يربطه بالزمان وبالمكان، يربطه بالسماء ذات البُروج، وكأنه يقول: ارفع رأسك، وانظر إلى ما عن يمينك وشمالك، وأمامك ووراءك، وما فوقك من آيات الخلق والإبداع، فلا يكن نظرك مقصورًا على حادثة معيَّنة، أو مصيبة أو نازلة، بحيث تقيدك أو تعيقك حتى تشلَّ تفكيرك وتسيطر على مشاعرك، فهنا امتداد مكاني يخفِّف من التحديق في الواقعة الخاصة وكأنها كل ما هنالك!

وثَمَّ امتداد آخر زماني في قوله: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾، فهذا الحادث الذي وقع لن يستغرق أكثر من ساعات أو أيام، وهي بالنسبة لعمر الدنيا ومضة عابرة، والدنيا نفسها قصيرة بالنسبة للآخرة: ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وهذا من شأنه أن يجعل نظر الإنسان إلى المصيبة نظرًا متوازنًا، فبقدر ما يتألم منها، فإنه يتصوَّرها ضمن سياق مكاني وزماني واسع، فلا تعجزه هذه الحادثة أن يفهم مقاصدها وأسرارها، فلا يجعلها حجر الزاوية في شعوره وتفكيره ونظره وفهمه ومنهجيته.

وفي قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾: نسبهم إلى الأُخدود؛ لأنهم الذين حفروه؛ ليحرقوا فيه المؤمنين، **والأُخدود** معروف، وهو: الشَّقُّ في الأرض[1].

* ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾:

و﴿ٱلْأُخْدُودِ﴾ ليس هو النار، وإنما هو المكان المحفور الذي وُضِعَت فيه النار، لكن كأن هذه الأخاديد مُلِئت نيرانًا، حتى جعل النار بدلًا من الأُخدود، ويسمَّى

---

(١) ينظر: «غريب القرآن» للسجستاني (ص٩٦)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٢٧٥)، و«إعراب القرآن» لِقوام السُّنَّة (ص٥٠٩)، و«لسان العرب» (٣/ ١٦١)، و«تاج العروس» (٨/ ٥٢) «خ د د».

هذا: بدل الاشتمال؛ وفي ذلك إشارة إلى كثرة الوقود الذي وُضِع في الأُخدود[1].

* ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦﴾:

والمقصود: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾، وهم ذو نُواس وأعوانه الذين أوقدوا النار، فقعدوا حولها كأنما هم في حالة استعراض، يتفرَّجون ويتمتعون كما يتمتع الآكل بمظهر اللحم يُشوى على النار، **وفي هذا عدة معانٍ:**

١- الإشارة إلى أنهم هم الذين تولَّوا كِبْرَ العمل بأنفسهم وبطوعهم واختيارهم، وليس هذا مجرد حادث عارض- كما يقال- أو أنه تصرُّف من بعض الدوائر أو الأشخاص الثانويين، كما جرت العادة أن الطغاة يتنصَّلون من تبعات أعمالهم بنسبتها إلى مَن دونهم! بل قاموا به عن عمد وسبق إصرار.

٢- والإشارة إلى الجحود والقسوة والغلظة التي في قلوبهم، إلى درجة أنهم يرون هذا المشهد الأليم من صراخ الصغار وتألُّم الكبار من شدة الإحراق، فلا تلين قلوبهم ولا ترقُّ، وهذا غاية في الوقاحة والقسوة والغلظة.

* ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾:

فهم شهود على أنفسهم، شهدوا فعل أنفسهم وشهدوا نتيجته، وتأتي ﴿شُهُودٌ﴾ بمعنى: حضور، فهذا يتناسب مع قوله: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾، فهم شهود على أنفسهم في الدنيا، وهم شهود على أنفسهم يوم القيامة[2].

وفي الآية إلماحٌ إلى سبب التعذيب، وهو أن المُعَذَّبين قوم مؤمنون، فلم يقع من هؤلاء المؤمنين ظلم ولا عدوان، إنما جريرتهم الوحيدة هي الإيمان بالله، ولذا وصفهم بالمؤمنين.

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٨١٧٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٣٨٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٣٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٠٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧٩)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٧٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٣٨٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٩).

إن المؤمن قد يعذَّب في الآخرة لذنب ارتكبه، وقد يعذَّب في الدنيا أو يعاقب على تجاوزِ حدٍّ من حدود الله، أو عدوان على أحد من عباد الله، أو إفساد في الأرض، وهذا العذاب ليس لإيمانه، بل لما يقتضي الإيمانُ الحقُّ تركَه والنأيَ عنه.

وعلينا أن نفرِّق بين استهداف المؤمن لأنه مؤمن فحسب، وبين استهدافه بحقٍّ، وبين استهداف بسبب آخر قد لا يكون حقًّا، ولكنه ليس بسبب الإيمان، كما يقع عادة في الخصومات بين الناس على الدنيا والمال والعقار والمناصب.

وعلى العبد أن يعرف متى يقول: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

* وجاءت الآية التالية؛ لتؤكِّد هذا المعنى في قوله: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨﴾:

أي: ما غضبوا عليهم ولا آخذوهم بشيء من أمر الدنيا إلا لإيمانهم، وفعل: ﴿نَقَمُواْ﴾، أو: (نَقِمُواْ)، له وجهان في اللغة، والأشهر هو الفتح[1].

وتعليل القتل بالإيمان يوحي بأن الذين قاموا بالقتل من المشركين، أو من اليهود، واليهود يؤمنون بالله العزيز الحميد في الجملة، وديانتهم ديانة توحيدية، ولكن هؤلاء الحكام الظلمة سخَّروا الديانة لخدمة أغراضهم، ومن أجل أن يدين لهم قومهم، وحقيقتهم أبعد ما تكون عنها، كما شهد الله عليهم هنا أنهم قتلوا القوم؛ لمجرد أنهم آمنوا بالله.

والعزيز والحميد: اسمان من أسماء الله؛ فـ«**العزيز**» اسمه، والعزة صفته، فهو عزيز غالب، قادر على أن ينتقم من هؤلاء المعتدين، فالاسم مناسب للانتقام من المجرمين.

و«**الحميد**» من معانيه: المحمود، الذي يُحْمَد على الخير وعلى كل حال.

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ١٨٦)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ١٢٠)، و«الكشاف» (٤/ ٧٣٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٤)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٣٦٩).

ومن معانيه: أن يحمد عباده على الخير، فيكون قريبًا من «الشكور»(١).

فهو سوف يكافئ المؤمنين على ثباتهم على دينهم، وقد عُذِّبوا بعذاب الحريق في الأُخدود.

* ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٩﴾:

وهؤلاء الذين قتلوا المؤمنين هم ملوك أو فيهم ملوك كذي نُواس، فالله تعالى أعظم منهم مُلْكًا وقوة، فله ملك السماوات والأرض، وما ذو نُواس ومَن فوقه إِلَّا ذرة في بحر ملكه وخلقه، وهذا مُتَضمِّن للتذكير بأن الله قادر عليهم.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ فهو تعالى شاهد، يرى ويعلم ويسمع، وإجرام المجرمين ليس بغائب عن شهادته وعلمه، وسوف ينتقم منهم.

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠﴾:

الفَتْنُ في اللغة هو: الإحراق، ومنه: فَتَنْتُ الذهب، أي: وضعته على النار؛ حتى يتميَّز طيبه من رديئه، وصافيه من مغشوشه(٢).

وهو هنا بمعنى: أحرقوا المؤمنين، وابتلوهم بالنار والعذاب(٣).

وفي ذكر المؤمنات هنا إشارة إلى صبرهن وقوة إيمانهن، والتشنيع على أولئك المجرمين الذين امتد إجرامهم ليشمل النساء مع الرجال، وقد جاء في الحديث المتقدم، أن امرأةً كان معها صبيٌّ لها، فتقاعست أن تقعَ فيها، فقال لها الغلامُ: يا أُمَّهْ، اصبري؛ فإنك على الحقِّ(٤).

---

(١) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٣٣، ٥٥)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص١٢٥، ٢٣٧)، و«مع الله» (ص٨٣، ١٦١، ٢٢٧).

(٢) ينظر: «لسان العرب» (١٣/ ٣١٧)، و«تاج العروس» (٣٥/ ٤٨٩) «ف ت ن»، وما سيأتي في «سورة الذاريات»: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾.

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٨- ٧١٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧٠، ٢٨٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٣٥).

(٤) أخرجه مسلم (٣٠٠٥).

والعدوان على الناس جريمة، فإذا كان العدوان على النساء وبالإحراق، فهو أبشع وأشنع.

وفي قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ إشارة إلى أنهم لو تابوا لتاب الله عليهم، لكنهم لم يتوبوا، وهذا من سعة فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهم قوم أحرقوا المؤمنين والمؤمنات وكفروا بالله، ثم يعرض الله تعالى عليهم التوبة، فلو تابوا بعد ما فعلوا الذي فعلوا، لتاب الله عليهم، كما قال الحسن البصري(١).

وفي هذا فتح لباب التوبة لكل مذنب مهما عظم ذنبه، حتى لزعماء قريش الكفار الذين كان القرآن ينزل عليهم وهم مكذِّبون، وتتعجب أن بعض المؤمنين قد يقع في ذنب ثم يحيط به اليأس حتى يقول: لا يغفر الله لي. وهذا قنوط من رحمة الله، ويأس من رَوْح الله، وقد حذَّر الله منه فقال: ﴿وَلَا تَايْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَايْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

المؤمن العارف بربه، يمدحه باسمه: الرحمن الرحيم، فيتعلم معنى رحمة الله، ولا ييأس من رَوْح الله، ويكرِّر الندم والتوبة، ويتقرَّب إلى ربه كلما أذنب.

ويُؤخذ من سياق الآية أن القاتل له توبة، وقد نُقِلَ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه لا يرى لقاتل العمد توبة(٢).

وهذا مرجوح؛ فإن المشرك إذا تاب تاب الله عليه، والساحر إذا تاب تاب الله عليه، فكذلك القاتل إذا تاب تاب الله عليه، وما نُقِلَ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ربما كان في حادثة عين، فقد رُوي أنه جاءه رجل يسأله: هل لقاتل المؤمن توبة؟ فقال له: «لا؛ إِلَّا النار». فربما غلب على ظن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن هذا الرجل قد همَّ بأن

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٨).

(٢) أخرجه ابن الجعد (٨٢٤)، والبخاري (٣٨٥٥)، ومسلم (٣٠٢٣).

وينظر: «صحيح البخاري» (٤٥٩٠)، و«تفسير الطبري» (٧/ ٣٤٢، ٣٤٥)، (١٧/ ٥٠٨)، و«الدر المنثور» (٤/ ٥٩٤- ٥٩٧، ٦٠٠)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٧٩٩).

يقتل رجلًا ثم يتوب بعد ذلك، فقال له: «لا»؛ حتى يزجره ويردعه عن الفعل(١).

أو مراده أن حقوق العباد لا تُمحى بمجرد التوبة.

أما لو أن إنسانًا قتل وتاب إلى الله، فإن الله يتوب عليه، على الصحيح؛ لقصة الرجل الذي قتل مائة نفس، ثم تاب فمات وهو في طريقه إلى بلد يريد أن يقيم مع الصالحين فيه، فتنازعت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقبضته ملائكة الرحمة(٢).

وهذه التوبة تنفعه في الآخرة، أما أحكام الدنيا فالأصل أن يؤاخذ على جرمه.

﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾: قال بعض المفسرين: إن عذاب الحريق هو النار التي أحرقوا بها المؤمنين، ارتفعت وامتدت حتى أتت على الظالمين.

وهذا ليس ببعيد ولا غريب، ولكنه لا يثبت بالأسانيد الصحيحة، فيبقى الاحتمال الآخر- وهو الأقوى-: أن المعنى مضاعفة العذاب لهم في الدار الآخرة(٣).

والمعذَّبون تتفاوت عقوباتهم في الآخرة، كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، فزادهم الله تعالى عذابًا فوق العذاب؛ لأنهم أضافوا إلى الكفر الصدَّ عن سبيل الله، فالكافر الذي لا يدعو إلى كفره أقلُّ عذابًا من الكافر الداعي، وهكذا أصحاب الأُخدود؛ لم يكتفوا بالكفر والصدِّ عن سبيل الله، بل قاموا بإحراق

---

(١) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٧٧٥٣)، و«الناسخ والمنسوخ» للنحاس (ص٤٣٩)، و«تفسير القرطبي» (٥/ ٣٣٣)، و«نواسخ القرآن» لابن الجوزي (٢/ ٣٨٩)، و«التلخيص الحبير» (٤/ ٣٤٣)، و«الدر المنثور» (٤/ ٦٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٥/ ١٦٥).

ورُوي عنه أنه قال: «ليس لقاتل مؤمن توبة، إلَّا أن يستغفر الله». ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٦١٧)، و«الناسخ والمنسوخ» لأبي عُبيد (٤٩٣)، و«تفسير الطبري» (٧/ ٣٤٧)، و«السنة» للخلال (١٢٣٨)، والمصادر السابقة.

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٣٤٧٠)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٦) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٩٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٣٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٤).

المؤمنين، فناسب أن يضاعف لهم العذاب.

وكأن المعنى: أنهم يشتركون مع عموم الكافرين في جهنم، ولكن يُخَصُّون بمزيد من العذاب من نوع الإحراق الشديد جزاءً وفاقًا.

* **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾**:

بعد ما توعَّد الله الكافرين بالعذاب الأليم، ناسب أن يعطف على ذلك وعده الصادق للمؤمنين.

وأول مَن يدخل في ذلك: المؤمنون الذين أُحْرِقوا في الأُخدود؛ لأنهم صبروا وصابروا؛ ابتغاء وجه ربهم، وفُتِنوا في دينهم غاية الفتنة، حتى عُرضوا على النار وأَبَوْا إلا أن يموتوا على الإيمان، فقد ذهب ألم الإحراق بالنار، وبقي لهم الأجر والثواب والجِنان، مقابل النار التي أُحرِقوا بها في الدنيا.

والفوز الكبير: وصف لم يَرِد في القرآن إلا في هذا الموضع.

ونلحظ أنه قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾، ولم يقل: «تلك» مع أنه سبق ذكر الجنات، إشارةً إلى وجود ما هو أعظم؛ فإن الله تعالى وعدهم الآن بالجنات، وفيها ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولكن النَّعيم المعنوي في الجنة أعظم من النَّعيم الحسي، فرضوان الله الذي يُحِلُّه على المؤمنين، وسماعهم كلامه سبحانه، وتمتعهم برؤية وجهه الكريم؛ أعظم من ألوان النَّعيم الأخرى؛ وكان النبيُّ ﷺ يقول في دعائه: «**أسألُك لذَّةَ النظر إلى وجهك، والشوقَ إلى لقائك**»(١).

والفوز هو: حصول المطلوب وزوال المرهوب.

والذي يعلمه الناس أن المَلِك الظالم أحرق المؤمنين، ففي بادي الرأي أن الحادثة انتهت بهزيمتهم؛ فقد تُسُلِّط عليهم وأُوذوا، واعتُدِيَ عليهم حتى قَضَوْا

(١) أخرجه أحمد (١٨٣٢٥)، والنسائي (٣/ ٥٤- ٥٥)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٢٩- ٣٠)، وابن حبان (١٩٧١)، والطبراني في «الدعاء» (٦٢٥)، والحاكم (١/ ٥٢٤) من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وتقدم في أول «سورة الفاتحة».

نحبَهم.

والحق أن هذه النهاية لم تكن هزيمة، فأرواحهم صعدت إلى الجنة والرضوان، بخلاف أولئك الذين أحرقوهم؛ فإن لهم عذاب جهنم، ولهم عذاب الحريق.

وفي القصة دروس مستفادة، منها:

١- التنفير من العدوان على الناس، واضطهادهم في دينهم، وأن ذلك يستوجب أقسى العقوبات في الآخرة، ويستنزل سخط الرب تبارك وتعالى.

ودين الإسلام الذي بُعث به محمد ﷺ، جاءت شريعته بقوله سبحانه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وبقوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وبقوله: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٩- ١٠].

ولهذا لا يُعلم في التاريخ الإسلامي أن المسلمين أكرهوا الشعوب على الدخول في الإسلام، مع أنهم فتحوا بلدانًا كثيرة وكان لهم الغلبة والقوة والسلطان، فعاش النصارى واليهود، والوثنيون في عموم البلاد على دياناتهم، تُؤخَذ منهم الجزية مقابل حمايتهم والدفاع عنهم، ولا يُكرَهون على الدخول في الإسلام، فهذه شهادة عظيمة[١].

فجاء الإسلام لحماية حرية الفرد في اعتقاده، وعدم السماح باضطهاد الناس أو تعذيبهم.

٢- أن السورة نزلت بمكة، والمسلمون فيها مضطهدون، فمنهم مَن عُذِّب حتى قُتِلَ؛ كما فُعل بسُميَّة أُمِّ عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وبلغ من تعذيبهم أنهم كانوا يقولون للمسلم والجُعَلُ[٢] يمر من عنده: هذا الجُعَلُ إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم؛ لما يتَّقي منهم من الأذى والتعذيب[٣].

---

(١) ينظر: «المدونة» (١/ ٥٢٩)، و«الفتاوى الكبرى» لابن تيمية (٣/ ١١٠).

(٢) دابة تشبه الخنفساء.

(٣) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص١٩٢- ١٩٣)، و«أنساب الأشراف» (١/ ٨٤)، و«أسد الغابة» (٤/ ١٢٢)، و«تاريخ الإسلام» (١/ ٢١٩)، و«رسائل الغرباء» للمؤلِّف (ص١٠٢- ١٠٣).

وبلالٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يُضرَب في حرِّ الرَّمْضاء، ويقول: «أَحَدٌ أَحَدٌ»[١].

وقد تجاوز الطغاة من قريش القيم العربية التي كانوا يفتخرون بها من الكرم والعدل، وحفظ الجوار والإعراض عن الأذية، فتسلَّطوا حتى على النساء، مثلما نجد في قصة سُمَيَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حيث ضربها أبو جهل في موضع العِفَّة منها بحربةٍ فقتلها[٢].

ويُفهم من هذا الفعل الأَرْعَن اللَّئيم إلى جوار الاعتداء على حرية التديُّن، احتقارًا للأنوثة، وكأن لسان حاله يقول: ما احتملنا الخروج عن ديننا من الرجال الذين صفتهم كيت وكيت، فكيف نحتمله منك ومن أمثالك من النساء. ولا زال أهل الجاهلية إلى اليوم يعيِّرون المرأة بأنوثتها، كفرًا بالخالق، وإعراضًا عن فهم حكمته في الخلق.

فجاءت السورة سُلوانًا للمؤمنين، وتهديدًا للكافرين، وضرب الله فيها مثلًا من الأمم السابقة، كما في القصة التي رواها البخاري عن خبَّاب بن الأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّد بُرْدةً له في ظلِّ الكعبة، فقلنا: أَلَا تستنصرُ لنا؟! أَلَا تدعو لنا؟! فقال: «**قد كان مَن قبلَكم، يُؤخذُ الرجلُ، فيُحفرُ له في الأرض، فيُجعلُ فيها، فيجاءُ بالمِنشار، فيُوضعُ على رأسه، فيُجعلُ نصفين، ويُمشَطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصدُّهُ ذلك عن دينِه، والله ليَتِمَّنَّ هذا الأمرُ، حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرَموت، لا يخافُ إِلَّا اللهَ، والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلونَ**»[٣].

---

(١) أخرجه أحمد (٣٨٣٢)، وفي «فضائل الصحابة» (١٩١)، وابن ماجه (١٥٠)، وابن حبان (٧٠٨٣)، والحاكم (٣/ ٢٨٤)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٨١- ٢٨٢) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «طبقات ابن سعد» (٣/ ٢١٣)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٤٧- ٣٤٨).

(٢) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» (١/ ١٩٢)، و«سيرة ابن هشام» (١/ ٣٢٠)، و«أنساب الأشراف» (١/ ١٩٧)، و«الاستيعاب» (٤/ ١٨٦٤- ١٨٦٥)، و«أسد الغابة» (٧/ ١٥٢)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٤٠٩).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٦١٢، ٦٩٤٣).

فهذا نوع من التسلية بضرب المثل، وقد اقتضت سنته سبحانه أن يوجد في البشر مِن ذوي النفوذ والسلطان مَن يفتنون الناس في دينهم، ويهينون كرامتهم؛ إرغامًا لهم على اتِّباعهم والاستسلام لأهدافهم، وكسرًا لإرادتهم في مواجهة الشرِّ والاحتلال والاضطهاد والاستغلال، والشواهد من جرائم المحتلِّين والغاصبين في سائر بلاد الله كثيرة.

ولا يخلو زمان من طُغاة ومجرمين ومتجبِّرين، ليس عندهم عدل ولا ميزان؛ ليمتحن الله إيمان الناس وصبرهم وتوكُّلهم عليه، ويقينهم بوعده سبحانه، وهذا الدرس هو ما تشير إليه هذه السورة.

ومثل ذلك: قول الله سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ [يونس: ٤٦]، يعني: أن الأمر محتمل أن يُرى ما وُعد ﷺ، أو أن يتأخر ذلك عن حياته، ويحدث فيما بعد(١).

وإذا تجاوزنا التسلُّط العام الذي تمارسه جهة ذات قوة ونفوذ، فلا يخلو المؤمن أن يجد مَن يؤذيه، حتى من ذويه، وقد ورد في بعض الآثار: «لو كان المؤمنُ على قَصَبة في البحر، لقيَّضَ اللهُ له مَن يؤذيه»(٢)، وكما قيل:

ولستَ بناجٍ من مَقَالة طاعنٍ ... ولو كنتَ في غارٍ على جبلٍ وَعْرِ
ومن ذا الذي ينجو من الناس سالمًا ... ولو غاب عنهم بين خافِيَتَيْ نَسْرِ(٣)

وقال ابن الوَرْدي(٤):

ليسَ يخلو المرءُ من ضدٍّ وإنْ ... حاولَ العُزْلةَ في رأسِ جَبَلْ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ١٨٨)، و«تفسير الماتريدي» (٦/ ٤٨)، و«تفسير الرازي» (١٧/ ٢٦١)، و«تفسير القرطبي» (٨/ ٣٤٨)، و«فتح القدير» (٢/ ٥١٠- ٥١١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٢٤٢) من قول سلمة بن كُهيل.
وأخرجه ابن المقرئ في «معجمه» (٤٤٣) من قول طَلْق بن حَبيب.
ورُوي نحوه مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «السلسلة الضعيفة» (٤٣٦٠).

(٣) تقدم تخريجه في «سورة عبس»: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾.

(٤) ينظر: «الكشكول» (١/ ٢٣٤)، و«نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن» (ص١٥٦).

وحتى لو كان لا يتعرَّض لأحد، ولا يتعدَّى حدوده، ويتنازل عن بعض حقوقه، فربما تسلَّط عليه جار أو زميل أو رئيس أو مرؤوس أو قريب أو زوج؛ فهذه سنة الله في الحياة، وفي مثل هذه الأحوال من التسلُّط الفردي أو الجماعي تأتي دروس الصبر والعزاء في القرآن الكريم.

٣- وهذه الدروس في الصبر والتسلية، لا ينبغي أن تُفْهَم على غير وجهها، فيفهم منها التشوُّف والتطلُّع إلى افتعال الصراع مع الآخرين بغير سبب ولا مُوجِب.

ولقد تأمَّلتُ طرائق المؤمنين فيما يعرض لهم من تحديات وصعوبات، فوجدتُها تدور حول ثلاث طرائق:

الأولى: هي أسلوب الاعتزال والترك.

وهذا أظهر ما يكون في قصة أصحاب الكهف: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف: ١٦]، وذلك أنهم هربوا من أهليهم وبيوتهم وأُسَرهم، فهداهم الله إلى الكهف، حيث لم يكن لهم قوة ولا قدرة ولا طاقة في مواجهة عدوهم، ولذلك كان الاعتزال هو المناسب لهم؛ ليحفظوا دينهم، فحفظهم الله، وأَثْنى عليهم، فقال: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾(١) [الكهف: ١٣].

وقد يكون الاعتزال في بعض الأحيان هو المناسب للمؤمن فردًا أو جماعة.

والاعتزال إما أن يكون اعتزالًا كليًّا؛ وذلك إذا كان لا يجد إِلَّا شرًّا، أو كان يخشى على نفسه، ولما سأل رجلٌ النبيَّ ﷺ عن أفضل الناس قال: «**رجلٌ يجاهدُ في سبيل الله بماله ونفسه**». قال: ثم مَن؟ قال: «**مؤمنٌ في شِعْبٍ من الشعابِ يعبدُ اللهَ ربَّه، ويَدَعُ الناسَ من شرِّه**»(٢).

فهذا إنسان يخاف على دينه أو يخشى إن داخل الناس وخالطهم أنه ربما غيَّر بطريقة منفِّرة، فأفسد من حيث أراد الإصلاح؛ ولهذا قال: «**يعبدُ اللهَ ربَّه، ويَدَعُ**

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ١٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٠/ ٣٦٢)، و«الدر المنثور» (٩/ ٥٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٤)، ومسلم (١٨٨٨) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الناسَ من شرِّه»؛ فهذه طريقة، ولكنها ليست الطريقة الفاضلة.

وقد يكون الاعتزال جزئيًّا؛ باعتزال أماكن السوء، مع مخالطة الناس ومداخلتهم ومعاشرتهم، حتى لو عاش بين أظهر قوم مشركين أو منافقين، فلا بد له من مخالطتهم، فإنه لا يستغني عنهم في أمور دنياه؛ لكنه يقتصر من المخالطة على القدر الضروري، ويبتعد عن الأماكن التي فيها سبب لفتنته عن دينه، أو إثارة شهوته، أو حمله على المواقف السيئة.

الطريقة الثانية: المواجهة والمصادمة.

والمصادمات تُحدِث الحماس، وتستثير المشاعر والأحاسيس، ويجري فيها التحشيد والتجييش، حيث ينقسم الناس إلى فريقين: كل فريق يتكاتف على وجهته، وربما ترتفع وتيرة التعاطف، لكن العبرة بالنتائج؛ لأن النفس البشرية تستعجل في مثل هذه المواقف، وتندفع بسبب الغَيرة مع حداثة السن، أو ضعف التجربة، ومِن ثَمَّ تخسر أكثر مما تربح، بل قد تكون الخسارة فيها صرفة لا ربح فيها، وقد يتحول الدافع إلى أن يصير دافعًا غير شرعيٍّ، بل هو الانتقام أو الإصرار أو إلحاق الأذى، وإن كان يدري أن المصلحة تجافيه.

فالخوارج مثلًا لما أحدثوا المصادمة داخل المجتمع الإسلامي، كان دافعهم الغَيرة، والشعور بأن ثَمَّ شيئًا مختلًّا يجب تصحيحه، وإعادته إلى الأمر الأول، لكن الواقع يشهد بأن الذي قام به هؤلاء لم يُصْلِح النقص الذي زعموه، بل زاد الطين بِلَّة، وشغل المسلمين عن حركة الفتوح والإصلاح والتغيير، وأسهم في مزيد من التسلُّط والاستبداد السياسي؛ لأن الحكومة عند ما تنشغل بمقاومة تمرُّد داخلي، تجد ذلك عذرًا في تأجيل الإصلاحات وبخس الحقوق.

ومعظم الحركات التي تقوم على المصادمة والمواجهة العسكرية تؤول إلى الخسارة والهزيمة، والحركات التي نجحت في هذا الجانب محدودة، وقد أشار ابن خلدون في «مقدمته» إلى كثيرين يذهبون مأزورين غير مأجورين؛ لضعف فقههم، وقلة بصيرتهم وخبرتهم، وقد يكون عند بعضهم تدين وعاطفة، لكن ليس

عندهم فهم وإدراك ورؤية[1].

وبعض المجموعات أصبحت تأنس بالصراع والمقاومة، وهذا يتجاوب مع شيء في النفس، حتى إننا الآن لو قلنا: إن خطأً وقع؛ لسارع الناس إلى المواجهة والإنكار والمتابعة والتواصي بذلك.

ولو طُلِب منهم فعل خيري إصلاحي ابتدائي، وليس رد فعلٍ، كالقيام بدعوة، أو تنمية، أو إعلام، فلن يكون الحماس بنفس القدر، **فهذا مأخذ تربوي يجب أن يُتَفَطَّن له.**

هل معنى ذلك أن نبطل الصراع؟

لا أحد يستطيع أن يبطل الصراع؛ لأنه سنة ربانية، وحتى لو أبطلته أنت، فلن يبطله خصومك، ونصوص الكتاب والسنة في أخبار الأنبياء مع أممهم، وحوادث التاريخ، ومعاينات الواقع المشهود تثبت وجود الصراع وأنه قدر لا مفر منه.

ولكن ثَمَّ فرق بين إلغاء الصراع أو استبعاده من الحياة بالكلية، وبين أن تتولَّد فكرة تأجيج الصراع أو استعجاله، وفي الحديث: «**يا أيها الناسُ، لا تتمنَّوا لقاءَ العدوِّ، واسألوا اللهَ العافيةَ**». وافتعال الصراع في غير محله وفي غير أوانه ودون استفراغ الوسائل الأخرى، غالبًا يحدُث ممن لا صبر له، ولذلك سرعان ما يفر من الصراع إذا جد الجد، ولذلك قال: «**فإذا لقيتموهم فاصبروا**»[2]. أي: فإذا أصبحت المعركة مفروضة على المسلمين، فعليهم حينئذٍ أن يصبروا وألَّا يفرُّوا، كما قال الشاعر:

فما كلُّ صبَّار على الصَّبرِ يَصْبِرُ

فالأمر يتطلَّب فقهًا وحكمةً؛ ولذلك ينبغي أن نعلم بأن التضحية مطلوبة، لكن

---

(١) ينظر: «مقدمة ابن خلدون» (ص٢٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٦٥، ٢٩٦٦، ٧٢٣٧)، ومسلم» (١٧٤٢) من حديث عبد الله بن أبي أَوْفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وينظر ما تقدم في «سورة الحشر»: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣﴾.

قبلها الحكمة والفهم والفقه، وقبل أن تستخدم يدك، عليك أن تستخدم عقلك.

الطريقة الثالثة: المدافعة، كما سمَّاها الله تعالى، حيث قال: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ**﴾ [البقرة: ٢٥١، الحج: ٤٠].

وتكون المدافعة من خلال دفع قَدَر الشر بالخير، وقَدَر المعصية بالطاعة، وقَدَر الشهوة بالتقوى، وقَدَر الشبهة بالعقل، وقَدَر التفرُّق بالوِحدة، وقَدَر الضلال بالهدى، وبَذْل الممكن والمستطاع في ذلك في مصالح الدين والدنيا.

وقد كان الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يتطلَّعون إلى هذا المعنى، فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يقول لفرعون وقومه: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: ٢١]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧]، أي: خلِّ بيني وبينهم، واتركني وشأني أدعو قومي من بني إسرائيل.

وشعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يقول: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

ومحمد ﷺ كان يقول لقريش: «**يا وَيْحَ قريشٍ! لقد أَكَلَتْهم الحربُ، ماذا عليهم لو خلَّوْا بيني وبين سائرِ الناسِ؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني اللهُ عليهم، دخلوا في الإسلامِ وهم وافرون، وإن لم يفعلوا، قاتلوا وبهم قوةٌ، فماذا تظنُّ قريشٌ! والله إني لا أزالُ أجاهدُهم على الذي بعثني اللهُ له حتى يظهرَه اللهُ له، أو تنفردَ هذه السالفةُ**»(١). ولكنهم أَبَوْا.

وفي «المسند»، و«السنن» عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ أنه قال: «**المؤمن الذي يخالِطُ الناسَ، ويصبرُ على أذاهم، خيرٌ من الذي لا يخالِطُهم، ولا يصبرُ على أذاهم**»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٩١٠)، والبخاري (٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(٢) أخرجه الطيالسي (١٩٨٨)، وأحمد (٥٠٢٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٨)، والترمذي (٢٥٠٧)، وابن ماجه (٤٠٣٢). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٩٣٩).

مخالطة الناس والصبر على أذاهم منهج نبوي، وطريقة سلفية، وما كان من الأنبياء السابقين، كقول موسى وشعيب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فليس منسوخًا في شرعنا، ولكنه باقٍ يُعمل به في نطاقه وفي ظرفه وحالته.

وهذه الطريقة هي أَمَرُّ وأشد الطرق على النفس وأطول تضحية، مع أنه قد يظهر بادئ الرأي أن الثانية أشد وأكثر تضحية.

الطريقة الثانية أكثر إزهاقًا للأرواح، وقد يظن بأنها حل سريع، لكن الطريقة الثالثة أشق وأضمن، وربما خرج الإنسان من حال ليجد نفسه فيما هو أسوأ منها.

وهذه نوازع النفس الإيمانية الغيورة، ولكن ليس بالضرورة أنْ تُؤتي أُكُلَها وتعطي ثمارها، ما لم تكن موزونة بعقل ورأي، وإدراك ومعرفة؛ بأن يعرف الإنسان أين يضع نفسه، وأين يضحِّي بها، ومتى يُقْدِم، ومتى يُحْجِم.

فالطريقة الثالثة أصعب وأشق على النفس؛ لأنها تتطلَّب صبرًا طويلًا وجميلًا، وطول نفس، كما أمر الله نبيَّه محمدًا ﷺ، ولأن الإنسان يلقى الابتلاء حتى من بعض الأخيار، الذين لا يدركون هذه المعاني، ويكونون في عجلة من أمرهم، ويعيِّرون مَن لا يقرُّهم على خطئهم بالنكوص والتراجع والجُبن، أو بالتواطؤ مع الخصوم، أو بالضلال والجهالة، وربما يكون هدفًا سهلًا لهم، خاصةً مع ضعف التقوى وقلة العقل عند شباب مندفع في مقتبل عمره، وهو في حالة يأس من الحياة وتشبُّع بأفكار ومفاهيم يرى العالم من خلالها، ويراها مقدَّسة لا يفكر بتغييرها والمساس بها!

يحتاج الأمر إلى هَدْي النبي ﷺ وحكمته وبصيرته، والتأسِّي به في الصبر والمصابرة، حيث ينزل الدعاة إلى الميدان، ويخالطون المجتمع، ويصبرون على الأذى، ويُصْلِحون بقدر المستطاع، دون حرق للمراحل، ولا إطلاق للنزعات الفردية.

وضمن ما كتب الأستاذ سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه على هذه السورة في كتابه: «معالم في الطريق»، أو «في ظلال القرآن»؛ أجده اتَّكأ على هذا المعنى

اتكاءً كبيرًا، حتى إنه قال: «هذا هو الطريق»(١).

فصار بعض الشباب يستعجل المحنة ويتطلَّع إليها، وصار هذا يحمله على العزلة وترك مخالطة الناس، والتربُّص والانتظار، وعدم القدرة على مراجعة التجارب وتصحيحها مهما كانت نتائجها.. على اعتبار أن البلاء سُنة إلهية.

وحين يسمع شاب عن الابتلاء، لا يقع في نفسه إلَّا تسلُّط الحاكم والسجون والمعتقلات وتعليق بعضهم على أعواد المشانق، أما الابتلاء من داخل النفس بضياع البوصلة وتخبُّط الطريق، أو من الأتباع بالتعصُّب والتحالف على غير الحق، وازدراء المخالفين، وتطلب شهوات الحياة بالمخالفة والتصدر، أو الخطأ في الاجتهاد حتى مع خلوص النية؛ فهذا ما يعزب عن الكثيرين التفكير فيه ضمن مفهوم «الابتلاء»!

* ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾:

البطش في الأصل هو: الأخذ؛ ولذلك يقول النبيُّ ﷺ فيما يروي عن ربِّه: «**فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يُبصرُ به، ويدَه التي يبطشُ بها**»(٢). يعني: يأخذ بها، ويعطي، وقال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

وقد يُطلَق على الأخذ بقوة وشدة(٣)، كما تقول: بطش فلان ببني فلان. أي: ضربهم أو قتلهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾(٤) [الشعراء: ١٣٠].

وقد تتبَّعت المواضع التي فيها لفظ «البطش» في القرآن الكريم، فوجدتها

---

(١) ينظر: «معالم في الطريق» (ص١٧٣- ١٨٦)، و«في ظلال القرآن» (٦/ ٣٨٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٩٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٣٨)، و«تفسير الرازي» (٢٧/ ٦٥٨)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٦٧).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٦١٣)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٩/ ٢٧٩٥)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ١٢٤)، و«الدر المنثور» (١١/ ٢٨٢).

تتعلق بالأخذ في الحياة الدنيا، **إلا في مواضع ثلاثةٍ فيها اختلاف**:

١- هذا الموضع، فإنه محتمِل لأن يكون بطش الله بهم في الدنيا بالعقوبات كالزلازل، أو العذاب الذي ينزل من السماء، أو الغرق، ويُحتمَل بطش الآخرة بالنَّكال والنار(١).

٢- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦]، **فالأقرب** أن البطشة الكبرى في الدنيا، وأنها غزوة بدر أو غيرها مما توعَّد الله به الكافرين في الدنيا من العذاب، **وقيل**: المقصود عذاب الآخرة(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾ [القمر: ٣٦]، وهو قد أنذرهم عذاب الدنيا وعذاب الآخرة(٣).

وقال: ﴿بَطْشَ رَبِّكَ﴾؛ لأن السورة مكية، والسياق إيماء لما يفعله كفار قريش وزعماؤهم، ممن يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، ويؤذون النبيَّ ﷺ بشتى صور الاضطهاد والإيذاء، فكان التذكير بأن البطش بطش ربك أنسب وأولى؛ لما يحمله من الرحمة والرعاية والتدبير، فهو الذي يحميك وينصرك.

فالآية جمعت معنيين: معنى الرحمة في لفظ: ﴿رَبِّكَ﴾ المأخوذة من نسبة الرب إليه، و﴿بَطْشَ﴾ المتضمن العذاب والغلظة على الأعداء.

وفي الآية ربط بين قصة أصحاب الأُخدود، وبين ما يفعله طغاة قريش بالمؤمنين من الأذى والتعذيب.

وفيها الوعد للنبي ﷺ والمؤمنين بأن ينصرهم الله ويحفظهم، وفيها وعيد

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٣٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٧٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٤٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ١٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ١٠١)، و«الكشاف» (٤/ ٢٧٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٩٠)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ١٣٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٢٥/ ٢٨٧).

(٣) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢١/ ١١٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢١٩)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٣١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٤٤).

للمشركين بالانتقام.

فهي من معجزات النبي ﷺ؛ لأنها يوم نزلت كان المؤمنون قلة، وكان للمشركين سلطة في مكة وجزيرة العرب، فما هي إلا سُنيَّات حتى تبدَّل الحال، وفتح الله تعالى على المسلمين؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ [القصص: ٨٥]، ودانت مكة وجزيرة العرب للإسلام.

والآية الكريمة تُوحي بأن على المؤمن مواكبة الظروف والمتغيرات، وأن الله جعل من سنته في الحياة أن يتناوب فيها القوة والضعف، والشدة واللِّين، والغنى والفقر، والتمكين والاستضعاف، والقلة والكثرة، والقبول والرد، حتى إن النبي ﷺ قال: «**عُرِضت عليَّ الأممُ، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرُّهَيْطُ، والنبيَّ ومعه الرجلُ والرجلان، والنبيَّ ليس معه أحدٌ**»(١).

ولكل حال عبودية، على أن تعايش المؤمن مع الظروف لا يعني الاستسلام، بل التدرُّج، ومراعاة المصالح والمفاسد، والصبر.

ليس ثَمَّ ضمانة للمؤمن أن يحصل على التمكين والقوة، ولا أن يدوم له ذلك لو حصل، فلا يجوز أن يكون عمله مرهونًا بظرف خاص؛ لأن هذا شأن غير المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج: ١١].

كان الشيخ البشير الإبراهيمي يقول لقادة الاستعمار: سوف ندعو إلى الله في المساجد، فإن حرمتمونا فسندعو في المدارس، فإن حرمتمونا فسندعو في الأسواق، فإن حرمتمونا فسندعو في البيوت، وإن سجنتمونا، فسندعو في السجون.

هذه الروح العالية لا يمكن أن توجد إلَّا إذا تربَّى المسلم على منهج رباني نبوي، أما مَن تشبَّعت نفسه بالتطلُّع لأن يكون لشخصه أو لجماعته غَلَبَةٌ وتمكين، فقد يرى القيام بالدعوة في الظروف الصعبة مضيعةَ وقت.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٥، ٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الدعوة منهج الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وبعض الأنبياء لم يُبْعَثوا أصلًا إلَّا بها، وبعض الأنبياء بُعِثوا بها وبالقوة، كما في قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾، وحتى الحديد ليس بشرٍّ محض أو قسوة، بل ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

* ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣﴾:

والبدء والإعادة جاءت في القرآن تعبيرًا عن الخَلْق، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧]، أي: يحيي ويميت، ثم يحيي مرة أخرى، فهو يبدأ الخلق أول مرة، ثم يميتهم، ثم يحييهم ويعيد إليهم الحياة(١).

وفي الآية معنى آخر ذكره ابن عطية وغيره عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهو أنه يُبدئ ويُعيد كل شيء مما هو قابل لهذا وذاك(٢).

وهذا المعنى أجود وأليق بالسياق؛ لتعلقه بمداولة الأيام بين الناس، كما قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فإذا كانت هذه القصة شهدت معاناة المؤمنين فالله تعالى يبدئ ويعيد.

فتشمل أنه يحيي الموتى، ويثيبهم بما عملوا، وتشمل أن يعيد شأن المؤمنين فينصرهم، وهو إن لم ينصرهم في أشخاصهم، فإنه ينصر مبدأهم ودينهم الذي ضحُّوا من أجله، ولهذا نقول: إن بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعتبر انتصارًا لكل الأنبياء ولكل المضطهدين؛ لأنه جاء بتجديد الدين وبالشريعة الخاتمة وبالعقيدة الصافية الواضحة، فهي تجديد لملة إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من أنبياء الله ورسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٣٧٩)، و«تفسير الطبري» (١٢/ ١١٥- ١١٦)، (٢٤/ ٢٨٢)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٩٢٦، ١٩٥١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٦)، و«الدر المنثور» (٧/ ٦٣٠)، (١١/ ٥٩٦)، (١٥/ ٣٤٣).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٦٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٢)، و «البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٤٥- ٤٤٦)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٧٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٠١).

ومن معاني ﴿يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾: أن الحياة لا تعرف الاستقرار، وإنما هي دُول تنتقل، فالمُستضعَفون يمكّن الله لهم في الأرض، كما قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾(1) [القصص: ٥-٦].

والعبرة أَلَّا يغترَّ الإنسان بتمكين أو غنى، أو سلطان أو مكانة في الدنيا؛ لأن الدنيا متقلِّبة، ولا يركن إلى يأس أو قنوط أو عجز؛ لأن الفُرص تأتي للجادِّين الصادقين الذين يُحسنون كيف يستثمرونها وينتفعون بها.

ومما يؤكِّد شمول معنى الإبداء والإعادة لكل ذلك: أنه تعالى لم يذكر متعلّق الفعل هنا، كما ذكره في آية الخلق: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧]؛ ليُفهم منه العموم، أي: يُبدئ كلَّ شيء، ويعيد كلَّ شيء، مما هو صالح للبدء والإعادة.

وعليه، فالآية تؤكِّد على الأمل والطمع فيما عند الله، وسنة الله في تقليب الأيام ومداولتها بين الناس(2).

* ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾:

مأخوذ من الغَفْر، وهو: السِّتر والتغطية، ويُطلَق على معنى محو الذنوب وعدم المؤاخذة بها، فإذا قيل: غفر الله له، **فالمعنى**: سامحه عن الذنب الذي وقع فيه، وهو صيغة مبالغة، أي: كثير المغفرة(3).

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (٦/ ٨٢- ٨٤)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ٧٧٢- ٧٧٣)، و«الدر المنثور» (٤/ ٣٩- ٤٠).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٤٧٠)، و«معاني القرآن» للنحاس (١/ ٤٨٢)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٧٢٠)، و«تهذيب اللغة» (٨/ ١١٢)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٦٠٩)، و«مشارق الأنوار» (٢/ ١٣٨)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١/ ٣٥٦)، و«بصائر ذوي التمييز» (٤/ ١٣٦).

فهو يغفر للعبد إذا تاب وأناب كل الذنوب بدون استثناء، حتى القتل والشرك، فلو تابوا لغفر لهم.

فهذا اسم عظيم، على المؤمن أن يستحضره، حتى لا يغلبه اليأس والقنوط من رحمة الله، فالله يبسط يده بالليل؛ ليتوب مُسيءُ النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مُسيءُ الليل(١)، فلا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا عيب أن يستره.

وما من أحد إلَّا وله ذنوب معلَنة أو خفيَّة، كثيرة أو قليلة، معلومة أو مجهولة، وهو تعالى لا تخفى عليه خافية، فسدِّد نقصك بكثرة الاستغفار على الذنوب التي فعلتَ أو الطاعات التي قصَّرتَ؛ ولهذا كان رسولُ الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفرَ ثلاثًا(٢).

وإذا كانت الآية التي قبلها- وهي آية البطش- تتوجَّه للمشركين بالتهديد والوعيد، فهذه الآية تتوجَّه للمؤمنين بالوعد الطيب.

ومن مغفرته سبحانه أن يغفر للمؤمنين خطاياهم وتقصيرهم، وما كانوا عليه قبل الإيمان(٣).

وذكر مع المغفرة صفة أخرى، وهي الوُد، و﴿ٱلْوَدُودُ﴾ صيغة مبالغة معناها: كثير الحُبِّ للمؤمنين، **فالوُدُّ**: المحبة الصافية الخالصة، وبعض الناس يمكن أن يسامحك ظاهرًا، لكن لا يصفِّي قلبه مما يجد عليك من تقصيرك في حقِّه أو خطئك عليه، خصوصًا إذا كان الخطأ كبيرًا.

فالله يمحو الذنب ويسمح ويصفح ويعفو، وأيضًا: يودُّك ويحبك، وترجع مكانتك عنده مثلما كانت أو أفضل، وهذا فضل عظيم.

ومما تدعو إليه الفطرة: محبة الناس لربهم؛ إذ كيف لا يحبونه وهو خالقهم

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) كما في «صحيح مسلم» (٥٩١) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾، يعني: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل أن تُحَوَّل القبلة. وينظر ما سيأتي في «سورة العصر»: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾.

ورازقهم ومحييهم ومميتهم ومولاهم، وكل نعمة في الناس فمن الله، فالسمع والبصر والفؤاد والنفس، والأكل والشرب، والمال والأهل والولد، والدنيا والصحة والعافية، والجمال من الله، فكيف لا تحب الذي أنعم عليك وأعطاك وهداك!

والعجيب أن يحبك ربك سبحانه، وأنت خَلْقٌ من خلقه ضعيف، مُعَرَّض للأخطاء والذنوب والمعاصي والغفلة، وهو مع ذلك يحب عباده المؤمنين، ويحب التَّوابين ويحب المتطهِّرين، ويحب المحسنين(١).

فتخيَّل إن كان الله يحبك، باسمك وشخصك، وهو الإله العظيم الذي لا يستطيع البشر أن يقدروا قدره، فلا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام، ولا تحيط به العقول.

والله تعالى يُعبَد بالحب والخوف والرجاء، لكن أهمُّ ما يُعْبَد به الحب، والخوف ينتهي في الجنة؛ قال تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩]، وكذلك الرجاء؛ لأن كل شيء موجود، ويبقى الحب؛ فهو مما تُعُبِّدوا به في الدنيا، ويتنعَّموا به في الآخرة، وهو بمثابة الرأس للطائر، والخوف والرجاء بمثابة الجناحين، وفي قطع الرأس موت للطائر بخلاف الجناحين، وإذا انقطع الحب انقطعت معه العبودية والإيمان، فالمؤمن الموفَّق يعبد الله تعالى بالحب والخوف والرجاء، ومقام الحب عنده أعظم(٢).

إنه درس للدعاة؛ أن يرفقوا بالعصاة ويفتحوا لهم أبواب التوبة، ويرغِّبوهم

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٣)، و«تفسير السمرقندي» (١٢/ ٨١٨٦)، و«التوحيد» لابن منده (٢/ ١٩٦)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٧٤٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٠١)، و«التحرير والتنوير» (١٢/ ١٤٨)، (٣٠/ ٢٤٩).

وينظر أيضًا: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٥٢)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص١٥٢)، و«مع الله» (ص٢٠٣).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الحشر»: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾، و«سورة الإنسان» ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾.

فيها، ويحصِّنوهم من القنوط، فإنه لا يزيدهم إِلَّا عنادًا وإصرارًا على خطئهم.

وينبغي أن يكون الداعية أبعد الناس عن الانتقام والتشفِّي والنكاية بالمخالف والعاصي، وأن يتسامى عن نوازع الانتصار للنفس، ولا شك أن الرفق والترغيب والحكمة والموعظة الحسنة أدعى للتجرُّد عن النوازع الشخصية النفسية المذمومة.

* ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾:

والعرش يُطلَق في أصل اللغة على كرسيِّ الملك، وجاء في القرآن في حق ربنا سبحانه في سبعة مواضع مقرونًا بالاستواء، وهو مخلوق غيبـي، لا يُعْلَمُ كيفيته ولا كيفية استوائه عليه إِلَّا هو سبحانه؛ ولهذا لما سأل رجلٌ الإمامَ مالكًا: كيف استوى؟ قال: «الاستواء غير مجهول». أي: معنى الاستواء في اللغة معروف، وهو العلو مثلًا، ثم قال: «والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[١].

وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فقد أغلق هذا الباب، وهو باب تقحُّم العقل البشري في الغيبيَّات وما يترتب على ذلك من ضياع الجهود في معارك وصراعات حول أمور لا تنفع ولا تزيد معرفة الله، ولا المحبة له، ولا الزُلفى إليه، ولا تفيد في النجاح والفوز الدنيوي وتحقيق التقدم والتنمية، وإنما تستنزف الجهود والعقول فيما لا طائل تحته.

والآثار الواردة في صفة العرش غالبها لا يصحُّ، وإنما يكفينا ما ورد في القرآن.

وربما تخيَّل المؤمن شيئًا، وكل ما تخيَّله أو خطر بباله، فالله ليس كذلك؛ ولن يصل خياله ووهمه إلى الحقيقة؛ لأنه لا يحيط الخلق بعلمه، ولا يدركون حقيقته

---

(١) ينظر: «الرد على الجهمية» (١٠٤)، و«طبقات المحدثين بأصبهان» (٢/ ٢١٤)، و«معجم ابن المقرئ» (١٠٠٣)، و«شرح أصول الاعتقاد» للَّالَكائي (٦٦٤)، و«حلية الأولياء» (٦/ ٣٢٦)، و«الأسماء والصفات» (٨٦٧)، و«الاعتقاد» للبيهقي (ص١١٦)، و«ترتيب المدارك» (٢/ ٣٩)، و«تذكرة الحفاظ» للذهبي (١/ ١٥٥)، و«سير أعلام النبلاء» (٨/ ١٠٠)، و«مع الأئمة» (ص١١١- ١١٢).

ولا حقيقة أسمائه وصفاته.

وإذا كان الله تعالى يقول عن الجنة: «**أعددتُ لعبادي الصالحينَ ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ**»[١]. فالخيال لا يدرك النَّعيم، وهو مما يتلذَّذ به الناس، فكيف بربنا تبارك وتعالى!

والذين يستنكرون هذه المعاني إنما استنكروها؛ لأنهم تخيَّلوها وقارنوها وشبَّهوها بالمحسوسات والمألوفات، فترتَّب على ذلك أنهم نزَّهوا الله تعالى عن أن يُشَبَّه بخلقه، ولذلك كان السلف يقولون: «أَمِرُّوها كما جاءت». **والمعنى**: اقرؤوها وآمنوا بها، دون أن تدخلوا في إشكالات وتخيُّلات تولِّد من الشكوك أكثر مما تصنع من الإيمان.

والآية متضمِّنة القوة والحُكم والملك المطلق، وفي هذا السياق تعريض بالذين يَدَّعون شيئًا من السلطان والمُلك كذي نُواس، فلن ينفعهم ملكهم ولا سلطانهم؛ لأنه عارض ومؤقَّت، والملك الحقيقي والسلطان التامُّ إنما هو لله سبحانه.

و﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ فيه قراءتان، فعلى القراءة بالخفض تكون صفةً للعرش، وهي قراءة الكوفيين، وأكثر القراء يقرؤونها بالرفع[٢]، وعليه تكون صفةً لله تعالى؛ لأنه هو ذو العرش، أي: مالك العرش وخالقه، وهو الذي له المجد والكمال، والعظمة والسؤدد[٣].

* ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾:

صيغة مبالغة تدل على كثرة مفعولاته؛ أي: كثرة الأشياء التي يفعلها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٤)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٧٨)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٢١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٩)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٢٦٩- ٢٧٠).

(٣) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٦٧)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٩٣)، و«حجة القراءات» (ص٧٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٠٢).

وفي ذلك تشابه مع قوله: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾[1] [الرحمن: ٢٩].

من شأنه أن يعزَّ أقوامًا ويذلَّ آخرين، ويرفع ويخفض، ويقبض ويبسط، ويحيي ويميت، ويغني ويفقر، ويهدي ويضل، أي: فلا تستغرقك اللحظة الحاضرة، واعلم أن الله تعالى كل يوم هو في شأن[2].

وفي الآية أسرار لطيفة، فهي أثبتت لله الإرادة، وهي أسبق من الفعل؛ لأنه إذا أراد شيئًا فَعَلَه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وأثبتت له الفعل، وهو الخلق.

فلله تعالى إرادة وله قدرة، وبذلك يتحقَّق الفعل، ولا يكون هذا إلا للخالق، أما المخلوق فإرادته لا تستدعي الفعل وتحقيق المراد مباشرة، وليس كل ما أراده المخلوق قدر عليه، إِلَّا أن يشاء الله، وكثيرًا ما توجد العوائق والموانع التي تحول دون تحقيق ما يريد العبد.

في حين أن لربنا كمال الإرادة وكمال القدرة، والإرادة الواردة في هذه الآية هي إرادة التكوين، وهي إرادة الخلق والفعل.

أما الإرادة في مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] فهي الإرادة الشرعية، بمعنى: محبة الله لذلك الأمر، لكن لا يلزم أن يتحقق مدلوله، فالله تعالى أراد من الخلق أن يؤمنوا، ولهذا بعث إليهم الرسل وأنزل الكتب، لكن ليس كل الخلق حقَّقوا الإرادة، والمحبة الإلهية.

وهو تعالى لا معقِّب لحكمه؛ ولا ممانع، ولا يحتاج إلى مُعين، بخلاف

---

(١) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٤٦٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٧)، (٢٢/ ٢١٢)، و«فتح القدير» (٣/ ١٥٠)، و«التحرير والتنوير» (١٤/ ٢٨-٢٩)، (٣٠/ ٢٣٨)، وما تقدم في «سورة الرحمن».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ١١٩)، (٢٢/ ٢١٢- ٢١٣)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٣٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٦٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٥)، و«فتح القدير» (٣/ ١٧٤)، و«التحرير والتنوير» (١/ ١٣٥)، و«تفسير السعدي» (ص٧٢٢).

الخلق.

فهذه السياقات في وصف الله مناسبة لقصة أصحاب الأُخدود، ومناسبة لحال المؤمنين بمكة، وهي متناسبة فيما بينها[(١)].

* ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾:

كأن هذا السياق تفصيل للبطش الشديد، فذكر فرعون وثمود مثال لبطش الله تعالى بأعدائه.

وهو مثال البدء والإعادة، فهم قوم جرى عليهم الرفع والخفض.

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قرأ هذه الآية، ثم قال: «**نعم قد جاءني**»[(٢)]. ومثل ذلك: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النازعات: ١٥]، وهي واردة في صيغة سؤال، لكنها في الواقع توكيد، **والمعنى**: قد أتاك[(٣)].

والمقصود بالحديث: الخبر، وسمَّاهم جنودًا باعتبار المجموع، وإِلَّا فإن فرعون لم يكن إِلَّا فردًا له حكم وسلطان على قومه وجنده.

ومن المعاني في توصيفهم بالجنود: أنه تعالى يشير إلى أن ظهورهم وعلوهم لم يكن بحق؛ ولا لأنهم أصحاب علم وحضارة، وإنما بسبب القوة العسكرية البحتة، والجند والحرس والجيوش المدجَّجة، كما هو شأن الطغاة الخائفين من انتفاضة الناس عليهم.

ويتكرَّر المشهد نفسه عند ما ننظر إلى ممارسات الحكومات الفاسدة

---

(١) ينظر: «الموسوعة القرآنية- خصائص السور» (١١/ ١٧١).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم- كما في «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٢)- عن عمرو بن ميمون مرسلًا.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٥)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ٣٩٥)، (٦/ ٢٥٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٤٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٧)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٠٣)، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾، و«سورة النازعات»، وما سيأتي في «سورة الغاشية».

الباغية، ونرى الفضائح التي تتكرر في العراق وأفغانستان، والسجون الخفيَّة والممارسات المنحرفة، والاغتصابات التي تظهر في وسائل الإعلام العالمي، وتدل على الاستخفاف بحقوق الإنسان.

وأما ما يتعلق بالقوانين والنظم والدساتير، فكأنها حِكْرٌ على الأقوياء وحدهم، فالكلام عن حقوق الإنسان يوظف للاستغلال السياسي، أو الضغط على دولة من الدول، وإذا تحسَّنت العلاقات السياسية معها سكت الحديث!

أما قضية الضمير والعدل والنموذج الأخلاقي والمعاني الإنسانية التي جاءت بها الديانات السماوية كلها، واتفق عليها الأنبياء؛ فهي من المعاني التي يتبجَّح كثيرون بها، وهم أبعد ما يكونون عنها.

وفرعون يشبه ذا نُواس الذي جاء السياق في ذكره، **وثمود**: اسم جَدِّ القبيلة، ويُطلَق على القبيلة كلها(١).

وذكرهم يناسب أهل مكة؛ لأنهم كانوا يسكنون الحِجْر، وهو إلى الشمال من مكة في ديار العرب، وأخبارهم كانت معروفة، ويوجد في جنوب الجزيرة العربية في عُمان مكان يقولون إنه موطئ الناقة.

وهذا مُستغرَب، بل مُستنكر، إذ كيف ذهبت الناقة إلى جنوب الجزيرة العربية، في حين أن ثمود كانت في أقصى الشمال!

* ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾﴾:

تقدم في «سورة الانشقاق»: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾﴾، والتعبير بالتكذيب أقوى؛ وكأن التكذيبَ وعاءٌ محيطٌ بهم، من فوقَهم ومن تحت أرجلهم، فهم يكذِّبون بكل شيء، ولا يصدِّقون بشيء، ولهذا عقَّب بقوله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾، فالتكذيب محيط بهم، والله تعالى محيط بهم وبتكذيبهم، فلا يفوتونه(٢).

---

(١) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص١٧٦)، و«لسان العرب» (٣/ ١٠٥)، و«الكليات» للكفوي (ص٣٣٠) «ث م د».

(٢) ينظر: «روح البيان» (١٠/ ٣٨٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٥٢).

فيا أيها الظالم الجبَّار، عش ما شئتَ، واهرب إلى ما شئتَ، فأينما ذهبتَ فربك لك بالمرصاد، محيط بك في المكان الذي لا بد لك من عبوره وسلوكه، فلا مهرب منه ولا مفر.

و﴿بَلْ﴾ للإضراب، وتستخدم للانتقال من معنى إلى معنى[١].

* ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾:

﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب الذي هو بمعنى الرفض للمعنى الأول وإثبات نقيضه؛ أي: رفض تكذيبهم وإثبات الحق، وكأنه يقول: كيف يكذِّب به المجرمون، وهو قرآن مجيد محفوظ صادق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[٢].

فتكذيبهم ناشئ عن سوء ظنهم بالقرآن الكريم، وسوء ظنهم بالنبي المختار ﷺ، وسوء ظنهم بمَن أرسله ومَن أنزل عليه هذا الكتاب.

وفيه تبشيع للفعل، فهم لا يكذِّبون بأساطير أو أحاديث محتملة، بل يكذِّبون ربهم الخلَّاق الفعَّال لما يريد، الغفور الودود، وهذا الذي يكذِّبونه ﴿قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾.

والقرآن كلام الله الذي أنزله على نبيه ﷺ، وهو ما بين دفتي المصحف، المبدوء بـ«الفاتحة»، المختوم بـ«الناس».

ولفظة «القرآن» مأخوذة من: قرأ يقرأ قراءة وقرآنًا، فهو اسم للمقروء[٣]، الذي يكون مكتوبًا في ورقة ونحوها ويُقْرَأ، أو يكون محفوظًا فيُقْرَأ.

وهي مثل «قربان» لما يُتَقَرَّب به، ومثل «شكران» لما يُشْكَر به؛ ثم أصبح عَلَمًا على كتاب الله تعالى، وسُمِّي قرآنًا؛ لكثرة ما يُقرَأ ويُتلى.

وهنا ذكره مُنكَّرًا، والتنكير يأتي للتعظيم، كما هنا، ولهذا وصفه بقوله: ﴿مَّجِيدٌ﴾؛ لأنه من إله مجيد، أي: كامل عظيم كريم.

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾، و«سورة القيامة»: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾﴾، و«سورة الإنشقاق»: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير القاسمي» (٩/ ٤٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٥٢)، وما تقدم في الآية قبلها.

(٣) ينظر: «النهاية» (٤/ ٣٠)، و«تاج العروس» (١/ ٣٧١).

* ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾:

وقد جرت عادة العرب أن يُطلَق اللوح على المصنوع من الخشب، لكن اللوح المذكور هنا غير مصنوع من خشب؛ لأن الله سبحانه قال في الآية الأخرى: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٨- ٧٩]، فعُلِمَ أن اللوح كتاب، فيه مقادير الخلائق كلها، وفيه ما أنزل الله سبحانه، وفيه الأحكام والشرائع وكل شيء.

وورد وصف اللَّوح المحفوظ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه من ياقوتة ودُرَّة، ولا يصحُّ[1]، ويكفينا الوقوف عند ما ذكر الله من أنه من المخلوقات ذات المجد والقدسية والعظمة، **ومعنى كونه محفوظًا:**

١- أنه محفوظ من الزيادة والنقص، كما في قوله: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فصلت: ٤٢].

٢- أنه محفوظ من أن يطَّلع عليه أحد، إلَّا مَن شاء الله، من الملائكة أو المقرَّبين، ولهذا قال: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٨- ٧٩]، وأحد الأوجه في تفسيرها أنهم الملائكة[2]، كما في قوله: ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: ١٥- ١٦].

ويُطلق عليه: الذكر، وهو من الألفاظ المشتركة بينه وبين القرآن، وبين ذكر الله وتسبيحه.

فاللوح المحفوظ هو الكتاب المكنون، وهو محفوظ لا يطَّلع عليه أحد، إلَّا بإذن الله، ولا يُزاد عليه، ولا يُنْقَص منه، إلَّا بإذن الله، كما قال سبحانه: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]، فكأن أم الكتاب هي اللوح المحفوظ[3].

(١) أخرجه البغوي في «تفسيره» (٨/ ٣٨٩)، وسنده ضعيف جدًّا.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٦٣)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٢٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٢٥).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٠٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٨)، وما تقدم في «سورة الواقعة».

و﴿مَّحْفُوظِۭ﴾ صفة للوح، وهذا قول الجمهور، وهو مقتضى قراءة الخفض، وفي قراءة: ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظٌۢ﴾ برفع «محفوظ»، وتكون صفة للقرآن، فكأنه قال: بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح[1]. والله أعلم.

❍ ❍ ❍

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٦)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٧٨)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٦٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٩)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٣٧٣).

فِهرس المحتويات

سورة الجن ٥

سورة المزمل ٤١

سورة المدثر ٧٧

سورة القيامة ١١٧

سورة الإنسان ١٤٧

سورة المرسلات ١٨١

سورة النبأ ٢١٥

سورة النازعات ٢٦٥

سورة عبس ٢٩٣

سورة التكوير ٣٢٧

سورة الانفطار ٣٤٧

سورة المطففين ٣٦٥

سورة الانشقاق ٤٠٥

سورة البروج ٤٢٧

فهرس المحتويات ٤٦٣